الأعمال الكاملة

بدر الدّيب

الروايات



المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

بدر الديب

الأعمال الكاملة

الروايات



٢٠١٠

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الديب ، بدر

بدر الديب ، الأعمال الكاملة .. الروايات ...

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ط ١ ، مج٣ ، ٢٠١٠

٥٤٠ ص ، ٢٤ سم

١ - بدر الديب - المؤلفات الكاملة

(أ) العنوان ٩٢٨,١

رقم الإيداع ١١٢٩٤/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-704-126-3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 Fax : 27358084.
www.scc.gov.eg

- إجازة تفرغ
- أوراق زمردة أيوب
- إعادة حكاية حاسب كريم الدين وملكة الحيات

إجازة تفرغ

- ١ -

كان البيت الذى اتخذه قريبًا من ملاحات الإسكندرية عند المكس. وهناك تنساب الألوان في الأرض كأنها عروق في جواهر. فهي تمتد وتتعمق وتنعكس وتتشتت وتمتزج، لكنها دائمًا موجودة حية نابضة. تعرف نفسها في الصبح وتمرح وتجن في الظهيرة وتكاد ترتخي وتحلم في العصر استعدادًا للغروب، وفي الغروب تجن من جديد قبل أن تهدأ وتذوب في الظلمة إلى يوم الغد. كانت هذه الحياة على الأرض شيئًا لا يعرفه إلا من يسلم نفسه له. فإذا مر المار من هناك قد تلمسه لحظة من لحظات هذه الحياة، لكنه لن يستطيع أن يعرفها أو أن يدرك جوانبها كلها حتى يعيش هناك. وقد يشعر المار أنه أمسك بها ولكنها تفر منه كما تفر الأرانب أو كما تنطلق الطيور في السماء لايستطيع أن يمسك بها أحد. فهل كانت الأرض تحميها من العابرين المارين وكان فيها ما يدعوه وحده لأن يبقى.

لكنه لم يكن وحيدًا، كانت هناك بيوت متناثرة هنا وهناك فيها ناس قد ألفوا الظاهرة واللون حتى أصبحت جزءًا من عيونهم ولباسهم وما يرسمونه على بيوتهم من خطوط وأشكال. كانوا موجودين في صمت إلا لعب عيالهم وبناتهم وهم يكبرون، أما هم، الكبار، فكانوا طوال اليوم على مبعدة يعملون في البحر أو في الملاحات. ويستقر الفنان هناك على غير مبعدة من البحر وعلى مسيرة خطوات لا تتعدى المشوار القصير من الملاحات، ويتخذ بيته هناك.

لم يكن القرار بسيطًا أو جزئيًا. كان عليه أن يترك عمله في القاهرة وأن يترك صلاته بالمجلات والصحف التي تعطيه الكثير من المال عن لوحاته القليلة أو على مجرد وجوده فيها. وكانت علاقاته كثيرة مستقرة مع الكتاب والنقاد والشعراء والمتفننين وبقية الفنانين من نحاتين ومصورين ومزخرفين. كانوا كثرة وكأنما هم قبيلة يحاولون أن يحتفظوا بعضهم بالبعض الآخر مخافة أن يهرب وكأنما سيقلل هروبه من شأنهم. لكنه قرر المغادرة

والترك ولم يعتبر أبداً أنه يهرب. كان يحس أن عليه أن يفعل ذلك ببساطة ويسر. فالقرار لم يكن بسيطا ولكنه لم يكن موضعًا للنقاش أو التردد. فى لحظات تصل الروح إلى مثل هذه المنعطفات وتفعل. تفعل فى بساطة ويسر. واتخذ بيته هناك.

كان اتخاذ البيت يعنى بيعًا لما يملك وسحبًا لما له من مال فى البنك وتجميعًا لما عنده من أثاث وأوراق وكتب وما عمل قبل ذلك من تماثيل ولوحات. وكان اتخاذ البيت يعنى كلمات قصيرة حاسمة مع بقايا الأهل والأصدقاء والمقتحمين على الحياة والمتصورين أنهم يفهمون أو أنهم يعرفون الأصح. وكان اتخاذ البيت يعنى تخففًا من كل شىء آخر غيره، وكأنما هو يتعرى أو يتوضأ ليصلى. لكنه لم يكن يتوجه إلا إلى نفسه ولم يكن ينتظر إلا ما هو بداخله.

إنه لا يذكر ما فعله عندما اتخذ القطار من القاهرة إلى الإسكندرية ولا ما فعله حتى وصل إلى المكس وإلى تلك البقعة التى صعدت فى روحه من ذكرى مرور قديم قد أصبح دعوة مقررة محددة. ولكنه لا يعرف من أين أتت الدعوة وهل جاءت من ألوان الأرض أم من فسحة السماء وطعم البحر الشائع بين الأرض والسماء.

كل ما يعرفه أنها كانت دعوة محددة مقررة وأن كل ما كان عليه أن يفعله هو بالضبط ما كان عليه أن يفعله. وكانت الأفعال كثيرة ومتعددة ومتنوعة وخبيئة ولكنها كلها نافذة وقصيرة وقاطعة وكأنها ضربات إزميل فى الحجر.

وكان للبحر فى كل ليلة آخر النهار قدرة خاصة على أن يجعل كل ما حدث خلال النهار مجرد شىء عابر لا قيمة كبيرة له إلا فى أنه حدث. مجرد موجة أخرى عليها أن تتوالى وأن تتعاقب وأن يعلوها الزبد الذى يسقط عليه النور من النجوم أو القمر إذا ظهر أو ظلال عبور البشر بملابسهم ومشاعرهم وومضات النور فى عيونهم. عندما ينتهى اليوم

ويقف عند البحر كانت تتحدد أعمال اليوم المقبل كما تنمحى أعمال اليوم الذى عبر وانتهى. هل هناك سلم قائم باستمرار يوصل بين الأرض والبحر تهبط عليه الأفعال بهدوء وبطء حتى تغرق فى الماء وتتجدد. لم يكن يدرى أن هذا السلم موجود حتى وجد أنه من الضرورى أن يقيمه وأن يضيفه إلى البيت الذى وجده واختاره. لكنه تبين أنه كلما هبط الدرجات الغليظة المصنوعة من حجر غير متساوٍ أو منتظم واقترب بذلك من البحر فكأنما هناك شىء يحدث فى بدنه نفسه. فهو يحس أنه قد أصبح أكثر قصراً وأن رأسه وكتفيه يمسهما شىء من العرض المتدرج مع الهبوط وكأنما يمتدان ليمسكا برشاش الموج أو يمتدان ليقوما بوظائف أخرى وسط فسحة الليل والبحر. ويقف هناك طويلا وبدنه من رأسه حتى قدميه يزداد قربًا من تلك البقعة الضيقة من الحجر المغسول بالماء التى يقف عليها. شيئًا فشيئًا يحس أنه يتضاءل وأن رأسه وكتفيه وكأنها كتلة حجرية ضخمة تريد أن تتشكل من جديد وأن هذا البدن قد صار أعجز من أن يحملها. ماذا لو أصبح فقط رأسًا وامتداداً لكتفين وأنه بلا بدن يضغط بهذا الثقل على الشاطئ ويستقبل إلى الأبد ضربات الموج وقدومه المتوالى الذى لا ينتهى. إن الناس البشر يقفون على أقدامهم ويمشون لأنهم ينسون البحر.

وهكذا بدأ عمله الأول منذ وصل إلى المنطقة واستقر فى البيت. كان يريد بهذه الكتلة التى وضعها على البحر عند نهاية السلم أن تكون بلا زمن تمامًا وأن تكون وكأنها خرجت من البحر لتراه فقط. وفى هذه اللحظة، لحظة الرؤية التى لا تنتهى يبقيها وكأنها لم تخرج ولم تكن قبل ذلك. كان هذا المطلب الصعب العسير هو ما يريد من عمله ولم يكن يعرف كيف يجعله أيسر أو أسهل أو كيف يطمئن إلى أن ما يريده قد تحقق. لم يكن يعمل فى زمن. كان يعمل فى الصباح والظهر والمساء وأحيانًا يظل إلى جانب كتلته حتى يطلع الصباح دون أن يعمل شيئًا وهو يعايش هذا التضاؤل والاستعراض الذى يحدث فى بدنه.

لم تكن هناك عيون فى الكتلة لترى أو لتتحرك أو لتنتقل، لكنها كانت ترى بلا تجزؤ أو تلاحق. وكان الأنف قد استطال دون أن يبرز وكأنما هو ينقل الرائحة المالحة والرطوبة إلى داخل البدن المجزوء. أما الكتفان فقد أخذا شيئًا من صرامة الموج وهى تنتهى وتستقر وكأنهما قد وصلا لتوهما إلى الشاطئ. كان لديه فى النهاية، معيار غريب يقيس به مدى ما حققه مما يريد. وهو أن يرفع التمثال من على المنضدة التى يعمل عليها وأن يقربه من الأرض فإذا أرغمه على أن يجلس إلى جانبه وهو صامت إلى جانب البحر فقد انتهى، أما إذا أحس أنه يريد أن يقف من جديد فمعنى هذا أن أمامه أيامًا أخرى من العمل.

ومرت الأيام وانتهى العمل وجلس إلى جانبه ذات مساء ولم يتحرك حتى انهار البدن وتغير تغيراً من نوع آخر. بدأت هذه الليلة بالغروب وكأن الغروب لا يحدث كل يوم. فقد تنفست، أو هكذا أحس، كتلته الموضوعة على البحر وأحس كأنها استراحت وأنها تتمدد من الداخل إلى الخارج وكأنها لا تريد أن يصبح لها حدود خارجية وعندما بدأت الشمس تسقط وتتحرك نحو سطح البحر البعيد كانت الكتلة الرأس والكتفان تنظر إليها وكأنها أسيانة لما هى فيه من فشل. إن الشمس يمر عليها الزمن وكل ما تفعله للتغلب عليه أن تتغير. أما الكتلة فباقية لا تغرب. ومستها الشمس بخيوط مجموعة فى أشرطة حمراء وقرمزية، وكانت الشمس كأنما تضربها أو تتحسسها من بعيد وثبتت الكتلة للحركة الطارئة وكل ما فعلته أنها تنفست من جديد فى نفس حركتها الثابتة: تقصر وتعرض. ولم يتكلم هو، لكن راح ينظر وهو جالس. وتقاصرت أشرطة الشمس وانحسرت عن كتلته وراحت تلف نفسها هى بمباهج الغروب المصنوعة وكأنها تقرر أن لها زمنًا رغمًا منه ورغم كل ما يريد، لكن وقوعه على الأرض أمام البحر ووجود الكتلة بجانبه لم يجعل حفيظته تستثار، بل نظر باستخفاف واستهانة إلى الغروب وكأنه ينظر إلى فساتين ملونة لامرأة فى حى شعبى. حلى وألوان فاقعة وحركة تستثير وتجذب، وتصور خاطئ أن الحركة يجب أن

تكون دعوة، لكنه لم يلبِّ، بل خطر فى باله هذا الكوم المتراكم من إهمال الأيام فى غرفته الواسعة بالمنزل. الملابس المتسخة التى خلعها، فانلات وكالسونات وخرق ممزقة وبقايا أرغفة وبعض حبات الطماطم وقشر خيار وخيارات لم تقشر وأكثر من علبة طعام محفوظ مفتوحة وغير مفتوحة والمفتوحة بها العود الحديدى الذى يفتحها معقوصًا بما لوى من صفيح وجانب هذا كله فردة حذاء وشبشب. وأحس أنه لو استجاب للغروب فإنه سيعود للرسم ويترك النحت الذى يحس أنه بدنه ووجوده وإلغاء هذا الوجود. إنه دائمًا المستحيل الذى يرتفع إليه البشر وهو يحس أنه يريد أن يرتفع لا إلى أعلى لكن إلى أسفل إلى جوار البحر وإلى جوار كتلته.

ومضى الغروب. إنه كما يقولون فى الإذاعة «يوم جديد» ويضعون أسماءهم عليه. مقدمو البرنامج يتصورون أنهم يصنعونه، وكل الناس يتصورون أنهم يصنعون الأيام وهم لا يصنعون إلا أنهم يعبرون.

لكن كتلته فى غبشة أول الليل تنفست من جديد. قبل أن يحيطها الظلام تحركت نفس الحركة الدائبة الثابتة. إنها لا تنطق ولا تعبر عن ألم أو راحة لكنها تستجمع أبعادها وتتحرك فيها. فهل هذه حركة؟ إنها الحركة التى جعلته يجلس ولا يتحرك، إنها حركة الاكتمال الذى حققه والمستحيل الذى عرفه. ما أعلى طبول الليل. لماذا لا يسمع الناس كل هذه الطبول التى يدقها الليل عندما يحضر. إنه يصم الآذان ويرتفع شيئًا فشيئًا صوته حتى يصبح ظلمة قاهرة. ألا يصنعون السحر هكذا. طبول تصم الآذان حتى تحدث الحركة الخفية. إنها أيضا لعبة. وعندما ينظر إلى كتلته يعرف ذلك.

مد الليل يده إليها. فإذا بها، كما أراد، تشع من الكتف الأيمن، كما أراد، بهذا التجويف الخفيف والحركة الداخلة، شيئًا من النور الأبيض لا ترد به على الليل لكن تنفيه. وكأنما لتقول هذا، تنفست من جديد، مجرد تنفست. إن كتلته لا تدافع عن نفسها لكنها توجد ولا يستطيع الزمن أن يقتنصها.

فكر فى لحظة أن يمد يده إليها، وتمنى لو أن هناك يداً أخرى تحاول ذلك فيده لا تستطيع. إنه يعرف الملمس وأنواع الانحناءات ودرجاتها قبل أن يلمس، لأنه عند كل تغيير ثابت كاد يجلس على الأرض بجانب كتلته. وكل هذه الفرحات المكبوتة تجعله لا يستطيع أن يمد يده. إنه أقدر على أن يمد يده لليل وأن يزيح ستور الظلمة مستهينا، وأن ينتظر بياض الموج القادم أو ومضة النجم وما يمسكه البحر من نوره.

إن هذا كله ممكن لكن أن يمس كتلته..! الحياة تتدحرج كإنسان نازل على الدرج المصنوع لكن ليس هناك من يريد أن يجلس معه على البحر.

عندما ظهرت النجوم تراءى له أن كتلته ترى. كان لها أكثر من عين، بل هو يحس أن كلها عيون حتى فى الكتف الأيسر وفى حركة الموج التى تصنع بقية البدن. لماذا توجد مثل هذه الكتل فى الطبيعة، وهل حسبت الطبيعة حساب الفنان، إنه يعرف أن هذه الكتلة إذا كانت تنتمى إليه، فإنها تجعله شيئًا آخر أقوى من الغروب ومن الليل ومن النجم أو النجوم العالية. ليس أقوى لكنه مغاير.

إن ضعفه كبير مثل البحر، لكن قبل أن يستحيل ضعفًا ما هذه المغالطة وهذا التسابق مع الزمن. لقد علمته المقالات الصحفية معنى «الكون الواسع» لكنه لم يعرف فى داخله إلا اتساع «مستحيله». إنه يحدث وهذا هو بجواره.

فليصمت، فليصمت لأن هناك نوعًا آخر من الغروب والليل يقدم عليه. إنه غروب فى البدن وليل فى القدرة. الذى يحدث أنه أولاً، يرجع فى روحه إلى الرسم، ثم إلى الكومة من المتروكات المهملات المنسيات، كل تلك الأشياء التى رفض أن يحركها أو تكاسل عن أن يفعل ذلك. وهناك تلك اليد التى كان يريدها غير يده لتلمس كتلته. هل كان لها أو فى قدرتها أن تحرك كل هذا الذى تركه خلفه. ليس الليل هو الذى يهبط على

الإنسان لكنه الليل الذى يهبط بداخله. ليل لا تنقع فيه نجوم ولا يحركه ثبج ولا تضيئه ملوحة ولا ترخيه طراوة. إنها قبضة العودة والاستسلام لحفر المراقد والطلب من الزمن أن يرفع قبضته عنه. وعند ذاك تصمت كتلته حتى لا تتنفس، ويتمنى، أقصى ما يتمنى-أن يرسم فى الحلم.

* * *

تحرك على السلم يصعد الدرجات واحدة وراء أخرى راجيًا أن يجمع نفسه ليعدل عن الصعود وينزل عائداً من حيث جاء. كان الأسانسير موجوداً وكان من الممكن أن يصل إلى الدور السابع فى أقل من الوقت الذى يسمح له بتغيير رأيه لكنه كان كمن يتمتع بأنه يصعد وهو يريد أن ينزل.

لقد كان يعرف بوضوح ماذا يصعد إليه. حفلة هلامية متعددة الرءوس يتحرك فيها الرجال والنساء وكأنهم ذباب كبير قد سقط فى طبق من الوحل أو العسل الفاسد. إن فى الداخل الآن عشرة أو خمسة عشر رجلاً وامرأة فى هذه الشقة من الدور السابع من هذه العمارة التى بناها عربى ثرى فى القاهرة لتطل على النيل وعلى أجمل مناظر القاهرة وليفخر بذلك وليدعها تغذى تجارته وحوانيته الأخرى بمكان يهديه أو يمنعه عمن يساعدونه أو يلتفون حوله. باسعيد العبد اللطيف، وليست هذه عمارته الوحيدة لكنها العمارة التى يسكنها رئيس التحرير فى المجلة التى يعمل بها والذى دعاه كما يفعل دائمًا فى كل الحفلات التى يقيمها فى المناسبات المختلفة. ظهور كتاب له، رأس السنة أو عيد ميلاد زوجته أو أعياد أخرى لبعض الأصدقاء والعاملين معه الذين يهتم بأن يغمرهم باهتمام بيته أو زوجته بهم. وفى هذه الليلة كانت الحفلة لعيد ميلاد زوجته وهو احتفال هام تحرص فيه الجموع الملتفة حوله أن تتحاضر لتقدم له الولاء والمساندة أو المجاملة لتلك

العايقة البضة التي تزوجها هذا الرئيس للتحرير في تجربة لم يستطع إلى الآن أن يفهمها أو أن يدرك أسبابها إلا أن يراها جزءاً من طبيعة الناس الملتفين حوله ومن محاولاتهم الجاهدة لإخراج أرجلهم من الطين أو العسل الفاسد والطيران بأجنحة خاصة بهم.

إنه لا يملك إلا أن يخطب وأن يعمم وهو يصعد إلى مكان يريد ألا يصعد إليه، لكنه يحوى مجموعة هي أشهر أو خير ما في القاهرة من كتاب ورسامين ونقاد ومنظّرين سياسيين وأوساط مختلفة بين هذا وذاك يطلبون قدراً من المال والشهرة والوضع الاجتماعي من خلال التجمع في مجموعة يسمونها أحياناً تياراً فكرياً من باب الجرأة والتعسف الذي لا يخشى أن يرده أو أن يفضحه أحد.

هل كانت هذه الظاهرة التي سيواجهها عندما يدخل ظاهرة معروفة عند الأمم؟ هل كان لها تاريخ وماضٍ أم أنها خاصة بالقاهرة في هذا العصر؟ وما هي هذه الأرض التي جعلتها تتولد وتنمو؟ فهو لايظن أن الشقة التي سيصعد إليها هي الشقة الوحيدة التي تحمل مثل هذا المجموع من الناتج الوطني من العقول والنفوس والتجارب والأخلاق. بل إنهم قد يتميزون درجة عن غيرهم من المتواجدين في الشقق الأخرى بأنهم يلتفون حول هذا الرجل الذي يحمل له قدراً من الحب والتقدير. لكن الحب والتقدير في هذه الأيام عملة مصرورة في خرق من شاش وكأنها مجرد حجارة يخفيها صاحبها ويكذب بها على الآخرين ليقول إنه غني وإنه يصر شيئاً. وهناك من حوله الكثيرون الذين يفضلون اعتباره غنياً عن أن يفضوا الصرة وأن يعرفوا حقيقة ما فيها.

ما أقل ما في جيبه من أوراق مالية وهو يصعد إلى قوم يعرفون قيمة هذه الأوراق ويؤمنون إيماناً مطلقاً بحقهم في أن تعطى لهم. إنهم ليسوا للأسف شرفاء، فهم ليسوا تجاراً أو لصوصاً أو مهربين، لكنهم جميعاً يبيعون للدولة الفكر والثقافة والفن ويتصورون

أنهم لذلك أصحاب حق فيما تملكه الدولة من مال وفيما توزعه من مراكز أو سلطات على من يخدمونها. أليست هذه هى الثقافة والفكر والفن فى مصر؟

هناك فى هذه الغرف المضاءة المزدحمة بالمقاعد والطعام والشراب ودخان السجائر مجموعة يتصفحها بعينيه ويكاد يشمها بأنفه ويمسكها بيده. على وحسن وحسنين ومحمود ومصطفى وماهر ونسيم وإشكنازى. كل منهم كأنه تمساح صغير تربت حراشيف جسده وراح ينزلق هنا وهناك ليكبر ولتقوى هذه الحراشيف. وأحيانًا يخرج الواحد منهم من بدنه أنواعًا من الهرمونات أو السموم ويصبح له لون خاص يصرخ بإعلانه ويتباهى بإصراره عليه. وعلى جوارهم، على مسافات متفاوتة من القرب والبعد، مسافات يمكن أن تحسبها بقدر ما بينهم من منافع ورغبات وبقدر ما تحاوله النساء لرجالهن أو لأنفسهن، تناثرت النساء على درجات من الأناقة والعطر والملل والعرق واضطراب الأمعاء والأثداء والأقدام. هناك عبلة وسلوى ونور وهناك جنات وما شاء الله وصفية، وشذى ورشا السوريتان، وقد تكون هناك واحدة أو اثنتان من أديبات العالم العربى اللاتى يهبطن القاهرة لقضاء شهر العسل أو لتسويق كتاب واستكتاب المقالات عنه.

منذ أن أممت الثورة الثقافة وصنعت المجلس الأعلى وأجهزة الوزارة فى الثقافة والإعلام، وهذه الأصناف من الناس تتكاثر وتقوى حراشيف التماسيح على ظهورهم. إنهم يتحركون فى مستنقع آسن مخضوضر فيه ظلال ودسامة الركود، لا يجهد كل منهم إلا لكى يتخذ ركنا أو مكانًا يمارس فيه شيئًا من السلطة ويستطيع فيه أن يرفع صوته. إنهم يتحدثون عن الثقافة وعن الفكر ويقرنونها بالوحدة العربية تارة وبالاشتراكية العلمية مرة أخرى وبالثقافة الجماهيرية مرة ثالثة، وبمستقبل العالم والإمبريالية ودول العالم الثالث والثورة المضادة. لم يعد فى كل هذا من الجهد أو المعنى إلا أن يكون لكل منهم حق فى

شيء منه وليس هذا الشيء تحقيقًا أو إنجازًا أو استكشافًا أو فكرة، لكنه أساسًا كتاب صغير في سلسلة أو كتابين، ومقالة هناك أو مقالة فى صدر جريدة لكن المهم القدرة على حضور المؤتمرات وتنظيمها وإلقاء الخطب فيها وتصوير الانتصارات التى تتحقق فى صياغة التوصيات والحصول على الموافقة بإقرارها. لا أحد منهم يذكر أن كل ما يفعله هو للسلطة وأنه لم يكن ليقدر عليه لولا سماحها ورغبتها. إن هذه الحقيقة الساذجة الواضحة كانت ترفض تمامًا وتنسى كلية ويرغمون أنفسهم على وهم العمل والجد والاعتراف فى لحظات الصدق مع النفس. إنهم يسعون لمنصب جديد أعلى أو لسلطة أكبر لأن هذا هو المشاركة فى الفعل والتغيير وهما المحك الحقيقى للثقافة والفكر.

لماذا يقسو عليهم هكذا؟ أليس فيهم من يحمل همًا حقًا ومن يفكر ومن يريد أن ينتج لأنه يفرح بهذا ولأنه يريد أن يحتمل وطأة الصدق وألم الخيبة ونصوع الحقيقة. لا، إنه لايقسو. فهو يكاد يسمعهم:

ـ مش معقول يا أخى يعينوا عبد الظاهر فى اللجنة المركزية.

ـ وسافرنا يا عم وقضينا أسبوع فى برلين إنما إيه!

ـ ده أصله انتهازى بصحيح ورجعى ما فيش فايده منه.

ـ ما هو مش ممكن يتأخر طبع الكتاب كل دة. أصله أنا والله ما كنت عايز أخذ الوظيفة دية.. دية مصيبة يا أخى ومفيش أدوات أبدًا.

ـ بقولك إيه.. التحليل بتاع امبارح دة كان عظيم صحيح.

ـ يا أخى القصيدة دى ما كانش حقها تتنشر.. يعنى إيه تمساح.. وبر إيه وبحر إيه.. مش نبطل التلقيح دة.

ـ كان جرىء قوى .

ـ تعيين الناس دية أعمال تخريبية مالهاش ضابط.

ـ حد عارف إيه اللى بيجرى...

إن معظم هذه الأحاديث كانت تتوقف عندما يدخل أو عندما يقترب من أصحابها. كانوا يحاولون أن يغيروا الحديث وأن يتكلموا عن قضايا الفن والفكر والثقافة لأنه لا منصب له ولأنهم يعاملونه بلا خطر وكأنه كرة أو طفل صغير يتفرجون عليه ويهللون لما يخرج من فمه أحيانًا من جد أو من أحكام. كان يعرف هذا كله ويعرف أن الجهد الذى يبذلونه أمامه ومعه على هذا النحو التهريجى هو كل ما يبذلون من جهد فى التفكير أو محاولة الفهم. وما أكثر ما كانوا يجترون ما يقولونه له أو يسمعونه منه فيما يكتبون بعد ذلك من مقالات أو كتب أو تحاليل سياسية.

أنت مغرور جدًا ومنقطع عن الناس ومبتوت الصلة بالجماهير وكل أحكامك عليهم هى نتيجة عجز عن الدخول إلى الواقع. أنت تريد أن تحيا مستريحًا تنحت وترسم وتقرأ وتحب فى الخفاء. نعم كل هذا صحيح ومع ذلك لا أريد أن أصعد ولا أريد أن أسمع كل هذه الأحاديث أو أن أراها تتشكل حولى أو أسمعهم يتمضغون بمعانى الفورم والمضمون وطاقات الجماهير وحرية الفرد وشرف الكلمة وديمقراطية الثقافة وحركة التاريخ، كما يمضغون اللبان أو كما يستمنون.

كان قد بلغ الدور الرابع عندما تذكر عطر النساء المتضارب الذى بدأ يختفى مع رائحة الدخان والعرق ولم يعد يفح إلا من مواد المكياج وكانت أحاديث النساء تتكرر فى أذنه كما هى دائمًا:

ـ يجنن.. القماش دة من برة طبعًا..

ـ بقى لنا أد إيه.. مشفنكوش.. إيه يعنى تقل؟

ـ .. والله.. والله العظيم.. أنا ما قلت له حاجة.. ولا جبت له سيرة.

ـ اعملي معروف خليه يسفَّرنا سوا..

ـ يعني هي اللي صغيرة..

ـ علي لسه ما كتبش عن الراوية ليه يا صفية

ـ عملنا ديك.. وكبة نية.. ومحشي..

ـ دة شرب شرب وقال كلام..

وعندما يدخل ويتحول الكلام مباشرة إلى إنجازاتهم ينصرف كله إلى ما يفعلونه لتثقيف الجماهير. كأن معنى أنهم يقدمون شيئًا للجماهير وأنهم يقصدونهم أساسا بكل ما يعملون أو يقولون هو المعنى السائد والقيمة العليا. كانت روحه تتقبض في داخله غضبًا واستهجانًا وهو يسمعهم يرددون له كيف أصبح الناس البسطاء والفلاحون قادرين على أن يتحدثوا عن الوحدة العربية وعن دور إسرائيل الاستعماري وعن التخطيط، وكيف أنهم شاهدوا أفلامًا عرضت في «كان» وأنهم استمعوا إلى برودين وقاموا بعد ذلك برقصات شعبية من البلد نفسه. كانوا يتحدثون وكأنهم قد أرسلوا تيارًا من الكهرباء في أجساد هؤلاء البسطاء وأنهم أصبحوا يتحركون ويلعبون تمامًا كما هو متوقع. وما أبشع ما كانوا يقولونه عن الفلكلور وما يصنعونه بالمواويل وحكايات ألف ليلة وليلة. كانوا وكأنهم موكولون بإفساد كل شيء واللعب في كل عروق وخلايا الناس حتى لا تبقى ذرة من أجسامهم لم تتشبع. وعندما يعودون من القرى أو المراكز ومن احتفالات المحافظين يكتبون التقارير، بعضها سري وبعضها إحصائي وبعضها يستحيل إلى مقالات تفلسف الحركة وتضع المبادئ وكلها إصرار على الاشتراكية وعلى ثقافة المستقبل التي ستغمر البلد كما يغمرها نور السد.

أليس هذا هو مـا يريدون أن يقنعوه بـه، أن الناس قادرون على تذوق كل مـعنى وأن المعانى التى لا تتذوقها الجماهير هى المعانى الرجعية الفاسدة وأنه ما دام معهم، ما دام لا يعارضهم، ما دام لا يحمل منصبا فهو لا يخرج إلا مثل هذه المعانى حتى وإن لم تتذوقها الجـماهيـر. إنهم قـادرون على أن يحـتفلوا هم بهـا وأن يصـوروا الناس وكـأنهم عرفـوها وتذوقوها حتى وإن صنعوا لذلك مانشتات وملأوا الجرائد بصور أعماله.

إنهم يكرمونه ويحاولون أن يعطوه مـا يكفيه ويمدحونه أمام نفـسه، لكنه يعرف أنهم لا يرون ولايسمـعون ولا يفهـمون إلا مـا يحتـاجون إليـه فقط وما يمـكن أن يكون زينة أو تجديداً فى ألفاظهم ومعانيهم.

هذا مستحـيل يا أخى، ولا يمكن التعامل معك. فماذا تـريد؟ أن يتركونى وحدى أن يستيقظوا لما يفعلون، أن يعرفوا أن الناس تفهم ولا تفهم بمفردها وأن التعليم شىء والثقافة والفكر شىء آخـر. إذا كـان الناس مـا زالوا فى حاجـة إلى محـو أميـة فـإن أفلام «كـان» وموسـيقى خاتشـودريان لا يمكن أن تجعلهم يقرؤون. لماذا لا يفـهمون أن التـراث كالنيل يمكن أن تروى الأرض به، لكن لايمـكن أن تجعله أنهـاراً أخـرى مهـما فـعلت. قـد تعلم الناس أن يرقصـوا كالقـرود فإذا سحـبت الطبلة والمـوزة عادوا إلى لعبهم الخاص الذى لا تستطيع أن تمسك به أو تتحكم فيه.

وفى المنحنى إلى الدور السادس سقط فى نفسه الخوف والإحساس بعدم القدرة على المواجهـة رغم كل هذه القسوة والاتهامـات. إنهم متماسكون مـبررون لأنفسهم يـمضون اليوم وراء اليـوم وقد نظموا حيـاتهم وأثثوا بيوتهم واشـتروا عرباتهم ولأكثـرهم شقق فى الإسكندرية وكلهـم مؤلفـون ولهم أعـمـال وأسطر مكتـوبة عن حـيـاتهم وإنجـازاتهم فى النشرات والمؤلفات الأجنبية وأعمـال المؤتمرات. أما أنت.. أنت مطرود. صدقك المستحيل

هراء. وهمك العميق وهم، وحياتك المنعزلة جنون، وتوحدك خوف وعجز. إنهم مستقرون كما هم، صورتهم ثابتة لأنفسهم وآلامهم العارضة وعجزهم المؤقت يغرقونه فى الشرب والحديث، فإذا تعبوا غنوا معًا آخر أغانى عبدالحليم حافظ

ـ يا مالكًا قلبى..

وفى آخر الليل عندما تتعب أجسادهم يسمعون فيروز..

ـ حبيتك فى الصيف.. حبيتك...

لا تصعد.. لا تصعد.

وعندما وضع يديه فى جيوبه ووقف وكأنما يستمع عاوده هذا الشجن الغريب الذى يعرفه من نفسه كلما صار بمفرده تمامًا وكلما كان عليه أن يفعل وحده ما عليه أن يفعله دون مبرر أو تفسير.

لم يكن هذا هبوطًا للدرج لكنه كان توغلاً فى بئر ينزل فيها وكأنه ينزلق بلا مقاومة ولا حمل ولا جهد فى التخلص من كل شىء.

سار والشارع كله مقبل عليه. الشارع المليء بالمحلات التى ما زالت مغلقة كأنه حى متحرك بما له من أزمنة أخرى. غير أنه.. لكنه.. هو الآن. الرطوبة تتخلل البالطو كأنها عرق وبرودة الصباح اللزجة وقطرات المطر المتساقطة مختلطة مع الندى، والشبورة الخفيفة تزيد التصاق الجورب بقدميه وتشعره بثقل الحذاء، ورأسه وأذناه تقطع الهواء البارد كأنما يسير بهما مجذفًا بذراعيه وبالحقيبة الصغيرة المبللة فى يده اليمنى. الآن الجوع يصنع فى داخله فراغًا كخواء الشارع يدفعه على التقدم فى نفسه وزيادة الاقتراب.. منها! هل الخطو أيضًا مصنوع، مثل التعبير، من كلمات تتلاحق على فجوات، وأفكار متناثرة، لا تتجمع إلا بالوجود. كل حديث.. كل حوار.. لا فلنصمت.

التوجـه للإفطار هو المحطة التى يريدها بعد وصـوله للإسكندرية. والسير من سـيدى جابر إلى مـعطم للفول والطعمـية وبخار التنفس وأى نوع من أنواع النار حـتى ولو كانت بريموس ومقعد بعد مقعد النوم فى القطار، محطة وصول، محطة بدء.

لماذا. لا تحدث معه الأشـياء كما تحدث مع الآخرين مصـنوعـة تمامًا مكتمـلة الظـاهر لا باطن لها. إن كل ما يحدث مبهم غامض إلا بما ينتهزه هو فيدفع نفسه فيه وإلا فإنه يدعه يسقط ويمر لأنه فـشل. نعم، كل ما يحدث حتى الجـوع والجنس. إنهما يقعان مـعًا فى بئر واحـدة فى النفـس وإن كـان قد استـطاع أن يجـعل الحب بالجـسـد حـجمًـا فى الحجر أو مسطحات وخطوطًا ملونة. أما الجـوع إنه ما زال خطوات، خطوات فى الطريق الخالى، بعده يمتلئ.

على فترات مـرت العربات والتاكسـيات كلها فى اتجاه واحـد هو عكس اتجاهه. هى كلها تصعد لأحياء الإسكندرية المتعاقبة وهو يهبط إلى الميدان، إلى المطعم، أى مطعم، ماذا سيكون؟ المفـتوح، الأقرب، الأول. أى نـقطة بدء صالحة، تنفع، كل المهـم أن تنقضى. لماذا يقولون يريـد المرء أن يقضى حاجـته وكأنهـا بطبيـعتهـا زمن ماض إذا كان الانـقضاء نفـيًا للحـاجة فلماذا لا نـبحث عنه هو. الموت. انقـضاء الحاجـة. عندما ينـتهى أيضًا مـن عمل وتقف قطعة الحجر كما رآها أو أرادها يحس بانقضاء الحاجة، براحة الروح فى الموت الذى يصنعه. إنه يعـرف الموت تمامًا، يعيشـه حتى لو فرض عليه. وهل يفـرض أبدًا. عندما تأتى هذه اللحظة الأخيرة سيـقول له، إنه يعرف هذه الراحة لكن أين العمل. الموت لعبـة حقيرة على الفنان. مرة أخرى يخطب لأنه محتاج. ابتسم وأسرع الخطو.

الشارع الطويل المبلل الخالى لاينتهى وكأنه مجرد هواء بارد يبتلعه ولا يملأ فى داخله شيئًا. إنه يريد ما وراءه. يريد هذه النهاية القريبـة، لكنه يريد أن يبدأ هذه الحياة التى يتوقعها

فى الإسكندرية والتى لايعرف من تفاصيلها إلا أنها ستكون عملاً، عملاً متصلاً لا ينقطع. أعمال، أعمال تنتهى، لوحات وتماثيل، لوحات وتماثيل، وتماثيل وتماثيل.. وأحيانًا لوحات.. لوحات.. عمل.. عمل فقط لايعرف موضوعه، لكن يعرف قيامه فى نفسه وتحققه فى خارجه. إنه لايعرف، إنه يتوقع وكل ما فى داخله، حتى هذا الجوع، يتوقع. ليس هناك نهاية للفن. النهاية فقط للواقع.

عندما وصل إلى مطعم «الصباح» كان قد ترك الشارع المستقيم ودار قليلا وراء الميدان الذى انتهى إليه ووجده فى أول حارة صغيرة متفرعة من الميدان. إنه قريب جدًا وواضح، لكنه كان مختفيًا طول الطريق الذى كان يقطعه. لقد انجذب إليه أو وصل إليه دون أن يدرى تمامًا ودون بصر. أما الآن فها هو كله فى بصره وها هو يراه كما يرى الأشياء كلها متشكلة متجمعة فى وحدات. الأناسى والكراسى والحيطان والأدوات وحركة البشر وسط كل هذا. المطعم وكأنه مقسوم إلى قسمين ليس فيهما فواصل أو ارتفاعات، لكنهما كأنهما على مستويين يأتى أحدهما أعلى من الآخر. مناضد الشارع مزدحمة متقاربة وكأنها تتلاطم بأقدامها لتمسك بقطع من الأرض. لايتجاوز عددها ستًا ومع ذلك تصنع زحمة بمن يجلس إليها من الناس بأصواتهم وأرديتهم المختلفة ووجوههم التى تتحرك أفواهها بسرعة لتلاحق الأيدى التى تصعد وتهبط وكأنها أذرعة آلات. وأطباق الصاج الملون كثيرة ضيقة متشابهة اللون والزخرفة تهبط من يد الرجل الذى يحمل صينية خشب كبيرة يحملها عليها ويوزعها متساقطة أمام الآكلين، لها لون واحد بنى وأصفر دون أن يمتزج اللونان. الزيت فى الأعلى يشع هذا النور واللون الأصفر، والفول كتلة واحدة متجاورة الحبات فى الوسط. وعلى مسافات تكاد تكون متساوية بين الأطباق المفردة أطباق أخرى مشتركة تبدو واضحة بحجم الطعمية فيها.. كُتل من الهشاشة والدفء المعجون فى اللون

وأشكال من الطرشى الذى يغلب عليه اللفت المحمر والفلفل الطويل الداكن الخضرة. إلى جوارها أرغفة العيش متجمعة متساقطة تسحبها الأيدى وهى تغمس أصابعها فى الأوانى الزجاجية للملح والشطة لتضعها على الفول. وعلى كل المكان تعلو رطوبة الجو وأنفاس البشر فوق المناضد فتضيف جواً أو هالة من العجلة والأهمية لايعرف كيف يعطى لهما لونا. هل يجلس هنا معهم أم يدخل إلى الداخل فى القسم الثانى من المطعم؟ هناك فى الداخل قدر أكبر من الظلمة والفراغ والسعة وكأنما الذين يجلسون بالداخل هم من يملكون الوقت ومن ليس بهم عجلة. الأفراد بالداخل أقل والمناضد يستقل بها الفرد أو الفردان وألوان الأطباق يظهر فيها الأصفر الفاقع من العدس أو دوائر البيض المنير السابح فى السمن.

ماذا يصنع فيما يرى: هل يحاول أن يجلس فى العجلة أم ينفذ إلى الداخل ليهدأ ويستريح؟ إنه يعرف فى نفسه ضغط ما تفعله العين وما تعطيه من قيمة لتكتلات الخارج. إنه لا يجرؤ طبعًا على أن يصوغ هذه التجارب الصغيرة التى تحدث فى غفلة أمام كل شىء عندما يصبح كل مرئى منظراً مليئًا بقيمة شعورية أو سلوكية وكأنه قد أصبح هو الآخر فاعلاً عليه أن يتعامل معه. إنها تجاربه الدائمة التى يخشى منها ويخشى أن يطلع الناس عليها أو أن يسجلها لأنها لا تغادره إلا نادراً، ولا يعرفها من الناس أبداً، لكنها تجعل دائمًا خطواته، وأقل أفعاله شأنًا، أمراً مركبًا لا يستطيع أن ينفذ فيه بسهولة. وفى لحظات كثيرة قد تطول، يصبح كل ما يرى مهدداً هكذا بالمعنى لأنه مجموع ومشكل ومتماسك بالدلالة ينبض بالإنذار الذى هو كل الوجود لأن عينه تراه فى إطار...

كيف يقع فيه دون أن يمسه سحر الإطار. أراد أولاً أن يجلس مع أقرب مجموعة وأقرب منضدة إلى الطريق وحاول، وتقدم، بجوعه ليجرؤ، لكنه تردد، وبعد أن جلس قام.

ونفذ إلى الداخل حيث الظلمة والفسحة كأنما تسمحان له أن يتنفس وأن يخفف من ضغط الرؤية. هنا كان الوجود لعينه أكثر تهاويًا وأقل إنذارًا، وجلس إلى أقرب منضدة من الكونتر الحجرى الذى تعد من خلفه الأطباق ووضع حقيبته على الأرض عند أقدام المقعد وحرص على أن يعطى ظهره للقدرة الكبيرة التى ينزح من داخلها الفول وللنار المختفية تحت سطح الكونتر والتى لا يسمع إلا صوتها تحت القدرة وطاسة الطعمية الكبيرة التى لا تكف عن التقلب فيها بهذا الصوت المتلألئ الذى كأنما يشع بالشرار ووشك النضج.

جلس معطيًا ظهره للكونتر وحقيبته الصغيرة عند قدميه ونظره إلى الفسحة المظلمة القليلة أمامه كأنه يريد أن يستريح من تهديد الإطارات والصور المجموعة. أراد أن ينظر إلى داخله وأن يترك العالم بمفرده حتى يشبع وانتظر.

لقد انتهى من هذه المقابلة مع رئيس التحرير فى القاهرة قبل أن يستقل القطار وجلس أمامه وقتًا يحاول أن يستخرج موافقته على إجازة طويلة ينقطع فيها للعمل دون أن ينقطع عن إرسال لوحاته ورسومه إلى المجلة. كان كأنما يحاور ويدافع عما يريده بداخله، وعن تلك الحرية والانقطاع اللذين ينتظرهما لنفسه. وأحس أن هذا الرئيس الجالس أمامه يتحمل مسئوليات كثيرة وأنه معذب وأنه يريد أن يوافقه على ما يطلب وكأنه شىء يريده هو لنفسه. لقد كان سريعًا للموافقة متحرجًا من الأسئلة الكثيرة، إلا أنه عرفه أنه ذاهب إلى بيت أعده فى الإسكندرية للعمل. وعندما سأله متى تعود وأحس أنه لا يستطيع أن يجيب بالتحديد سارع واختار له ستة أشهر فسكت حتى انتهت أوراقه من عنده وخرج من دار المجلة ومعه قيمة مرتبه لمدة الأشهر الستة نظير تفرغ للعمل. كم هو مدين لهذا الرجل بهذه الراحة وإن كان يحس دائمًا أن رضاه وتمسكه به يمنعه من أن يواجه نفسه تمامًا دون سند أو ضمان. إن محبة الآخرين له كثيرًا ما كانت عقبة أمامه فى طريقه لمواجهة نفسه ومعرفتها والتعرض لمخاطرها وما يخرج أو يقوم فيها من تنينات وحيوانات مفترسة له.

لماذا يتذكر هذا كله الآن ويستحضره وكأنه يعقد صفقة لا يعرف تمامًا ماذا يكسب فيها، لكنه يعرف على الأقل أنه لم يخسر. إن كل ما يشوب هذه الصفقة أنه لم ينقطع تمامًا، إن نقطة البدء التى يريدها لنفسه ما زالت مرتبطة بالناس وبالواقع وبماضيه وأن هذا الحاضر المقبل عليه ليس جديداً تمامًا. هل هذه خسارة؟ إنها لحظة أو ساعة أو حالة قد تكررت فى حياته من قبل. لحظة يصبح فيها الحاضر الذى لا يعرفه تمامًا ولا يعرف أبعاده كلها هو المستقبل ولهذا يحس أنه مقبل عليه.

فى الجلوس راحة وهو يستطيع الآن أن يخلع معطفه وأن يحس بالدفء يسرى فى رطوبة قدميه وأنه ينتظر. إنه يتوقع الطعام ويحس أنه جائع، لكنه ينتظر مظاهر أخرى أخفى ظهوراً وأصعب على التحديد. وقوعها ليس من طلبه ولا من حاجته، لكنه من استسلامه، ومن قوة حضور الحاضر وضعفه عن تصور أو صناعة المستقبل. إنه لا يحس القدرة إلا أمام اللوحة أو التمثال ولا يعرف الانقطاع والبدء إلا عندما يبدأ العمل فيهما فعلاً أما فيما عدا ذلك فهو دائمًا مملوك موزع ينتظر الأوامر والإرشادات من الناس والواقع. وما أسرع الناس للحركة وما أغرب قدرتهم أو تصورهم القدرة على صناعة المستقبل. أما هو فعينه مسحورة أو ملعونة تجمد الناس وتثبت الأشياء وتجعله ينظر وينتظر.

إنه كذلك دائمًا منذ سنوات، لا إنه كذلك طول عمره. منذ طفولته وهو ينظر وينتظر. لقد كبر وهو هو نفسه لا يتغير. كيف يستطيع أن يعرف فعلاً أنه تغير أو كبر، كيف يستطيع أن ينظر من جديد فى سنوات الطفولة. هل كان من الصعب عليه دائمًا أن يفعل، حتى أن يطلب الطعام.

مد قدميه تحت المنضدة واتكأ بظهره على معطفه المكوم على ظهر الكرسى وراح ينظر فى الشقوق والخطوط المتكسرة على الحائط عن يمينه ويقيس بداخله درجات التآكل والتغير فى اللون الزيتونى الأخضر الذى دهنوا به الحائط.

وطالت نظرته إلى تلك البقع العريضة الممتدة المتآكلة الأطراف وهى تتداخل فى بعضها وتكون وحدات مترابطة. واستمر ينظر مدة لم يعرف مدتها وكأن عينيه أو خياله الذى لا يعرف أين موضعه عامل كيميائى فعال يدخل فى هذه الأشكال التى تتوضح على الحائط أو يكونها. وتبسم فى نفسه وهو يتذكر بيرودى كوزيمو وما قرأه عنه فى فسارى. من الحائط الذى مال عليه السكارى والمرضى ليفرغوا ما فى بطونهم تتحرك فرسان ممتطية خيولها فى معارك طاحنة أو ترتسم مدن قوية محصنة بل ومناظر طبيعية واسعة.

تبسم لنفسه مرة أخرى وكأنه يجد نفسه فى العالم الذى يريده وامتدت يده إلى حقيبته عند قدميه ليخرج أقلامه وكراسة الاسكتشات ووضعها أمامه معتمدة على حجره والمنضدة التى استقرت عليها أوانى الملح والشطة. وبدأ يخطط مسجلاً لنفسه هذا الوجه الداكن والعيون المحمرة من السهر لما تصور أنه بحار عائد من الميناء بعد ليلة طويلة يجلس على المنضدة المجاورة. وخلفه الحائط الزيتونى الباهت وبدأت يده تتحرك بسرعة وهى تلمح السهر والسكر فى العينين الواسعتين والفم العريض والندبة على الخد الأيمن واليد الممتدة فى ملل وتعب إلى كوب الشاى دون أن ترفعه، والكاسكت على الرأس وكأنما يحجب الرؤية ويخفى النفس ولا يغطى الرأس فقط. شخص غريب، لكنه قريب تماماً أو أصبح كذلك. أمامه الآن وهو ينظر إليه دون أن يهتم به الآخر. من الذى يعرف الآخر منهما وما هو قدر ما يعرف بالفعل؟ إن يده تتحرك بسرعة وثقة وهو يسعد بالفكرة التى قامت فى نفسه وبالحركة التى اندفع إليها وباندفاعه إلى تصور أنه قد وضع يده على أول اللوحات والاسكتشات التى سيرسلها إلى المجلة كأول أعماله فى إجازة التفرغ بالإسكندرية. وجوه الصبّاح فى الإسكندرية وامتلأ المكان حوله بالأطر والحركات والشخصيات دون أن يكون فى نفسه خوف أو تحرك من الحركة فى هذا كله. إنه يتحرك الآن بكامل حرية دون خشية أو تردد ويغير من وضعه على الكرسى ومن مكانه للنظر داخل المحل وخارجه واسكتشاته تتعدد ويطويها الواحدة وراء الأخرى.

ومع هذا كله طلب طعامًا وأكل، وتبادل مع الجرسون كلمات ضاحكة بشهية مقبلة على الناس وعلى الطعام.

سار فى الطريق والصباح يرتفع والزمان يمر، حتى وصل إلى البحر. البحر جم وفير زرقته المبيضة ممتدة تمسح نفسها فى عينيه وترخيها على مساحة أوسع من أن يشملها البصر والرؤية فى بعض الأحيان، وخاصة مع البحر، يصبح المنظر أكبر من العين.

هذه الراحة التى يصنعها الشبع مساحة تمتد فى البدن وتمده، وخدر ما بعد الأكل كزرقة البحر أوسع من أن تشملها الإرادة. إنه يسير كالنائم إلى المقهى الصغير بجوار البحر ليشرب فنجانين من القهوة ويجمع نفسه قبل أن يستسلم للبيت والنوم. ماذا يفعل بهذه الحرية التى تتصاعد فى نفسه وكأنها جزر من الخدر ومن ضياع الهمة والإرادة لعمل شيء إن التصرفات العملية الصغيرة قبل النوم كأنها مطل يرى منه نفسه وصلاته ومتطلبات حياته، وقد أصبحت مردودة على نفسها غير ذات شروط وقسوة. إنه ليس عليه شيء الآن. لقد أكمل عمله العملى، تلك الاسكتشات التى تنتظرها المجلة ولا تنتظر منه أكثر منها. ليس عليه إلا أن ينظر فيها مرة أخرى، وقد يزيد خطا أو ظلاً أو قد ينشئ فى الاسكتش شيئًا جديدًا يضيفه دون أن يغير الكل، وقد يفكر فى اللون ويتمنى لو أنه رسم بالزيت.. أو بالألوان المائية، لكنه لن يغير شيئًا بالفعل ولن يفعل أكثر مما فعل.

إن عليه أن يشترى مظروفًا كبيرًا وأن يضع فيه الاسكتشات وأن يتحرك بعد القهوة إلى مكتب المجلة هنا وأن يسلم الظرف وأن يذهب لينام.

إنه كأنه يفعل ذلك كله أو فى الحقيقة قد فعله. ما أبسط ما يتطلبه هذا العمل الذى يأكل منه عيشًا. إنهم فى الحقيقة لا يطلبون منه شيئًا كبيرًا ولا يدرى لماذا يدفعون له ومتى يعتبر نفسه يعمل فعلاً. إنه وكأنه قد عقد صفقة خادعة ضحك فيها عليهم ولم يكسبوا هم إلا شعورهم بأنهم يستخدمون الفنان. يبدو أن هذا هو كل ما يكسبون هم فعلاً وأن هذا هو كل ما يدفع.

ولكن لماذا يفكر فى كل هذا؟ لماذا لا يـقبله وينعم بنفـسه وبالبـحر، وبهـذه اللحظات القادمة عندما يصل البيت لينام وليكون لديه الوقت للعمل. أى عمل؟ هل هناك تفرقة بين ما سيصـنع وما صنع؟ هل هناك تفـرقة بين هذه الاسـكتشـات التى يعدها للمجلة وبين الأعمـال التى سيكرس لها نفسه فى الأشهـر القادمة؟ من أين يأتى هذا الفـارق؟ إنه قادم على أعمال ستخرج من هذا البحر الغـامض الممدود فى نفسه وستـقوم مـرة واحـدة بعد أشهر أو أيام أو حـتى سنوات لكنها ستـقوم مرة واحدة وستبقى.. أما كل شىء آخـر فهو مقاربات، مقاربات لأشياء لا تقوم وليست كافية بذاتها.

وإذا كان يضحك على الآخـرين فعليه ألا يقول لهم ذلك وعليـه أن يخفى هذا القدر من تجـاوزه ومن تلفـيقـه فى الفن وعليـه أن يسـرع.. أن يسرع لـينام. وفى الأتوبيس الذى يحمله إلى أقرب ما يمكن من بيته كان ينام فعلاً. وتتحرك على عينيه كومضات الضوء من الشباك بجواره نـفس تلك الوجوه التى أمسك بها فى اسكتشاته وكـأنها تحاوره أو تريد أن تثبت له أنهـا موجودة. هذه الأوجه التى رسمـها أين ذهبت؟ الناس أنفسـهم ذهبوا. راحوا كأنهم ذكريات، وحتى هذه الاسكتشات لا يستطيع الآن أن يلمسها مرة أخرى أو أن يراها لأنها فى طريـقها إلى المطبـعة حيث ستبـقى دائمًا بعـيدة عنه. لقـد ظلمها عندمـا اعتبرها تلفيقات، فهـا هى حـية مليئة بالسر فى عينيـه والكثير من السحر يتحرك فى روحه حولها. يا سمك يا سـمك هل أنت على العهد القديم مـقيم، وتضرب الجارية بعـود من حديد فى آنيـة القلى فيـتحـرك السمك وتختـفى، تعـود إلى الحائط الذى خـرجت منه. أما السـمك فيحترق ومعه العهد القديم، تلك الحياة التى كانت للوجوه، وهذا الماضى الذى خرجوا منه عادوا إليه مرة أخرى.. ولـم تعد إلا تلك الاسكتشـات التى تحرقها المطبعة. إنه يحلم، يحلم والفن دائمًا يعبث به، يتشكل فى حـدود لا يعرفها تمامًا، لكنها دائمًا تنتزع الحياة من الحياة وتبقـى فقط تلك اللحظة والسـمك فى الزيت المقلى قبل أن يـحترق. هل هو هـذه الجارية

التى تخـرج من الحائط وتدفع الكائنات إلى آخـر لحظات حيـاتها، إلى أوج توهجـها الذى يسبق الاحتراق؟ عندما يستحيل الواقع فنًا يتوهج ويحترق.

إنه يفتح عينيه دفاعًا عن اسكتشاته، فهى ليست تلفيقًا ولا مقاربة لكنها لحظات توهج تشتـريها المجلة ويشتريهـا الناس ويحاول هو أن يعبـر بها إلى مزيد من الانتزاع للحـياة من الحـياة. إلى وهج كـبيـر، إلى عـمل ليس منه الآن إلا اللهـفة، لهـفـة فى البدن وراء العـين المغمضة.

الطريق يخشوشن ويهزه الأتوبيس فى جلسته إلى البيت .

- ٢ -

ما أضعف الإنسان وما أسذجه هل هكذا يصنع المرء حياته؟ لقد ضيع حياته، أكثر من أربعين سنة فى صراع غريب متصل لا ينقطع لصناعة الفن ومحاولات دائمة متصلة لا تنقطع أيضًا لتوفير النقود التى تسمح له برد عادية الأهل والمجتمع وطلبات الحياة الأولى، هل كان ذلك كله مغالطة أو غلطًا فى البداية ومنها؟ إنه لم يحقق الكثير من الفن، لكن ما يريد تحقيقه ما زال كثيراً وما أنجزه بالفعل لا يفقد قيمته. إن ما وضعه بالفعل فى كل عمل من أعمال النحت التى انتهى منها بمثابة قطع كبيرة عزيزة من حياته وكأنها مثل الذكريات مدفونة، كالكنوز التى تحتاج إلى فتح وسيطرة على الطلسم.

إنه لم يأت هنا ليسترجع حصاد حياته وأعماله. لقد جاء ليعمل، لكنه على الرغم من البيت وعلى الرغم من التفرغ ما زال لم يستطع أن ينتزع من روحه إلا هذا العمل الرابض عند البحر. إن أحداً لم يره بعد ولا يظن أن أحداً سيراه كما صنعه.

هل يمكن أن تمر وتنقضى إجازة التفرغ وهو ينظر فقط فيما كان يعمله وهو غير متفرغ. لقد مرت السنون وهو مستطيع أن يضمن هذه القشرة الهشة من الراحة لحياته وأن يعطيها مظهر الاستقامة والهدوء. لكن ما أقل هذا القدر من المادة الذى حققه، لقد كان دائمًا قليلاً عابراً ومع ذلك كان عليه دائمًا أن يجاهد للاحتفاظ به. لكن ألم يضح بفنه من أجل القليل، هذه القشرة. إن وعود الفن فى روحه منكوثة مبددة قد تبعثرت فى أيام كثيرة نتيجة لعدم التركيز والتفرغ والتوجه المتواصل للعمل. هل هذا صحيح؟ أم أنه فى الحقيقة محدود القدرة نزر الإبداع وليس له أن يعتذر بأنه انشغل دائمًا عن فنه ولم يتفرغ له.

ما أفرغ فؤاده الآن. إنه لايعرف هل القلق هو الذى يسبب الفراغ أم الفراغ هو الذى يسمح للقلق أن يقوم؟ فى هذا التقلقل وهذه الحيرة مع نفسه وما يعمل بها، يبدأ القلق وتتواجد حوله، كالعفاريت الصغيرة، الأفكار والاتهامات لنفسه وللناس.

وإذا فرغ من اتهام نفسه اتجه للناس، والناس معنى غريب عام لا يعرف كيف يتعامل معه إلا فى ظواهر عامة، فى تاريخ، فى خصائص حضارة هل هذا ما تعلمه من تاريخ الفن الذى درسه وانشغل به سنوات من عمره أم هو مرة أخرى عجز طبيعى فى النفس عن معاشرة الناس والتعرف عليهم والتصرف فى طرقاتهم والقدرة على أن يصبح واحداً منهم.

إنه يعرف أن كل هذه الأفكار وهذه الاتهامات، وكأنها ضجة تسكت تماماً عندما يعمل، عندما يمتلكه العمل ويحس أن أجزاءه تتصنع أمامه. لكنه الآن لا يعمل ولا يعرف ماذا يعمل بنفسه. إنه يتحرك من البيت ويخرج إلى البحر ويسمع تلاطم الموج على الشاطئ ويحس أن الحركة والموج كلها اتهامات فى داخله كلها أفكار فراغ وقلق.

يجب أن يتهم نفسه. إنه يحسب نفسه دائماً فريداً. لكن ليس التفرد ميزة بل هو ما يعانيه وهو يعمل. إن أحداً ليس مثله، لكن الحقيقى أن عمله فى جزئياته لا مثيل له. كل جزء لا مثيل له وهو يتكامل، وهو يصبح واحداً. هذه التجربة التى يعرفها ويعرف تفاصيلها هى التى تجعله يحس بالتفرد. فليس هناك من يعمل مثله. هل هناك من يعمل وهو يحس أن هناك ضرورات فى لحظات العمل ومادته وتشكله لا يستطيع إلا أن يخضع لها، وهل الخاضع الراضخ المتقبل المنتظر متفرد متعال صعب؟

إن أحداً من «المتفرجين» على أعماله "المتكلمين" عنها لم يلحظ أو يدرك أو يستخرج أى ضرورة من الضرورات التى مرت عليه وهو يعمل. لكن أليس ما يطلبه مستحيلاً؟ هل يستطيع أى متلق أن يدرك ضرورات الفن. إن كل ضرورة لحظة حرجة تتلاشى فى ضرورة أكبر حتى ينتهى العمل ويصبح فعلاً بلا ضرورة إلا وجوده، لماذا ينتظر الناس ما لا يستطيع هو أن يقدمه لنفسه؟ إنه يعرف بالتفصيل ماذا فعل فى كل عمل لكنه لايستطيع

أن يسـرده أو أن يرتبـه للناس مـتحـدثًا عنه. فالعـمل وحـده هو الذى يحتـوى كل شىء، ولايمكن أن يضاف عليه شىء من الخارج، حتى وصفه تحوير له وانحدار به.

أهذا هو السبب فى أنه يحس أن الناس يفـتعلون الإعجاب والفـهم لما يصنع وكأنهم بما يقولون يزيحونه، هو والعمل ليفرغوا لشىء آخر. إن بينه وبينهم دائمًا هذا الأدب العابر الذى يجعله فنانًا صعبًـا وجادًا، لكنه غير مريح وغير مسـتجيب تمامًا لما هو مطلوب منه أو منتظر. هل المطلوب منه أن يخرج أعمالاً ينشغل بها الناس ويتـحدثون عنها كما يتحدثون عن مشاكلهم اليومـية أو يصفقون لها كما يصـفقون للكرة. هل يمكن أن يكون هذا شرطًا للفن؟

لو عرفـوا عذاب الخط أو وجع الشكل، لـو ذاقوا هذا الألم أو وعوا به لـما تحدثوا أبدًا عن الفن. لكنهم يغفلون الفن بعـازل من المعانى والقيم يسمـونه رسالته. وفى هذه الأرض البور التى لا تنتج عـملاً يزرعون كلامًا مكرورًا لا يمنح ثمـرًا ولاظلاً عن أثر الفن وفائدته ودوره فى التعـبيـر عن الجمـاهير. إن الفن فـعل فاعل وليس تعـبيرًا. وإنه يحـس الغضب والفرح والحب والرغـبة فى التحطيم والرهبـة والخشوع والأمل والرجاء، لكنه لا يعـبر عن شىء من ذلك فى فنه لأن التعبير ليس فنًا لكنه تعـبير، عبور لما هو قائم، وهو يريد أن يصل إلى أن يكون العمل قـائمًا وليس معـبورًا. ثم كيف يمـكن للفن أن يكون تعبيـرًا عن الأمة والجماهير؟ إن الأمة والناس قد تستطيع أن تستعـمله للتعبير عن نفسها وبذلك فقط يمكن أن يكون تعبيرًا عنها، أما أن يبدأ بالتعبير عنها فهذا مستحيـل.

لو يستطيع أن يـقضى فى أذهان الناس على فكرة المحاكـاة وأن يضع محلهـا الفعل. المحـاكاة كلام على الفن استـحدثه النقاد، كلام يحاولون به الـنفاذ إلى أسـرار العمل التى لا يمكن أن ينتهى سرها أو يفض تمامًا منذ الأزل .

والفن لا يحاكي لكنه يستعمل الواقع ليفعل، ليفعل فعلاً مستقلاً منعزلاً له وجوده الخاص. وليس التاريخ الجديد للفن إلا محاولات متكررة لتأكيد ذلك. كل تلك اللوحات القديمة، كل تلك التماثيل، لم تكن تحاكي، كانت تنتهي عند نفسها حتى لو وضع الفنان أمامه نموذجًا، موديلاً أو منظراً يحاول أن يمسك به. فإذا ما أمسك به يصبح شيئًا آخر قائمًا في مادة اللوحة أو التمثال له زمانه ومكانه وله مادة وجوده ونبض هذا الوجود. فليس هناك فن تمثيلي وفن غير تمثيلي. أنا طول عملي في مكان ولا يمكن أن أكون في زمان أبدًا.

مد رجله وهو جالس ينظر حوله في الأتيليه إلى الألواح الفارغة التي أعدها وإلى الألوان وقطع الحجر التي جمعها طوال حياته ليعمل فيها. كم كلفته؟ كل ما يملك. دائمًا ما يملك تستنفده مادة الفن. يصنع به مكانًا للعمل. هل هذا ما يعنيه بأنه لا يعيش في زمن أو بزمن؟ الابن زمن والزوج زمن والموطن زمن والسياسي المذهبي زمن ومدعو الرسالات زمن والقوال للمعاني والوضاع للقيم زمن، فقط الفنان مكان. وفارق كبير بين أن يكون المرء في مكان وبين أن يمر عليه زمان. شروط المكان متماثلة داخلة في الذات وليس على الذات لتحقق ذلك إلا أن تظل فيها. أما شروط الزمان فكلها خارجة عن الذات ولا يمكن أن تكون منها فإذا أصبح الزمان ذاتيًا صار مكانًا، أما المكان فهو دائمًا ذاتي. موضوعية الفن من موضوعية المكان هي دائمًا وجود، أما الزمان فلا موضوعية واحدة له لأنه متعدد تفرضه عوامل خارجية. هذه العوامل قد تكون اجتماعية، أليس كذلك، علاقات وأوضاع، وقد تكون ما يسمونه إيديولوجية، مذهب ورأي ومصلحة كلها زمان حتى ولو دامت عصوراً. أما الوجود فمكان متلاحق وليس الزمان إلا تلاحق المكان وإلا كان عدمًا. فلنقسم المكان إلى عوامل أو عناصر، ومهما قسمنا فإنها جميعًا تستوعب في وجود واحد وهو وجود الذات في المكان، أي ذات. أما الزمان فلا يمكن أن تستوعبه الذات أي لا يمكن أن تكونه.

ليس هناك ذات هى زمان. المجرد، المجرد فى ذاته زمان. ومهـما بالغنا فى التجريد لا نخرج من أسر الزمان. أما المكـان فهو دائمًا خلاص الإنسان وغاية وجـوده ولذلك هنالك جلجثة وهناك كعبة وهناك مـوقع للمعجزة. أما زمن كل ذلك فهو مـرفوع. ولو لم نرفع زمن المعجزة لـم تعد معجزة. القرآن نفسه كـمعجزة مكان. كل أعمالى وكل ما خرج عنى من فن مكان، هو حولى، هـو أنا وأنا لا أريد أن أدافع عن نفسى أو أن أبررها وعلىّ أن أقـبل هذا الطريق وهذا التفرغ الذى لا ينتهى فى داخلى لما أريد أن أتوجه إليه من عمل.

هل بعد هذا يـمكن أن أعبر، أن أقـول ما يريدون منى أن أقـوله؟ أن أكون موصـوفًا بعامل من عوامل الزمن، ثوريًا، تقدميًا، رجعـيًا أو حتى سورياليًا أو تجـريديًا عنـدما أعمل لا أكون ابنًا ولا زوجًا ولا حتى رجلاً وإن امتلأت بالرغبة والشهوة للجسد.

وسمع الطرق الذى كـان يتوقعه على البـاب الخارجى الخشـبى للمنزل، أنه يعرف أن مندوب مكتب المجلة سيحضر الليلة ليحـمل ما قد يكون أنجزه من أعمال، لكن ليس عنده شىء يعطيه. بل مـا زالت نفسه فى وحدته لا تريد أن تتـرك مكانها لتفتح. إنه يتـصور القادم؟ يتـصـور دخوله ويواصل دفـاعـه عن فنه، لو قلت له "ادخل" فـأنا أصنع فنًـا. قد لا أكـون عبرت تعـبيراً كاملاً ولكننى صنعت عـملاً تصورته. إنه لن يتحقق أبداً كـما تصورته وهذا هو الحال دائمًا فى أى عـمل. لكن جانبًا كبـيراً مما سيقع قد تـم تصـورى له. قد تم الإعداد له. إنه سيدخل إلى المـكان وأنا أعرفه أو لا أعرفه. وهو سـيغير من المكان على نحـو أعرفه مقدمًـا أو لا أعرفه. لكن عندما يقع ما يقع ستجعله معرفتـى اللاحقة به كأنه كان متـوقعًا. أليس هكذا أعمل؟ حتى الضوء الذى سيقع عليـه وهو داخل، وحتى تغير مواضع الأشياء بدخوله، هذا سيكون أقرب منه وسيكون أبعد.. كل هذا فن.. وعمل.

لا أحد يعبر أبداً، كل واحد يشكل، يصنع شيئًا آخر كل الناس لا يعرفون أنهم فنانون أشقياء، فنانون رغمًا عنهم. لـو عرفوا ذلك على الأقل لازدادوا صدقـا. ما أكثر الأعـمال الفنية المتواضعة التى يصنعها الناس وهم لا يدرون.

– ادخل

– لا. أنا آسف. لم أنته من شيء..

وخرج مندوب المجلة كما جاء لا يحمل أعمالاً.. لكنه بالضرورة قد ترك فنًا.

ماذا يفـعل إذن فى هذا الخلاء؟ هل هناك مسـئولية عنه، هل له مـصدر، تاريخ، أم هو يقع، يحل فجأة وكأنه لعنة أو احتدام شمس أو انفساح الصحراء فجأة بعد خضرة الوادى. إنه وحـده فى الغرفـة مع كل أدواته لـكنه يحس أنه مـجرد داخل خـال. مـا أغـرب (لاندسكاب) النفس البلقع. لا بد أن يكون هناك طريق فى هذا الخـلاء. أصفر الرمل ملقى فى روحه على مسـافات ممتدة واسعـة لكنه حار محتـدم ملتهب بشمس غيـر مرئية واللون كأنه بـخـار، فقط مضىء متـخـابث عليه لا يمكن له أن يمسكه. مفـروض عليه فقط أن يراه. لو يستطيع أن يرسم فوق الرمل آثار أقدام لتملكه .

ومع المعنى تذكر صاحب فاوست: لو أمسـك الفنان بموضوع ما لم يعد هذا الموضوع من الطـبيعة. لكنه لا يستـطيع أن يمسك بشيء، يداه قـابعتان إلى جـانبه وكأنهما مقيدتان أو مضروبتـان بشلل وجلسته على المقعـد تزعجه وكأن المقعـد يربطه للخلاء الذى بداخله. نزل على الأرض وأقـعى تحت الحـامل ولم تتـحـرك روحـه للزيـت أو الألوان المائيـة، إن الفرشاة والسكين لا تزيحان الخلاء. لن يقطعه إلا الأزميل والمطرقة. فى الحجر يخلص من الخـلاء. لكن كيف يحصل الآن على الحجـر، على الجـرانيت، على الرخام من أسـوان أو كرارا.

... أخي محمود.. أرجو أن تكون قد وصلتك الحوالة البريدية التى أرسلتها وأن تكون قد استطعت ترتيب القطع التى طلبتها وأنها الآن على مركب فى النيل.. إنى أعيش فى خلاء قاطع وأريد أن أعمل... حتى الطين الذى حملته معى من القاهرة إلى البيت هنا فى الإسكندرية لا يدفعنى للعمل. إننى أحركه بين أصابعى وأدعه يتسرب كما هو دون أن تتحرك فى نفسى أى رغبة لعجنه.. أريد أن أنحت، أنحت بيدى. وكل ما أملك تقريبًا وضعته فى شيك وأرسلته لبرتينى فى تورينو.. لكنك طبعًا تعرف كم يستغرق ذلك من وقت.. قد يصبح شهوراً طويلة وقد تنتهى إجازة التفرغ اللعينة التى أخذتها بكل صعوبة قبل أن يصلنى شىء.. والآن ماذا تريدنى أن أفعل؟ هل سأكتب لك مرة أخرى؟ قد تستطيع أنت أن تكتب مرة. قل لى وسأحاول إذا كنت بحاجة إلى نقود أكثر.. أعلم أنك كنت تفضل أن آتى أنا إلى الأقصر وأن أرتب هذه الأمور معك من هناك، لكنك لا تعلم كيف تملكنى هذا البيت هنا فى الإسكندرية والأرض من حوله. لو نستطيع أن ننحت فى الملح أو فى الأرض الملونة من حوله. لكننى أتوقع زيارتك وأؤكد لك أنك ستقضى أوقاتًا ممتعة هنا على البحر.. إننى أرجوك.. أتوسل إليك أن تخبرنى ماذا فعلت ومتى يمكننى أن أتسلم القطع.. مرة أخرى أكتب.. أرجوك..

هل يخرج ليلقى بالخطاب إلى صديقه فى الأقصر أم ينتظر حتى الصباح؟ إنه يلقى بالخطاب إلى جواره مستشعراً أن كل اتصال لن يؤدى إلى شىء، على الأقل لن يؤدى إلى شىء مباشر وأنه يكذب على نفسه فى محاولته الخروج من هذا البلقع القائم فى نفسه. هذا الصندوق الورقى فيه كل أوراقه. أوراق كثيرة متجمعة. خطابات وحسابات طفيفة وصور ورسوم واسكتشات على أوراق عارضة ودواوين صغيرة من الشعر.. مجلدات دانتى ومجلدين من ألف ليلة وليلة. وكلها قد تآكلت أوراقها، وأظرف ، أظرف كثيرة مليئة

بالصور الشخصية وصور اللوحات.. مد يديه وبأصابعه حرك الأوراق وحملها وجعلها تتساقط من جديد فى الصندوق من غير ترتيب. وكأنما أراد أن يمتحن صدق ما قاله فى الخطاب فقام إلى جوالات الطين الأسوانى ووضع أصابعه وأخرجها قابضة على حفنة من الطين وظل ينظر إلى نفسه وهو يراها تتسرب ساقطة من بين أصابعه إلى الكيس من جديد دون أن تحرك فى أصابعه رغبة التشكيل.. إنه يضغط على أطراف الأصابع ويحس ما فى الأنامل من قدرة لكنه لا يستطيع أن يدفعها للحركة أو العمل.

لم يعد إلا أن يخرج بعض اللوحات القديمة أو أن ينظر إلى بعض أعماله المعدة للصب. لكنه لا يريد هذا، بل هذا بالضبط ما لا يريده. إنه يريد أن يخرج عن نفسه عما عمله من قبل ولا يريد أن يعود إليه. آخر ما صنعه هو هذا التمثال الموضوع الآن عند البحر فى نهاية السلم، لكنه كأنما يخشى منه ومن الذهاب إليه.

راح ينفض آثار الطين من أصابعه وهو يتحسَّس أطرافها ويضغط على طرف كل أصبع بأصبع من اليد الأخرى وبالإبهام وحده على أطراف أصابع كل يد. أنامله تلك، هذه الوسادات التى يحملها مليئة بالإحساس فيها الآلاف المؤلفة من الأطراف العصبية التى تستشعر الطين والشكل والخط والانحناء لكنها الآن مجرد قدرة لا يستطيع إلا أن ينفضها فقط مع ذرات الطين المحمر.

ودار فى الحجرة، خطوات متكررة يريد أن يعرف ماذا يستطيع أن يعمل بنفسه وبهذا الداخل الفارغ. إنه يلوك فى داخله شيئًا، عصيًا كلحم الجمال. هذا هو الواقع المطروح عليه قد تلبسه وداخله كالشياطين. ما هذا القلق الجاف الحارق الذى يملأ بدنه ويجعله يدور كالدوخان من الزمن. إنه يعرف هذا الطغيان المفاجئ للزمن عندما يستديم فى داخله فتتوقف كل قدراته على العمل ويجعله ينظر إلى ذرات متعاقبة من العدم هى اللحظات

التى لا يستطيع أن يخلص منها أو أن يخرج منها ولا يستطيع أن يعلق نفسه بشىء يستنقذه منها. فى هذه اللحظات لا يحتمل المقعد ولايصبر على أن يجلس على الأرض أو أن يقع أو ينام، عليه أن يدور، أن يخطو وأن يدور فى المكان الواحد وقد استحال إلى زمن ضاغط جبار لا فكاك منه. بأى شىء يتعلق وإلى أى شىء يمد يده ليمسك به وقام يدور فى الحجرة كأنه حيوان يتحسس جدران قفصه.

لقد وقع كنيزك فى صحراء. لا روعة لضوئه وحرارته تجمد وتبرد مع ليل الرمل. يتجمد الفنان وينعزل فى لحظات تجرده من فنه. وقدراته نفسها قد أصبحت هى جدران القفص التى تصدمه. إن اللحظة المستديمة تمتد حوله وكأنها فعلاً صحراء وهو فى وسطها مغلق عليه إلا من تلك القضبان التى يرى من خلالها بلقع الروح. كم هى مركبة تلك الصورة التى يتخيلها لنفسه. نسر عجوز فى قفص ضيق ملقى فى صحراء. لماذا حدث هذا ومتى حدث؟ هناك رمال فى أظافره وعلى شفتيه، وجناحاه فى الذراعين واليدين مثقلان تتسرب منهما رمال لا تنقطع. أين هذه الصورة من لوحاته المضيئة بالأصفر ودرجات الأزرق وخطوط البنى الدافئ. أين راحت خيوط النجوم وتحامل المساحات الملونة بعضها على بعض وتحركها جميعًا لتصنع لوحاته التى يراها نابضة حية فى داخله قبل أن تكتمل ويحسها تدفعه دفعًا للعمل والسير كأنما فى طريق له حدود مرسومة يكتشفها مع العمل. أين هذه اللحظات؟ أين راحت؟ وماذا يفعل ليستردها؟.

لقد طال هذا الانغلاق واستمر أيامًا متلاحقة، يومًا وراء يوم. كان يظنه فى أول الأمر كسلاً وطلبًا للراحة فنام. وكان يرده فى ساعات للجوع أو الوحدة فيخرج إلى المدينة لكنه يعود وكأنما كان تائهًا. وقد ذهب أكثر من مرة إلى مكتب المجلة ليحادث ناسًا وأفرادًا وليسألهم ويسألوه وليتشكل أمامهم فى محاولات الإجابة لكنه كان يراهم جميعًا كتلاً

ومساحات ميتة لا حركة فيها ولا لون كـأن عليه أن يعمل فيهم كى يصبحوا بشراً أو أحياء أو ذوات معنى. وضحك من ذوات المعنى وذوات الأربع وأحس أن البهائم برباعـيتها أكثر التزامًـا وحرصًا على نفـسها مـن البشر الذى يراهـم وتخـوّف من قسوته عليـهم ومن تلك اللعنة التى يراها فيهم أو يفرضـها عليهم، وعاوده الإحساس بأن كبـرياءه يدفع ثمنها غاليًا وأنه كمن ارتكب إثما عميقًا يغـير الطبيعة ويسحر البشر مسوخًا صغيـرة تتحرك فيها أعين وأيد قصيرة لا ترى ولا تمسك بشىء.

كيف يعـاود ممارسة قدراته؟ كيف يحـرك أجنحته؟ كيف يحـجب عن الخارج، وعن البشـر لعنة عينيـه التى تسخط كل شىء وتجـمده. كيـف ينفذ وراء قفـصه وكـيف يمد فى الصحراء طرقًا نافذة.

إن لديه زجاجات نبيذ وروم فهل يشرب، لكنها لا تؤدى إلا إلى أن ينام وهو يريد أن يعالج هذا الحجاب المفروض الملقى على الرؤية فى روحـه وأن يستعـيد لعينيه طراوتهـما السيـالة التى تغير وتجرف الشـكل المرئى حتى يستقـر على اللوحة لونًا وتناغم مسـاحات. هل ما ينقصه هو الموضوع؟ لقد واجه هذه الواقعـة أكثر من مرة. واقعة التحدث أو البحث عن مـوضـوع، لكنه لم يكن يسـعى أبداً إلى مـوضـوع، بمعنى شىء يرسـمه ويضـعـه فى التمثال، من الحجر أو الطين. إنه لايعـرف هذا الانشغال بالتصوير، بالوضع لشىء له معنى أو قصـة أو رمز. كل هـذا كان يصـاحب العمل، كـان يتدرج مع التنفـيذ، كـان ينضج مع الخطوط ودرجات اللون. كـان يتحرك كـالخضرة السـيالة فى سـيقان النبـات أو كالأبيض والأحمـر والأصفـر والبرتقالى والأزرق والأسـود والبنى فى خدود الزهر وريـش الطيور ومنحنيات الحجر. كان المعنى والقصة والموضوع دائمًا فى الشكل المتحقق، فى هذا التوازن المعجز والـتداخل الحميم بين المسـاحة واللون، بين تركيب الحجم والحـركة الممسوكـة فيه.

فلماذا يحس الآن أنه يريد موضوعًا. هل هذا جزء من العقاب على كبريائه، على ما يعرفه في نفسه من (هوبريس).

يسقط المرء دائمًا ويهوى من الهوبريس، بل وقد يذبح وأنا عشته طول حياتى أليس كذلك؟ هل أنا بهذا الوعى أستبقى اللعنة، أديم العقاب أم أحاول الخلاص والنفاذ والعودة... العودة إلى ماذا؟

أنا أريد العودة إلى فنى، إلى اللوحة. نعم اللوحة أكثر من النحت لأننى أحس نفسى مجرحًا مضيقًا على موضوع تحت حكم هو من داخلى وحدى لا تعامل معه ولا دفاع ولا تسامح أو رأفة. هل كل ما فى الحياة غير هذا الموقف من الاتهام ثرثرة وهراء؟ هل كل البشر نصب منخوبة خاوية؟ هل كل وعود الحياة تحقيق مكذوب مجرد من البلوغ لأن كل ما تدركه هو ثمرات الزمن يبلغها العفن مع النضج وتسقطها رياح الوصول؟

أنا لم أطمع فى حياتى فى غير الفن. لم أسع لمال ولم أشته شهرة أو منصبًا. فكل حياة غير الفن، كانت بالنسبة لى موضعًا للتلخيص والإيجاز. فهل هذا نفسه هو نفس خطيئتى؟ لقد بعت أعمالاً وغادرتنى وتسربت أموالها فى بالوعة الزمن وأعرف أن لوحات وتماثيل صغيرة وكبيرة تقف الآن معروضة فى الصالات المظلمة بالليل فى متاحف متناثرة تجفوها عيون البشر أو تلقاها حسب الظروف والأوقات. ولى سرب طويل من النساء دخلت أجسادهن ولا أكاد أذكر عنهن الآن إلا ما أمسكت به من ضوء أو لون أو حركة لم تصورهن أو تنقلهن أو تبقيهن، بل حولتهن جميعًا وكأنما أكلن. قد يكون سرب النساء هو أصعب ما يلخص أو يوجز، لكنهن مع ذلك لم يكن إلا لحظات ومضت وأقوى منهن جميعًا وميض النجوم. أنا لا أنكر زوجتى سميحة ولا أمى ولا هذا الحب الطويل المجنون فى إيطاليا، زوجة برتينى، لويزا. لكن أين هذا الثالوث الآن؟ هل كن ثلاثتهن موضع

الخطيئة، والمرقد الذى ولد فيه العقاب؟ هل هن القادمات الآن كالفيوريز ليأكلن قدرتى؟ هل شعورهن الآن هى قضبان قفص، هل لهن عيون تلعن وأيد تسحب من أناملى حس الإمساك بالفرشاة؟ ليس من ثلاثتهن من لم تكن شخصية يمكن أن تصفها وأن توجزها وأن تلخصها. الحكاية عنهن هى كذلك. لقد أخذن من روحى، أكلن من حياتى أيامًا وساعات وصنعن ضنى ووجعًا وحركن اشتياقًا وألمًا. فهل كن هن الشخصيات أم أن ما تسرب منى فيهن هو الذى جعلهن كذلك؟

إننى أعرف خطيئتى وها أنا أكررها بهذه الأفكار والصيغات. لكن أليس هذا هو الواقع والحق؟ هل أدخل معهن فى معركة لأسترد حقى فى العمل؟ أليس هذا الصراع نفسه تكراراً للخطيئة واستمراراً فيها. إنهن جميعًا خفيات الآن. لويزا وحدها هى التى ما زالت وحدها تضرب طرقات تورينو تدخل حوانيتها كأنها جدى صغير أو غزال حر وبينى وبينها سنوات وزمن ووطأة، إنها ماض لا يسترجع إلا بالذكرى. وسميحة وأمى صفية، طفولتى وزواجى وتعليمى وعملى وحياتى قبل اكتمال خطيئتى. كل منهن اختارت وقررت أن تموت. ولكل منهن لحظة فى مستشفى انتزعن فيها أنفسهن منى وتركننى وكأنما أردن ذلك أو عاقبننى به. لقد بلغت سميحة خفاءها وهى تلد ومضت وابنتها معها. وعود يبلغها العفن مع النضج ويحيلهما الزمن أجساداً تطلب المواراة وتترك الأيدى فارغة. وسارت أمى فى طريق المرض بالإرادة تذوى مع اليوم الذى يمر وتشعرنى كل يوم أن كل ما أحققه هو تقرير للاستغناء عنها وتبرير لها كى ترحل.

لقد أصبحن وراء كل استعادة فماذا أفعل لأمسح ما ارتكبت معهن أو لأمسح عن وجوههن غضب التعقب لى والرغبة فى مص دمى؟

أنا وحدى الآن بلا قدرة على العمل وغولاتى الثلاث فى الحجرة على حوامل لوحاتى وفوق اللوح الخشبى العريض الذى أضع عليه الطين الذى أريد أن أعمل عليه وعند أقدامى على الأرض صندوق الأوراق والصور والكتب والخطابات الذى أريد لو أسخط نفسى إلى مجرد شىء فيه.

أحيانًا تتحرك الصور محددة لكل منها لحظة موقوتة وتنطفئ كأنها لوحات تصدرها آلة عرض ومعها الصوت الخفيض، تلك التكة التى تغيرها. وأحيانًا تسيل من أطرافها السفلى أو العليا وتندلق كاللون أو كالدم من فم رجل مذبوح. وأحيانًا لا تكون هناك صور بل جمل أقولها أنا أو أسمعها، حوار مقطوع مبتور يقف بمفرده وكأنه أسلاك فى الهواء. ثم تحل ظلمة، ظلمة طويلة كسراديب لا تنتهى ليس فيها خطو، لكن تحرك كتلة ثقيلة، معنى مغطى بمعطف ثقيل. وفوق ذلك كله قد تنطلق قطع طويلة من موسيقى مسموعة مصاغة وكأنما أعرف أن أكررها وأنا طبعًا لا أستطيع لو فتحت فمى، وأحيانًا أتعرف فيها على بيتهوفن، برامز، وأحيانًا باخ أو شوبرت، بل وشوبان. لوحات الكبار وألوانهم تبرق فى رأسى فعلا كالبرق ولا أمسك فيها إلا ألوانًا ثنية لفلاسكويز أو تنتوريتو، لكن دافنشى يجىء دائمًا بوجوه أو خضرة شجر أو ماء. أحيانًا أفزع من عيون جويا ووجوهه وأتقدم وأستاف فى خيول دلاكروا. وفى لحظات تقوى فى رأسى بقع اللون الإيطالية الماكيا macchia أو نقط الأخضر والأزرق والأصفر فى انطباعيات الضوء.

ماذا يعنى هذا كله ومتى ينتهى؟ ومتى يجىء الوقت الآخر الذى أعمل فيه؟ هل ليست هناك فائدة؟ هل سأظل هكذا على الكنبة راقدًا؟ لقد جررت صندوقى الورقى الملىء بكل هذه الأوراق والصور والخطابات وبقية فتات الحياة. أدب يدى وأنا نائم وأخرج شيئًا. معظم ما يخرج فى يدى، مرة وراء مرة، أوراق معارض ميونيخ، بينالى فى

الإسكندرية، هامبورج، هيوستون، دليل ممزق قديم لباريس وأول أدلتي في تورينو. كل ما يشدني الآن التاريخ، ١٩٥٩. هل للتاريخ معنى؟ طبعًا معناه البسيط الوحيد الأولى أنها السنة التي وصلت فيها تورينو أولى رحلاتي وسنوات الدراسة. لماذا لا تكون لويزا وبرتيني بعد ذلك هما الصور التي تلعب في رأسي؟ كأنني أسقطهما وأنا أسقط الدليل في الصندوق وأستدير على جنبي لأبعد يدي، لكني أعود مرة أخرى وأمد هذه اليد، هذه اليد البغيضة لي الآن التي لا تريد أن تتحرك، أن تقوم لتمسك بالفرش. إن ما يثقل عليّ هو هذا الإحساس بالخطيئة، هذا الشعور بالعقاب وكأنما أريد أن أجد له سببًا.

في الساعة الرابعة بعد الظهر، في الحر وأنا أتصبب عرقًا وأرتدي بدلة. على ممر المستشفى هدوء وصمت وأنا في الطرف الآخر على المقاعد وأمي تخرج من الغرفة ووراءها الطبيب. وأنا أتحرك بسرعة إليها دون أن أريد حتى أن أفعل ذلك، أتلبس موقفًا. أريد أن أعرف، أريد أن أنتهي، أريد أن يقع ما وقع لأن انتظاره ثقيل، لأن شيئًا ما فيه سيغيرني سيدفعني إلى حرية أخرى، إلى قطع، إلى بتر كأنني أريده. ولست بالطبع على هذه الدرجة من القسوة والفظاعة. لقد حاولت البكاء لكنني لم أستطع. أمي قالت تعيش أنت يا حسن، والطبيب قال شيئًا معناه البقية في حياتك، جملة مضغوطة الآن تتراكب فيها الكلمات، لكنها تعني أن البنت، فقد كانت بنتًا، هي أيضًا... يد أمي على ذراعي تضغط وكأنها لا تريد أن تبكي أمامي ثم تدلف مرة أخرى إلى الغرفة لتكون وحدها معهن.. ماذا فعلت بعد ذلك أنا لا أدري ولا أستطيع أن أذكر. إنني أذكر فقط أنني نقلت. متى لا أدري. تقرير المستشفى بالحرارة والضغط واسم التسمم المائي واختناق المشيمة.. وكلمات أخرى وسطور وخط قبيح صعب لا يقرأ. أين هو الآن. ألا يكون في صندوق آخر أم هو أيضًا هنا؟ أنا لا أريد أن أبحث ولا قيمة للبحث. فعلى الرغم من كل هذا النسيان أنا أذكر، أذكر كل شيء...

ليست هذه أول مرة أذكرها. أنا كنت أريد أن أسميها منى وكانت أمى تريد أن تسميها حميدة على اسم أمها وعبد السلام إذا كانت ولداً على اسم أبى. ولم يكن لسميحة رأى وكأنها كانت تعرف. ما هذه الأفكار السخيفة المكرورة؟

لكن الصورة فى عينى الآن لو أنها كبرت، لماذا إحدى فتيات مادونا الصخور، تلك ذات الشعر الأجعد الكثيف وهذا الميل بالرأس وكأنه لتحديد منتصف اللوحة. هل كان يمكن أن تكون منى كذلك. لقد تلقيت العزاء كما أتلقى كلمات الناس عن لوحاتى وأعمالى. شىء ناقص لا قيمة له، غير موجه لى لكنه محاولات للتشكل منهم تستحق المراقبة والنظر.

أمى أخذتنى فى حضنها بالليل وظلت يقظى وهى تحاول أن تدفعنى للنوم. كم مرة فعلت هذا فى حياتى وأنا طفل. رأسى على صدرها المليء الضخم ورائحة المسك منها والثياب السود القديمة حتى ولو كانت قطيفة وعندما ترفع ذراعها لتضمنى أرى شبه البياض من العرق الجاف.

وأقوم وأضع الصندوق بين قدمى لأبحث عن صور طفولتى وكأنها طريق خلاص. هناك صور لى بقميص مثل البلوزة المشجرة وبنطلون ضيق على فخذىّ السمينتين إننى لا أجدها لكنى أراها وأعرفها. ومرة أخرى أحس الرمل فى فمى ويدى وأرقد من جديد لأرى الطفل يمشى فى الصحراء على أطراف حلوان إلى جانب جده الطويل الصامت بجلبابه الأبيض وبلغته الحمراء المتسخة.

لست أدرى كيف تبقى فى ذاكرتى من ذاكرة الطفل هذا الإحساس والمعرفة بالقصر، بالضؤولة جانب هذا القوام الطويل الممشوق فى الجلباب الأبيض يمس يدى أحياناً ويجذبها نحوه لأصاحب خطواته، وفى معظم الوقت يتركنى إلى جانبه كأننى إضافة

مفروغ منها مـقررة. حجمى حينذاك فى ذاكرتى الآن يحوم حـول بدنى الراقد حول الكنبة وكأنه سحابة أو طائرة أو غمامة على عينى. صورة فوق بدنى الراقد منتزعة منه تسبح فوقه دون حركة أو تقدم.

أنا وحدى فى الصحراء وهو صامت لا كـلام بيننا. أحيانـًا يسألنى هل تعبت دون أن ينتظر جوابًا أو يـعرف أن الجواب هو مـجرد خطوتى القصـيرة معـه فى انفساح الصـحراء نصنع طريقًا ضيقًا. لـم يكن الرمل ناعمًا أو كثيفًا بحيث نترك آثاراً فى الطريق، لكننى كنت أحس مع ذلك أننا نشق هذه المساحـات العريضة الصخـرية المليئة بالرمل الأصفـر الخفيف الذى تحركه أحيانًا الرياح وتمضى به إلى أبعد مما نستطيع الوصـول إليه، عند الكثبان البعيدة التى لم نصل إليها أبدا فى الأرض زلطات ممسوحة وأحيـانًا خطوط تصنعها حـشرات غير مرئية ودرجات الأصفر إلى البنى لا نهاية لها.

تنحدر الشـمس إلى الأفق البعيـد وتتصاعـد صفرة الرمل لتـتحول إلى تلك الحـمرة الفريدة للغـروب فى حلوان. حمرة جـافة صافـية تفيض عـلى اليمين وعلى اليسـار وتبدأ تمتزج على الأرض بمقدم الليل وكأن الليل ينشأ من الأرض وعليها.

ويتـوقف الجد ويخلع بُلغـته ويزيحـها إلـى جانبـه ويبدأ يصلى. يتـجه إلى الشـمس ويصلى، فى هدوء وصمت أسمـع غمغمة الآيات وانتظام آمين والدعـوات التى تصعد مع ارتفـاع الجسم وسـجوده وأنا لا أعـود أراه لأننى أفعل مـثله، وقـد خلعت صندلى وبدأت الرمـال توجعنـى فى قدمى وركـبـتى. فالصـلاة تطول ومـا يكاد يصل إلى السـلام عليكم ورحمة الله وبركـاته حتى يبدأ من جديد الله أكـبر جديدة وجسـدى كله مواظب مواصل للمحاكاة، للحركة فقط، وأحيانًا تتضح على فمى الله أكبر أو آمين.

لم أكن أستطيع أن أعد ولم تكن هناك وحدات واضحة للعدد، كان هناك وقت، وقت طويل ممتد كأنه مكان دخله الجد وشدني معه وليس عليّ إلا أن أنتظرحتى نخرج منه.

عندما نعود وقد هبط المساء وبدأت الظلمة سأذهب معه إلى البيت الكبير ولن أعود لأمي مباشرة لأنه سيتناول عشاءه الباكر وسأتناوله معه. قطعة خيار باردة مقشرة وسيضع بعضًا من الزبادى الذى سيأكله ولقمة من الرغيف السميك وشيئًا من عسل مرة أسود ومرة أبيض.

للتذكر وقع كأنه عملية من عمليات البدن. إننى لا أسترجع ولا أستعيد، لكن التذكر هو فى جوهره تكرار الاختيار القديم للرؤية. مرة أخرى ترى ما كنت ترى وما اخترت أن تراه. لهذا لا أرى كل شيء. أرى السجادة التى سيصلى عليها العشاء وأرى الرف الصغير الذى عليه بعض كتب مغلفة ومجلدة وعليها اسمه بالذهب وأرى السبحة التى يخرجها مرة من جيبه ومرة من تحت مخدته والسرير ودولاب مغلق وهذا كل شيء. حتى النافذة، إن كان فى الحجرة نافذة، لا أراها. أرى الباب المغلق المؤدى إلى الشرفة الواسعة والتى وراءها الشارع والليل والأخوال الشبان والخالة التى تخدمه. وأعرف من أعماق قلبى، وكأنه فى داخلى وليس شيئًا أراه، نور السلاملك الذى تعيش فيه أمى على طرف فناء البيت، وأعرف أننى فى نهاية الأمر سأعود إلى هناك.

خارج الصور، تخدعك الذاكرة وتتداخل الأوقات. إنك لا تستطيع أن تمارس التذكر فعلاً إلا مع الصور، أما إذا بدأت تحاول أن تفهم أو تحاول أن تحكى فأنت تصنع شيئًا مفتعلاً لا وجود له فى لحظة محدودة لأنه مصنوع فى العقل وليس فى العين. تساندك الصور، والجمل والنظرات فى أعين الأفراد لكنك تعيد ترتيبها، تربط بينها وبين بعضها بأنواع من الاستنتاجات وبنماذج متعددة من التعاقب. وفى نهاية الأمر لا تعرف فعلاً متى تمت هذه المعرفة الأخيرة التى تتصور أنك تذكرها وهى فى الحقيقة شيء مصنوع على مدد طويلة. لم يحدث فى لحظة ولم يتكامل فى لحظة، بل لقد يكون حتى الآن لم يحدث ولم يتكامل.

كيف أدرك الطفل كل هـذا الحجم من العلاقـات وكل هذا الحد من التاريخ والمعـرفة وراء أفراد البيت الكبـير وغرفتي السلاملـك. لم يحدث في لحـظة ولـم يتـكامل في لحظة. بل لقد يكون حتى الآن...

جلبابه الأبيض وعيناه. له عين مـخلوعة فأنا لم أعرف أبدًا أنها زجاجـية. لقد عرفت أنه مـر في عمليـة وأنه استـأصل عينه، حـتى الآن لا أعرف اليسار أم اليـمين. لم أنظر في وجهـه طويلاً. كيف ذلك. أسمر، أنفه طويل، شفـتاه دقيـقتان، وجـهه حنون هادئ، لكن العينين لم تسجلا في العين. كـأنني لا أريد أن أراه إلا كتلة، كأنني لا أريد أن أراه إلا أوامر هادئة وحركات صامتة وجوارًا حنونًا يغمرني في صمت. لا [illegible] كثير وإن كنت أجزم أنه الذي أراني بعض لوحـاته من الخط وبعض الرسوم الهندسـية التي لا أعـرف منها الآن إلا أنها كانت تصـور رسومًا لأرض، أرض واقعيـة كان يعمل فيهـا، فيها شجـر أخضر وبيت كبير كأنه قصر، وهو بيت الأمير، أي أمـير، وترعة وفدادين واسعة من الخضرة. في يوم من الأيام قبل أن يأتي حلوان كان يشرف على هذا كله أو هذا ما أراه الآن.

"أيام التـفتيـش" كانت كلمـة ملونة بأسود الليل عندمـا كانت تقـال لي على شفـتين مزمومتين تخـفيان ما يعرف المتكلم أو ذاكرته. مـرة أسمعها من أمي ومرة أسـمعها منه هو وأحيانًا في تهاويل غريبـة يصفها الأخوال وكأنهما يمارسان التذكـر، وكأنه عادة يحرصون على إخفائها وعدم التـورط فيها أمام الكبار. الماضي فيها، وعز قـديم وراحة ووفرة فتصبح الكلمة نـكتة على المائدة، عابرة سـريعة للإشـارة إلى البطة أو الفريك أو الحـمام إذا وضع أمامهم عـلى المائدة في احتفالات السنة. عـاشوراء مولد النبي أول الشهـر وفي أيام أخرى تصنعها أمي وتقدمها لهم متفضلة وسيدة كبيرة حتى على البيت الكبير.

إنني لم أر تفـتيشًـا في حيـاتي. مع ذلك فهي كلمـة فاعلة حـية في حيـاتي تخطر في روحي أحيانًا فأحس لهـا وجعًا خفيًا يختلط بمعاني المجـهول والأصل والمكان الذي يتحدد فيه الوجود دون مـعرفة. لقد تزوجها أبي هناك... وكان يعـمل عند جدي أو معه لكنه تابع

له أقل منه، في الزواج كان تفضلاً وإعزازاً للأب وكأنما اختاره لابنته واختاره لكل ما تلا ذلك بما فيه أنا.

لم تحدثني أبداً عن زواجها وليس في حياتي تصور للقائها مع أبي، لقد مرت سنوات، وأظنني كنت قد بلغت السادسة عندما مات الأب ومع ذلك ينطبق الليل أحياناً وأنا على الكنبة نائم، كما أنا الآن، صغير مغطى الرأس وصوت أنفاسهما حار متصاعد على السرير. لا معنى لشيء إلا أن الصباح عندما يأتي أو على وجه الفجر يقوم هو ليصلي وأنا أوضع في الفراش وجسمها يصبح قريباً من شفتي وكأنها كلها ثدي.

ألا تتحرك الذاكرة كأنها رسم وكأنها بقع وضربات فرشاة. على الحائط الخارجي للسلاملك عجلة عالية أسلاكها حادة قوية وبدالها كبير ضخم كأنها قبقاب ولها جرس ومصباح ضخم يملأ بالجاز وعليه سواد النور. وليست العجلة لأبي ولكنها ملك "التنظيم" وهي كلمة أخرى رددها جدي وأمي وعرفت من أخوالي أنها محل عمل أبي أو الناس الذين يعمل لهم. يدور بالعجلة في حلوان على الخضرة وعلى الأشجار وعلى النظافة وأن عليه أن يدور طول النهار وألا يأتي في الظهر أغلب الأحيان وألا يحين موعد رجوعه إلا مع المغرب وأن يعود في حاجة إلى غسيل وأكل وفنجان من القهوة ويستريح على الفراش وهو يشربه وأمي واقفة حوله تحدثه وكأنما تبرر لماذا لا يذهب هو أيضاً مثلي إليّ عند جدي في البيت الكبير ولماذا عليّ أن أذهب أنا وأن أبقى مع جدي من العصر حتى الليل وفي الصباح بعد أن يذهب.

لكن مع هذا كله ليس في حياتي إلا أمي. في البيت الكبير لي خالة، لكنها غير أمي تماماً. نحيفة وأمي ممتلئة، عيونها وأنفها وشفتاها غاضبة متجهمة لا وضاءة فيها. النور والحلاوة والبسمة والعطف عند أمي وحدها. لقد تزوجت هناك أيضاً في التفتيش لكن

الرجل، أبو سميحة لم يأت إلى حلوان مع الرجل الكبير عندما مرض كما فعل أبى. لماذا؟ أبو سميحة لم يعرفنا ولم أعرفه، طلق نجية وتركها وترك جدى. وأمى تقول عز عليها تسيب أبوها.

ولم أر الرجل أبداً. حتى فى بيتنا فى حلوان عندما تزوجت لم يسأل ولم يحضر زواج سميحة. لا، لا الفرح ولا العزاء.

أكاد اختنق، أكاد أختنق، أكاد أختنق من هذا الانشغال السخيف بالحياة. هل أتصور أننى أجد فى هذا الطريق الطويل لحياتى، فى كل هذه الذكريات، فى الشخصيات التى راحت ولم تكتمل أبداً شيئًا يكشف عنى هذا الضر الذى أعيشه؟ هذه الأيام التى تتلاحق ويتأكد فيها الفراغ وتتأكد الوحدة لأننى لا أنهض لأعمل ولا أمسك بألوانى وفرشاتى وأترك هذا الذى يقبض على داخلى يسيل على اللوحات.

أين ذهبت هذه القدرة على الخلق، هذا الاستعداد للرؤية، لماذا أنظر إلى كل شىء وكأن الأشياء جميعًا تقع تحت لعنة توقف حركتها وقدرتها على الإعطاء أو التلبس بالمعنى؟ هل هذا هو الانغلاق الذى يصيب الروح فتذوى وتجف كأعواد معدة للحريق. هل أنا مريض؟ هل انتهت حياتى فى الفن، هكذا بلا معنى بلا سبب واضح بلا معنى.. بلا معنى...؟

لقد اصطرعت طول حياتى مع المعنى، معنى المعنى. لو أنى أستطيع كما أستعيد الحياة ولحظاتها، أن أتذكر كيف سرت فى الفن وكيف دخلت لوحاتى وأعمالى. إننى لم أتوقف عن العمل أبداً، لم أتوقف عن العمل، كان العمل دائمًا فى يدى، كنت أمضى الساعات أو الأيام بل وحتى الشهور، لكننى كنت أنتهى دائمًا آخر الأمر إلى عمل. أبدأ بالعمل وأنتهى إلى عمل. لم أكن أتوقف ولعلنى تعلمت هذا من برتينى الذى كان يقول دائمًا، القاعدة الأساسية للفن هى لا تتوقف عن العمل. ولم أكن أتبع قوله فى الحقيقة كنت

أحس أنه أمر طبيعى واضح ليس لى غيره وليس أمامى إلا أن أواصله كالحياة تمامًا. نعم، ماذا كنت أفعل لو أننى لم أعمل؟

إننى لا أستطيع أن أستعيد نفسى تمامًا على طول لحظات العمل، بل إننى لا أكاد أعرف نفسى حقيقة إلا فى أعمالى الأخيرة فى الماضى، أى ماض! فى الماضى البعيد فى أول حركات يدى على اللوحة، وأنا أتعلم اللون ومزجه وأنا أراقب الشكل ومحاكاته كنت فعلاً صغيراً وكأننى طفل كنت أفكر وكطفل كنت أعمل. الشجرة والوجه واللوحة المنقولة. لقد ظللت فى هذا سنوات طويلة قبل الكلية وبعدها. لقد رسمت بالرصاص والفحم والجواش وأنا صغير جداً رسمت بأصبعى بكحل أمى لقد ضحكت كثيراً ولم تضربنى، لكننى أسقط المكحلة على مرآة صغيرة وبأصبعى رسمت على الورق. كان الأسود والخط العريض بأصبعى كأنه رقص وفرح وشجار وصوت عال. إننى أتذكر هذه اللحظة كما أتذكر لحظات استكشافى لجسمى وللسائل الذى يخرج منى واللحظات التى ضبطتنى أمى فيها أصطدم بوعورة وعنف مع البدن.

كانت علب الأقلام الملونة التى أحضرتها لى أمى بعد يوم المكحلة عصية خشنة وتعلمت أن أكسرها وأن أستخرجها من الخشب وأحضرت علب ألوان المياه واشتريت أنا الجواش ومع السنوات قبلت أن أدخل الكلية.

لقد تعلمت أن تحترم رغبتى من مواصلتى للعمل فى الصلصال، الطين والرسم المستمر على كل شىء، المرآة وكراسات المدرسة وحائط الحمام وحتى أوراق اللحمة التى كانت تحضرها من عند الجزار. هذا الطريق الطويل من الاعتداء على الأشياء جعلها تقبل وتحترم وتصمت وأنا أقرر الكلية. ولا أظننى سأعرف أبداً كيف حزنت لأننى لم أختر الهندسة أو الزراعة كما كانت تريد. لكن هذا يا أمى لم يكن اختياراً. لم يكن اختياراً

كما كنت تختارين أنت ملابسى أو ملابسك لكنه كان ضرورة حياة كضرورة حياتك لى وعملك من أجلى. لماذا قبلت أن تحملى البقجة وأن تدورى على البيوت فى الصباح وأنا فى المدرسة تبيعين الملابس والحلى وأدوات الزينة والشباشب على نساء البيوت. بعد أن مات أبى اخترت أنت ذلك كى تصرفى علىّ لكى تبقى لغرفنا فى السلاملك هذا القدر من الاستقلال والحرية عن البيت الكبير. بل لقد حملت عنهم، عن جدى والأخوال الكثير من المهام. كنت تحملين، وقد رأيتك أكثر من مرة تجمعين أحذيتهم وتحملينها بنفسك للإصلاح ورأيتك تختفين مع نجية فى غرفة بالبيت الكبير ترقعين القمصان والجلابيب والفانلات. وأنا لم أصحبك أبدا فى أى زيارة من زياراتك هذه للبيع أو للخدمة كما لم تصحبينى أنت فى الكلية.

لقد تغير سلوكك معى، وكأنما لتشعرينى فجأة أننى قد أصبحت رجلاً، اختلف تحضيرك لإفطارى وملابسى وتلميع حذائى واختلف انتظارك لى وانتهى إرسالك لى إلى بيت جدى ولم أعد أذهب إلى هناك إلا كرجل أكبر من الأخوال أنفسهم وقد بدأوا يتناقصون من البيت بعد الثانوية أو المدارس المتوسطة ليعملوا فى مراكز مصر فى الصعيد أو الوجه البحرى. لم تعودى حاسمة معى فى أى شيء لم تعودى تأمرين أو تطلبين. أنا لم أفعل لك شيئًا أبدًا، ولم أحاسب أحدًا، لم أصحبك إلى دكان عباس أو رشدى للمانيفاتورة وأنت تختارين ما ستحملينه فى بقجتك أو وأنت تدفعين لهم الحساب. كنت تضعين لى النقود فى بدلتى فى الصباح وكنت أجدها وأعرفها دون أن نتكلم عنها أو حتى أشكرك عليها. لم تكونى حاسمة إلا فى الزواج وكأنما كنت تقولين وأنت صامتة زواجك من سميحة هو المقابل لى لكل شيء. لماذا فعلتِ هذا؟

كان تسليمك بأن هذا أمر مفروغ منه مقرر لا نقاش فيه أو حوله هو السياج الذى قبلته لحريتى. عندما أزحتك بالصمت عن الكلام فى الموضوع، وبعدم إبداء أى رأى فيه

كنت أمتلك حريتى وكنت أصطرع بمفردى مع الطريق الآخر الذى اخترته. وعندما استقر هذا القرار فى نفسك يا أمى كنت فعلاً قد خلصت منك وكنت أتركك ترتبين هذا الزواج كما ترتبين طعامى أو تمسحين حذائى... ما أقسى هذا الكلام..

لكنى أريد أن أعمل، أريد أن أزيحك الآن كما أزحتك فى هذه السنوات بالكلية. أريد الآن أن أزيحك. أن أجعلك تصمتين وتختفين من هذا التواجد الخفى الذى تتحركين به وتعطليننى عن العمل وتدفعين بالشلل فى يدى والاختناق فى صدرى...

لا بد أن معركة خفية قد حدثت دون أن تعلنينى أو أن أشهدها بعد وفاة الأب لكى يبقى استقلالنا فى السلاملك. لا بد أنهم قد حاولوا أن يجعلونا، أنا وأنت، ننضم نهائيًا إلى البيت الكبير وأن نعيش فيه وأن نوفر إيجار السلاملك.

لكننى أستنتج ولا أتذكر، فلا بد أن تكون نجية قد حاولت ذلك. أن تجعلك مثلها محصورة فى البيت الكبير مع ابنتها لكنى أعرف، ولست أدرى كيف، أنك جعلتنى السبب الرئيسى لرفضك وأنك دافعت بإصرار عن بيت للطفل يدرس فيه ويتعلم حتى يتخرج. ومع هذه المعركة بدأت أنت رحلاتك الصباحية مع البقجة السوداء الكبيرة التى كنت تحملينها أمامى فى يدك ولست أدرى هل كنت تضعينها على رأسك أم لا. ما أقل ما عرفت عنك منذ بدأت هذا الطريق. لم تكونى تغادرين البيت حتى أذهب أنا إلى المدرسة فلم أكن أراك تحملينها خارجة أو عائدة إلا صدفة وفى أيام الإجازات أو المرض. وعندما أعود كنت تكونين قد أحلت البيت إلى مكان هادئ بهيج على نصف ظلمته رخو ناعم لأستطيع أن أذاكر وأن آكل وأنام أو أن أخرج لألعب على رصيف شارع برهان الطويل.

هل كان للأخوال دور فى هذه المعركة. وكيف كان صراعك فعلاً؟ لا أظنهم قد اهتموا كثيراً فهم خمسة من الشبان الذين كبروا مع تغير الأحوال على الرجل الكبير

ولم يعد يشغلهم إلا محاولتهم الانتهاء من أقرب شهادة والوصول إلى أية وظيفة. وقد بدأوا يختفون واحداً وراء واحد من البيت دون أن يتركوا أثراً كبيراً إلا تخفيف قدر من العبء الصامت الذى تتحمله نجية والعبء الحقيقى الصامت الذى تحملينه أنت. كيف تحددت كل هذه الأدوار وكيف رسمت لنفسك أنت هذا الطريق الذى فرضته على الجميع؟

فى هذه المعركة كسبت أنت أيضا سميحة. أضفت هذا العبء إلى نفسك وكأنك عقدت صفقة خفية مع نجية. أن تصمت عنك وأن تترك لك السلاملك وحريتك. أن تواجه هى الأخوال والجد وأن تأخذى أنت سميحة تربينها مع حسن. هل هذا ما حدث فعلاً يا أمى؟

لقد بدأت منذ اليوم الأول لانتصارك تعدينها لى. كانت سميحة أصغر منى بعامين ولم يكن هذا واضحًا أو محسوسًا ونحن طفلان. بل لقد كنت أحس أنها أكبر منى لأنها صامتة، ولأنها أضخم منى جسمًا ولأنها بعيونها السوداء الواسعة كانت تنظر طويلاً إلى الأشياء دون أن تحركها أو تلعب فيها. كنت فى أول الأمر أراها جافية غريبة لا تريد أن تترك جوار أمها حتى إذا أصبحت عندنا وأصبحت تنام إلى جوارك فى السرير محل أبى بدأت أسمعها أحيانًا تضحك وتبتسم وهى معك أو أنت تسرحين لها شعرها وتدفعينها دفعا إلى أن تذهب إلى المدرسة فى نفس الوقت الذى أذهب فيه. وكان ذهابها إلى المدرسة أيضا قراراً منك وعلى الرغم من أمها، لكنه كان زيادة لتملكك لها وضمها إليك. كنت تعدينها للمدرسة بعد أن تفرغى من إعدادى أنا وكنت أجلس لإفطارى قبل أن تجلس لكننا نخرج معا فتصعد هى إلى اليمين للغرب صاعدة فى شارع برهان إلى مدرسة البنات التى كان يديرها صديق لجدى وهكذا قبلها وأعفاها من المصروفات، وأنحدر أنا إلى اليسار مسافة بعيدة فى برهان وفى قلب حلوان حتى أصل لمدرستى. ولهذا كنت أعود بعدها من

المدرسة. كنت أجدها فى البيت عندما أعود وأراها تحاول أن تتلبس أعمالك وأن تساعدنى فى خلع حذائى وأن تعطينى ملابسى لا غير وتضع حقيبة كتبى على المنضدة التى أذاكر عليها ولم يمض وقت طويل حتى كانت تشتغل بالوابور لتسخن الطعام قبل أن تعودى أنت. إننى أذكرها الآن صغيرة وهى تكنس الصالة التى نأكل فيها وأذاكر فيها أو وهى تقف حولى وأنا أخلع ملابسى فى الصالة لتحملها بعد ذلك إلى الحجرة التى ننام فيها جميعا. كنت أنام معكم على الكنبة وعرفت كيف تغير هى ملابسها وعلى حدقتى عينى ظهرها العريض ومؤخرتها الكبيرة. لمحة خاطفة تتكرر وتتأكد مع الأيام وتتأخرين أحيانًا فى الظهر فنلعب معًا كجروين أحتضنها وألقيها على الأرض وأركب عليها وهى تضحك أو وهى تقول والله لأقول لخالتى وأتركها وننتظر.

إن صور سميحة كثيرة فى الصندوق لكننى لا أريد أن أبحث عنها أو أنظر إليها. إن التذكر مضمخ برغبة غائرة، لأنها أول الجسد، تتحرك فى البدن كأنها ثعبان حى. إنها هى الأخرى مثل أمى قد استولت علىّ مبكرة وخالطت صورى الأولى ولوحاتى كما خالطته معرفتى ببدنى. وهل أستطيع أن أذكر كل شىء لأخلص الروح من قبضة حوريات الغضب أو الانتقام. حتى لويزا أصبحت كذلك. هل هى الطواعية والمسار المقرر. هل هو الافتراض وهشاشة المعركة مع الواقع.

إننى أريد أن أضرب رأسى فى الحائط لأنفضهن جميعا. فلا أتذكر إلا هذا السيل الجارف الذى ضربنى فجأة عندما "تحرك عليه الذى خلفه له الوالد". ما أصعب الجملة حينذاك وأقربها الآن إلىّ وأنا محروم من العمل كأننى محروم من الجنس. كان جدى قد مات هو الآخر وبدأت أتسلل إلى مكتبته وما زالت أجزاء ألف ليلة هذه التى أراها فى الصندوق هى أجزاؤه.

كنت قد بلغت الحادية عشرة أو الثانية عشرة. كنت مبكراً جداً مثل كل شيء آخر في حياتي. لقد ضربتني الرغبة مثلما ضربني الفن وأنا غير قادر على أن أضع رجلي على أرض صلبة أو أن أفهم بوضوح ماذا يحدث فيّ.

لقد تغير لون البدن في سميحة وبدأت تجاربي العارضة ونظراتي الخاطفة السريعة تأخذ حرارة جديدة وكأنها درجات اللون. وعندما تكور صدرها لم أكن أدري وأنا أرغمها على أن أتحسسه هل أنا أرضي بدني أم أني بأصابعي أتعرف على الشكل والحجم. كنا نجلس على الرصيف في شارع برهان مع صديقاتها من البنات وكانت يدي لا تتسلل لها فقط بل لهن أيضا وكانت أمي تتركني كثيراً بالليل على الرصيف مع البنات وهي تطرز الستائر والمفارش التي بدأت تدخلها في بضاعتها، وكان عليها لترانا أو تراقبنا أن تفتح النافذة وهي لا تريد ذلك لقربها من الشارع وانخفاضها. وتكررت الليالي وبدأت أصابعي تصبح أكثر جرأة عليهن وأنا أحس سميحة تحرص على أن تكون أبعدهن عني وإن أشعرتني أنها تعرف ماذا أفعل ولم أكن أعرف بوضوح ماذا أفعل حتى علمني الأولاد في المدرسة أن أخرج السر من بدني بعد أن رأيتهم يخرجونه من أبدانهم. كان ذلك محدداً واضحًا تحت نخلة في حوش واسع تحوطه البيوت والكنيسة من الخلف بأجراسها. ألهذا يبقى المنظر والحادث! لكنه غير علاقاتي وتصرفاتي مع سميحة. كان الفزع أكبر من أن يرفعه إلا الرسم ورحت أرسم كالمجنون ووقتها اشتريت الجواش بعد أن ألححت على أمي وبدأت رسومي الصغيرة تصبح وسائل جديدة للتقرب من البنات على الرصيف، لكنها أبعدت سميحة وجعلتها تنظر إليّ كأنني شيء مقدس خطر لا يجب الاقتراب منه. كانت هي قد أصبحت كذلك أيضا. لكن ناراً خفية كانت قد بدأت ترعى فيها هي الأخرى. لم أكن أعرف ماذا يعني أنها تحبني كما تقول أمي إلا عندما حدثت تلك الليلة التي جاءت فيها الملكة نازلي تزور النبيل عباس حليم وجاء موكبها بالموتوسيكلات واصطف الناس

على الرصيفين فى شارع برهان. أنا وسميحة والبنات وأمى فى النافذة على رصيف وعدد من أخوالى مع رجال كثيرين على الرصيف المقابل. وعندما هدرت الموتوسيكلات وبدأت تدوى بأصواتها تخترق الشارع إذا بى أندفع كالمجنون لأعبر الرصيف ولأعود مرة أخرى لسميحة وسط الخطر الداهم السريع المفاجئ. وليلتها صرخت سميحة وهى تنادى باسمى واحتضنتنى وراحت تقبلنى وهى تبكى حتى جاءت أمى لتضمنا معا إلى صدرها وتظل ممسكة بنا معا حتى تعود بنا إلى المنزل وهى تتشهد.

إن للذكرى سحراً كفتح القماقم ورائحة البخور. إننى أعرف فى لوحاتى القديمة عودة هذه الظلمة وهذا النور المفاجئ وراحة الصدر فى حضن البدن الصغير. أعرف هذا الخطر الداهم الذى ألقى بنفسى فيه فجأة لأخرج فى سرعة خاطفة بالعمل الذى أريد. إن الذكرى دائمًا أوضح من المعنى وأكثر حدة.

ولم يكن ذلك بعد هذه الليلة بكثير. عندما أخذتنى أمى فى الصباح فى يوم جمعة وجلست أمام منضدتى التى أذاكر عليها وراحت ترتب كراساتى ورسومى وتنظر فيها وبدأت تغمغم أنى أصبحت رجلاً وأنها تريد أن تخبرنى بسر.

سميحة بيجيها الدم دلوأت وعايزاك تحافظ عليها زى عنيك... دية بتاعتك يا حسن.

إن الدم الذى يتدفق فى عروقى الآن من العبارة المتناقضة لا أعرف ماذا أفعل به. وأحس بحاجة صاخبة لأن أتحرك، لأن أقوم، لأشرب، لأخرج، لأبحث لى عن امرأة الإسكندرية الآن.

هناك شىء يدفعنى وكأننى أسير رغمًا عنى. نحو أين أتحرك؟ لقد حملت البراندى والبيض والبسطرمة وجبنة بيضاء وزيتونا أخضر وسرت مبللاً إلى البيت الذى أعرفه تحت خمارة صغيرة. هناك سألت عنها كانت معرفة قديمة أحملها معى كاستبن العربات. ولم تمض لحظات حتى كانت زوزو على مائدتى تلقى بكاسين سريعين فى جوفها وتنظر

لى دون أن يهمها كثيراً أن تخبرنى بأنها تذكرنى ودون احتفال كبير أو ترحيب. وقلت إننى أريد الذهاب إلى غرفتها فسرنا معًا حتى وصلنا أول السلم وبدأنا نصعد فى الظلمة. وقلت لنفسى ماذا تخشى. وسألتها هل نحن فى الطابق السادس؟ قالت نعم.. إيه تعبت. وكأنها قد حررتنى من طريقى الذى اندفعت فيه أو كأنها حركت غولاتى الثلاث. وتذكرت المرات البعيدة التى جلست لى موديل وتحرك على الفن الذى بداخلى وآلمنى كأنه وجع فى الصدر فألقيت حمولتى الطرية المبللة فى يديها على صدرها وبدأت أنزل بسرعة وأنا أقول دون أن أهتم كثيراً بأن تسمع: افتكرتك.. أنا عندى شغل.

لماذا كانت المرأة هكذا سهلة ميسورة تتناولها يدى وتمتد إليها. منذ طفولتى والمرأة هكذا قريبة. وبعد ذلك كنت دائمًا أحصل عليها عندما أريد. أنا لا أذكر امرأة أردتها حقًا ولم أحصل عليها. كان الوقت يطول أحيانًا وكان الجهد يزداد والمحاولات تتكرر والترتيب يتصاعد، لكنى كنت دائمًا أصل فى آخر الأمر. كان الطعم يختلف وكان حرصى على البقاء والاستمرار يتفاوت، لكنى كنت أرتب القطع والبتر كما كنت أرتب الوصول. كان الوصول أيضا يختلف. كنت أحيانًا أكتفى بالقبلة أو الحضن العارض وأحيانًا أصل بأن أجعلها تعبر عن الحب. أو أن تنحدر من عينيها الدموع وفى مرات أمتلك وأمتلك حتى لا يعود هناك شىء بعد. هل أنا كذلك فعلا. هل هذا فى الحقيقة عجز، وكأنه لعنة، عن الحب. إننى أعرف الحب. أعرف هذا اللاعج الذى يحنى الصدر والبدن ويحير العينين ويبعث الجفاف فى الحلق. إننى أعرف الشوق والالتياع والطلب والسهر المتصل فى الانتظار، لكنى وكأننى لم أعرف الحب. لم أعرف الاتصال والديمومة والتضحية وهذا الإنكار للذات الذى يبدو أنه المعنى الغائر الذى يفترضه الناس فى الحب أنا لم أنكر ذاتى أبداً.

لماذا لم أعرف هذا إلا الآن وأنا أعيش فى هذا الجحيم من اللاعمل. ماذا أستطيع لأتطهر؟ يخيل لى أن أرسطو كان أنفذ وأصدق وهو يتحدث عن التطهير منه وهو يتحدث

عن المحاكاة. فهو فى التطهير يتحدث عن شيء عاناه كمتلق، لكن حديثه عن المحاكاة كان وصفا من الخارج لما هو متحقق وليس معرفة، كما تصور، للجوهر والطبيعة للعملية الفنية ولحركة التحقيق نفسها. وعندما أستعيد الإغريق فى النهضة كانت المحاكاة صلب الاستعادة وتلبست الفن حتى وصلنا إلى مرآة دافنشى. ومع ذلك لم يتصور أحد مع كل ما بذل فى المنظور وخداع البصر أنهما كافيان للفن. فهما فى الحقيقة سياج يحمى به الفنان نفسه ويسور أرضا لعمله يمتلك فيها حريته فى التشكيل. كان برتينى يقول إن الطريق للفن الحديث قد بدأ بدلاكروا وبفهمه للتلخيص والتضحية والحذف..

لماذا تلمع هذه الأفكار فى روحى الآن وكأنما أستحضر بها نوراً يبدد سواد الروح وركودها. لكننى لا أرى فى الحقيقة نوراً بل أغرق وأغرق فى صمت أسود كوحل ذائب كثيف. صمت الروح عن العمل أقسى أنواع العذاب والعقاب وليس هناك عوض أو قدرة على نفض هذا الحصر إلا...بماذا؟ بالاستسلام؟ لأى شيء؟ ألم تكن المرأة على السلالم حلا.. لكن روحى نكصت ودخلت إلى ظلمتها كأنها حيوان بحرى يدخل محارته. أطرافى كلها مخفية وليس لى القدرة على أن أمتد لشيء..

لقد كان الطريق طويلاً منذ تركتها هابطـًا للسلالم ومنذ ذلك الحين وأنا أحس كأننى أهبط باستمرار إلى هذه الظلمة الجديدة التى لم أعرف مثلها من قبل. ألقيت بنفسى فى تاكسى شارد وعدت إلى البيت لأنام وها أنا أغمض عينى وأفتحها على سلسلة متصلة من الكوابيس. مشاعر محددة ضاغطة ومعانٍ غامضة مبتورة وشخصيات متخفية متشكلة هى دائمًا مثل.. أو كأنها.. وموقف وحكاية لا أول لها ولا آخر.. ووجدتنى مرة أسقط فى هذا الوحل الصامت المتصل ومرة أدب وكأنما على حجر بأرجل كأقدام العقرب وأفرد أيدى وأذرعا كالعنكبوت.. وعندما حلمت أننى أصادق رجلاً هو أستاذ لى أو شخص أحاول التقرب إليه وخدمته وإذا بى أرى أمى أو لويز من نافذة تأخذ منه نقوداً وإذا به وكأنه مرة

برتيني ومرة رشدى أو عباس في محلات المانيفاتورة. كان الشباك والطريق إليه، وكانت أمي أو المرأة التي تأخذ النقود، وأنا والرجل مزيجًا مضطربًا فريداً من حلوان وتورينو. لكن وجع العلاقة الخفية يدفعني إلى يقظة جرداء تستحيل فيها كل محاولات التفسير والتحليل إلى تذكر وكل محاولات التذكر إلى مناظر أخرى لا علاقة لها أبدا بما رأيت أو هكذا يخيل إليّ.

ولم تكن أمي ما أتذكر. فعلى الرغم مما في الحلم من اتهام لها فأنا أعرف وأثق ولا أظنني مخطئًا أبداً في أنها لم تعرف رجلاً آخر غيرى بعد أبي لكن من يدرى فعلاً ماذا كانت تفعل في دورتها أو حساباتها! إننى لا أدرى كيف بلغها الاتهام فى الحلم وكيف شابهت لويزا. كانت لويزا شقراء صغيرة قصيرة وكانت أمي سمراء طويلة ممتلئة ولم تكن المرأة أيا من هذا. كانت نحاسية الوجه خفيفة ولا أستطيع أن أحدد لها طولاً أتذكره، إننى أذكر خجلى وتخوفى الدائم وأنا صغير من النقود التى تحملها أمى أو التى تعطيها لى وكانت لويزا تساعدنى أحيانًا بالنقود. كنت غريبًا معرضًا محتميًا دائمًا بما يعتمل فى نفسى من عمل وكأننى مستغن تمامًا ولهذا كنت دائمًا أعطى..

إن الذى يصعد إلى نفسى الآن ليس كيف رأيت لويزا أول مرة. وأنا أذكر ذلك بوضوح، وليس كل الحب الذى جرى بيننا ولياليناً معا، لكننى فى بقية من رجفة الحلم أذكر هذا اليوم فى الصباح الذى كان آخر مرة رأيتها وأذكر شجارها وخروجها من هذا البيت الصغير الذى كنت أقطنه في تورينو. كانت هى التى اختارت البيت ووجدته لى واتفقت مع صاحبته على الإيجار. وكان ذلك بعد أقل من شهر واحد من وصولى إلى تورينو وانتظامى فى الأكاديمية وتعرفى عليها مع ترددى على برتينى ودخولى فى حلقة تلاميذه الذين يتواجدون يوميًا تقريبًا فى الاستديو لمنزله.

كان ذلك في نهاية السنوات الأربع التي أمضيتها في تورينو. لقد وصلت في فبراير، أوائله.. في ١٨ أبريل كانت قد اختارت البيت الذي نلتقي فيه وأعمل في أكثر سنوات عمري عملا وجدة. في البدء كانت لقاءاتنا وخروجاتنا متعاقبة متلاحقة وكأنها قد وجدت فيّ أرضا وتاريخا جديدا لا أفرغ أنا من عرضه وتعريفها به ولا تتوقف هي لحظة عن إثارتي وتحريكي لأمارسه معها. كانت النساء كثيرات متلاحقات في تورينو، لكن انتزاع لويزا من زوجها برتيني ومن حلقة الطلبة قد دفعني دفعا إلى تمثل الحب حتى الوقوع الحقيقي فيه. أظنها لم تعرف من قبل الرجل الذي يعبد وعرفت ذلك فيّ ولم تعرف الرجل الذي يحيل كل نقطة في بدنها إلى جوهرة توصف ويحركها نفس العشق وترسمها الأصابع حتى تتيقظ كجمرات النار. وأظنها لم تعرف أن لمصر وجوهًا أخرى وخفايا في الضوء والشكل والمشاعر غير تلك التي عرفوها بها في المتحف المصري هناك. وكنت أنا في عز قدرتي على العمل وعلى التصرف بالحب وكأنهما ينبعان من مصدر واحد ويتدفقان معا في مسار لا يفترق. كانت إيطاليتي قد تقدمت كثيراً عن أيام دراستي لها في معهد دانتي بالقاهرة وكان تاريخ الفن هو شغلي الأكاديمي الأساسي ومعه انتظمت في دراسة الإيطالية وشيء من اللاتينية. وكانت لويزا عونًا كبيراً لي على كل شيء وكنت أقدم حبي وأمارسه كأنني أدفع به عن عملي وتعليمي بل وحتى عن اللغة التي أتعلمها.

وفي سبتمبر كانت تقول لي لقد صنعت فيّ رغبة لم أكن أعرفها من قبل وكنت قد بدأت أحس أن الحب الذي صنعته يجرفني إلى معانٍ جديدة للتملك والغيرة والجوع المطلق إلى الاستئثار بها. كانت بالطبع تعرف كل شيء عن حياتي كما عرفت أسرار عملي. وكانت تعرف صور سميحة وصور أمي وحقيقة أنني تزوجت قبل أقل من سنة من سفري إلى تورينو وتعرفي بها. وما كان أغرب تلك اللعبة الحرجة الخطيرة بيننا حول الزواج والطلاق. كنت ألقن بدنها وروحها، وكلي صدق وحرص، أنني لا أحتمل أن

يمسها أحد غيرى وأن الوقت والضرورة، ولست أعرف أى نوع من الضرورة يتطلبان منها أن تترك برتينى تمامًا وأن تمتنع تمامًا من أى علاقة مع أحد غيرى. كانت ولا شك على علاقات كثيرة قبلى، لكننى أعرف تمامًا أننى امتلكت كل ما تملك من قدرة على الإعطاء وأصبحت أقرب ما يكون من أن أجعلها ترتبط بى ارتباطًا دائمًا. لكنى فى نفس الوقت كنت أعرف أنى لا أستطيع أن أترك سميحة أو أن أواجه أمى. كان تركى لهما عند السفر موجعا لا يحتمل. وكان خضوعهما معا بقرارى بتقبل البعثة وقبولهما أن أسافر عملاً خارقًا من التضحية والأسى المكبوت يكبلنى ويربطنى بهما بقيود لا تجعل حريتى فى الحقيقة إلا عملاً مؤجلاً ووقتًا محدودًا.

كيف كنت أجمع بين الشعورين وكيف كنت ألعب هذه اللعبة الخطرة مع لويزا. ماذا لو أنها قبلت فعلاً، ماذا لو أنها خطت تلك الخطوة التى كنت أدفعها لها باستمرار؟ كيف كنت سأتراجع؟ لقد مضيت فى الطريق إلى الطلاق إلى حد أننى لمحت لسميحة بذلك فى خطابات لها وقسوت فى ردودى على أمى حتى كدت أنقطع عن الكتابة إليها وبدأت مع نفسى طريقا طويلاً مستمرًا من التبرير لنفسى ومن الدفاع عن حريتى وعن مستقبلى. لكننى مع ذلك لم أكن أعمل إلا بمصر وبهما. كانت لوحاتى، وأعمالى كلها تذكرا واستثارة لطفولتى وحياتى معهما. حتى بقجة أمى السوداء ظهرت أكثر من مرة على مستويات ومعان كثيرة فى لوحاتى. وكانت لويزا تعرف ذلك وتعرف أسرار عملى كما لم يعرفها أحد أبدا. أظن أن عشقى لها وجوعى لبدنها كان عشقا لمقدرتها الفريدة على الفهم والتبصر بالمعانى والمشاعر التى تصعد فى نفسى وأنا أعمل. ولما كان هذا لم يتكرر أبدًا فى حياتى ولم أكن أحس أننى عار وآمن فيما أعمل إلا أمامها كانت ضرورة لا أستطيع أن أتركها تمضى من يدى أو أن أقبل أن أحرم نفسى منها.

ما أغرب مسار الذاكرة وما ينضغط فى اللحظة الواحدة منها. إننى لا أتذكر لحظة واحدة أو حدثا واحدا لكنى أتذكر حدثا مبطنا بروح زمن طويل وبمشاعر متضاربة متباعدة

الوقوع متغايرة الأنجاه. إننى أتذكر شيئًا محدداً لكنى أتذكر معه كل شىء. وقد لا يستطيع المرء أن يفرض على الذاكرة مساراً إلا عندما يريد أن يحيا فى اللحظة الحاضرة واقعًا مختاراً أو شعوراً محدداً يحتاجه جسمه وتتطلبه روحه.

إننى أتذكر آخر يوم رأيت فيها لويزا فلا أبقى فيه لكنى أندفع إلى كل لحظاتنا معا منذ أول يوم رأيتها وأعاود رؤيتها غاضبة بشعة عالية الصوت متشاجرة وهى تشتمنى وتطلب منى أن أسافر وأن أعود إلى بلدى وأن أترك مدينتها فأتذكر أمى وسميحة وأنا أتركهما وأسافر أول سفرى إلى تورينو. وتعاودنى صورة لويزا الغاضبة وتتسلل روحى إلى عشقها وضرورتها ومع معنى ضرورتها لى تصعد أمى وسميحة مرة أخرى فى إدراك لضرورتهما لى، ولقسوتى البشعة ولحريتى المستقلة العارمة المحطمة لتركهما والتخلص منهما جميعًا. ويصبح هذا هو ما أريده الآن وكأنما أعاود الجرم لأحصل على الخلاص ولأفك السحر الذى يقيدنى عن العمل فأرى لويزا مرة أخرى فى هذا اليوم الأخير...

فى هذا اليوم الأخير.. كيف أحلله أو أصل إليه.. أو أخلص منه دون كل شىء، وكل الزمن وهم الثلاث..

كنا قد بلغنا هذه القمة الخطرة من ضرورة الزواج واستحالته وكأننا ندفع نفسينا إلى آخر ما نستطيع أن نعطى ونحن نكذب على لحظة القمار الأخير.. كيف توصف هذه اللحظة دون أن أتهم نفسى أو أن أدرك توحدها فى كبريائها وعدم قدرتها الحقيقية على الحب والتضحية.

فى الشهور الأخيرة قبل هذا اليوم الأخير كنا نلتقى للغرام كل يوم تقريبا وكانت أحيانًا تأتى من الصباح وتظل حتى المساء ولم نكن نعمل شيئا طوال اليوم إلا الحب وكأنما نعتصر آخر ما فى بدنينا حتى لا يبقى شىء. كنت أشرب نبيذا طول اليوم وكانت تشرب الإكسبريسو الذى تنشغل بعمله عارية أو متدثرة بفوطة بين مرات الغرام. ومع القهوة كنا

نتحدث. هي بوضوح وبتبصر وأنا بتبعثر وسكر أتكسر، أنا في جمل تطالبها أن تطلق برتيني وأن تقرر أن نتزوج، أن تصارحه وأن تنتهي هذه العلاقة الطويلة بينهما وأن تساعدني لأبقى في إيطاليا وأن أتزوجها. وأنا أقول كل هذا وكيف كنت أقوله، أعاود تقبيلها وتحريك جسدها وهي تقول لي أنت لا تريد إلا هذه اللحظة، أنت لن تترك سميحة ولن تترك مصر أبدًا، أنت لا تعرف ماذا تقول أو ماذا تريد ولو أنني فعلت ما تريد لرفضت ذلك تمامًا أو جننت وتوقفت عن العمل.

كم مرة قالت لماذا لا تمضي الآن، حتى قبل الموعد الأخير لنهاية البعثة، إنها عدة شهور ونحن في هذه اللحظات من الحب. وفي لحظات أخرى من الحديث كانت تتحسس وجهي وبدني بأصابعها وكأنها تختزن ذكرى وتقبلني وكأنها هي الرجل وتبكي.. وتبكي بدموع غريبة طويلة تصمت بعدها.. وتظل صامتة حتى أعدو عليها من جديد.

حتى إذا ما حان موعد خروجها وموعد العشاء مع برتيني ورفاقه وضيوفه في منزله واستعدت في ملبسها وكلماتها للقيام بدور ربة البيت والزوجة، استبد بي الغضب والثورة ولا تكاد تخرج حتى أخرج أنا بعدها بقليل أبحث عن امرأة أخرى وأحملها معي إلى المنزل لأمضي ليلة من الجنس المفتعل والشرب المتصل والحديث الطويل الذي لا تفهمه المرأة حتى يصبح بالعربية، فتضحك ضحكات العاهرة البلهاء وأحمل نفسي حملاً على الغرام في عربدة وتحطيم للنفس وللبدن معا...

... وتنقطع عني لويزا أيامًا وتقرر ألا تراني ويبدأ إلحافي وضراعتي في التليفون أن أراها أو ذهابي إلى منزلها واقتحامي بجنون لعلاقتها مع برتيني أو جلساتها مع أصدقائها. وتعود إليّ وقد اشتد بي الشوق لنمضي من جديد نفس لحظات الغرام والحديث الغاضب الباكي حتى تخرج فأخرج أنا أيضا لأبحث عن امرأة أخرى وكأني أريد أن أستريح..

وتكرر هذا ليالي عديدة حتى ارتبطت بي فتاة واحدة من فتيات الليل لا أكاد أذكر اسمها الآن إلا أنه أقرب إلى سونيا وشهدتني أبكي وسمعتني أقص قصة غرامي مع لويزا

وعذابى الحقيقى. أو المصطنع لا أدرى، بينها وبين مصر وزوجتى وأمى. ومع تكرار الليالى وما أخذته منى من تدليل ومن صور الحب ومن أسى وحديث مجنون عن الفن وعما فى يدى من لوحات وما شهدته منى وأنا أعمل ارتبطت بى وأعدت لى طعامًا فى آخر الليل وشهدتنى وأنا أتساقط من السكر وساعدتنى على الحمام. وبدأنا نمضى أياما بأكملها معًا تغيب فيها لويزا غاضبة أو تنشغل عنى بواجباتها الاجتماعية، فنخرج إلى مطاعم تورينو وباراتها بالليل، أو نخرج فى الصباح إلى التلال فنظل على الألب، أو نتوغل إلى واحدة من الضواحى الجميلة فنصل إلى سوبرجا على الشاطئ الأيمن لنهر البو أو نقف قبل ذلك عند ريفولى نتغدى هناك على سفح الجبل أو نتفرج على البيوت القديمة معًا أو ندخل حديقة قصر كونت فردا (conteverda) وأحملها حملاً على أن تزور متحف الفن الحديث فى الحديقة. وهكذا تعددت أوقاتنا معًا فى خارج المدينة وفى البيت. وأصبحت الفتاة ارتباطًا خفيًا أخفيه عن لويزا بل وعن نفسى. فلا أكاد أراها حتى أبدأ فى الشراب ولا أكاد أنقطع عنه طالما نحن معًا.

كان عملها يضطرها إلى أوقات غير منتظمة وإلى انقطاع أحيانًا عنى وعن البار الذى تعمل فيه. وعند ذاك أبدأ ليالى حائرة فى البحث عنها دون أن أقنع بامرأة أخرى بعد أن تتركنى لويزا. فإذا ما عثرت عليها أمضينا أيامًا متعاقبة معًا أتجنب فيها لويزا تمامًا وأعيش مع سونيا تمامًا حتى تختفى من جديد. وأخيراً أخذت مفتاح البيت لتأتى عندما تنتهى من عملها فى أى وقت تريد وتدخل حتى لو كنت قد نمت وكنا على وشك الفجر..

هذا التعاقب السريع للعلاقة والحوادث ولوجهها الجديد ولخبراتها مع البدن وتزايد ارتباطها بى وفرحها بعلاقتها معى لم يمس شيئًا من عشقى للويزا ومن حرصى المستمر على أن أراها كلما استطعت ومن صراعى المتصل معها على الوصول إلى حل. لكن هذا الجهد الذى يبذله البدن والصراع العالى مع الروح، جعلنى أفقد الحيطة فتدخل سونيا المنزل

وأنا ولويزا فى الفراش فى ساعة مبكرة من ضحى النهار وتقتحم علينا الحجرة وتتهكم علىّ وعليها فى سوقية قاسية قذرة وترتدى لويزا ملابسها بسرعة وتتركنى شبه عار على الفراش وتخرج من الغرفة لتواجهها وينفجر منهما معًا سيال من الشتائم والكلمات البذيئة وتشتبكان بالأيدى وأخرج أنا لأخلصهما فتجرحنى سونيا فى وجهى بأظافرها الطويلة ويسيل بعض الدم.. وتخرج..

وتقف لويزا أمامى وحدها لتواجهنى ويقع اليوم الأخير أنك كاذب محتال لماذا لا تترك بلدى الآن؟ وكأنما بلدها هو جسدها أو هى نفسها. صفقت الباب وراءها. وخرجت وتركتنى وهى تكرر كذاب.. كذاب.. كلب.. كلب... كلب.. سافر سافر واتركنى.

إن كمية الخفاء التى يختفى خلفها الإنسان الذى صناعته الخلق أكبر من أن يفضها أى قصاص لحياته حتى وإن كان هذا هو القصاص نفسه. وليس الخفاء هو نتيجة للخوف أو التكبر أو الكذب أو الجبن عن المواجهة. فهذه كلها أوهام المحللين النفسيين. أوهام أولئك الذين لا يريدون إعطاء الإنسان الحق فى الخفاء الحقيقى الذى هو مجرد الوجود. إننى طبعًا لا أريد أن أخفى شيئًا عن نفسى ولا أخفى عنها بالفعل شيئًا. وقد يكون من المريح أن أنسى، وقد أجد ألمًا شديدًا فى التذكر، وقد أود أن ألوم نفسى أو أندب على ما فعلت كما تفعل النساء الثكالى.. لكنى لا أظننى سأفعل إلا ما فعلت لو أننى عدت مرة أخرى إلى اللحظة أو الفعل الذى أتذكره.

إن أولئك الذين يحللون النفس بنظريات التحليل الفرويدى أو غيره كلهم يضعون نظامًا يهربون إليه من مواجهة الخفاء الحقيقى. فأنت إذا وجدت سببًا للخفاء استرحت وقبلت، وضاع هذا الفزع الجوهرى الذى يجب أن يستشعره المرء لو نظر حقًا فى الوجود، لو أسلم روحه لهذا الخفاء الذى لا ينتهى إلا إلى خفاء آخر يمتد ويمتد كالصحراء أو الماء أو النار بل وحتى كالهواء. إن الوجود هو الجوهر وراء كل عنصر ووراء كل شكل وكل

قيمة، حتى الوعى امتداد له. ولهذا فإنه يجب أن يقاوم، يجب أن ننتزع من الوجود الفعل وأن نرغمه على أن يصبح فنا. إن لم نفعل ذلك فنحن سنخاف، سنرتعد، سنتشكك سنخضع لكل عنصر ولكل شكل ولكل قيمة يلقيها أى وعى مجنون أو سلطة جائعة وسنتوقف. هل أضع يدى على الأسباب الحقيقية للحصر الذى أعيش فيه. إننى لا أعمل لأننى لا أنتزع من الوجود فنا لأننى سمحت للوجود أن يكون أكبر من الفن. وهو بالفعل أكبر حتى يتحقق الفن. وفى هذه اللحظات التى ينتج فيها الفنان عملاً ليس فنا يضحك منه الوجود ويبتلعه وقد يرغمه على الصمت، قد يصيبه بالحصر الذى أعيشه الآن.

إننى أعرف أن الفكرة التى أحاول أن أمسك بها أصعب من أن تضمها الكلمات، أعصى من أن يتم التعبير عنها، فهى ليست فى حاجة إلى تعبير لكن إلى وجود مقابل، إلى استمرار وامتداد للوجود. ولا شك أن هذه الكبرياء، هذه الهوبريس التى تكمن وراء فكرة العمل الفنى كوجود هى كبرياء أضخم وأجرم من كبرياء الفنان أمام الواقع والشخصية والمحبة ومشاعر الآخرين وقيمهم ورغباتهم.

فالحصر القياسى الذى أعانيه الآن ليس من جرمى مع نسائى، ليس من خطيئتى فى حق الأم والزوجة والحبيبة وقد أخطأت فى حقهن جميعًا، لكن سببه الحقيقى هو فى مفهومى للفن، هو فى نوع الفن الذى أرتكبه وأحاول أن أصنعه ولا أكاد أستطيع أن أحاول أو أن أصنع غيره.

كنت دائمًا فى الفن أرفض الحكاية والمحاكاة وكل محاكاة حكاية وكنت أعتقد، وما زلت، أن التعبير عن الشعور والعواطف وتعقيد الشخصيات وجوانب النفس ليس من مهام الفن. قد يكون من عمل الحب أو من عمل التعامل الإنسانى العادى أو حتى من عمل كل ما نسميه علومًا إنسانية بل وحتى من عمل التاريخ، لكنه لا علاقة له مباشرة بالفن وليس من مهامه.

ولست أدرى كيف أفسر وصولى إلى هذا المعتقد فى الفن. فلم يكن معروفًا أو مطروحًا فى كلية الفنون وأنا طالب وإن كنت قد أحسسته مجمدا مصمتا فى يدىّ عم سيد الذى أحضروه من إدارة السجون ليعلمنا النحت. كنت أحسه فى يديه وهو يعلمنى الأزميل والمبرد أو وهو يعجن الطين ويتناوله فى كفيه. أما بقية الأساتذة، يغفر الله لهم، فلم يكونوا يحاولون إلا التعبير حتى وهم يتكلمون عن التجريد ومدارس الفن الحديث. لم يكن لديهم معاناة إلا للمحاكاة بما فى ذلك محاكاة الاعمال الحديثة للفنانين. إننى لا أكاد أذكر أننى تعلمت منهم شيئًا، بل لقد كان الصعب دائمًا أن أخلص مما علمونى أو قالوه أو عملوه. كان أبرزهم وأكثرهم اهتمامًا بنا كطلاب صاحب لواعج فى الفن واللون وكأنما يعطيه اللون الحق المطلق في الألم والتشكى والترقق والتعبير العاطفى الذى يندلق على اللوحة فيعطيها وحدة من تطلعها للمعنى ومن حرصها على التعبير. وكان هناك أيضا أساتذة الواقع والناس وآلام الفلاحين والعمال وصور التراث وتأثيرات البيئة.

ولست أدرى من أين جاء حقى فى أن أرفض كل ذلك وأن أترفع بنفسى عن مسايرته. من أين كانت لى هذه الكبرياء. ومن الذى أعطانى الحق فيها. إننى حتى الآن وأنا لا أعمل، لا أستطيع أن أقنع نفسى بشىء من هذا على أنه طريق للفن أو هدف له.

إننى أريد أن أتابع هذا الطريق فى البحث عن أسباب حصرى الحالى لأننى أعتقد الآن، وأنا أكثر هدوءا مما كنت منذ أيام، أن الطريق لمعالجة الأزمة هو عن طريق الاعتراف بالمعتقد الفنى وليس بالأخطاء والخطايا. فأنا أبحث عن فن وكيف أصل للفن عن طريق الأخلاق أو علم النفس. لقد تحدث معجزة وأعود للعمل لكنى لا يمكننى أن أعود بالتبرير أو التفسير.

لقد آمنت وما زلت أومن بالفن كوجود مقابل للوجود. مقابل، ليس بمعنى مشابه أو مساير أو محاكٍ، لكن بمعنى وجود آخر، وليس بالضرورة مغايرًا، بل إنه أقرب أن يكون

امتدادًا من ناحية للوجود نفسه، ومن ناحية أخرى هو وجود آخر تتجسد فيه القيمة التى لا يعرفها الوجود إلا من الوعى أو من الاستعمال، فالفن لا يستمد قيمته من أنه شبه الوجود لكن من أنه هو الصانع للقيمة للوجود. فنحن لا نرى الشمس ولا الزهرة ولا الماء ولا الجسد البشرى ولا تجمع الأفراد كوجود لكننا نراهم بإضافة قيمة قد صنعتها روح الفن فى الإنسان. فالفن هو صلب إنسانية البشر وهو تيتانيتهم.وكل القيم مستمدة من تجربة الفن. فالأخلاق وقيم المجتمع بل وحتى القيمة التجارية والمعنى النفعى للأشياء تقوم على حجر صلب هو الفن، ولولا الفن لتساقطت جميعًا ولم يعد لها تماسك أو اتساق. إن فنية الإنسان،قدرته على صناعة الوجود المقابل، هى التى صنعت له تاريخًا ومجتمعًا وأخلاقًا، وليس كل مظهر من مظاهر الحياة البشرية إلا فنا ناقصًا لم يصبر عليه البشر فاختزلوه فى شكل آخر من أشكال النشاط البشرى واضطروا إليه خدمة لوجود أبدانهم التى تحتاج الطعام والنوم والجنس كى تظل وجودًا.

قد يكون هذا كلامًا مستحيلاً لكنى أراه واضحًا بسيطًا يهز كيانى الآن كما ظل يملؤه طوال حياتى. إن كل نشاط إنسانى غير الفن هو فن ناقص، هو عجز عن الإكمال والإنجاز لصناعة الوجود ينحدر إلى بنيانات عقلية أو نظم أو موضوعات واتفاقات مختصرة لتيسير السلوك. وكلما ابتعد الناس عن صناعة الفن ابتعدوا عن إنسانيتهم الحقيقية وسقطوا فى الشر والخطأ اللذين هما فى جوهرهما عدوان على الوجود. أو صنعوا أوهاما من التملك والسلطة والمجد كبدائل وهمية للوجود وتركوا للتاريخ أن يعطيها هذا المظهر الزائف للوجود.

ولست أعتقد أننى قد توصلت إلى هذا المعتقد، بل أعتقد أننى بدأت به من ممارسة طبيعية لفنية الروح التى تلقيتها ومن بشريتى الأولى الأساسية. وأظن أن كل التأثيرات التى عمقت هذا الاعتقاد أو الأفكار والأعمال التى أيدته وثبتته ورسخته فى الروح لم تكن هى

السبب فى تكوينه، لكنها كانت اختيارات يتجه إليها المرء ليثبت ما يعتقده وما بدأ به.

إننى لم أتعلم بما فيه الكفاية. لم أجد من يعلمني، أجد الطريق سهلا لكى أضم إلى روحى تجارب وأفكار الآخرين بسهولة. لكننى اخترت النحت، متى؟ لا أدرى. أظنها كانت بداية مبتدأة فى الروح وكأنها جزء منها. ما أقل ما تعلمت عن النحت فى الكلية، لكنه كان موجودا فى نفسى عندما كنت أمشى فى الصحراء مع جدى وعندما كنت أنظر إلى أمى وهى تقف وحيدة بعد وفاة أبى وتنتصب وتخرج وتحمل البقجة وتعود لترعانى وتظل فى أغلب الوقت صامتة إلا عند الضرورة القصوى وعندما تكون كلماتها قاطعة حاسمة وكأنها أعمال، وكان حلمى واتجاهى دائمًا، وهما فى النحت فقط شيء واحد، إلى النحت، إلى فك أسر الشكل من المادة الخام، من الحجر غير المشكل القائم المقابل ولم أكن أتجه إلى الطين أو الشمع، وما أكثر ما اتجهت، إلا خضوعًا لقسوة الظروف وصعوبتها. من صعوبات الحصول على الحجر والجهل الأولى فى خبرتى بأنواعه وطبيعة مقاومته وخطوط وجوده، حتى تعلمت ذلك ودرسته بمفردى وكأننى أسمع موسيقى.

وقد ارتبط النحت أيضًا منذ بداية توهُّج الأصابع بملمس الجسد، وما زلت إلى الآن أومن بقدرة أصابعى على إعادة تشكيل جسد المرأة، أية امرأة، بل وحتى تغير محاور بدنها وخطوط بصرها ومطلات جسدها على الوجود فى الخارج كى تعبر من وجودها الأول إلى وجودها الفنى الآخر. فهل لهذا لم أستطع فعلاً أن أحب بالمعنى الذى يعنيه البشر، وهل لهذا تحققت الخطيئة؟ إن جسد المرأة هو المكان الطبيعى للخطيئة لأنه المكان الطبيعى لصناعة الوجود رغم كل ما قد يقال عن جمال الجسد الرجلى فإن جسد المرأة هو المادة الصالحة لصناعة الفن وهو أكثر استعداداً لتلقيه بخطوط وطبيعة مقاومته للتشكيل وخضوعه له، وعندما تتم المرأة كما يتم العمل، تغادرها الروح ويغادرها الفنان لأنها قد كملت.

ماذا أريد أن أقول؟ حقا إننى أسأل عما فعلت. هناك ارتباط وكأنه علة، بين ما أعتقد فى الفن وبين ما فعلت فى الحب والحياة. إننى لم أستطع أن أدافع عن بدن سميحة وهى حامل وتركتها تمرض وتموت. إننى لم أقصر فى ذلك فى المظهر الخارجى للحوادث وللأفعال لكننى قصرت فى الداخل، قبلت وكأنما كنت أريد. أليس هذا هو المعنى الحقيقى للخطيئة، ألا تقاوم لأنك تريد.

كان ذلك فى السنة الثانية لعودتى من تورينو، لكن هل أعود للحكاية؟ إنها بقدر ما تخفى تهز القلب وتطلق الشعور والألم لأن الحكاية لا تقوم أبدًا إلا بعد الخطيئة عندما نسقط نستطيع أن نحكى، أما قبل ذلك لو استطعنا فإننا نحدث الفن. لقد حاولت منذ عدت من تورينو أن أعطى سميحة كل ما أستطيع من حب وكأننى كنت أخفى لويزا. كانت لويزا كأنها كنز شخصى أحميه بداخلى من أن يتسرب إليه أحد أو تراه عين أو يعرفه قلب، وكان طريقى لهذه الحماية هو العطاء الكامل لسميحة. فهل كانت مع ذلك تعرف، وهل لذلك قتلها حبى وسممتها بذورى التى ألقيتها بداخلها؟ إن الصدق المطلق مستحيل فى الحياة فهو لايتحقق إلا فى الفن، وعندما يتحقق ويتم ينفصل عن الإنسان. ماذا نحمل من مسئولية العمل بعد أن ينتهى، لاشىء. أما مع المرأة بعد أن يكمل الحب تبدأ المسئولية وهنا تولد نمسيس. أليس هذا ما قالته هيلين؟ عندما دعاها باريس للحب بعد معركة غير حاسمة مع منلاوس قالت لا لن أذهب، إن هذا شىء تحس معه نمسيس...

وها أنا أرى نمسيس وأحسها تمسك يدى وتقبض على روحى وتمتص من دمى عقابًا على ما فعلت. كنت إذا خرجت من المستشفى فى كل يوم أحس كأننى جائع لم أطعم منذ سنوات لا جنسًا ولا طعامًا. وكنت أفعل ماذا؟ كنت أغرق وأستسلم وكأنما هى لا تموت هناك معتمدًا على أمى تاركًا لها كل الرعاية والهم والصبر والتوقع والحرب التى كان علىّ أن أخوضها أنا.

فى هذه الأيام وكان ذلك فى أغسطس التالى للنكسة كان الضوء يتغير عندما أخرج من المستشفى. كنت أمشى وحدى فى الطرقة الطويلة من غرفتها حيث كانت أمى تجاهد

مع الأطباء فى رعاية غيبوبتها. كلما ابتعدت عن الغرفة وتراكمت على روحى مناظر المستشفى وزحمتها والأطفال والنساء وكميات من القذارة حاولت أن أقنع نفسى بأننى قد فعلت كل ما أستطيع وأنا أرتب الغرفة وأتوسل للأطباء بمعارفى وأحضر أنابيب الأكسجين من الإسعاف بقدر كبير من الجهد والتأثير. وكأنما هذا هو كل ما كان ممكنا أو مطلوبًا. ماذا كنت أستطيع أن أفعل فوق ذلك؟ لم أكن أستطيع أن أبقى مع أمى معها، ولم أكن أستطيع عندما أسلم نفسى لشارع رمسيس المزدحم إلا أن أتحرك بسرعة دون وعى إلى النيل وكأننى أريد أن أشم الهواء أو كأننى أتصور أننى سأرى اللون البنى الغامق للمياه وقت الفيضان قبل السد، وإننى سأغرق عيونى فيها وسأغسل روحى من هذا التعلّق بالمرض والموت والصراع الذى لا أعرف له أطرافًا ولا طريقة للمواجهة. لماذا إذن أحس بالخطيئة. إننى لم أكن أشك أن أمى تحبنى لكنها هى التى قالت لى فى إحدى المرات وأنا أستعد للخروج: سميحة بتموت يا حسن وأنت السبب. لقد بقيت الكلمة ولم تنته حتى بعد أن رحلت سميحة وانتهت أمى أيضًا.

أنت السبب. فى ماذا؟

كيف أربط بين هذا كله وبين عملى وبين عدم قدرتى الآن على العمل؟ عندما كانت سميحة تموت كنت أعمل كالمجنون كل يوم وكانت اللوحات تخرج من يدى وكأنها سيال لا ينقطع. فى ذلك الوقت كنت أسترجع قراءاتى مع لويزا فى كتابات دافنشى أو فى الكوميديا الإلهية. وأنا أذكر أن هذه الأيام، أيام السواد الحالك والتمزق فى مصر هى التى شهدت لوحاتى المتكررة المتعددة للإمساك بالطائر الكبير Grande Uccello طائر دافنشى الكبير فوق البجعة الكبيرة ليملأ الكون انبهاراً. كم لوحة رسمت لأمسك بالعش الذى ولد فيه وبقدرة الروح على الطيران ولأول مرة وكأنما كنت أريد أن أخرج وحدى من النكسة ومن الموت الذى يشدنى إليه.

وعندما كنت أعـود إلى البيت لأكون وحـدى تمامًا وأذكر النور فى غـرفتهـا والسواد الذى تلبسه أمى وجهد عيونها أكرر فى غمغمة خبيثة Si tu serai solo sarai tut-to tuo.. وها أنا الآن وحيدًا تمامًا فهل أصبحت حقًا ملكًا لنفسى تمامًا؟

ما أقسى عـزلتى الآن. وحدتى التى أصبـحت فيها أعـالج بمفردى هذه الآلهة الخبـيثة الملعونة التي تأكل الروح باسـمها العسلى الـصوت وهسيسهـا فى فروع الأشجار العـالية، هوبريس. إنها تخلق قالبـا كقالب ذلك المندوب لخدمتـها وتقدمه الضحايا البـشرية لها كل سنوات تسع. وفى السنوات التـسع التـالية يتـخفى فى جلـد ذئب. لماذا تنجح البشـرية فى خلق هذه الأساطير التى تمسك بالروح كأنها حـقائق أبدية خالدة وكأنها بدايات الخلود فى الجـحـيم. إننى أحس الآن كـأننى أهذى مـثل تشـابنيـوس (Capaneus) فى الجحيم: هذيانك الغاضب نفـسه هو نفسـه عقابك. ليس هناك تعـذيب أقسى من ذلك. ليس هناك تعذيب أوجع مما يجلبه المرء على نفسه بالكبرياء والحب الردىء...

كانت قد مرت أيضا تسع سنوات منذ تركتهمـا معا فى مصر وحملتهما انتظارى وأنا أتعلم وأعمل وأعشق بحريتى وانطلاقى فى تورينو. تركتها أربع سنوات وعدت من سنتين لأجـعل سمـيـحة تموت وظل أمـامى حـينذاك ثلاث سنوات مع أمى كى أراها تسـقط فى الفراش دون أن تستطيع أن تقوم أو أن تموت.

لماذا أرتكب هذا النظام الزمنى ومـاذا أريد منه؟ إن تاسـوعات دانتى قـد ارتبطت بفنه كـما ارتبطت بحـياتـه، وهو يصعـد فى البورجـاتوريو لينام فى الكنتـو التـاسع بعد ليـالى الصـعود ومـرة أخرى لينام فى الكانتـو الثامـن عشـر، وعندما يصل الشـاعران إلى منتـهى المطاف فى المطهر نـصل أيضا إلى الكانتو السـابع والعشرين ويـنام. وهو وراء ذلك يخفى سـره إنه قد رأى بيـاتريس لأول مـرة وهو فى التاسـعـة ورآها مرة ثانيـة فى الثـامنة عشـرة ويختـتم حياته الجديدة وهو فى السـابعة والعشرين. فـماذا أرتكب أنا بتاسوعـاتى وما هى بياتريس التى أراها أو أتطلع إليها؟ وإلى أى مطهر أسير؟

- ٣ -

كيف يستطيع المرء أن يدير ظهره للخطيئة وأن يمضى قدمـًا إلى الأمام. ما أشبه جغرافية الروح بهذا البناء الضخم المركب الذى صنعه داتتى. لقد كان قادراً على الشعور العميق بالخطيئة كما كان قادراً على الارتكاب الكبير، لكنه مع ذلك كان قادراً على البناء وعلى كرامة السير المتئد وتجنب العجلة التى تفسد كل فعل. إننى أحس أننى أكاد أخرج من الجحيم وأننى أقف أنتظر على أبواب المطهر. الإصعاد فى البداية صعب والانتظار طويل لكن الخضرة فى الروح قائمة وهناك ما يترقرق فيها مستعدا للعبور والتصعيد.

هل كنت حقا فى الجحيم، هل أنا ملعون مقضى عليه أم أنا فى الحقيقة على مرحلة من مراحل المطهر أعانى الانتظار؟ إن فى قلبى وفى روحى جذوة دافئة طيبة ما زالت متوهجة وفى أعماق بدنى، تطلع دائم لفرحة السماء فى أعلى الجبل. هل يعرف البشر العاديون هذا الشعور بالمطهر وأبدانهم ما زالت تلقى على الأرض ظلها؟ إننى لم أعد خائفًا، لم أعد مرتعبًا كما كنت طول الأيام الماضية.. إننى أحس الفن قادمًا بالضرورة كأنه النعمة وأن علىّ أن أرعى إيمانى كما يرعاه المعذب فى المطهر وأن أتلفت ضارعًا لمن يصلى من أجلى. قانون النعمة مثل قانون الفن فى نفس هذا الذى كرس حياته له. لا بد تأتى ولكنها تظل دائمًا منحة وليست ضرورة. إن لم يكن هذا صحيحًا فما معنى الإيمان، ما معنى هذه القدرة الباقية فى داخلى على الخلق وعلى انتظار فرحة العمل.

إن هذا تميز كبير للـ... لماذا لا أريد أن أنطق بالكلمة، الفنان.. وكأنها عيب. إن الفنان هو وحده الذى يعيش الكوميديا الإلهية بكل أبعادها. إن قلبى ملىء مثقل بجريمة الحياة لكن روحى تجيش فى داخلها ينابيع كأنها أوائل أنهار وحياتى تطالعنى لحظاتها ببسمات غامضة تذكرنى بأن ساعات العمل والتدفق قد وجدت وأنها يمكن أن تعود وأن ترجع لتحملنى مرة أخرى إلى مراحل أعلى فى الإصعاد الصعب.

هل يمكن أن نسقط الحياة؟ هل يمكن أن نوقف التذكر؟ هل يمكن أن أعود للحظة الحاضر.. الحاضر الذى هو فن يسيطر على الماضى والمستقبل. كل ماض إذا دخله المرء لا يخرج منه، وكل مستقبل إذا تطلعت إليه الروح لا تعود ترجع. فى الحاضر فى الحاضر وحده تصنع القيمة إذا صنعت فى العمل. والفن حاضر دائم يسيطر على الماضى والمستقبل. لو أننى ظللت فى تاسوعاتى لن أخرج. ولو تصورت ماذا سيحدث لى أو كيف سأعاقب على كبريائى أو على خطاياى فلا أظننى إلا سأصاب من جديد، وباستمرار، بالشلل والحصر. كيف أملك الحاضر إذاً وكيف أدافع عنه؟ ألم أملكه قبل ذلك، ألم أكن فيه دائمًا وأنا أعمل؟ كيف أستعيد الامتلاك الذى كان لى كثيراً في حياتى؟ حياتى فى الفن ليست ماضيًا. وعلىّ أن أخرج من الواقع الحاضر إلى الحاضر الفن. ليس هناك فارق كبير بين كل واقع حاضر وبين الماضى، فإذا استسلمت للماضى فكأننى أستسلم للواقع. وعلىّ ولو ببدنى أن أخرج من الأسر وحدى. فلن يخرجنى أحد إلا البدن حتى وإن كان معتلاً غير صحيح. علىّ أن أتحرك، أن أتحرك ببدنى لأعمل حتى ولو قمت أحرك ما فى البيت من أثاث. حتى لو رتبت كل هذا الاضطراب الواقع المتراكم على الأرض وكم قد تراكم على الأرض من بقايا الأيام المتعاقبة. طعام وملابس وأكواب وجوارب، بقايا متفتتة من الأيام. لقد تحملت مرارة الذكرى وواجهت هولاتى وها أنا أواجه أيضا خطيئة الفن. وهكذا تسمنى الخطيئة. حرف الـ P الدانتية مرسومة على كل جزء من جبهتى بل وبدنى. كانت لويزا تتهمنى بذلك وتقول لى ضاحكة إنها سترسم الحرف على كل نقطة فى جسدى وتكرر وهى تضع أصبعها أينما تريد على بدنى، هنا بيكاتوم وهنا بيكاتوم.. وهنا بيكاتوم.. كم تعلمت منها هذه الأناشيد الأربعة من المطهر، النشيد التاسع وأناشيد الكبرياء فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر.. أناشيد الكبرياء وعقابها وبودى لو أسمعها الآن أو أن أقرأها.. هل أجد من يقول لى:

وقال لى لا تخش شيئا فإن طريقنا من هنا
لن يقود إلا للفرح، فكن موقنا من ذلك، ومنذ الآن
لا توفر شيئا وجاهد بكل مالك من قوة
فأنت الآن فى المطهر ـ انظر
إلى هذا السور العظيم، أمامك، وانظر
إلى هذه الفرجة ـ ففيها الباب الذهبى
كانت تقول لى أنت فى حاجة إلى الاعتراف وتعلم الاعتراف وتقرأ لى:
ورأيت بابًا عظيمًا مثبتًا فى المكان، أعلى
ثلاث درجات، لكل منها لون، وحارس
لا ينطق بكلمة ولا يأتى بحركة

لقد ضاعت من ذاكرتى الأسطر التى كنت أحفظها وعلىّ أن أجد المطهر الدانتى لأقرأه لكنى أذكر كم كنت أضحك وأعابثها بكل رغبتى البدنية وهى تحدثنى عن الدرجات الثلاث التى هى الأفعال الثلاثة، التى يتطلبها الاعتراف الكامل. أمام القسيس، وكانت تلعب دوره، يحتاج المعترف إلى الاعتراف الصادق البرىء ليعكس كل ما حدث، ثم عليه أن يتلوى بعذاب الحزن والأسى على ما حدث، وأن يحترق بالحمد والعرفان لرحمة الله. وكنت بكل كبريائى وفجرى أقول لها وأنا أؤلههما بيدى وأسنانى، أنت الرحمة التى أريد وهى تستمر فى القراءة.. أين الكتاب.. نعم..

وبطرف سيفه قطع فى جبهتى
رسم سبع بيكاتوم، ندوب الخطية السبع، وقال
امسح هذه الجروح عندما تلج إلى الداخل.

يا رب كم كنت أضحك من كل هذا وأحوله إلى معـان ورموز للغرام. فهل يمكن أن أعود مرة أخرى لأعترف ولمن ومن الكاهن الذى يتلـقانى؟ لقد دخلت بعد كل أيام الحصر التى مررت بها مطهراً قاسياً بلا رحمة.. فهل هو مطهر حقًا أم أننى سأعود للجحيم.

وبعد أن فتح الأبواب المقدسة على مصراعيها

قال: ادخل ولكن حاذر أولاً ألا تنظر خلفك

وإلا وجدت نفسك مرة أخرى فى الخارج

إننى أجد نفـسى فى الخارج وقـد صنعت لنفسى مطهـرا من الماضى وخطاياه دون أن أكـون قـادرا بالفعل على أن أضـع يدى على خـطيـئتى وأن أصنفها. فهل خطيئـتى خلقية أم خطيئـتى تجاه الفن أم همـا شىء واحد يمتـزجان معـا فى داخلى وفى ماضىّ وحـاضرى الذى أعيشه الآن. فى إجازة للتفرغ لا أستطيع فيها أن أعمل ولا أجد القدرة على أن ألد ما فى داخلى من قيمة. هل الخطيئة تقتل القيـمة أم هى التى تصنعها؟ هذه التناقضات الكثيرة فى داخلى كيف تفض وتنتهى؟ ما أكثر حاجتى للتفكير ولصياغته.

فتـحت المطهر على الكانتو الحـادى عشر التى كـانت تقرؤه لى لويزا وتجـعلنى أكرره وراءها وهى تعيرنى أننى مجرد أودريسى. وكنت أقرأ فى شروح دانتى كيف كان يستخدم أداتين لتحريك الروح داخل المطهر: السوط والعنان. بالسوط يستحث الخاطئ ليرى الخطيئة وعواقبهـا متمثلة فى حيـوات الآخرين وعذاباتهم الحاضرة أمامـه والتى يراهـم يعانونها فى مسـيرته على الكورنـيش ليتذكـر بها أخطاءه ومـا يتوقـعه من عـذاب، وبالعنان يكبح هذا الدافع المتأصل فى نفس الخـاطئ لارتكاب الخطيئة فيـقربه للغفران. وكـان السوط والعنان كلاهـما صوراً وتجـارب مرئيـة. وفى قراءاتنـا المتكررة الطويلة للكوميـديا كان كـلانا، أنا ولويزا يستـخدم السوط والعـنان لاتهام الآخر وتعـييره بأخطائه. كـانت تتهمـنى بالكبرياء

وتهـددني بأني سأعـاقب عليـه. وتذكرني بأن دانـتي عندما اخـتار نمـوذجًا للفنان الخـاطئ بالكبرياء لم يختر إلا فنانًا صغيراً اشتهر برسوم المنمنمات ومع ذلك فهو فنان صغير القيمة والقـدر. وكـأنما دانتي باخـتـياره لأودريسي Od'risi كان يصادر على ما يـريد أن يثبته، أو هذا ما كنت أدفـع به عن نفسي. فقـد كنت أقول لهـا إنه اختار أودريسـي لكي يقول إن الفنان الصـغير القـدر هو كذلك لأنه خـاطئ وكانت تقـول لي إنه قد أصـبح صغـيراً لأنه خاطئ. كـانت كاثوليكيـتهـا تفهم مـعنى حاداً قاطعًـا للخطيئة وكنت أفهـمها فـي عقلي وروحي أقرب للخطأ. كانت تغيظني بأنني مجرد أودريسي ولن أتجاوز مقامه حتى أخلص من كبريائـي. وعلى الرغـم من أنني لـم أكن أستطيع أن أرفض أو أن أدحض حجـجها، بل كنت أجد لهـا صوابًا سـريعًا في نفـسي وإن أنكرته، فإنني كنت أنفي الخطيـئة أسـاسًا عن نفسي وأتهمها هي بالخطيئة، وأقـول لها وأنا أطوع جسدها لرغبتي إنني أنا السوط والعنان لك. إنني وحـدي الذي أستطيع أن أخلصك وأطـهرك من خطاياك مع كل من عـرفت من الرجال. كم كان لعـبنا وهمنا بدانتي معقدا وكم كانت قـراءاتنا جنسية بدنية وكأنهـا مجرد صراع بين بدنين بذراعين وساقين وكل مواضع الجنس في البدن..

إنني أرى نفسي الآن في غرفتي في تورينو وهي مـعي عارية أو تكاد وأنا في قميصي الفضفاض الذي جلبته من مصر لأعمل به وأنا حر الحركة في كل بدني. إنني أرى صورتنا وكأنها حادث على كورنيشات دانتي وروحي غارقة في التتبع والنظر والسماع لصوتها.

وقد انحنيت للأسفل حتى أدقق في أمره
عندما التف مستديراً واحد منهم. غير الذي كان يتكلم
واستدار تحت الثقل الذي يسحقه،
ورآني وعرفني وصاح. وهكذا
أبقى عيونه عليَّ بجهد جهيد

وأنا أتحرك مع هذه الأرواح ورأسى منكس للأسفل.

قلت أنا: «ألست أنت أودريسى.. من كان يعرف

بأنه فخر أجوبيو، وهذا الفن،

الذى يسميه الباريسيون فن المنمنمات».

فقال لى: يا أخى، إن الصفحات المضيئة حقا

كانت لفرانكو بوليونيز. والفخر الحقيقى

له الآن وليس لى فيه إلا القليل.

وأعرف جيدا أننى طالما كنت حيًا

فلم أكن لأسمح له بالمكانة الأولى

فما كان أكثر شوق قلبى للتميز

وهنا أدفع ثمن الكبرياء...

وكنت أقاطعها لأقرأ أنا مكملا وكأنما أريد أن أثبت لها معنى آخر:

... بل ولم أكن لأكون هنا

بين هذه الأرواح لولا أننى عدت إلى الله

وأنا ما زلت فى القدرة على الخطيئة.

وأقول لها ألا تفهمى.. القدرة على الخطيئة.. ما زالت فىّ.. وتتجدد بيننا الخطيئة ونمارس الحب المطلق المنفصل عن كل واقع وكل ممكن فى داخل الروح وخارجها عندى أو عندها..

كنت وقتها أحاول أن أنتهى من بحثى النظرى عن مناضد القربان فى لوحات كتاب

الموتى الفرعونى ومفاهيم الطبيعة الصامتة فى تاريخ الفن. ولست أدرى الآن ماذا حققت بهذا البحث الطويل الذى استغرقت فيه أياماً طويلة ورحلات كثيرة. قمت بتكبير بعض اللوحات من برت أم هرو فى برديات آنى بالمتحف البريطانى وكنت فى نفس الوقت وأنا أعيد رسمها وتحليلها وتحديد عناصرها وألوانها أدرس بالتفصيل تاريخ رسوم الطبيعة الصامتة الأوروبية. وكنت أحس أننى أمسك فى روحى بمعنى يتخلص من التقسيم الأكاديمى لمعالجة هذه الطبيعة فى تاريخ الفن الذى كان يقسمها إلى ثلاثة أنواع هى ما يسمى فانيتاس أى الإشعار من خلال الطبيعة الصامتة بزوال الحياة وباطلها والذى استمد اسمه من آية الجامعة باطل الأباطيل. مجموعة من اللوحات فيها الجماجم والمرايا والفراشات والزهور والشموع الذائبة وأحيانا كتب. والنوع الثانى الذى كان يطلق عليه رمزيات لأنه يجعل الموضوعات الجامدة محملة بدروس رمزية لاهوتية ويصور الخبز والنبيذ والماء وآثار العذابات المسيحية وأيقونيات العذراء. ويأتى النوع الثالث والأخير حيث ترتب الموضوعات الجامدة لتبرز رؤية الفنان ومهارته. كان التاريخ للأنواع صعبا ومتناثرا ومتداخلا وكان الطريق المفتوح من الطبيعة الصامتة إلى لوحات الانطباعيين ثم إلى سيزان فالتكعيبيين طريقًا شائقًا أضل فيه فلا أكاد أعرف كيف أعود إلى فرعونياتى، إلا بأن أعتبرها برمزيتها وتلخيصها وتأليفها المركب المتراكب، حيث تختلط الطيور والأرغفة والمشروبات من جعة أو نبيذ والسمك الذى تكاد تعرف أنواعه.. خليطا حديثا من الرؤية تتحرك على عربة وراءها الكاهن وزوجته.. وهما وحدهما اللذان كان يمكن لى أن أعترف لهما.. ولكن أعترف بماذا؟ لقد حققت من خلال تلك الدراسة الطويلة التى لا أستطيع الآن إلا أن أذكر أزمانها ومواضعها ولوحاتها المتعاقبة المتنوعة لدى فنانى إيطاليا وهولندا وفرنسا وألمانيا ومتاحفها العديدة.. حققت قدراً كبيراً من الحرية لفنى ونفسى من

الموضوع والحكاية والمحاكاة، وسرت متحرراً إلى طريق الفن الواقع الموازى للواقع المستقل عنه.. فهل كانت خطيئتى هى الهولات النسائية والحب الذى ليس حبا والتزاما أم هى التجريد والإيمان المطلق بالرؤية المطلقة للعمل المتحقق من القيمة الخالصة التى تضعها الروح دون إشارة إلى واقع أو موضوع أو دعوة..

ما أكثر حاجتى الآن إلى التفكير المنعزل المتوحد أو إلى الحركة بالبدن التى تنقلنا إلى عوالم وحيوات أخرى.

كنت عندما تتأزم علاقاتنا وأحاديثنا ويزداد ثقل النبيذ فى رأسى وبدن لويزا فى دمى آخذها لنخرج ونسير بعد رحلة قصيرة بالعربة فى شارع جيوتو حيث كنت أعيش إلى فياروما حتى نصل إلى الميدان الواسع، بيازا كاستيللو، حيث تقوم بالأزر ماداما «قصر السيدات» وندخل فى البناء الكبير إلى متحف الفن القديم لأغرق معها فى مشاهدة قطع العمارة والنحت على الخشب ونماذج المناضد والصناديق والسجاد ومنمنمات ساعات الدوق دى برى.. .. كم أتذكر الآن لوحة صورة رجل لأنطونيللو دى سينا وكأن لها دلالة خاصة وليس لها دلالة فى روحى إلا أنها تذكرنى برسوم الإخوة إيكز..

ولكنى فى وحدتى هذه وانعزالى وانحصارى عن العمل تنطلق فى روحى وكأنها عين داخلية مستقلة عما أرى من حولى، لوحات ضخمة على الحوائط ونماذج من رسوم الأحداث الثلاثية، تربتيك، وجميعها تذكرنى بانشغال الفن بالموضوع والحكاية والتصوير ورسالة الأخلاق والدين.. وتشتد علىّ الرؤية للوحات الكثيرة وتتداعى دون ارتباط لوحات دافيد وتيرنر ودلاكروا... حتى حائطيات مونيه.. الكل يتعاقب دون منطق فى التاريخ أو الشكل والكل يردنى إلى حصرى أو إلى خطيئتى فى الفن وحاجتى أن أفكر وأن أنعزل وأن أصوغ هذا التناقض القائم فى داخلى بين الواقع والفن، لأصل به إلى العمل الذى أريد أن أعود إليه بيسر وبساطة..

مـاذا يريد الإنـسان حقا من حـياته وهل أقصى ما يستطيع أن يحقـقه الإنسان هو الالتزام بما وضعته الأديان من أحكام الأخلاق ومثلها. إننى ما زلت وسأظـل فيما أعتقد، أعتقد أن أقصى ما يتطلع إليـه الإنسان وأرقى ما يمكن أن يصل إليه هو أن يصنع، أى أن يضع شـيئًا آخر أمامه قد صنعه هو، بهذا تتحقق الأخلاق فعلا. أما الأخلاق فى الفعل فهى دائمًا شىء لا يمكن أن نمسك به أو أن نطـمئن إليـه. من الذى يقـول إننى إذا مـا فعلت فـعـلاً خلقيًـا فستكون نتائجه فى الآخـر أو عليه خلقيـة. قد أفسد تمامًـا الآخر بما أفعله له خلقـيًا. وهل فعلت إلا ذلك دائمًا مع كل من أحـببت حبا كنت أعده خالصًا وخلقـيًا. حقًا لم أكن أدفع أفعالى إلى غايتهـا الخلقية عندما يستدعى ذلك التضحيـة بنفسى وبحريتى. أو هكذا كانت توجه لى الاتهامـات. فهل أنا حقا غير أخـلاقى وأنانى لا قدرة لى على الإيمان أو الحب.. إننى أؤمن أن كل فعل خلقى هو وثبـة فى المجهول الذى هو الآخر أو هو نوع من الـعبودية للآخر يبيع فيه الإنسان نفـسه بعملات خلقية لا تجدى شيئًا ولا تصنع شيـئًا ملموسًا، واقعًا مـنفصلاً فى الخـارج. نعم، قـد أفسد الآخر وقد فعلت، بما أفعله له خلقـيًا ولكننى لا أفسد ما أصنعه وما يقوم خارجًا عنى بعد أن أصنعه وكل مـا يفعله الآخر بما أصنعه هو مسئوليته هو وليست مسئوليتى أنا.

لو أننى فى تـورينو الآن لخـرجت إلى المتـاحف أو المكتبـات لأضـع نفـسى فـقط أمـام المصنوعـات من خلق الإنسـان.. لكنى لا أكـاد أسـتطيع الآن أو إلى الآن إلا أن أفكر وأن أعيد التفكير فى فـعلى وخطاياى محاولا أن أخلص من الماضى الذى حدث والذى ما زال يحدث فى داخلى إلى الآن..

إننى لم أكن أبدا فى حاجة إلى فلسـفة خلقية أو إلى فلسفـة فعل وكنت أبحث دائمًا عن فلسفـة أو رؤية للـعمل. أليـست الأعـمال لا الأفـعال هى صلب الإنـسانية وتـاريخـها.

هل هناك رجل عظيم إلا وقد ترك وراءه أو أمامه شيئًا «معمولاً».. فكرة.. أو فنًا.. أو مؤسسة حتى وإن كانت إدارية أو مالية.. هناك دائمًا شيء في الخارج قد تم وأضيف إلى الوجود.. أما حياتنا نحن الصغار وما تدعونا إليه الأخلاق.. فهي دائمًا «معاملة» نتجنب بها العمل. نحيي بعضنا بالسلام ونأخذ ونعطي فتاتا من الحياة والواقع تجنبا للعمل. أما عندما نعمل وما أقل ما نعمل فإننا نتجه لنترك عملا خارجا عنا تتجمع فيه كل قوانا وعندئذ تتوقف الأخلاق. قد نصبح قساة لكنا لا يمكن مع العمل إلا أن نكون حاسمين. فلا شيء يهم إلا أن يحدث العمل الذي نتجه إليه حتى ولو كان طفلاً في رحم امرأة.. هذه الإضافة إلى الوجود هي الأخلاق فعلاً.. وكل ما كنت أرجوه بكل عمل فني حاولته أن ينمو كطفل في رحم المشاهد رجلاً كان أو امرأة.. وليس هناك عكس حقيقي للفن إلا القتل. فالقتل هو الجريمة الأولى في البشر. قتل هابيل لأخيه قابيل. أما الكذب والزنا وبقية موضوعات الوصايا العشر فليس فيها جريمة أولية، لكنها جميعًا جرائم فرعية موجهة للمجتمع وليس للوجود. إنها ليست جرائم على الحياة وتجريمها ليس إلا للدفاع عن وضع معين للحياة وهو الذي يمكن أن يعد عملاً. فتحريمها هو دفاع عن عمل وليس صناعة لعمل. وهذا العمل الذي تدافع عنه الوصايا هو تاريخ البشرية ولهذا له دين ونبي وبطل وداع وسياسي ومفكر وكلهم يدافعون عن عمل لهم أو عمل تبنوه على أنه لهم.. ولهذا فإن القتل وحده هو الجريمة الأساسية لأنه تعد على الوجود وإعدام أو تضييع لما هو عمل وإهدار له..

ما هذه الأفكار التي تتداعى إلى عقلي وروحي مع صور تاريخي وتاريخ الفن. هل أستعد لجريمة أساسية. هل أنا متجه للقتل وهل ليس خلاص لي إلا بهذا. إنني لا أبحث إلا عن قوى الروح التي إذا تجمَّعَتْ حقَّقَتْ عملاً..

وإذا كان القتل غير عمل فهل الحب عمل.. ألا يتوقف ذلك على ما نعمل بالحب، وماذا نترك به أمامنا بعيدا عنا منفصلاً عن حبنا.. فماذا تركت أنا فى كل حب مررت به؟

إننى فى الحقيقة لا أكاد أذكر أى حب ولا أكاد أرى أننى تركت منه إلا أنواعًا من الحطام التى تكاد تبلغ القتل.. كما أننى لا أستطيع أن أجزم بأن عملا من أعمالى فى الفن قد ترك أطفالاً فى أرحام الناس.

فهل أنا شرير معاق لأننى أعوق نفسى وأرتكب الشر واصطنع الإعاقة أم أنا أريد الشر والإعاقة بطبعى لأننى فى الأصل والبداية شرير معاق لا أريد للوجود أن يتحقق.

هل هناك صلة بين عدم القدرة على الحب وعدم القدرة على الفن. وهل الخطيئة الكبرى أننى أتصور أن الفن والعمل يتطلبان هذا النفى للحب والواقع. هل التواضع والتخلص من الكبرياء هو الخضوع للواقع والاستسلام للناس. وهل رفع الإعاقة والحصر لا يتحقق إلا بالإقرار بالموضوع والمحاكاة وبتخليص الفن من استقلاله وموازاته للواقع.

لكن ما القضية أو الموضوع اللذان يمكن للفن أن يحملهما إذا فقد وجوده المستقل، أليست هناك قوالب إنسانية أخرى للتعبير عن هذه القضايا والموضوعات تأتى هى فيها أولا وتتصدر العمل وتكون دوافعه.

وهل يمكن للروح، روحى أنا، أن تجرب تغيير المعتقد؟ هل يمكن للمعتقد أن يتغير بالإرادة والتجربة.وماذا تعنى بالضبط هذه الأفكار التى أخطها فى هذه الأسطر المكتوبة وأنا جالس هكذا لا أعمل. هل أريد أن أنفى السرد والحكاية بالسؤال وأستعيض بهما عنه. إن موضوع النظر والتفكير الذى أحاوله هو الفن وقضيتى هى تخلصى من هذا الحصر الذى أجد نفسى فيه. ألا يتحكم هذا الانشغال بالفن وبالحصر فى شكل السرد وفى شكل الحكاية.

إننى أريد أن أخلص تمامًا من الهوبريس فهل ما أحاوله هو مجرد تجربة فى ذلك. أنا أحاول أن أحتفظ بحرية الحركة بين الأنا والهو لأحتفظ بالوعى بالموضوع وبالتعبير عنه.. إن ما أكتب بوضوح ليس فنا ولا يمكن أن يكون، لكنه انعكاس لوعى مرتبط بالفن كقضية وموضوع. ولهذا فهو كلام ملىء بفجوات من عدم الاكتمال ومن قفزات من التحقيق الذى لا يتحقق لأنه مصحوب دائمًا بهذا الألم للحصر الذى كلما انتهى وارتفع امتد وتأكد.

لا بد لى أن أتحرك، أن أتحرك ببدنى، وقد أستطيع أن أبدأ بأن أركز كل همى وحركتى فى ترتيب هذا البيت الذى صنعته لأعمل فيه فأضطرب وأكتظ ببقايا العجز وعدم العمل حتى لم أعد أستطيع أن أتحرك فيه.

ماذا يمكن أن يحدث لى فى هذا الصباح؟ إن ما يحدث أو يتحقق فى داخلى يكاد يكون مثل هذا الاضطراب والتكدس فى البيت. تراكم للقصور والتقاعس، وتردد عاجز أمام البدء، وضيعة وتشابك للطرقات فلا يوصل أى منها لأى شىء. لو أننى ظللت هكذا لما حدث شىء.. ولأصبح من الأولى بى أن أنتهى، أن أموت. أن تتوقف هذه التأملات الملتفة على نفسها والذكريات التى تقدم علىّ وتروح وكأنها كائنات مستقلة. فى الصباح عندما استيقظت مثقلاً بما شربت من براندى وجسمى متوجع من رطوبة الإسكندرية والشباك المفتوح الذى تركته، وحتى لم أغلقه قبل أن أنام، فى الصباح كانت فى نفسى جملة مركبة بلا معنى دقيق ولا هدف واضح ولا نية لعمل. كنت أقول فى نفسى، منذ متى لا أدرى، إذا كان لا بد لى أن أعمل، أو إذا كان من الممكن لى أن أعمل، أو لكى أعمل، ولست أدرى أى العبارات كانت هى القائمة.. إذا كان لى أن أعمل، إذا كان ممكنا أن أعمل، فلا بد لى أن أغير كل هذا الكون. ولست أدرى تمامًا أى كون أعنيه. أهذا الذى فى

داخلي؟ أهذا الذى في الإسكندرية، في مصر، في الكون كله فعلاً؟ إننى في الحقيقة لا أريد ولا أستطيع أن أغير ما في داخلي. أنا رغم كل شيء راض عما هو بداخلي من أفكار وقيم ونزوع. قد أريد أن أتذكر وأن أعبر، أتحدث عن هولاتى الثلاثة. وغيرهن وعن أحلامى فى الفن وعما حققته لكنى لا أريد، ولا أظننى أستطيع، أن أغير كل هذا. فهل الواجب علىّ أن أغير هذا الذى حولى في الإسكندرية. لقد كان البيت إنجازاً ولقاءً فريداً ما زلت أعتز به وأسعد عندما أطل من الشباك فأرى الحجر وألوان الأرض أو عندما أتذكر السلم الذى وضعته لأهبط إلى الشاطئ ولأعمل إلى جانب البحر مع كل هذه الأشياء المتجمعة بلا نظام، منضدة ودولاب صاج لا يفتح ولا يغلق بسهولة وكرسى قديم به كثير من إصابات الجو والنقل وقطعة سجاد قديمة ومنفضة سجائر كأنما لا أريد أن أرمى سجائرى في البحر أو على الأرض، وبنطلون قديم وأزاميل ومبارد في الدولاب الصاج.. وماذا هناك أيضا تحت..؟ تمثالى الذى انتهى.. آخر ما عملت ولم يره أحد بعد إلا أنا والبحر والشمس والنجوم. كوكبة غريبة من الرؤية وأحكام معلقة كلها مخفية في العمل الذى تم وقد غبت عنه طويلاً ولم أستطع أن أحمل نفسى على مشاهدته مرة أخرى أو الوقوف أو الجلوس إلى جانبه. لقد أرسلت لمحمود في الأقصر أطلب رخاماً ولم أتلق حتى ردا منه وإن كنت أحن وأشتاق إلى لقائه والحديث معه وتركه يتمتع بالبيت معى وبما أنا فيه من تفرغ. لا لا أريد أن أغير شيئًا من هذا فإذا غيرته، إلى أين؟ أين أذهب وماذا أفعل من جديد في القاهرة؟ كم أصبحت أخشاها، لا أريدها وأكاد أكرهها. كل شيء هناك زائف مصنوع غير قادر على أن يعترف بما هو فيه من نقص واضطراب وحيرة وتقاعس. في يوليو الماضى كان جمال عبد الناصر ما زال يقول دون اختبار حقيقى أو معيار كاشف «إن انتخابات المرحلة الاولى.. اختبار للاشتراكية، بل امتحان قاس لقضية

الاشتراكيـة..» كم كنت بعيدا عن هذا الاختبـار.. وكم كنت حائرا فى فهم المرحلة الأولى ومـا سيـأتى من مراحل.. عندمـا كان فـى موسكو كـان ما زال يقـول «لا بديل لإزالة آثار العدوان وسـوف نكتل كل قوانا ومواردنا لتطهـير الأرض العربية وتحـريرها..» فهل هناك تكتيل حقًا؟ يقول لنا إن هناك أرقاما قيـاسية فى الإنتاج.. واستمرارا فى إعادة بناء القوات المسلحة.. لقـد حملت معى وأنا قادم للإسكندريـة كل هذه الجرائد.. ومكتب المجلة يرسل لى بانتظام الجـرائد والمجـلات وكأنما يريـدوننى أن أظل هناك أو على صلة أو كـأنما يمكن حتى بانقطاعى أن أنقطـع عن كل هذا الذى يحدث فى القاهرة. فى العـام الماضى وقبل أن أجىء إلى الإسكندرية ذهبت أزور عبد العزيز الأهوانى بعد أن عـين رئيسا لمؤسسة المسرح وفى الدقائق التى جلست فـيها معه وأنا أحبـه وأحترمه أحسسـت وكأنه فى بيت عنكبوت وأن حركته الصادقـة المعبرة مقيدة. إنه مستـعد أن يفعل كل شىء للآخرين وليس هناك من يريد أن يفعل شيئًـا وأن يضحى كما ضحى هو، من سنوات بعيـدة، أيام تورينو، التقيت به فى باريس وشربت مـعه كونياك وسـجائره المصرية المعـدن الممتاز.. وكان يسـمعنى وكنت أحس أنه يدرك ما أقوله لكنه كـان يجدنى غريبا محيرا لا أنتج ولا أشـارك بما فيه الكفاية.. وفى العام الماضى لم أذهب لأرى مهرجان الإسكندرية المسرحى ولـم أر ـ رغم أنى قرأتها ـ سيرة الفـتى حمدان ولـم أر مأسـاة الحلاج فقد كنت رأيتـها وقرأتها من قبـل. وفى الساعة العاشرة يوم السبت ١٣ يوليو.. هكذا تقول تذكرة الدعوة ذهبت فى موكـب ثروت عكاشة لافتـتاح متحف ناجى. بيـته كان على طريق فـرعى على بعد ثلاثة كيلومـترات من الطريق الرئيسى، طريق مصر الإسكندرية. لقد ذهبت بعربات المجلة وقالوا لى إنهم اشتروا الأرض والبيت بأربعة آلاف جنيه فقط ودفعـوا أربعة آلاف أخرى ثمنا لعدد من اللوحات كل منها بمبلغ ٢٠٠ جنيه. وقد ضـحكت وتألمت، دون أن أقول شيئا، وسعد الـدالى الذى سيشرف

على المتحف يقول لى إن إدارة الفنون الجميلة ستصرف له دراجة ينتظره بها خفير المتحف صباح كل يوم على محطة الأتوبيس بشارع الهرم نظراً إلى بعد المتحف عن وسائل المواصلات كنت أتذكر وأنا أسمع، دراجة أبى التى صرفها له التنظيم.. ترى ماذا سيحدث لهذا المتحف ولهذه الدراجة؟ لقد كنت دائمًا أرفض أن أشارك أو أن أسعى لما يسعى إليه الفنانون الآخرون من مصلحة أو سلطة. هل كانوا يتركوننى أو يسقطوننى من حسابهم أو حساباتهم أم أنا الذى كنت أتقاعس وأرفض وأتجنب خوفا على نفسى أو إحساسا صادقا بعدم القدرة على التقدم. كنت أعتقد دائمًا أن عليهم أن يتحملوا مسئولية اختيارى واختيار فنى.. فإذا لم يفعلوا لم أكن أحارب أو أحاول إقناعهم أو أصرخ بشىء.. إلا مع نفسى ومع هذه القلة القليلة من الأصدقاء.. كم عددهم؟ اثنان، ثلاثة.. لا أدرى. لقد قطعت علاقاتى بعد عودتى من تورينو. ورفضت التدريس، والوظائف ومع الصديق رئيس تحرير المجلة اختفيت وراءه مكتفيًا بما كنت أحسه فيه من تقدير لى ومعرفة بالقضايا التى تشغلنى.. وهكذا رفضت أن أذهب عندما رشحونى لمهرجان الشباب العالمى فى بلغاريا مع أحد عشر فنانا.. قلت إننى لم أعد شابا.. ولم أقدم أى لوحة أو عمل عندما عرضوا فى برلين الغربية ٢٠ لوحة لفنانين مصريين.. وتجنبت افتتاح متحف الفن الحديث وإن كنت قرأت ما كتبه وزير الثقافة فى دفتر زيارات المتحف: إنه متحف مؤقت مرهون وجوده بإتمام قصر الفنون.. حيث سيضم متحفا حديثا للفن الحديث.. لقد فقدت مع ٦٧ أى ثقة فى أى وعد أو عمل، وكنت أحس أن كل الهرج الكبير الذى صاحب إعادة البناء لن يؤدى إلى شىء لأنه يتم فى الخفاء ومن سلطة علوية. ويعد عدوان السويس الذى وقع يوم ١٠ يوليو مثالا صارخا على إهمال الأمة والعدوان على وعيها وعلى قدرتها على المشاركة فى المعرفة والحكم والقرار. فى هذا اليوم نشرت الجرائد، وما زلت أذكر اللغة والمكان على الصفحة:

«شهدت مدينة السويس أول أمس عدوانا إسرائيليًا جديدًا.. فى الساعة السادسة والربع من مساء أول أمس..» وعندما ذهبت إلى رئيس التحرير ومعى هذا الخبر لأقرأه عليه كنت قد قررت أن أترك القاهرة وبدأت محاولاتى الأولى لأخذ إجازة التفرغ.. إجازة للبعد عن القاهرة والخضوع لاحتياجات المجلة عن بعد.. كنت قد قررت أن أكون أمينا مع نفسى وساعدنى الرجل ووعدنى.. لكن أحداث العام السوداء جعلتنى أنتظر وجعلته غير قادر على أن ينفذ وعده لى.. كنت أسخر وأنا أقول له هل مثل هذا الخبر ينشر فى أسفل الصفحة وتحت عنوان تقرير للأمم المتحدة عن العدوان الإسرائيلى على السويس؟ وأول أمس.. وعندما كان يصمت كنت أحس أننى قد أصبحت متعبًا ومزعجًا بما أطلبه وبما لا أفهمه أو لا أريد أن أفهمه من دواعى الأمن القومى ودواعى صمود الجبهة الداخلية.. إلخ.. لقد كانت جبهتى الداخلية ممزقة تمامًا.. وانشغل رئيس التحرير تمامًا فى احتفالات مرور ١٦ عاما على الثورة. وفى مراحل إعادة بناء الاتحاد الاشتراكى والمؤتمر القومى وتشكيل لجنة المائة. ولم أفهم كل كلمات محمد فوزى وهو يشرح على مدى ٣ ساعات ونصف الساعة عملية إعادة بناء القوات المسلحة «تدريبًا وتنظيمًا وإعدادًا للمقاتل». وكنت أسأل وأتساءل فى داخلى أين كنا طوال ١٦ عامًا إذا كان لا بد من الحرب كحياة أو موت.. وسافر رئيس التحرير إلى موسكو.. ورأينا صور جمال عبد الناصر فى تسخالطوبو وقد تحسنت صحته وبدا ببنطلون وقميص نص كم.. وبدأ يارنج جولة جديدة.. وفى الشهر الثانى غزت روسيا تشيكوسلوفاكيا واحتدمت التفسيرات والتبريرات. وعندما عاد كانت القضايا الثلاث المؤامرة والانحراف والتعذيب تعيد النكسة وتؤكدها وهى تحاول كما يقول رئيس التحرير أن تصفى الماضى.. كيف يمكن أن نصفى الماضى وكل الحقائق مخفية؟ كيف يمكن أن نملك الماضى دون أن نعرفه تفصيلاً.. وفى

سبتمبر كان جمال عبد الناصر يقول نحن نعرف قوى الثورة المضادة بالتفصيل وبالاسم سواء كانت من اليمين أو اليسار.. وبدأ يتحدث عن المظاهرات وأن المعتقلين ٨٠٠ فقط من أفراد الجهاز السرى للإخوان وفى نفس الوقت يعلن أن المعتقلين عام ٦٥ وهو أول عام لى فى القاهرة كانوا ٦ آلاف.. من هم.. ولماذا وكيف..

إنى أراجع ما حملته من جرائد ٦٨ وأحس أننى كنت مبررا بطلبى الاختفاء بمفردى فى الإسكندرية.. لكننى لم أستطع أن أفر فقد بدأت مظاهرات الطلبة فى الإسكندرية وما زلت أذكر نفسى وحيداً فى شوارع القاهرة فى نوفمبر أفكر كيف أجمع أشياء وأسافر وأنا أسمع عن اعتصام الطلبة وعن عمليات التخريب «وعن الرعد الذى بدأ يقصف من الساعة الثالثة بعد الظهر ثم هطلت أمطار غزيرة حوالى ساعة الإفطار صحبها هطول كرات كبيرة من الثلج».. كان المنظر يتكون فى نفسى كأنه لوحة وألوانها المتناقضة الحارة تذكرنى بالعجوز الفنان بيكاسو.. وأحسده وهو يحتفل قبل ذلك بقليل بعيد ميلاده السابع والثمانين الذى لم يشهده إلا زوجته.. وأنا وحدى فى شوارع القاهرة دون زوجة ودون أم وأريد أن أكون دون بيت وليس أمامى إلا الإسكندرية الغاضبة العاصفة.. كيف أستطيع أن أغير القاهرة ومصر.. كان كل شىء عليه أن ينتظر للعام القادم عام ١٩٦٩ كان جمال عبدالناصر يقول عنه عام للمواجهة والبناء.. وكانت القاهرة تبلغ فيه ألف عام من عمرها، وكنت قد قررت أن أتحول إلى الإسكندرية بعيدا عن هذه العجوز التى لا تتغير.. فهل كنت أتوقع أو كان من الممكن لى أن أتوقع أن يكون هذا العام هو عام الحصر والتوقف لى فى الروح والفن؟ هل كل ما كتبت إلى الآن مبرر مقبول أم كان علىّ أن أحاول تغيير العالم والكون وأن أحلم بأن أكون على سفينة الفضاء وهى تنهى دوراتها العشر حول القمر فلا أعود إلى الأرض عندما يريد الرواد العودة أو أن أسبح فى الفضاء فلا أعود؟

لقد جبت فضاء روحى بمراكب من الاعتراف والصدق، وها أنا قد عدت خاوى الوفاض إلا من بلقع الروح والأرض الخراب التى صنعتها بيدى.. ماذا علىّ إذن أن أفعل وماذا بقى علىّ لأحاوله كى تنفك عنى هذه اللعنة؟

سيدى الأستاذ الكبير..

إننى أمر الآن فى أزمة صعبة تبدو لى مستحيلة ولا أعرف طريقًا للخروج منها. لقد تعودت من كرمك أن تسمع لى. فقد مرت الأشهر الستة التى منحتنى إياها وأرجو ألا أكون قد قصرت فى حق المجلة لكنى لم أستطع أن أحمل نفسى على العمل كما كنت أريد وأرجو، ولذلك فإننى بكل خجل أتوسل إليك أن تحاول مد وضعى الحالى ستة أشهر أخرى وأعدك إما أن أريحك وأموت وإما أن أنطلق فى العمل كما لم أنطلق من قبل. عندى عمل واحد بجوار البحر ينتظر أن تتاح لك فرصة رؤيته.. مع كل محبتى وتقديرى.

وضعت الخطاب فى مظروف وكتبت عليه الاسم وكلمة سرى وشخصى وبدأت أعبث من جديد بالجرائد والمجلات المتجمعة فى الغرفة التى أنام فيها بعيدًا عن أى عمل وأى فن.. وقررت أن أنتظر للمساء لأحمل الخطاب إلى مكتب المجلة.. علّنى أغير به شيئا..

وقبل أن يأتى المساء والخطاب ما زال فى يدى جاءنى منه الخطاب التالى الذى غّير كل شىء وانتزعنى انتزاعا مما أنا فيه وعليه أيضًا كلمتى سرى وشخصى..

ستصلك اليوم عربة لتحملك إلى موعد سرى وستعطى التعليمات لسفرك إلى الجبهة لأننا ننتظر مجموعة من اللوحات والاسكتشات عن أعمال العبور ولن نراك هذه المرة عندما تصل القاهرة لكننا سننتظر لوحاتك ورؤيتك بعد عودتك فإلى اللقاء.

كيف يمكن لى أن أتابع بالتفصيل ما حدث؟ لقد تغير كل شيء.. تغير فجأة.. لا، على مر الأسبوعين اللذين أمضيتهما على الجبهة مع أولئك الرجال العمالقة.. الكبار، والصغار.. الفرحين المكتئبين العاملين فى صمت وفى حركة دائبة وفى كلمات متناثرة وضحك هامس أو يكاد، ووحدة مزدحمة بالحكايا والآهات وأحلام العبور وانتظار الدوريات العابرة العائدة عند مطلع الفجر.. والفجر الفاجع الصامت.. جاءتنى العربة قبل أن يأتى المساء وكنت قد حركت نفسى لأحضر حقيبة صغيرة لى ومحفظة لأوراق الرسم والأقلام ووضعت علبة ألوانى أيضا وبعض فرشات.. وقالوا لى، ثلاثة لم أتبين رتبهم بوضوح، نحن متعجلون والإشارة تقول لنا أن نصحبك فورا إلى سيادة العقيد. أين؟ شرق السويس. أين؟ نحن عائدون من إجازة خمسة أيام فى القاهرة وعلينا أن نعود لمواقعنا قبل السابعة مساء. سنسافر الآن مباشرة، هيا.. لقد بلغتك الإشارة.. نعم..

كانت العربة الجيب تمخضنى مخضا ولم أكن أعرف كيف سنخرج من الإسكندرية وأين سنتجه منها إلى السويس أو كيف. ولم يكونوا متكلمين، سألونى عن اسمى. حسن عبد السلام. وأين أعمل. فى مجلة.. وماذا تعمل أرسم وأنحت.. يا سلام! كنت أنا الذى أريد أن أسخر من نفسى، فهم لم يسخروا بأكثر من هذا.. وصمتوا مرة أخرى واندفعت العربة بسرعة تكاد تكون مجنونة وأصبح الطريق برمله ومطباته كأنه فى معدتى وحلقى.. قالوا لى لقد وصفوا لهم البيت فى المكتب، فى الإسكندرية، وقلت كنت أحب أن أفرجكم البيت وأن تشربوا شيئًا معى.. شاى أو قهوة.. قالوا باقية لنا.. وتوقفت العربة أكثر من مرة على الطريق الصحراوى وهناك بعيدا بعض الحقول وأشجار ومنازل مهدمة.. وتبادلوا أوراقا مع الجنود الذين استوقفوهم وطلبوا بطاقتى ونظرت فيها قبل أن أعطيها لهم وكأنما أريد أن أتأكد من اسمى الذى لم يطلبوه مرة أخرى.. وفهمت من كلامهم أنهم من طاقم

دبابة وعرفت لأول مـرة اسمها أو نوعـها .B.K.ولما سألت قـالوا لى الطاقم ثلاثة سائق، ومـعمـر وحكمـدار.. سـوف تراها.. تسـير بسـرعـة ١٢ كم فى الماء و٥٠ على الأرض.. وبدأت أرى صفوفا من الدبابات.. لا هذه T54.. نعم بقى لنا أكثر من سنة على الجبهة.. أنا الرقيب أول عبد الوهاب، وهو الرقيب عبد اللطيف والصول عبد الحى..

– بقى لكم سنة على الجبهة..

– أيوة.. بنطلع عمليات عبور.. خمسة خمسة..

– مفيش داعى للكلام دة.

– مش انت سمعت عن عمليات العبور؟

– طبعا.. طبعا.. أنتم الأبطال..

– ولا أبطال ولا حاجة.. يا عم صلى على النبى.. فى الأول ادربنا كويس.. ٤٥ يومًا..

– فين؟

– مركز الجنزير فى الهايكستب..وأنت يا سيادة الرقيب؟

– أنا كنت فى منطقة برقاش.. غرب القاهرة على الرياح البحرى ..

– إشمعنى؟

ولم أكن أنكت أو أدخل قافية ولكنى بدأت أحس بجهل كبير ورغبة فى أن أفهم..

– إيش درانى.. اللى أنا فاهمه.. إن الرياح عـرضه، وقوة تيار المياه فيه شـبه قناة السويس تمامًا..

– أنا شايف إن الكلام دة مالوش لازمة.. دية برضه أسرار حربية..

- يا عم قول يا باسط.. دة واحد مننا وآدى إحنا واخدينه ورايحين الجبهة..

- أنا لسه ماعنديش تعليمات..

وصمتوا جميعا فجأة فقلت متحرجًا:

- أنا رايح أرسم

- يا صلاة النبى..

وأحسست بتيار من البرودة والعرق يتخلل جسمى كله وكأننى عار لا أعرف كيف أستر نفسى وأردت أن أصمت أنا أيضًا، وأخرجت من محفظتى ورق اسكتش وبدأت أرسم الصول عبد الحى رغم حركة العربة ومطبات الطريق.. كان وجهه وحاجباه وأنفه وشفتاه فى عيونى تمامًا رغم الظلمة وكانت يدى خفيفة سريعة منطلقة.. وعندما انتهيت أو خيل لى ذلك جذبها منى الرقيب الجالس بجوارى وصاح شوف يا عبد الحى.. الخالق الناطق.. وتوقفت العربة وعبد الحى يقول يا نهار أسود.. أنا عمرى ما شُفت نفسى أبدًا.. فى صورة.. آخدها لمراتى.. يشوفوها العيال..

- اطلع يا عبد الحى مفيش وقت..

وبدأت أشعر أنهم يحيطوننى بحب ومعرفة جديدين وأن هذا السحر الذى صنعته يصل مباشرة إلى النفوس ويغيرها.. لقد بدأوا يضحكون ويسبون عبد الحى وينكتون على زوجته وما ستقوله له.. وكيف ستنام مع الصورة إذا مات عبد الحى.. وفزعت من الفكرة وطلبت الصورة قائلاً: سأرسلها للمجلة وفى نفس الوقت أقول له:

- لا.. دى طبعا بتاعتك.. وسأعمل لك غيرها كثير.

- وأنا..

- الدنيا ضلمت والعربية بتتهز جامد..

- إحنا قربنا نوصل.. أنت حتقعد معانا كتير؟

- مش عارف.. أسبوع، أسبوعين.. زى ما انتو عايزين..

- والله انت أنس قوى يا أستاذ.. وانت حتنبسط قوى معانا..

وبدأ الطريق يتغير ونحن ندخل بالعربة طرقات أضيق فى قلب الصحراء وأستطيع أن أميز مصاطب عليها صواريخ وبعض خيام متناثرة وحفر واسعة فى الأرض ووحدات مدافع كثيرة..

- كل دية مدافع..

- فيه ٢٠٠٠ قطعة مدفعية فى وحدات..

- وبعدين يا عبد الحى دة مش هزار..

- انت عمرك ما شفت حاجة زى كدة أبداً.. لواء مدفعية كامل.. ٣٦ مدفعًا كل مدفع يضرب ١٠ طلقات كل ٣ دقائق.. عارف القذيفة الواحدة وزنها إيه.. ٥ كيلو.. يعنى الجبهة فى دقائق تبقى جحيم.. ماتخافش إحنا بنقعد فى الخنادق. ولاد الكلب دول يستاهلوا الحرق.. ومفيش حاجة بتحوق فيهم..

كانت كلماته تخرج فى غمغمة واضحة وكأنه يسر لى أنا وحدى بما يقوله من معلومات. ولم أكن أعرف ماذا أقول فقد كنت أتصور الجحيم الذى يتكلم عنه والجحيم الذى كنت فيه وأحس أننى مقبل على دنيا جديدة تمامًا وأن علىّ أن أنفض عن نفسى كل ما كان فيها من فكر وحصر وذكريات.. أم أن كل هذا سيتركز بوضوح ويصبح فى ثقل القذائف التى يتحدث عنها عبد الحى..

انحرفت العربة انحرافًا حادًا فى الطريق وكأنما اختارت طريقًا أكثر ضيقًا وصعوبة وتوقفت مرة أخرى عند وحدات حراسة وتفتيش وطلبوا منى أن أهبط لنسير.. فقد وصلنا..

وعندما وصلنا كانت المساحة الواسعة أمامى على الأرض من الرمل والسماء المظلمة بالليل تلمع فيها على مسافات شاسعة متباعدة تلك النجوم الصغيرة التى عرفتها صغيرًا فى صحراء حلوان. لم يكن واضحًا أننا على الجبهة أو لم أكن أعرف ماذا تعنى هذه الكلمة تمامًا. تتناثر فى الظلمة بعيدا وقريبا منى كتل لها أشكال بعضها يوحى بأشكال هندسية كالمستطيل والمثلث والمربع، وبعضها أستطيع أن أراه قريبا فأعرف أنه بناء حجرى وآخر من أخشاب وكثير من العربات والمنصات الغامضة عليها كتل مغطاة، وأستطيع أن أتبين فيها ما يوحى بأنه مدافع، وهناك عربات تتحرك بأصوات خفيضة.. وخيام.. وأحيانا يتحرك فى بعضها نور خفيض كأنه من لمبات الجاز أو القناديل ذات الرتينة.. وانفصل عنى بسرعة الثلاثى الذى صحبنى.. وتحادثوا قليلا بعضهم مع البعض الآخر دون أن أسمع ما يقولون وأنا واقف أنتظر لا أعرف ماذا أفعل بنفسى.. ورحت أدير عيونى وأكاد أجهدها لأميز بالتفصيل ما حولى لكننى فجأة، من الليل أو من الغربة الكثيفة المتجمعة علىّ فى الخارج، فجأة أحسست أن عيونى تعاودها لعنتها وقدرتها المألوفة.. لقد بدأت أرى الأشياء فى أطر مستقلة بعيدة عنى وبدأت أحس أنها تنبض بإنذارات المعنى والقيمة.. الشكل يعود لى والخط.. الخط الذى فى الخارج تصنعه، تراه، عيونى نابضا مليئا بحياة مستقلة ذات دلالة.. وقيمة.. نعم قيمة.. كنت أتنفس الفن والعمل وكأنه جزء من الهواء الصحراوى البارد.. وكدت أحس أن الحصر الذى كان فى داخلى قد بدأ ينفك ويذوب وكأن نسمات الصحراء ترفعه وتحركه وكأنه غطاء ثقيل كان يشملنى ويشل حركتى.

تحرك فى روحى هذا الاستعداد الذى أعرفه للعمل ورحت أتحسس محفظة أوراق الرسم والأقلام.. وبدأت أحس بحنين كأنه جوع للون والشكل والتركيب الذى يضمه الإطار..

وكدت أفتح المحفظة دون أن أعرف ماذا سأعمل تمامًا حين عاد الصول عبد الحى.. وكان رقيقا، فى صوته حنان وطيبة دافقة. وكنت أعرف وجهه تمامًا وأكاد أحبه. فقد كان فى حاجبيه وشفتيه معنى مترابط متجمع يكاد يفصح إفصاحًا غريبًا لا تعرفه فى العيون أو الكلمات.. كان أنفه يضغط على أطراف فمه اليمنى وكأنه يقول إنه لا يعرف كيف يتكلم لكنه يعرف كيف يشم ويبتسم ويتحرك.. تحرك نحوى بسرعة وأفهمنى أن الرقيبين قد ذهبا للملجأ وأننى سأراهما بعد أن أنتهى من مقابلة العقيد وأنه سينتظرنى هنا بعد أن يوصلنى إلى الخندق الذى فيه مكتب العقيد، وهو هنا على بعد خطوات بجوار إحدى هذه الكتل المبنية وكأنها غرفة أو مبنى صغير.. وتقدمنى مشيرا أن أتبعه وقد أصبحت أرى كل ما حولى فنا.. فلم أستطع أن أتكلم أو أن أكسر سحر هذا النبض الغامض الملىء بالدلالة فى كل ما حولى.

ولم يكن خندقا الذى دخلناه لكنه سرداب طويل تسند جدرانه ألواح كأنها من الصاج وفوق رأسى، فى النور الخفيض المنبعث من الداخل، أستطيع أن أميز أعمدة ضيقة من الخشب تمسك السقف فوق رأسى.. ورأيته أخيرا يجلس على مقعد وأمامه منضدة أشبه بالمكتب عليها المصباح الغازى الضئيل الضوء وراديو أشبه ما يكون بأجهزة لاسلكى تتدلى منها سماعات وأبواق كأبواق التليفون وأوراق كثيرة على الأرض مسنودة على المكتب، لفات كالخرائط أو لوح الرسم.. وكان جالسًا مقطبًا وكأنه غاضب ولم يقم ليحيينى أو ليسلم علىّ لكننى انتفضت والصول عبد الحى يؤدى التحية إلى جانبى بصوت عال من قدميه ويقول تمام يا أفندى الأستاذ بتاع الإسكندرية.. وخرج وتبينت إلى جوار العقيد واقفًا، شخصا آخر يجمع بعض الأوراق ويلف خريطة ويقف ساكنًا منتظراً مثلى..

– حضرتك من بتوع المكاتب، والفن.. يعنى بتوع الكلام...

وأحسست بأننى أستفز أكثر من اللازم وأن علىّ أن أقول شيئًا بنفس الحدة وإن كنت لا أعرف تمامًا ماذا علىّ أن أقول:

– الفن مش كلام.

- .. آهه دة كلام.. اسمع بتوع الفن والكلام ما ينفعوش هنا.. كفاية اللى شفناه من شوية الطلبة بتوع المظاهرات اللى بعتوهم لنا.. أنا قبلتك هنا لأن فيه أمر.. لازم بتوع الاتحاد الاشتراكى دول عايزين منك حاجة.. دول.... وانطلقت من فمه مجموعة شتائم بذيئة واضحة وحادة، راودتنى كثيراً الرغبة أن أطلقها على الذين يسبهم.. ولم أكن أستطيع أن أفعل ذلك فى أوجههم أو أمام كلامهم.. ورحت أنظر فى وجه الرجل وتقطيبه وغضبه يتملكان وجهه تماماً وكأنه لم يعد يملكه. وأحسست بأن الرجل يشع قدرة على الأمر والاحترام وهو يقول لى..

-.. لكن اسمع.. مش عايز كلام..

- طيب..

- إيه اللى فى المحفظة دية؟

- أوراق رسم..

- ارميهم

- ليه..

- مش عايز كلام..

- أمال أنا جى ليه..

- مش عارف، لكن ارميهم.. وهدومك دية كمان.. وجزمتك.. حاصرف لك لبس.. وجربندية.. أوامرك عند النقيب عدلى عويس.. اللى يقوله تنفذه مباشرة.. عنده أوامر يضربك ويرحلك مباشرة عند أى مخالفة أو مشاكل.. أنا مش فاضى لك.. بعد أسبوعين أشوفك وانت راجع إذا كنت هنا.. مع السلامة..

ودق جرس كالتليفون دقا غريبا فى رنين وطول لم أعرفه من قبل فأشار بأصبعه إلى

النقيب الذى أدى التحية وقال لى فى حسم:

- اتفضل.. وجذبنى من ذراعى جانبا ليفسح الطريق للعقيد وهو يخرج مسرعًا بعد أن صاح تمام.. حول... فى البوق الذى أمامه واندفع عاديا إلى الخارج.. وفى لحظات، وقبل أن يتكلم النقيب بجوارى مرة أخرى سمعت صوت محرك عربة يبتعد..

- عندنا أقل من ١٥ دقيقة..

- أعمل إيه؟

- ترمى هدومك.. وحاخدك للملجأ عند الصول عبد الحى ودفعنى أمامه بيده فكدت أقع لكنه سندنى واحتضننى برقة مفاجئة.. وهو يقول.. معلش بأه.. حظك كدة.. فيه طلعة دلوأت ماتخافش..

ولست أدرى عندما دفعنى إلى المبنى الخشبى القريب من الخندق كيف رميت ملابسى ورميت محفظتى على الأرض وارتديت الأوفراول وحذاء الميدان ووضع هو خوذة على رأسى وعلق على كتفى زمزمية وجربندية وقال لى عندك بطانية وغيار داخلى وأفراول تانى وفوطة وصابونة.. ولها حزامين تتعلق فى الكتف.. يا الله.. شوفهم فى الملجأ وما تتحركش من هناك.. نام إذا كنت عايز.. لحد ما يرجعوا لك.. يا الله.. وجذبنى من يدى لكنه تركنى وهو يبتسم، أخذ محفظتى وكاد يجرنى من ذراعى جرا وهو يكاد يعدو حتى تركنى عند ملجأ قريب وسط عدد آخر غير كثير من الملاجئ ودفعنى إلى الداخل فى الظلمة وهو يقول: ما تتحركش.. أشوف وشك بخير الصبح.. إذا كان لنا عمر.. و..

ومضى وتركنى وحدى وفى دقائق لم تمكنى إلا أن أتبين شكائر الرمل المحيطة بالملجأ والبطانية المفروشة على الأرض التى جلست فوقها.. وقبل أن أنتظر انفجرت الدنيا وأصوات القذائف والطائرات وخيوط الضوء الطويلة التى تنير السماء وتختفى ليحل

محلها غيرها وتتشابك فى أشكال ومجموعات وضيئة ملونة بدرجات من الأصفر والأحمر والأسود.. وعلى الرغم من أن كل دوافعى ورغباتى كانت أن أندفع إلى الخارج فإننى تماسكت وقد فهمت بوضوح ما يحدث وصنعت لنفسى جلسة أرى فيها السماء من الملجأ وبقيت أنتظر.. دون أن أتحسس ما حولى أو أعرفه.. وبدأت بين النور والظلمة المتقطعين، ومع الأصوات التى هى انفجارات متتالية متسارعة كأنها تتسابق، أحس أن روحى تنطلق فيها قوى غامرة ليس فيها فكر أو كلمات لكنها، كلها إطارات متصلة للوحات وألوان وأشكال مليئة بالمعنى والقيمة.. وبدأت أحس بوحدة عظيمة كأنها نعمة خصوصية لم تجعلنى أسأل نفسى حتى أين أنا وماذا حدث لى.. كان الذى أرى من أضواء فى السماء وما أسمع من أصوات وسط هذه الغيبة الكاملة للناس والكلمات، كأنه قد نقلنى إلى عالم آخر له تضاريسه وجغرافيته المصنوعة من صمت فريد ورؤية ساكنة.. ووحدات فريدة من الشكل واللون والخط.. يا إلهى إننى مرة أخرى مستعد للرسم والعمل.. وإن كنت أصطرع، ما زلت، مع اللغة والكلام وأفكار من القاهرة عن الاتحاد الاشتراكى وحرب الاستنزاف ومراحل الصمود والمواجهة والتحدى والردع... هل هذا هو التحدى والردع؟ عندما نظرت فى ساعتى وجدت أن الصمت والظلمة قد حلا تمامًا حولى وأن الساعة، وهى تقارب العاشرة، لا أكاد أراها، ولم يعد فى السماء إلا النجوم.

كنت مندفعًا مدفوعًا من الداخل لأن أعمل وكانت عودتى للعمل أو عودة كل هذه الصور التى أراها لعينى، فيها نفس قوة وانطلاق القذائف والأضواء التى رأيتها على الجبهة أظن أننى لن أنسى هذين الأسبوعين هناك ولن أخلص منهما تمامًا. لقد أحسست كأننى أصطدم اصطدامًا مثل اصطدامات الكواكب.. كنت قد وصلت إلى حد من اليأس والظلمة لم أكن أعرف كيف أخلص منهما رغم كل محاولاتى للتفكير والاعتراف. وهناك فجأة.. منذ جاءنى أولئك الثلاثة الذين حملونى إلى هناك والذين عشت معهم

أسبوعًا قريبًا منهم ومن أكلهم وضحكم وحكاياتهم وأحببتهم وهم يأمروننى أن آكل وأن أغسل وأن أساعد فى التنظيف وفى تعبئة الشكائر وصاحبتهم مع بقية أصدقائهم وزملائهم الذين أضافوا عددًا كبيرًا من الحكايات والنكت والوعى الشديد بمعنى حرب الاستنزاف وبما يجرى استعدادا لمعركة مقبلة لا يعرفون متى يجىء موعدها ويارنج يذهب ويجىء ومرات العبور تتكرر.. وسط توقف عربى كامل وتعنت أمريكا ووعودها المنكوثة وخطب وكلمات عبد الناصر عندما يجمعهم حضوره وزيارته ليحدثهم عن حتمية المعركة.. قالوا لى إنه فى الفترة الأخيرة زار الجبهة ثمانى مرات. ولقد ثبت فى نفسى مع ما حدث لى هناك كثير من الاستقرار والتأييد لما كنت أعتقده وأفهمه عن حرب الاستنزاف وعن طبيعة الآمال الهشة المعلقة عليها. إنها أنبل حرب دخلناها. وهم يرون على الجبهة أن انتصاراتهم أو على وجه أوضح وقع ضرباتهم على العدو كانت موفقة وشديدة لكنها لم تكن عملا.. أدركت فى الأسبوع الأول أن الأمة كلها وكل أولئك الجنود على الجبهة بقوادهم العظام على كل المستويات يعيشون ـ كما كنت أعيش ـ فى حالة حصر. كانت حالة فريدة من الحصر يتحركون فيها بكل أمل للتحقيق وبكل وضوح للهدف لكنهم يتحركون دائمًا حتى فى قمة نجاحهم ـ بأيد قصيرة وبنفس قصير. كلهم يؤمنون بحتمية المعركة، لكن حتى تأتى هذه الحتمية كان عليهم أن ينتظروا وأن يضعوا كل جهدهم وحياتهم فى معاركهم المحدودة التى يثبتون بها أنهم أحياء وإن كانوا غير قادرين على المضى بالعمل إلى غايته. حالة من الحصر جعلتنى أرى نفسى على نطاق أوسع وكأننى صورة مكبرة لما يحدث على الجبهة.. وهكذا مثلهم انطلقت طوال أيام الأسبوع أسجل، ما استطعت، مناظرهم وحيواتهم وبطولات وجوههم.. وفعلت.. سجلت الكثير من الاسكتشات والمناظر بعضها مؤثر أو مضحك وبعضها حزين.. لكن فيها الكثير من جمال أبدانهم وهى تعمل عارية فى الحفر أو وراء المدافع أو تستحم.. أو تستمنى.. وقد استطعت أن أروض العقيد فى نهاية الأسبوع فأرسل مجموعة اللوحات إلى المجلة.. وعندما عاد حمل معه كلمة طيبة من

رئيس التحرير يخبرنى فيها بأنه سيعد معرضا للوحات وأن علىّ أن أستمر.... لو أن هذا الأسبوع قد استطال!

كنت قد وصلت بعد أيام معهم إلى أن أروض نفسى أنا أيضا على أن أقبل حدود هذا العمل مثلما يقبلون هم حدود حرب الاستنزاف.. وألا أفكر فى الفن الكبير.. إلا بالحلم والأمل كما لا يفكرون فى الحرب الحقيقية إلا كذلك.. وكانت فكرة المعرض على الرغم من أنها نجاح ووصول إلى الناس فإنها كانت تستفزنى وتجمع فى نفسى ثورة على نفسى وعلى العمل الذى أقوم به وعلى بقائى فى الجبهة فأحلم باللحظة التى أعود فيها إلى هنا.. إلى البيت.. وإلى اللوحة أو إلى النحت من جديد.. لكن إذا كانت أزمة الفنان قد تكون انعكاسا لأزمة الأمة فإنه يبقى دائمًا قادراً بالثورة والتمرد على أن يظل حريصًا على حلوله الشخصية لأزمته وعلى تشبثه بمعتقده الشخصى الفردى.. نعم.. لقد علمتنى الجبهة هذا.. أو أكدته لى من جديد..

فى نهاية الأسبوع الأول كنت قد عرفت الكثير عن الثلاثى الذى صاحبنى وعرفت أنهم ينتمون إلى فصائل وكتائب.. لكنهم مختارون لأن يعملوا كدوريات للاستطلاع لنقل ورصد المعلومات عن العدو فى الشاطئ الشرقى. عرفت أن الدوريات تتشكل من أفراد، اثنين أو ثلاثة أو خمسة وتعبر للشاطئ الشرقى نهارا أو ليلا لتجمع المعلومات عن أماكن تمركزه وطرق إعاشته ومناطق تدريبه ونشاط طيرانه.. وأحيانا يقومون بأعمال هجومية تستهدف أفراد العدو.. كان من الشعارات التى يكررونها وراء القيادات.. «اقتل الإسرائيلى أينما وجد.. الفرد أهم من العدة فى القتل..» وكانت الدوريات «المحدودة الهدف» تقوم بعملياتها تحت تهديد مدفعية الميدان وحمايتها وقد يتوغلون مسافة ٣ حتى ٥ كيلو مترات. وكانت المجموعات التى تعود تحمل أنباء مفرحة عن تدمير عدد من مركبات العدو أو عربات المدرعة أو الخفيفة المتحركة على الطرق والمدقات وتحدث خسائر فى

المركبات والأفراد وأحيانا تحصل على وثائق وأوراق هامة وبعض المعدات والأسلحة.. وقد سجلت كثيراً من هذه الغنائم أو من الأفراد وهم يحكون عنها أو يقصون تجاربهم.. وعرفت أنهم يعبرون القناة فى قوارب مطاط صغيرة.. وأن عليهم، وهو ما كان على أصحابى الثلاثة، أن يقوموا به فى أول الأسبوع الجديد.. ويوم السبت بالتحديد أن يستمروا طوال الليل فى التنصت والتسمع حول نقطة محددة من نقاط العدو القوية وأن عليهم أن يعودوا بنفس الطريقة فى فجر اليوم التالى.. كان القارب يخفى بأن يسحب إلى الشاطئ الغربى بحبل أو يعود به فرد ثم يسحب للشاطئ الشرقى قبل الفجر لإعادة الدورية..

عرفت كل ذلك.. وصحبتهم وهم يستعدون، وهم يتلقون تعليمات الضباط ويدرسون معهم خرائط الموقع وتوقعات ما سيلقونه من ألغام وأسلاك ونقط حراسة.. إلخ.. وعندما انتهى استعدادهم للخروج مساء السبت صحبتهم إلى أقرب ما يمكن من الشط ورجعت للملجأ أنتظر انطلاق المدافع والأضواء فى السماء.. ولم أنم ليلتها وظللت أتابع تغيير الحرس فى المعسكر، كل ساعتين، حتى أصبحت الرابعة فخرجت مع ضابطين واتجهنا للشاطئ ننتظر سحب القارب إلى الشرق وعودتهم فيه.. وشهدت المنظر.. فى إطار لن أنساه وكأنما قد صنعته بعينى وبروحى.. كانت عيونى كأنها تمتد متجمدة لترى وتحدق فى الماء وفى أشباح النقط الحصينة فى الشرق، وكان الضابطان معى يتكلمان، وميزتهما فى القارب.. الرقيب أول عبد الوهاب هو الواقف.. والرقيب عبد اللطيف جالس، وقد مد رجليه واحتضن بين يديه على صدر الصول عبد الحى.. وعندما اقتربوا رأيت الدم على أجسامهم جميعًا.. وكان النور الكامن فى الماء والمختفى فى ظلمة الليل يحيط القارب ويحيط أشكالهم وحركاتهم الثابتة والقارب يقترب مسحوبا إلى الشط.. ووجه عبد الحى يقترب منى وجسمه الدامى يتأرجح ويتثنى وهو محمول من رأسه ومن قدميه.. حتى

وضعاه علـى الرمل ساكنا قد تلون جسـمه كله بالدم وهم يخلعون حـذاءه ويحملونه على محفة بعيدا عنى.. وأنا أقع على الأرض مكانه غير قادر على أن أتبعه أو أن أتكلم.. كانت هكذا عودة الفجر..

كان الفجـر قد بدأ يسيل فى الجو وعلى الماء والرمل والثلاثة فـى القارب قطع من الظلمة والحمـرة السوداء. يشكلون الحركـة الصامتـة التى لا يصنعها إلا الفن.. وكـانت وجوههم الثلاثة معروفة محددة لى وأنا أرسم الاسكتش على الشط وقد غابوا عنى بعبد الحى الميت. وطلبت فى الصبـاح العودة إلى الإسكندرية لأنفـرد وحدي باللون لأثبت «عودة الفـجر». وظللت منذ عودتى يوم الأحد أعمل حتى عصر الثلاثاء دون أن أتوقف أو أن أرى أحدا.. كنت طول الوقت أرى المنظر الثابت المحدد على الشط فى الفـجر. وتنفجر فى رأسى ألوان من فلاسكويز وروبنز ودى لاكـروا.. وتصاحبنى زوجـة عبد الحى التى لم أعرفـها ولم أر صورة لها لكنى وجـدتها تنسل فى اللوحة كما رأيتـها وأنا على الشط قادمة بوجهـها فقط وبشعرها المحلول تحت ربطة رأسـها السوداء، وجه غير واضح أو مميز.. كـأنه سحابة داكنة قريبـة.. أو قطعة من الليل سـقط عليها الفـجر.. ظل خفـيف كأنه مصـنوع من الضوء فى الفجر ومن سيولة الماء وتكدره.. إنها قادمة.. فهل هى قادمة علىّ!

لقد انتـهت اللوحة وعندمـا انتهت رقـدت بجانبهـا على الأرض ساعات طـويلة قبل أن أتحرك لأغلفها فى أوراق الجرائد ولأحملها إلى المكتب ليرسلوها للقاهرة..

لم أكن أعرف بوضـوح ماذا وضعت من معـانٍ أو قيم فى وجوه الثـلاثة وفى هذا الوجه السـابح فى الجو المرتفع عن المنـظر المتقـدم علىّ لكننى كنت راضـيا حـزينا وأنا أترك أولى لوحاتى بعـد الحصر تغـادرنى ملفوفة بـأوراق الجرائد القديمـة وبأخبار حـرب الاستنزاف

وخطب عبد الناصر، كما كنت راضيًا حزينًا وأنا أتلقى فى اليوم التالى كلمة قصيرة من رئيس التحرير يخبرنى فيها أن اللوحة رائعة وعظيمة لكنه لا يرى وضعها فى المعرض. كما أنه لا يظن أنها تصلح غلافًا للمجلة.

- ٤ -

كان معنى المصادفة الذى عرفته حاداً قاسياً مع أيام الجبهة، يلازمنى الآن فيحمل لى تهديداً دائمًا، وأملا غامضا مخيفا فيما هو مقدم علىّ، أو فيما أنا مقدم عليه. لماذا نقلت إلى الجبهة وأنا فى شدة أزمتى وقد كتبت الخطاب الذى كتبته لرئيس التحرير والذى وجدته على أية حال رداً مناسبًا على خطابه عن «عودة الفجر» فأرسلته له، ولماذا التقيت بهؤلاء الثلاثة بالذات، ولماذا رسمت عبد الحى ونحن فى العَربة. لقد ذهبت اللوحة مع أشيائه التى ذهبت لزوجته ولا أعرف أين هى الآن.ولماذا مات عبد الحى. ولماذا يردنى هذا كله الى التصوير واللون والحكاية والمنظر.. ما هى المصادفة فى كل هذا، وما هى هذه العلية الخفية المليئة بالدلالة التى نسميها مصادفة أو قدراً، كل مصادفة تعيد تشكيل الحاضر لأنه مستعد لذلك، وكل إعادة تشكيل هى عمل فنى. أليس مجموع ما يدخل فى أى عمل فنى هو مجموع مجموعة من المصادفات لا نستطيع أن نراها مقدما أو نتحكم فى موعد أو مكان وقوعها كل مزقة من الواقع الخارجى لها منطق ولها صفات ويمكن بمفردها أن تقوم فى خارج النفس وأيضا خارج الفن، فإذا تصادمت هذه المزق أو التقت بالمصادفة أو إذا قبلتها النفس أو اختارتها تولد هذا الجنين الخرافى الذى نسميه بالعمل الفنى.. يولد فى نفس الفنان ويتحرك ليضعه. ولكن أليس كل جنين هو جنين خرافى وثمرة غير معقولة ـ رغم كل أنواع الحسابات.. من لقاءات المصادفة.. لكن ـ مع ذلك ـ ليس العمل الفنى بذرة كالجنين تنمو.. لكنه.. مثل ماذا .. أين قرأت عن هذا النوع من السمك الذى يأكل أنواعًا أخرى من السمك فيصبح فى شكلها.. فهو هى وليس هى وهو نفسه وليس نفسه.موصول متصل بما حوله وبواقعه لكنه منفصل منعزل خفى عنه فيه. هل أنا وما أعمل ثمرة المصادفة، أم أنا وما يخرج عنى، نتيجة هذا النهم المفترس الذى يأكل الواقع حوله ليصبح هو وليس هو، بل هو آكله المتخفى المبيت لافتراسه. هل ما زالت العلاقة بين الواقع والفن أمراً

يشغلنى.. أم هى المصادفة ـ مرة أخرى ـ التى جعلتنى أقرأ منذ زمن عن هذا النوع من السمك وأن أتذكره الآن..

إن «عودة الفجر» لم تعد هنا لأنظر فيها من جديد ولست فى الحقيقة بحاجة إلى ذلك. فكل ضروراتها أثناء العمل ما زالت إلى حد كبير فى وعيى وعينى وذاكرتى.. ولم يكن صعبا وأنا أعمل فيها أن أحل ضرورات الخط والشكل والمنظور ـ وما أصاب ذلك كله من ضغوط اللون التى كانت هى حركة العمل وفرض إنجازه وكأنه انتهى قبل أن ينتهى.. كان الشكل ـ المنظر ينحل فى اللون وكان اللون يريد أن يفترسه.. وكانت معرفتى بالثلاثى والواقع الذى حدث لهم هناك على الشط الشرقى وصورتى السابقة لعبد الحى وحبى له مصادفات تلتقى فى داخلى وأنا أعمل فى منطق لا يمكن الإمساك بحدوده ونتائجه. لكنه كان منطقا عطوفا على العمل يعمل فيه وله حتى انتهى. بقع الدم المتناثرة على بدن عبد الحى والتى نالت أطرافا من الواقع والراقد المحتضن هى مصدر الضوء لأنها، على دكنتها، غير دكنة الليل وغير دكنة الماء، لكنها، فى عمقها، كأنها تشير وتشد ظلمة الشط الشرقى، ووهم ما هو عليه من مواقع راسخة ثقيلة، تشد الروح والعين إليها فى عكس اتجاه القارب المسحوب المقترب إلىّ على الشط، لكن الشكل كان ضرورة، فهناك معنى فى الحكاية والمنظور لايمكن مع «عودة الفجر» الخلاص منه أو أكله. ومن فرط التهاوى والتركز على الدم المنتثر ومن وضاءة وجه الحبيب عبد الحى وما عشقته فى عينه وأنفه ارتفع هذا النور الذى كاد يقتلنى حتى أمسكت به فى خيال الوجه القادم الذى لا أميزه، وإن كنت أعرف تفاصيله وأعرف أن علىّ أن أخفيها أو أن آكلها تمامًا حتى لا تصبح شكلاً أو منظورًا لكنه مجرد إيهام بلون أو ضوء من نوع آخر تمامًا غير اللون الأحمر المنتثر على الشكل.. إنه لون كلون الحلم والذاكرة والأمل والفجر لكنه فى الآن نفسه لون يهدد الشكل كله، فكان

جهدى وصراعى، وساعات العمل متجهة كلها لأستنقذه ولأرد عنه عادية هذا اللون القادم عليهم وعلىّ؟ لماذا أتذكرها بهذا الوضوح، وأين هى «عودة الفجر» الآن ومن ينظر إليها، وهل رآها أحد؟ هل حكمهم عليها كان مصادفة؟ ما هو قائم من شعارات التحدى والردع وما هو مسموع عن رحلة عبد الناصر الأخيرة إلى موسكو؟ «لقد أخذنا هذه الأسلحة ولم ندفع مليمًا واحدًا.. البعض هدية.. والباقى يندفع ثمنه على أقساط طويلة الأجل..» هل هذا صحيح فعلا؟ وهل بدأت «عودة الفجر» تدفع هذه الأقساط مباشرة برفضها وما الأقساط التى سأدفعها؟ إنها طويلة الأجل..

إن أعمال القوات والجنود على الجبهة وكل أبطال هذا العبور المحدود المفاجئ كلهم جميعًا مثل «عودة الفجر».. قد تكون رائعة لكنها مرفوضة، نسجلها لكن نخفيها وكأنما نخشى منها، تهزنا لكننا لا نعانيها، نبعدها ونكتفى بأخبارها فى الصحف، فتفاصيلها وشكلها وألوانها قد تهدد الجبهة الداخلية..!! هذا الخوف على الناس من الألم والمعاناة جعلهم غير قادرين على الحساب والمحاسبة وجعلهم حتى وهم يتطوعون مأمورين غير فاعلين.. وعشنا جميعًا فى هذا الحصر القومى الذى نلتقط فيه ما يرمى إلينا من فتات المعلومات والتجارب والخبرات حتى كادت نفوسنا وعقولنا تضمر من قلة المعلومات وندرة المشاركة ومحدودية الفعل. كم كانت تغيظنى هذه الأخبار حتى وإن صاحبها ما يسمى تحقيقات مصورة: «المدفعية الثقيلة للأسطول قصفت منطقتى بالوظة ورمانة ساعة كاملة فى أنجح عملية بحرية».. «الضفادع البشرية هاجمت قاعدة إيلات من البحر ونسفت القطع البحرية الثلاث».. «تحت ستار كثيف من نيران المدفعية عبر ٦٠ مقاتلاً مصريًا فى القناة إلى الضفة الشرقية، واستطاعوا أن يقوموا فى وضح النهار وبجرأة متناهية ونفذوا بنجاح عملية تدمير لوحدة دبابات العدو المتحركة فى منطقة البلاح»..«هذا هو العبور

المصرى الرابع منذ بداية نوفمبر»..ما هو الحصر.. أليس هو أن تعرف من بعيد.. أن تعرف من بعيد.. وأن تشارك من بعيد.. فيبعد عنك العمل وتنضب فى داخلك القدرة؟ إن كل عمل محكوم برقابة من خارجه لا يمكن أن يكون عملاً. إن كل عمل تحكمه المحرمات يظل محروما من صدق الحقيقة واكتمال المعنى.. وما أكثر ما يلفنا ويحيطنا من محرمات منذ قامت الثورة لتحقق الحرية والكرامة فأوقعتنا فى هذا الحصر المستديم.. أين أستطيع أن أكتب أو أنشر هذه الكلمات وماذا كان علىّ أن أفعل لأجعل «عودة الفجر» مقبولة «معروفة»؟ هل أنزع منها الدم والموت والحزن، وهل كان علىّ أن أتقن رسم الشعارات وصناعة البوسترز؟ إن الحقيقة الغائبة الناقصة فى كل ما نسمع أو نقرأ من أخبار تجعلنا نتناول فى كل يوم جرعات من السم الذى يبعث الشلل. وشعاراتنا تقول تصفية الماضى وتعبئة الجهود، وآن للأمة العربية أن تتسلح بقوة الوحدة ووحدة القوة.. لا أحد يسأل متى يجىء هذا الآن ولماذا لم يحن وأين هى هذه الوحدة التى ستقوينا أو القوة التى ستتحد.. خلاصنا فكر لا تحده حرمات وفن قادر على الإفصاح عنها.. وأين تأتى القدرة على كل هذا إلا فى العزلة والتفرغ المستديم؟

وقبل أن يهبط المساء كنت أحس بتهديد العودة إلى الجحيم وإلى عودة الحصر المخيف الذى ظننت أننى قد خرجت منه.. وجاءتنى عربة مكتب المجلة برسالة تليفونية قصيرة تفيد باختصار وجفوة شديدة أنه قد صدر قرار بمنحى إجازة مفتوحة وأن مرتبى سيحول إلى المكتب. وتركت البيت مع العربة إلى المكتب وهناك فهمت الأخبار من أحاديث العاملين هناك الهامسة لى.. وتجنبت أن أبقى طويلا معهم حتى لا أسمع كلمات المواساة.. فقد كنت فى الحقيقة فرحا سعيدا وكأنه قد انفتح فى جسمى خراج كبير كان مملوءا بالسم والشلل.. وأصبحت حرا تمامًا لأن أعمل ولأن أفكر ولأن أرى وحدى دون أن أتوقع نداء

أو أمراً من أحد ودون أن أكلف نفسى عملاً لا أريده.. فكرت أن أمشى فى شوارع الإسكندرية الضيقة بعيدا عن البحر وأن آخذ طريقا طويلا لا ينتهى إلى البيت وأن أدخل البارات الصغيرة التى ردت أبوابها فى رمضان فلا تنفذ إليها إلا بالطرق الشديد وبقدر من الصعوبة.. وفكرت أن أسأل عن زوزو أو عن غيرها من بنات الإسكندرية وعندما وصلت إلى البار الذى تعمل فيه زوزو.. جرعت كأسا من البراندى السيئ الذى يبيعونه وقالوا لى إن زوزو لا تعمل فى رمضان، ففرحت بهذه الأخبار والظروف التى كأنها تدفعنى دفعًا إلى البيت وإلى الوحدة والعزلة والتفرغ.. وسرت مندفعا أركب الأتوبيس إلى البيت.. وعندما وصلت رحت أزيح بقدمى ويدى ما تراكم على الأرض وعلى الكنبة وعلى المقاعد القليلة وأجمع الملابس المتسخة وأضعها فى الحقيبة الصغيرة التى كانت معى على الجبهة واتجهت إلى الحامل لأضع عليه فرخا من أوراق اللوحات ذكرنى بخرائط الجبهة الموضوعة إلى جوار مكتب العقيد..واندفعت أرسم دون أن أعرف بالضبط ماذا أريد أن أعمل.. كانت زجاجة الروم فارغة بلونها الداكن القاتم ورأيتها مليئة بدم أدكن من الدم الذى رأيته فى القارب ورأيت إلى جانبها حذاء من أحذية الجبهة، فردة واحدة كبيرة فارغة بلا قدم ووضعت إلى جانبها وكأنما خلَّفها ذراعًا مقطوعة بها يد وأصابع تريد أن تمسك بشىء غير موجود، فليس فى الأصابع إلا هذا الامتداد لمحاولة الإمساك. ومرة أخرى رأيت شبه الوجه القادم. وجه زوجة عبد الحى وقد اتسع واتسع حتى يملأ أطراف اللوحة من اليمين والشمال وكأن الزجاجة والحذاء والذراع المقطوعة واليد الممتدة الأصابع كلها خارجة منه. وعندما ظهرت اللوحة بألوانها القاتمة المحددة وحدودها الشفافة الرقيقة: على اليمين شبه عين وعلى اليسار فى الوسط أخرى.. ووهم بشفتين قرب الحذاء ولا شىء.. لا شىء.. عند الأصابع.. أحسست أنى أمسكت بكينونة فريدة لمصادر الحصر وأمل

العمل.. ومع ذلك، أو من اللوحة راودتني فكرة الانتحار والموت والخلاص من كل شيء.. وشرب الروم الدم من الزجاجة ورغبة محمومة فى أن أظل أبتعد.. أبتعد عن اللوحة حتى تختفى أو أختفى.. ففتحت الباب إلى سلم البحر ولفحنى هواء بارد فعدت للداخل أبحث عن معطفى الثقيل فى حقيبة كبيرة صدئة القفل ووضعتها على كتفى ونزلت السلم إلى البحر إلى العمل القديم الجالس هناك..

يا عملى.. يا عملى.. أين أنت.. وماذا فعلت بنفسك؟

كتفاك، عيناك كم قصا من حكايات على البحر.. هل أنت هنا فى الإسكندرية أم تورينو أم فى حلوان مع الطفل القديم..

أنا متجه إليك ولم أرك بعد، لم أرك منذ زمن، فهل تسمح لى أن أجلس فى حماك وأن أبقى إلى الأبد مثلك على الشط..

هل تقبلنى إذا نزلت إليك أم ستصبح مثل كل الناس منكراً لى، مقضىٌّ علىَّ أن أظل بعيداً عنك..

سرت بخطوات بطيئة حرجة خطرة كأنما سأقع وكأنما أريد ألا أصل أو أخشى أن أصل، لكننى كنت أتقدم حريصا على ما قام فى نفسى من مناجاة له حتى وصلت إليه فلم أره. كانت عليه كتلة سوداء لم أميزها مباشرة إلا بعد تحديق طويل. جسد امرأة فى جلباب قطيفة أسود طويل قد لفت ذراعيها حوله وكأنما تحتضنه أو تجد مكانًا مريحًا فيه تستند عليه فكادت تخفيه تمامًا عن عينى فلم أره، ورأيتها هى، جسدها الطويل، نصفه الأعلى على التمثال بكتلة صدرها التى مثل كتلته، وبقيته الطويلة تمس الأرض وكأنها خرجت منه.. كانت كلها سوداء حتى شبشبها الأسود وكانت الظلمة حولها من السماء ومن البحر ومن

ثوبها الأسود كأنها كلهـا موضوعة على التمثال وكأننى قد وضعـتها هنا ونسيت ذلك تمامًا أو كأن كائنًا آخر حقق ذلك وأنا غائب بعيد.. وصحت أمسك بالواقع..

ـ قاعدة كدة ليه؟

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. انت مين؟

ـ أنا اللى عملت التمثال ده.

ـ هو ده تمثال.. ده حتة حجر..

ـ أنا اللى عملته..

ـ عملت فيه إيه؟

ـ عملت كدة.. زى ما هو كدة..

ـ كدة إزاى .. يعنى خليته كدة ناعم

ـ هو ناعم بس..

ـ ومحطوط على البحر..

ـ أنا اللى حطيته.. انت مين؟

ـ بنستريحوا عليه..

ـ هو مريح..

ـ أهو.. سند.. هو انت اللى ساكن فى البيت ده؟

ـ أيوة..

ـ بتعمل فيه إيه لوحدك؟

ـ أيوة.. باعمل تماثيل..

ـ زى ده..

ـ كل واحد شكل..

ـ وبعدين بتعمل فيهم إيه.. بتبيعهم..

ـ لا.. بحطهم على البحر..

ـ عشان أتسند عليهم..

ـ لا..

ـ أُمَّال عشان إيه؟

ـ مش عارف.. اسمك إيه..

ـ ليه حتعملنى تمثال؟

ـ انت زى التمثال..

ـ بعد الشر.. مش ممكن

ـ ليه؟

ـ أنا رايحة جاية.. باتحرك واكلمك كمان..

ـ وهو كمان..

ـ بأة ده اسمه كلام.. صلى على النبى.. انت اسمك إيه؟

ـ حسن..

ـ أنا حسنية..

ـ حسنية!.. إيه اللى جابك هنا.. انت وحدك؟

ـ طفشانة.. متخانقة وزهقانة.

ـ مع مين؟

ـ جوزى..

ـ هو فين؟

ـ خرج يسهر برة..

ـ عندك عيال..

ـ جانى عيل .. واد زى القمر ومات.

ـ وبتعملى إيه فى النهار؟

ـ نشوف المطرح.. نكنس.. ونطبخ.. ونجيب مية..

ـ وبعدين؟

ـ لما الراجل يرجع ناكل وننام..

ـ وهو يرجع إمتى؟

ـ ليلاتى على وش الصبح.. مدهول..

ـ والصبح؟

ـ لما يصحى.. يطلع مع الرجالة يصطاد..

ـ وانت؟

ـ قلت لك بنشوف المطرح..

ـ ما تجيش تشوفى لى المطرح أنا كمان.. وتاخدى اللى انت عايزاه..

ـ يعنى إيه اللى أنا عايزاه؟

ـ فلوس يعنى..عشرين جنيه فى الشهر..

ـ عشرين.. ياه!

ـ كتير..

ـ يعنى .. بس انت عايز إيه؟

ـ قلت لك.. تشوفى المطرح.. تكنسى.. تطبخى..

ـ زى ما بنعمل عندنا

ـ تمام..

ـ بس؟

ـ بس..

ـ بسيطة.. انت معاك حد؟

ـ لا.. وحدى.

ـ بتعمل إيه؟

ـ باشتغل..

ـ بتشتغل ايه؟

ـ قلت لك.. باعمل تماثيل وارسم

ـ يا حلاوة..

ـ ليه؟

ـ بتلعب يعنى..

ـ لأ باشتغل كتير وباتعب كمان..

ـ نحب نتفرجو..

ـ على إيه؟

ـ عالشغل.. عالبيت يعنى.

ـ دلوقت.. تعالى..

ـ لأ.. بعدين

ـ ليه؟

ـ مش عارفة لما نفضى.. واشاور الراجل.. الدنيا برد وعايزة نروحوا دلوقت..

ـ تاخدى البالطو ده؟

ـ لأ..متشكرة.

ـ حتيجى؟

ـ مش عارفة.. يمكن.. لما نشوف..

ـ لكن حتيجى..

ـ نحب نخدموك.. باين عليك ابن حلال..

ـ خدى البالطو.. وابقى رجعيه..

ـ لأ.. تشكر.. فتك بعافية..

وانطلقت سريعة خفيفة سوداء على الشط قليلا، ثم اتجهت إلى اليمين فجأة.. واختفت وراء أكشاك الصيادين.. والطرق الضيقة المفضية إلى الشارع والتى كنت أعتقد أنى أعرفها وأراها كل يوم وأنا عائد أو خارج من البيت..

كان تمثالى قد مات فلم يحدث بينى وبينه أى لقاء ورحت أتعجب لنفسى كيف خطرت لى فكرة دعوتها للعمل فى البيت، ولماذا لم أفكر فى هذا قبل اليوم لأريح نفسى من الكنس والطبخ.. وصعد لنفسى سؤال ألا تجيد غير الكنس والطبخ.. إن جسمها الطويل الممشوق.. وشعرها المربوط على رأسها له ضفائر.. ووجهها الذى حدقت فيه كأنه من الفيوم.. رقبتها طويلة.. وعيونها واسعة.. ويداها.. لا أذكرها بوضوح لكن ذراعيها الطويلتين تتحركان فى حرية تحرك أثدائها وكأنها تفتح بهما طريقا.. وخطوتها واسعة طويلة واثقة..

ما هذا؟ هل تفكر فى المرأة، أم فى الكنس والطبيخ؟ ألا أحرك نفسى أنا الآخر لأعود إلى زجاجة الروم والدم ألا أعود لأنام وأصمت.. ليتنى وجدت زوزو اليوم وصحبتها لغرفتها أو إلى البيت هنا.. ما أريد.. ماذا أريد.. أنا حر تمامًا.. ودوار الحرية.. هو الرعب والرعدة.

أى معنى هذا الذى صنعت للحرية؟ حريتى أنا. وهل أنا حر حقًا؟ إننى أحس هذا الدوار الذى يصنع الرعب والرعدة وكأننى مقدم على عمل لا أعرف حجمه أو مرماه لكننى أعرف له ثقلا وكأنه أمر أو ضرورة لا فكاك منها.. لقد تخلصت من الجبهة ومن حرب الاستنزاف وعشت هذا المعنى المخيف لما تعيشه مصر من حصر ومحدودية العمل، ولا شك أن كلماتى وتصرفاتى على الجبهة التى لم أعد أذكرها قد نقلت على نحو ما إلى أولئك الذين أصدروا قرار منحى إجازة مفتوحة. لقد أصبحت منفيًا مبعدًا عن المشاركة وكأننى كنت أشارك.. ما أسذج القرار وما أجهله وما أكثر بعده عن إدراك الواقع وما يحدث فى النفوس. لقد كنت دائمًا أقبل مثل هذه القرارات لأنها فى النهاية حكم على من يصدرها ومزيد من الحرية والعزلة لروحى. فهل كان من الضرورى دائمًا أن أحتج أو أن أحمى نفسى وأدافع عنها أمام مثل هذا القدر من الأحكام المتعسفة الجاهلة؟ إن قرارات السلطة هى دائمًا بحكم طبيعتها ضيقة الأفق محدودة العمل والنتيجة.. وهل هناك طريقة لمقاومتها والتغلب عليها إلا بقبولها والخضوع لها ما دمت أريد الفن ولا أريد السلطة وما دمت أعتقد أن العمل الذى أريد لا يصنعه أحد غيرى ولا يشارك فيه أحد سواى.. لقد كنت دائمًا أسعى إلى فصم علاقاتى مع البشر وكأننى مصاب بالشيزوفرينيا. فهل الشيزوفرينيا هى السياج الحقيقى للفن، وما هو هذا الفن الذى يولد فيها. إنه شىء مختلف تمامًا عن البرج العاجى ومفاهيمه. وهى كلمة أو مقولة ناقصة جاهلة مثل المحاكاة. فليست العزلة الحقيقية للفنان هى عزلة عن الناس بل هى عزلة لهم.

نعم، إننى حر الآن تمامًا. حر أن أنتزع عملى من حلوان أو أن أعود لزوجتى أو لأمى أو أن أحيا من جديد مع لويزا بل وحتى أن أحب وأنام مع هذة المرأة السوداء، هذه الحسنية التى وضعتها المصادفة أمامى.. أنا حر، حر أن أنظر وأن أضع روحى فى موضوع أو حكاية

أو أن أترك هذا الصراع مع الشكل واللون يحل نفسه أو يوجد فى أعمال متصلة غير محدودة الدلالة أو محدودة المضمون.. لقد كانت دائمًا هذه هى مشكلتى التى أرفضها وأعتنقها.. أجالدها وأجلد بها. أغويها كأنها امرأة وأقبلها كأنها عطية إلهية أو عقاب سماوى. أليس هذا هو التعريف الحقيقى والحدود الأصلية للحرية..كل محرم هو حاجز وراءه خلق، وتجاوزه ليس خرقًا له بل تأكيد واحترام لوجوده. ما أكثر العيون التى أنظر بها الآن وما أقدر هذه العيون على صناعة موضوعها الذى هو لها وحدها. حرية الفنان هى أنفذ دعوة للبشر أن يتحرروا إذا قبلوا الفن ونظروا له. لكن الناس جميعًا تخشى دوار الحرية..

والآن.. ماذا تريد يا حسن أن تفعل بحريتك وهل تستطيع أن تدخل مع نفسك فى حوار معلن مفتوح. ماذا تستطيع أن تفعل وأين تصل بعد الجحيم والمطهر؟ إن أسذج ما فى دانتى هو الوصول إلى البراديزو.. كم قلت هذا للويزا لكنها لم تفهمنى تمامًا. كانت تظننى وأظنها كانت صائبة، أعيش لعنة خاصة بى تجعل المطهر أقصى ما أستطيع أو أصبو إليه من خلاص. فهل مررت فعلا بالمطهر أم أنا شبح من أشباح الجحيم لم يستطع أن يأكلنى إمبراطور العالم السفلى الفاجع الحزين.. ديس.. إبليس.. لوسيفر. الملاك الذى يحكم الهوة العميقة بعد تاسوعات الجحيم كلها والذى يملك القدرة على معرفة الخطيئة والكشف عنها وتحقيق العذاب عنها. ماذا قلت لها وأنا فى تورينو عن الشيطان وعن ألوان أوجهه الثلاثة، ولماذا لم أرسمه. القرمزى المحمر والأبيض المشوب بالصفرة والأسود الداكن الذى يشبه سمرة وجهى وسمرة كل أولئك الذين كانوا على الجبهة.. كانت تقرأ لى فى هوامش وشروح الكوميديا أن الألوان الثلاثة قد تشير إلى ألوان أجناس البشر وقد تكون ابتعاثا لأولاد آدم يافث وحام وسام.. وكانت تقرأ سعيدة هذا البيت فى دانتى عن

لون «أولئك الرجـال الذين يعيـشون حـيث يجرى النـيل من المنبع إلى الرمال الضـحلة».. وكـانت تـسعد بتعبيرى بهذا اللون وإن كـنت أراها تحبه وتعشقه.. لماذا لم أرسم الكوميديا أو ما رأيته فيها ولماذا لم أتخذها موضوعا لأعمالى؟ كان ذلك عند ذاك حريتى وما زالت..

لقـد أحببت الكومـيديا وكـانت الكتـاب الذى ربطنى بلويزا مـثل كتـاب فـرانشيسكا داريمينى.. وكان هو الكتاب الذى أتقنت منه الإيطالية بـعونها حتى جاء اليوم الذى بدأت ألمس فيه شعرها وشفتيها وتبادلنا أولى قبلاتنا.. «واليوم الذى توقفنا فيه عن القراءة» عندما انفتحت علينا رياح العـشق وبدأنا سياحة البدن.. كان ذلك مبـكراً جداً وكم هو بعيد الآن هذا اليوم الأول للعـشق.. أول يوم دخلت فيه بدنهـا وأعطتنى روحها كى نلتـقى بعد ذلك كل يوم تقريبـا لنقرأ ولنتقدم فى الأنـاشيد ونتوقف لندور مـثل أشباح الجحـيم فى الغرام.. وعندما انتـهينا من الكومـيديا.. وبدأت أقرؤها من جـديد، وحدى أو مـعها، كنا نتـحدث كثيـرا عن حيواتنا وعن خطايانا وكانــت تحرص على أن توفر لى، بالقراءة وبإحـضار كتب الشروح والدراسة للكومـيديا، الفرصة لأن أزداد معـرفة وفهما لكـل دانتى ولأبياته المفردة وأن أتذوق جـمـال ونغـمـة التـرزا ريمـا Terza Rima وأن أعـايش المعنى اللاهوتى المسيـحى للكوميديا. لقد كنت أذكـرها وأنا أمارس حرية البدن مـعها أن دانتى لم يسـمها الإلهية وأن هذا لم يكن فى عنوانها الأصلى. وكان خلافنا حول لاهوتـية الكوميديا طبيعيًا وضروريًا لكنه كان حيا نابضا وكنت أنال أنا العشق والبدن وأظل مع ذلك أحاول دائمًا أن أنظر فى الجـحيم والمطهـر وأتجنب الباراديزو ومـعانى الغـفران والخلاص. كنت أعـشق فى دانتى مفهومه للعقاب على أنه الخطيئة نـفسها وأحب تصويره للعذاب فى حلقات الجحيم فى صورة التكرار للخطيـئة. وكانت تعـتبر هذا طريقًا للاعـتراف والخلاص وكنت أعتـبره طريقـا للوعى ودوار الحرية.. وكنت ألقنـها عـقيـدتى ببدنى وكـانت لا تستطيع بالـدموع

وبعذابها من الخطيئة أن تلقننى معانى التوبة والغفران. وكان الأمر بالنسبة لى يرتبط دائمًا بالفن وباعتباره اكتمالاً للوعى، يصنع وجودا خالصًا علينا أن نراه وأن نعيشه لا أن نعبره أو أن نعبر عنه. وهكذا كنت أرفض ولا أحب كل اللوحات والتصاوير المستمدة من الكوميديا، والتى تحاول أن تصور ما يصفه دانتى، لأنها لم تكن تتخلص من المعانى اللاهوتية أو من الاعتماد عليها. كنت، وما زلت أعتقد، أن للكوميديا صفة واقعية أو صفة الواقع الفن الذى لا يمكن أن يحاكى أو يصور. كم تحاورنا على قيمة البناء والمعمار اللاهوتى الفلسفى للكوميديا. هى تؤكد أنه الإنجاز العظيم الباقى الذى يعطى للتفاصيل قيمتها وأنا أرى التفاصيل هى المعجزة الباقية المستمرة التى تخفت وتبهت إذا أرغمناها على التلاشى فى هذا البناء.. خلاف كبير معقد لم يكن يحله دائمًا إلا تفاصيل البدن وساعات الغرام المصنوعة من تفاصيل اللذة والعشق والهوى الجامح الذى لا يهدأ ولا يستقر ولا ينتهى.. كنت أحيانا أحس أننى أعبر، كما ظللت أعبر، عن معتقدى الفنى، وأحيانا كنت أحس أننا ثمرتان لحضارتين مختلفتين لا تلتقيان إلا فى البدن. وكنت أحس أننى فى هذا اللقاء المنتصر الكسبان حتى إذا بكت أو صمتت بعد الغرام وبعد أن يجهد البدن.

كنت، وأنا أتذكر نفسى الآن هناك، أتكئ على الفراش الصغير الذى كان حلقة الجحيم الأولى لنا، وأنتظرها وهى تقوم وتتحرك لتصنع القهوة لنفسها ولتحمل لى كأسًا جديدة من نبيذ رافنا الذى كانت تشربه فرانشيسكا داريمينى. وأقوم لأحضر الزجاجة كلها وأضعها إلى جوارى وأجرع كؤوسا متتالية من النبيذ وأمتلئ بدفء وكسل وكأننى سأنام أو أحلم وأراها تتحرك خفيفة مع فنجان القهوة تشربه دون أن تجلس وقد سقط شعرها وتعرت أثداؤها وسيقانها فى الثوب الخفيف الأحمر الذى وضعته عليها وهى تقوم من الفراش. وأقول لها وأنا نصف نائم ليتنا نقرأ فى ألف ليلة وليلة.. فتسألنى لماذا. لأنها فن

خالص بلا بناء لاهوتى أو فلسفى ولأنهـا واقعية فقط وكل ما فيهـا من صور هو فن مجرد واقعى مهما كانت رمزيته أو وفرة ما فيه من حسية..

ـ انظرى ماذا فعل روزيتى بفرانشيسكا داريمـينى وباولو ورياح الجحيم السوداء.. جمال وفتنة ورقة وتصوير رمزى للدوار دون معاناة حقـيقية للدوار أو الرياح السوداء.. لقد غلبه دانتى وخدعـه فصورها وكـأنها فى الدنيـا وليست فى الجحـيم.. لماذا؟ لأن اللاهوت ليس فنا.. ولأن البناء الفلسفى لا يمكن أن يكون فنا..

ـ أنا لا أفهم ما تعنى تمامًـا لكنى قرأت ألف ليلة وليلة وهى عندك هنا بالإيطالية متـرجمة وأنت لـم تفتحها أبدا.

ـ إننى أعرف كتابى.. ولا بـد لك أن تقرئيها معى.. وأتذكر، كمـا أذكر الآن، كيف كنت أتسلل إلى غرفة جدى فى حلوان عندما يكون فى خـارجها يأكل أو يمشى أو معه زائر فى غرفـة أخرى فـأسوى المجلدات فى المـكتبـة وأنتزع مجـلدًا من ألف ليلة وليلة وأضعـه بين قمـيصى وبنطلونى وأذهب به إلى غـرفتنا فى السلامـلك وأخفيـه تحت وسادتى لأقرأ فـيه عندما تنام أمى وسـميحـة. لماذا كانت القراءة فيه دائمًا خطية، ولمـاذا كان ما فيـه من عشق وتحريك للبـدن ممنوعا إلى هذا الحـد. إن موقفـنا غريب جدًا من ألف ليلـة وليلة.. لا أحد ينكر قيمتها وأسرها ولا أحد يفسر تحريمها وحجبها.. لماذا ليس لدينا من الشروح والكتب على ألف ليـلة وليلة مـثل مـا لدى الـعـالم عن دانتى؟ ولماذا لـم تصـور؟ ولمـاذا لم تصـبح دراستهـا شـيئًا يفتـخر به المرء؟ لقد عرفت شـوفان ومراجعـه عن دراسات ألف ليلة وليلة ولم أستفـد منه كثيرا لأن كل ما يشيـر إليه غير متـوفر أو غير متاح للقـراءة وليس له مثيل بالعربية. ومعظم من يتكلمون عنها يتكلمون أو يستوحون البناء:شهرزاد وشهريار وصورة الحكاية التى تخـرج من الحكاية. لكننى منذ كنت شـابا مـراهقا أعيش الحكاية التفـصيليـة

والمناظر التفصيلية ووصف العشق ودفعه إلى غاياته الأخيرة فى اللفظ والفعل. ألف ليلة وليلة مليئة بالفن والبدن الذى لم يسيطر عليه أحد. تعيش المحرمات وتخترقها فى كل لحظة. ليس فى العقل والبدن فقط بل وفى الزمان والمكان وفى الصورة التفصيلية. وكل اختراق هو تفصيل لواقع. الخرافى والمسحور والمبالغ فى وصفه كله مردود إلى واقع ومعامل على أنه كذلك.. ومهما سورت المنظر والتفاصيل بالمعنى والمغزى تظل التفاصيل هى الأهم وهى الإنجاز الحقيقى الذى يجعلنى أتابعها وحدى وأنا مختف عن الأعين وكأننى أرتكب إثما أو اعترافًا.. أو أشاهد وحدى فنًا..

شيئا من هذا كله كنت أقوله لها وها أنا أتذكره الآن وكأننى أمارس بالتذكر حريتى. فى ذلك النهار البعيد. وكان غرامنا معظمه فى الصباح أو العصر - عندما أقمت ألف ليلة وليلة فى مقابل دانتى لم أكن حراً تمامًا. كنت منشغلاً بدراستى عن الطبيعة الصامتة وعن كتاب الموتى وكنت أصنع فى نفسى فهمى ومعتقدى فى الفن والرسم والنحت ولا أمارسه إلا فى الخفاء وكأننى أرتكب إثمًا أو خطيئة. كانت علىّ واجبات كثيرة وكانت لويزا نفسها وحبها وزواجها من برتينى، وكيف نلتقى وكيف نخفى علاقتنا واجبًا متصلاً يكلفنى كثيراً من الجهد والتفكير والتشكل.. لكنى مع ذلك حاولت أن أبدأ معها قراءة ألف ليلة وليلة وبدأت متلعثما مترجمًا لها من العربية، بعد أن رفضت قراءة الترجمة، أحاول أن أجعلها تذوق ما أعرفه من قصصها. فهل نجحت؟ لا طبعًا.. لقد فشلت فشلاً ذريعًا.. وهل كان ذلك لصعوبة ما أردته من ترجمة ورفضى للترجمة الجاهزة أم لأنها كانت محكومة بفهم جاهز لألف ليلة وليلة وكانت غير قادرة على أن تحيا تجاربى معها؟ كنت أراها دائمًا تهرب منى، بفهمها، إلى الغريب وإلى سهولة المسحور ولا أراها قادرة على أن تنفعل بدنيًا بصورة الغرام والعشق وممارسة الشهوة. كانت دائمًا تفضلنى أنا، وما أقوله لها أو ما أفعله

وأنا أعشقها على كل صور مدن النحاس أو طرق بغداد أو حيل الحلاقين والجزارين والقوادين وعجائز النساء. كانوا جميعًا بالنسبة لها طريفين وليسوا واقعيين وكانت دروسهم خلقية بسيطة تستبعدها وكأنها معروفة مقررة قبل أن تحياها وتعيشها..

وكنت عندما أفشل فى أن أنقل لها الرعشة التى أعرفها من الكتاب أزيحه جانبًا كما كنت أفعل مع دانتى تمامًا. لأصنع بيدى وفهمى ما أريده من رعشة فى بدنها.. وكنت دائمًا الفائز بما أعطي.. وإن ظللت أرعى فى نفسى وحدى هذا الإيمان بما فى الكتاب من فن.

فلماذا لم أصور الكتاب ولماذا لم أتخذه تكئة أو مصدرا لأعمالى. كنت دائمًا أخاف وأتأبى على الحكاية التى تفرض نفسها على الفن. وعلى الرغم مما تعلمته أو درسته من لوحات الأساطير اليونانية أو الحكايات الإنجيلية، فقد كنت دائمًا أحاول أن أنفذ إلى ما وراء الحكاية بل لا أعرفها أو أنساها، وأنا أنظر وأدرس كيف صنع الفنان عمله رغم الحكاية أو وراءها. وكم بودى لو أعاود الآن النظر فى كل هذه اللوحات من جديد، فتاريخ الفن وحرفيته مخفى فيها.. وتجربة الفنانين وصراعهم مع الحكاية هى دائمًا تجربة لدوار الحرية وامتلاك لها..

لكن أليس رفض لويزا لألف ليلة وليلة هو من نوع، أو درجة من رفضى للحكاية؟ وهل للمرأة تجربة من نوع خاص ما زلت لم أعرفها لأنها تجربة للدوار بالحياة وتفاصيلها وليس بالحرية أو الفن. هل كتاب ألف ليلة وليلة ليس كتابا مما تعشقه النساء أو تستطيع أن تتذوقه؟ هل هو كتاب رجلى؟ عندما عدت من تورينو وفى السنة الأولى من عودتى كنت مندفعا عطوفا على سميحة وعلى أمى وكنت أريد أن أعوضهما عن غيابى أو أعتذر عما بذلت وبددت من حب وجنس على لويزا. وقد حاولت. وما زلت أذكر محاولاتى، أن أعلم سميحة الغرام واشتعال البدن بعد هذه الغيبة الطويلة عنها وعن بدنها. وكان من

ضمن محاولاتى القاسية الغريبة أن أقرأ لها فى ألف ليلة وليلة، وعلى الرغم من أننى كنت قد قرأت أن النساء أقل تأثرا بالأدب المكشوف وبالكلام عن الجنس فقد حاولت أو أرغمتها على أن تسمع ونحن فى الفراش تلك المجموعة من الحكايات فى ألف ليلة وليلة الواردة تحت عنوان غلبة الشهوة لدى النساء وسألتها ـ وهى تشعرنى أن القصص «مقرفة».. «ألم تكونى تشتهيننى وأنا غائب».

ـ أنا أحبك.. وكنت أنتظرك..

ولم تكن تشعرنى بأى رفض وأنا أطلب بدنها كل ليلة ومع ذلك لم أستطع أبداً ولم أعرف كيف أشعلها حتى تصرخ أو تتوجع كما كانت تفعل لويزا وكما عرفت مع نساء كثيرات فى إيطاليا ومصر. وكم كنت أود أن أحدث أمى فى ذلك وأن أسألها هل سميحة ينقصها شيء وهل ما فعلوا بها من طهارة قد جعلها باردة لا تستجيب؟ لكنى لم أجرؤ أبدا أن أحدث أمى عن علاقاتنا كما لم أجرؤ على أن أسألها أو أعرف هل قرأت شيئًا من ألف ليلة وليلة وهل كانت تحب أبى كما تحبنى سميحة فقط. ولم ينتج من ليالىَّ مع سميحة إلا أنها حملت، هذا الحمل الذى سار بها إلى الموت والصمت الكامل والانقطاع عنى وكأنه كان احتجاجا طويلا على ما فعلت..

ومع ذلك فقد ظلت ألف ليلة معى وظلت تراودنى فى أيام كثيرة مناظر الغرام واللقاء التى ترسمها بين الرجل والجنية وبين الرجل والمرأة المتخفية فى ثياب رجل والمرأة الخاضعة التى تحمل للرجل العاجز فـ...ه قادراً نافذاً، ثم تلك الصور للعلاقات المتطرفة مع العبيد السود والقرود وتلك القصة التى كانت تشعلنى وتثير فى نفسى معانى الألوهية وكل صور الأساطير اليونانية، والتى تحكى عن الغرام والمرأة والدب، فى قصة وردان الجزار. كانت القصة القصيرة المحكمة باقية فى ذهنى بتفاصيلها وكنت أحس أنها قصة مهاجرة من

الهند حيث يروون الكثير من هذا الغرام بين النساء والدب أو من اليونان عبر البحر وكأنها إحدى تجليات زيوس أو كأنها صدى لقصة باسيفاى Pasiphae زوجة مينوس ملك كريت. لكن ألف ليلة عكس الأساطير اليونانية وعكس دانتى لا تضع الغرام والعشق إلا فى البدن ولا تنقله إلى حكاية أو تفسير لظواهر الطبيعة أو التاريخ.. أليس هذا أقرب للفن وألا تبقى الصورة فى ألف ليلة مع التفاصيل الجسية هى الأمر الأول والأساسى ويظل المعنى والتفسير حقا للمتلقى يختلف فيه وتتجدد صوره لكن يظل دائمًا فى صور الحكاية هذا اللقاء البكر الأول مع واقع هو واقع فنى.

ماذا أقول؟ كأننى أقول إن ألف ليلة فيها مذهب فنى للعمل دون إطار لاهوتى أو فلسفى ودون مغزى محدد إلا التجربة نفسها. هل كان ما فى الكتاب من خلقيات ومواعظ هو أمر ثانوى بالنسبة لهذا التهييج الخصب للصورة والخيال واللقاء الحى؟

حكاية وردان الجزار تعاودنى الآن وكأنها جزء لا يتجزأ من دوار الحرية الذى أعيشه. ولست بحاجة إلى إعادة قراءتها فأنا أتذكرها بتفاصيلها. المرأة التى تذهب فى كل يوم إلى الجزار فتشترى بدينار.. لماذا لا أستخرج الكتاب من هذا الصندوق وهو جزء من تراث جدى الذى احتفظت به ورأيته من مدة فى الصندوق.. نعم.. «كانت تأتيه كل يوم بدينار يقارب وزنه دينارين ونصف من الدنانير المصرية».. هل هذا يعنى أنها لم تكن مصرية وكانت غريبة.. لا.. لقد كانت تختفى مع كنز.. «وتقول له أعطنى خروفًا، وتحضر معه حمالاً بقفص فيأخذ منها الدينارويعطيها خروفًا فيحمله الحمال وتأخذه وتروح به إلى مكانها..»، ومن الطبيعى أن يرتاب وردان فى المرأة وفى تكرر ظهورها اليومى فيتحايل على الحمال حتى يعرف ويقول له.. «إنها فى كل يوم تحملنى الخروف من عندك وتشترى حوائج الطعام والفاكهة والشمع والنقل بدينار آخر وتأخذ من شخص نصرانى مروقتى

نبيذ وتعطيه دينارا وتحملنى الجميع وأسير معها إلى بساتين الوزير ثم تعصب عينى بحيث أنى لأنظر موضعًا من الأرض أحط فيه قدمى وتأخذ بيدى، فما أعرف أين تذهب بى ثم تقول حط هنا وعندها قفص آخر فتعطينى الفارغ ثم تمسك يدى وتعود بى إلى الموقع الذى شدت عينى فيه بالعصابة فتحلها وتعطينى عشرة دراهم..».

وبودى لو أنقل الحكاية كلها متعجبًا من التفاصيل التى توردها قبل أن نعرف التفاصيل الأخرى، دون أى مغزى إلا هذه الكلمة المجردة لغلبة داء الشهوة أى الاندفاع المطلق القاتل للقاء البدن.

تتبعها وردان سراً بالطبع حتى وصل إلى الحجر الكبير الذى تترك عنده الحمال وزحزحه بعد أن غابت تحته. «فوجدت خلفه طابقا من نحاس مفتوحة ودرجات نازلة فنزلت فى تلك الدرج قليلا حتى وصلت إلى دهليز طويل كثير النور فمشيت فيه حتى رأيت هيئة باب قاعة فارتكنت فى زوايا الباب فوجدت صفة بها سلالم خارج باب القاعة فتعلقت فيها فوجدت صفة صغيرة بها طاقة تشرف على قاعة فنظرت فى القاعة فوجدت المرأة..» كل هذا الجهد والتفاصيل للوصول إلى الرؤية.. فكيف تتسلسل الرؤية وكأنها لوحات مستقلة قادرة بنفسها على الصمود أمام العين. المرأة تأخذ مطايب الخروف وتضعه فى قدر وتضع الباقى أمام دب كبير عظيم الخلقة فيأكله حتى آخره وهى تطبخ «فلما فرغت أكلت كفايتها ووضعت الفاكهة والنقل وحطت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقى الدب بطاسة من ذهب وعندما يتحقق لهما دوار السكر تنزع لباسها فيتحرك الدب.. «وهى تعاطيه أحسن ما يكون لبنى آدم..» وكانت الجملة قد بقيت وكأنها محفورة فى ذاكرتى، وكم تذكرتها وقلبتها فى ليالى الغرام والوحدة.. لكن وردان لا يتوقف فبعد أن رأى ما رأى «ووجد أنهما لا يتحرك فيهما عرق لما حصل لهما من مشقة» وكان معه سكين

تبرى العظم.. «فجعلت السكين فى منحر الدب واتكأت عليه حتى خلصته وانعزلت رأسه عن بدنه فصار له شخير عظيم مثيل شخير الرعد فانتبهت المرأة مرعوبة..» وتأتى اللوحة الثالثة الأخيرة بعد ذلك والمرأة تطلب من وردان أن يذبحها هى الأخرى لأنها لا تستطيع العيش بعده وتهدده بأنها ستتلف روحه إن لم يفعل وستترك له الكنز «كل هذا الذهب والفصوص واللؤلؤ: «الذى يملأ الغرفة إن فعل.. يغريها وردان بأنه سيتزوجها وتقول له «لا تراجعنى..» فيقدم على الذبح الكامل.. ويعطينا الدرس الخلقى الزائف.. «قلت أذبحك وتروحين إلى لعنة الله ثم جذبتها من شعرها وذبحتها وراحت إلى لعنة الله والملائكة والناس أجمعين..»، والحكاية بعد ذلك قصيرة لا معنى لها إلا كل ما تركت من تفاصيل.. الطبخ.. وطاسة الذهب والنقل والفاكهة والنبيذ والرأس المنفصل عن البدن ورأس المرأة بشعرها الطويل ملقى هو أيضًا إلى جانب لباسها المنزوع....

كان الدوار قد اشتد بى وأنا أفكر فى كل هذه التفاصيل فشربت بسرعة كأسين من الروم وقمت أفكر فى اللوحة الثلاثية التى أريد أن أرسمها وكيف أتعامل مع الحكاية وماذا أترك وماذا أمسك به. وكان أول ما استبعدت تمامًا ودون تردد هو وردان نفسه وإن لم أستطع أن أستبعد معنى اللعنة التى تركها وهو يغادر المكان.

لم يكن فى حياتى أسعد من هذه الأيام.. لم أكن أبدا قبل هذا حرًا سعيدًا إلى هذا الحد. فهل أستطيع أن أسجل اللحظات والضرورات، وهل أستطيع أن أمسك بهذا الضوء الذى غمر روحى وكأنها تصعد أو تعيش فى أعلى قمم الباراديزو؟ فى المواجهة والمعاينة المباشرة للكينونة والخلق واكتمال الصفاء. هل يمكن لى أن أسجل هذا الإصعاد.. إننى لم أنته بعد تمامًا من اللوحات الثلاث.. لكننى أكاد.. وفى هذا القرب الوشيك من الإنجاز والاكتمال أريد أن أسجل ما حدث إلى الآن وأن أجتاب من جديد الطريق الذى سلكته إليه.. فهناك

على مقربة تمامًا.. يكتمل العمل ويسطع هذا النور الثلاثى من اللوحات الثلاث.. إننى أعرف تمامًا أننى لم، ولن،أقدم حكاية أو موعظة أو مغزى خلقيًا.. لكننى حاولت أن أقدم وجوداً حيًا لـلقاء الحى الذى يتم فيه الحب والموت وتتحقق من خلاله معجزة الوجود المفارق المصنوع من الشكل واللون.

لقد ظللت أيامًا طويلة أصطرع مع الحكاية فى العزلة التى أحياها. وأعمل وأفكر بالشكل واللون اللذين يولدان قدرا لا حد له من المعانى والقيم، تتوالد، وتتكثر وتعنف وتشتد ثم تذوب وتختفى واحدة وراء واحدة ليبقى اللون والشكل فقط.. اللون والشكل.. الشكل واللون.. الخط والكتلة.. والكتلة والحركة وهذا الضوء الفريد الغريب الذى هو النور فى عينى وفى اللوحات الثلاث..

عندما أمسكت بالقلم أولا أحاول أن أمسك بالاسكتشات الأولى لما أنوى تحقيقه.. كانت هناك أسئلة كثيرة لا تنتهى.. وكان كل سؤال كأنه فخ تضعه الحكاية وكلمات ألف ليلة وتلك المقارنة الوقحة الجريئة التى صنعتها بين الكوميديا وبين كتابنا الثرى المسحور.. فما أكبر الفارق بين العمل الفردى لدانتى بحساباته اللاهوتية وتلخيصه الغريب لكل ثقافة العصر وتاريخه وبين البناء الحى من الأمواج المتلاحقة الذى صنعته الليالى من مادة الوعى واللاوعى الإنسانى والذى أقامته خلال قرون. ما أكبر الفارق بين أن تفسح المكان للبشر أن يوجدوا وأن يحيوا وبين كل هذا القدر من الإيماءات والإشارات إلى المعنى والمغزى.. وعلى الرغم من وعيى بجرأة المقارنة واستحالتها فإننى سعيد راض بما حصلت عليه من تأكيد للفن وتحرير له.. لقد خلصت أولا وقبل أن أبدأ من وردان. فعلى الرغم من أنه الرؤية والعين التى أبصرت، فإنه اللعنة التى تحيل الفن حكاية والتى تجعل من الشكل معنى، ومن اللون والحركة مغزى. إنه العدم الذى يأكل الوجود، وهو الدلالة التى تنتهى

عندها الكينونة. إنه الكارثة المعلـقة فوق رءوسنا جـميعًـا، لا اختفـاء منها ولا مـهرب، هو النظرة التى تقضى على العمل وقد تمنـعه أو تحرمه إن لم نسرقه منه كما سـرق بروميثيوس النار.. لقد ذهب وردان. فليس له أن يظهـر فى العمل مهما ترك من لعنة. لـقد تبقى اللعنة التى أطلقها لكن لا يبقى هو.

أمـا هى فكيف تظهـر أو توجد. ومن هى، هل لهـا اسم، هل لهـا أصل وشكل، هل هى المـرأة أم مـجموع النسـاء، هل هى واحدة أم مصنوعة من ألف وجه وخد وجـسد وشعر؟ هل هى واحدة لا تتـجزأ أم مصنوعـة من كل النساء والموديلات اللاتى عرفـتهن.. هل هى ألف فينوس وألف هيلين.. وألف عارية تحمل الجرة أو تستحم؟ كل نساء الفن يطرأن على الذهن وتظل هى غيرهن تمامًا.. فمن هى؟ إنى لا أحـاكى شيئًا أو أحدًا لكنى أصنع وجودًا قائمًا فى الحـركة والشكل واللون بعد ويتماسك مع اللون والشكل والحـركة فى اللوحات الثلاث.. هل تـبدو بظهرها.. أم يظهـر وجهـها، واقفـة أم منحنية قـبل أن تنام للدب أو أن تذبح معه؟ ما أكثر الاسكتشات والمحاولات التى اسـتبعدتها قبل أن أبدأ هكذا أمام اللوحة مبـاشرة.. والدب هل هو أسود، أبيض، أشـقر.. صحراوى.. هل يـتحرك ليفـترس أم هو مليء بالوداعة وروح الحب؟

إننى لا أستطيع الآن بعد أن استـبعدتها جميعهـا، أن أعدد كل هذه الأسئلة أو أن أعايش فكرى ويدى وهمـا يحاولان وينقـضان ما يحـاولان، لأن الصراع مع الحكاية لم يـكن قد انتهى بعد.. وقمت واقفا وأنا أبعد كراسة الاسكتشات عنى وبدأت أضع الاسكتش الأخير على اللوحة الأولى وأنـتقل فى لحظة واحدة إلى الاسكتش الثـانى والثالث على اللوحـتين الأخريين وكـأنى أراهم معا، ثلاثتهم، قـبل أن يكتملوا، قد اكتـملوا وتواجدوا.. إنهم الآن الثلاثة أمامى وقد تقدم فيهم اللون حتى كادوا ينتهون...

القاعة فى الأولى مضيئة بنور من الأعلى وفى الوسط الطاسة الذهبية الكبيرة مليئة يشع من داخلها ومن خارجها النور، وقد حملتها المرأة فى كلتا يديها وانحنت عليها بشعرها وثدييها وهى ترفعها بكلتا يديها لتقربها من فم الدب المنتصب كما فى السيرك، أبيض ملىء بالنور والنعومة وإحدى قدميه الأماميتين عليها وكأنما يهم بالاحتضان، وعلى جسده نقط كثيرة من النبيذ الأحمر المتساقط من الطاسة على بطنه وأسفل بطنه الظاهر فى مواجهة مباشرة للعين.. وعلى اليمين وفى أسفل اللوحة موقد عليه قدر يغلى وعلى اليسار بقايا لحم وعظام وفى المقدمة طبق كبير فيه فاكهة ونقل.. كانت المرأة منحنية لا يبدو وجهها لكنها واضحة محددة فى ثوبها الأسود وكأنه ملس يبدو منه طولها، وكتفاها، ونفور ثديها الأيسر فى مواجهة البياض الشاهق الواضح الملامح والأعضاء.. كانت قطرات النبيذ الحمراء على جسد الدب تشد القطع المتبقية من اللحم كما يشد سواد ثوب المرأة سواد القدر. وبين الطاسة وطبق الفاكهة الكبير أضواء متبادلة يشد كل منهما الآخر.. الأبيض والأحمر والأسود يغمرها جميعا ويلفها ضوء كضوء الظهيرة المتوقد لا يكسره إلا الدخان المتصاعد من القدر وظلمة الشعر الأسود المنسدل الذى يخفى وجه المرأة لتبدو يداها واضحتين منيرتين وكأنما يرفرفان بالحنان والحب، وقدم الدب الأمامية تكاد تستريح فى وقفته على كتفها غير المنظور.. وإن كان هناك مغزى فى اللوحة فهو روح الحب الذى أمسكت به فى الحركة وأذابته فى الألوان الثلاثة فكسرها جميعًا وجعلها تقترب من بعضها بعضا كأنها انحناءة المرأة والدب معًا..

أما اللوحة الثانية فقد كدت أجن وأنا أنفذها وبياض الدب يملأ وسطها ويتحرك نابضا وكأنه يصعد ويهبط والمرأة تحته مختفية تمامًا لا نرى منها إلا قدميها عند مؤخرة الدب وجانبا من رأسها يغطيه رأسه الكبير الممتد.. وعلى الأرض فى اليمين ثوبها الأسود وقطعة

من لباسها الأحمر.. واللوحة كلها يشملها نور الدب الأبيض وقد أصبح كأنه نور الهالة فيه قداسة وعطاء ونعمة.. إننى لا أكاد أستطيع أن أرفع عينى عن كل هذا العطاء. كيف يمسك اللون بالعطاء دون هذه الحركة النابضة.. وكيف يتحقق النبض دون هذا الخط الواحد الطويل الذى أمسك ببدن الدب كله من رأسه حتى قدمى المرأة المتباعدتين على جانبى جسده الممدود فوقها..

وكانت اللوحة الثالثة سريعة مختصرة كلها بياض شاهق من جسد المرأة العارية المفصولة الرأس وقد رقدت على ظهرها وبين ثدييها رأس الدب. والدب على جانبه مفصول الرأس. مغطى عند محل رأسه بشعر المرأة ورأسها المفصول.. وبينهما مساحة كبيرة من البياض.. انقلبت فيها الطاسة وحبات الفاكهة كأنها تدعو الناظر أن يلتقطها وعلى يمين اللوحة سواد كثيف من ثوب المرأة المغطى ببقعة حمراء كبيرة.. وتحته القدر المقلوب.. يمين اللوحة ملىء بالسواد والأحمر يليه بياض الجسد الراقد، وبياض البياض بينهما، وبياض الدب. درجات متصاعدة من البياض تتخلص من الأحمر حتى يسقط عليها سواد الشعر من الرأس المفصول على جسد الدب.

إننى ما زلت أعمل فى دروس الألوان وتصفية التفاصيل لكنى لم أعد أرى اللوحات الثلاث منفصلة. لقد بدأت يدى ترتجف وعينى ترى اللوحات الثلاث تتداخل وتلتحم..

إننى مع طول النظر والعمل فى اللوحات الثلاث لم أسترح ولم أجلس إلى جانبها كما أفعل عندما يكتمل العمل. إننى أقف وأسير وأبتعد وأعاود العمل بالألوان ولا أكاد أستطيع أن أغير شيئًا فى الخط..

هل سأبدأ من جديد.. هل هناك عمل وراء كل هذا.. هل غلبتنى الحكاية وصرعنى المعنى.. لو أن صديقى محمود يحضر من أسوان ليرى ولأحدثه.. لو أن رئيس التحرير تصيبه النبالة فيقدم ليزورنى وليسأل عنى..

لقد بددت الـرضاء والسعـادة اللذين كنت أحسـهمـا وأنا أسجلهـما وأعيـد النظر، وبدأ يداخلنى يأس وانتظار وكأننى على أبواب الجحيم مرة أخرى. مينوس يعقد المحاكمة وذيله يمتـد ليلتف حـوله مرات ومرات لـيحدد الحلقـة من الجحـيم التى سأهبـط إليها.. عـندما تواجهه الروح المخطئة ينسكب منها الاعتراف فلا يخفى شىء وعند ذاك يحدد هذا العارف لكل خطيئة مكانها من الجحيم..

يا إلهى هل ينتقم منى دانتى.. هـل وصلت إلى نهاية اليأس ونهاية الحـياة.. أم أنا منزعج من الوحدة ومن خطايا التسجيل والاعتراف.

وتحركت كأنما أريـد أن ألتقط فاكهة من السـاقطة فى اللوحة أو أن أجد نبيـذاً فى الطاسة المقلوبة. إن وحدتى شديدة قاسية مريرة كأنها قطع رأس..

وفزعت حتى كدت أسقط على الأرض وأنا أسمع دقات على الباب فى وسط هذا الليل واندفعت لأفتح الباب وكأنما أنتظر وراءه كل أشـباح الجحيم وعذاباته.. ونزلت الدرجات القليلة إلى الباب الخارجى وفى يدى فرشاة وفتحـته فوجدتها أمامى فى ثوبها الأسود وهى تبتسم وتقول لى فى لهجتها الإسكندرانية:

ـ قلنا نيجى نعيدو عليك.. كل سنة وانت طيب.

فجذبتهـا إلى الداخل بكلتا يدى وكأنما أحتضنها وقد لفـحنى الهواء البارد. وعلى الرغم من فزعى انتزعت من نفسى شيئًا من الرقة وأنا أقول لها:

ـ حسنية ادخلى قوام.. الدنيا برد..

وعلى الرغم من فزعها دخلت.

- ٥ -

لا شك أنني أقترب من معنى، والمعنى نهاية. فهل أقترب من نهاية أو خاتمة؟ لكن كيف أقترب من المعنى والمعنى لم يكتمل؟ إن الطريق إلى المعنى مليء بالنوايا التى تدفع إلى الخطيئة كما تدفع إلى الندم. لكن كيف يجمع المرء بين التوبة وارتكاب الخطيئة. إن لاهوتيات دانتى وأحكامه الخلقية والنفسية تتملكنى وتتردد أصداؤها فى روحى: «أن يغفر لك غير تائب لا يؤدى إلى الخلاص. فليس لأحد أن يريد الخطيئة والتوبة فى نفس الآن، وهذا التناقض يحجب النتيجة الزائفة». إننى أتفق معه فى هذا تمامًا ويبدو أننى أختلف فى الأساس فى نوع الخطيئة وطبيعتها. فالخطيئة فى روحى هى هذا العدوان بصوره المختلفة على وجود الفن وعلى قيام هذا الوجود فيما يصنع الفنان من أعمال. وكم هى عديدة صور هذه الخطيئة وكأنها تستحق جحيما مستقلا.. يلقى فيه بالفنانين الذين تستبد بهم الشهوات والرغبات وليس العمل. أولئك اللصوص والمعتدون على جوهر الفن وطبيعته.. كم هناك من كذابين ومحاكين خداعين وموهومين بالسلطة ساعين وراء الشهرة والتحكم فى العواطف الخفيضة الدنية للبشر.. هل أنا واحد منهم وهل لا بد لى أن أسرد أسماءهم وجرائمهم وأن أصنع لهم الجحيم بحلقاته كى أصل إلى خلاص كالخلاص الذى حققه دانتى بالكوميديا لنفسه. وما فائدة الكوميديا كلها إن لم تكن قد منحت شاعرها هذا الخلاص..

إن دانتى يعلمنا أن الاعتراف والوعى الكامل بالخطيئة أول الطريق للخلاص، فلاهوتياته تجعل الخلاص منحة ودعوة مقبولة من المحبين للخاطئ، لكنه يغاير فى هذا الحكم، فمن الخاطئين من يعترف، ومن يحرص، أو لا يعترض، على أن يبلغ العالم الحى وراء الجحيم بخطيئته ومنهم من لا يجرؤ على ذلك ومن لا يستطيع إلا أن يكرر الخطيئة فى حلقات الجحيم.. أى نوع من الخاطئين أنا وأى نوع من الاعتراف أستطيع. أمام مينوس ينسكب

الاعتراف... فمن هو مينوس الذى أعترف أمامه وما هى الحلقة التى سيحددها لى بالضبط بعدد مرات التفاف ذيله.. إن دانتى يجعله من غضبه وثورته يعض طرف ذيله، وأنا الذى أريد، وأستحق، مع الاعتراف، أن أجرح ذاتى وأن أدميها.. إن وعيى واعترافى بالخطيئة يجعلنى فى الآن نفسه مينوس، وحلقة الجحيم نفسها، وهذا التكرار المستمر المضنى الموجع للخطيئة ذاتها.. ومع هذا فها أنا أريد أن أنسكب فلا أدع شيئًا ليقال..

خطايا البشر مهما فظعت وبشعت قابلة للتوبة والغفران ونتائجها مع الزمن تتعادل وتنسى ويمحوها الزمان وأعمال البشر القادرين، مع كل ما فيهم من شر، على الخير والحب والعطاء. أما خطايا الفن فلا غفران لها حتى بعد تحطيم أعمال الفنانين الخاطئة والقضاء عليها..

فلأسلك إذن طريق الاعتراف، فليس لى الآن غيره، ولأعترف خطوة خطوة بكل خطية فقد أقترب من المعنى.. ومن الخلاص..

عندما دخلت حسنية معى إلى البيت فى تلك الليلة الباردة التى كانت، كما علمت منها، ثالث يوم العيد وكان ذلك فى الثالث عشر من شهر ديسمبر، لم تخرج إلا قرب الفجر وقد أوصلتها بنفسى ورأيت لأول مرة أين تسكن وتعيش دون أن أدخل معها إلى البيت الذى عرفته مرارا فيما بعد، وليس فيه إلا غرفة واحدة فيها سرير ودولاب ومنضدة للأكل ومطبخ ضيق فيه ثلاثة بريموس ومنضدة أخرى وفنطاس كبير للماء فيه صنبور ومنضدة عليها حلل وأطباق وسكاكين كثيرة ثم روائح نافذة من كومة زبالة تحت شباك المطبخ ومرحاض مظلم على يمين الداخل مباشرة إلى البيت.. لقد عرفت كل هذا بالتفصيل فيما بعد وأمضيت فيه أكثر من ليلة أصنع خطايا البشر. لكن لماذا أقفز هكذا على الأيام وكأننى لا أريد أن أقول كل شىء أو كأنى لا أريد أمام مينوس ألا أدع شيئًا ليقال.. لكنى

فى الحقيقة لا أريد ذلك، فأنا لا أخشى هذا النوع من الانسكاب بل أراه وعيًا يضىء جنبات النفس وقد يكشف لى من خلال الاعتراف والوعى به عما أريد أن أصل إليه من خطايا الفن.. إن الذى أتردد أمامه هو الحكاية التى يعرفها البشر دون حكاية والتى قد يستطيع كل من عرف المرأة ورغبات البدن أن يحكيها.. ثم هى جزء غير فريد أو غريب من حياتى ولياليٍّ السابقة التى لم أتردد من قبل فى تسجيلها حتى وإن كنت لم أصل فيها إلى نهاية المعنى.. ومع ذلك كله.. فها أنا أحكى ـ دون فن.. ما حدث..

عندما دخلت حسنية معى إلى البيت لم يكن بينى وبينها إلا هذا الحوار السريع الذى تبادلته معها على الشط ليلة رأيتها مستندة على التمثال «هاجة وزهقانة». وعلى الرغم من أننى كنت جادًا وأنا أعرض عليها أن تأتى لتنظيف البيت ولتطبخ أحيانا فلم أكن أتوقع أنها ستأتى وكدت أنساها تمامًا وإن لم أنس منظرها بثوبها الأسود وقامتها الفارعة الطويلة وعيونها الواسعة تحت قمطة الرأس التى تخفى الشعر وتلمع فى الليل، وشبشبها الأسود فى قدميها، وقد يكون ثوبها الأسود وقامتها قد تسللا دون وعى كامل منى إلى اللوحات التى كدت أفرغ منها. ويبدو أنها عندما جاءت كانت «هاجة وزهقانة» أيضا وأنها اختارت أن تطرق الباب بدلا من أن تنزل مرة أخرى إلى الشط وتستند على التمثال. إنها لم تقل لى هذا لكنها كانت مهتاجة نشطة وكأنها تخفى غيظا مكتوما وتريد أن تفرج عن نفسها أو كأن فى طبعها شيئا كثيرا من الجرأة، ومع الأيام وظروف الحياة، الكثير من القدرة على التقحم واللامبالاة. كانت أسئلتها بمجرد أن دخلت، كثيرة متلاحقة، وكانت حيويتها أو غيظها الداخلى لا يجعلها تجلس حيث عرضت عليها أن تجلس بل ظلت واقفة تتحرك تقلب الأشياء وتتناولها بيديها وتسأل أسئلة قصيرة معظمها «وده إيه ده كمان..» ولم يكن من الممكن إلا أن ترى اللوحات الثلاث مباشرة لكنها تجاهلتها تمامًا وراحت تلعب بعلب

الألوان على المنضدة وعلب الألوان على الأرض وبالفرش الكثيرة الموضوعة بأحجامها المختلفة، وبقية أدواتى التى أعجن بها اللون وقصعات الجبس التى لم تستعمل من زمن، وتحرك كل منها أو تحمله فى يدها وتسأل من جديد «وده إيه ده كمان..» ولم أجد فى نفسى، وأنا أتأملها وأتأمل حركتها وأتأمل حاجبيها وعينيها وأنفها وفمها وخطوط جسدها تحت الثوب، لم أجد فى نفسى رغبة فى أن أقول أكثر من «دية عدة الرسم»..

ـ شبه عدة النقاشين..

ـ أيوة..

وبدأت أفكر أننى لم أعرف امرأة منذ أن أخذت هذه الإجازة وقبل أن تكون مفتوحة وأن البيت لم تدخله امرأة منذ دخلته. وتعجبت من نفسى كيف صبرت طول هذا الوقت. وكدت أضحك معها وهى تمسك «المريلة» التى أضعها علىّ وأنا أرسم وهى تقول ودية بتلبسها كمان.. دية وسخة خالص..

ـ معلهش.. ما هو انا بامسح فيها إيدية وبتقع عليها ألوان..

ـ دية عايزة جاز عشان تنضف..

ـ لا.. دية كدة..هى كدة ماتنضفشى..

وأمسكت بيدها وسحبتها إلى المقعد المريح الوحيد فى الغرفة وقلت لها: اقعدى هنا.. عقبال ما أعملك شاى..

الدنيا برد ولازم انت بردانة قوى..

ـ لا أنا لابسة ألف حاجة تحت..

وعلى الرغم من أننى كدت أرغمها بيدى على أن تجلس فى المقعد وأنا أفكر فى بدنها تحت كل هذه الثياب، وأنها قد لا تكون على هذا القدر من الامتلاء الذى يبدو عليها، إلا أنى أسرعت إلى المطبخ لأعمل لها الشاى وأنا متأكد أنها ستقوم واقفة مرة أخرى بمجرد أن أختفى عنها فى داخل البيت. ولما عدت وجدتها واقفة عند اللوحات وبدأت من جديد أجلسها على المقعد وأنا أحمل صينية صغيرة عليها كوب الشاى الدافئ الذى وضعت فيه كمية كبيرة من السكر وزجاجة روم جديدة فتحتها ووضعت على فوهتها كوبا لأشرب منه وسحبت حشية صغيرة وجلست عليها قريبا من المقعد الذى أجلستها عليه. وبدأت تحاورنى عن أن هذا لا يجوز، ولا يجوز أن أجلس على الأرض هكذا وهى جالسة على الكرسى، فأرغمتها بالضغط على كتفيها أن تجلس حتى رضيت أخيرا وجلست بعد أن صببت لنفسى كأسا من الروم وجرعته دفعة واحدة وكدت أغص به وهى تقول لى:

ـ ده انت راسم حكاية..

ولم أكن أتوقع أبداً أن أسمع كلمة حكاية منها. وأحسست كأنها سكين صغير أو دبوس كبير يخزنى فى صدرى فجرعت كأسًا أخرى وأنا أقول لنفسى ألم أقل لك ذلك؟ وهل كان من الضرورى أن تحضر حسنية لتقول لك ذلك؟

ـ أيوة.. حكاية..

ـ إيه الحكاية..

لماذا أتذكر كل هذه التفاصيل واللحظات الأولى لمعرفتى لحسنية وقد عرفتها كلها تحت كل ثياب، وسمعتها تحكى لى حكايات كثيرة. لقد بدأت مباشرة، وكأننى أدافع عن نفسى، أحكى لها حكاية اللوحات وقد أعطيتها ظهرى ولم أشر إليها أبداً. ولست أدرى تمامًا ماذا

قلت أو كيف قصصت عليها الحكاية لكنى أذكر أننى - مع الروم - بدأت أحس خفة تجعلنى أتكلم فى هدوء وحنان، وكأننى أعيد صياغة الكلام والألفاظ لها بعد أن فهمت منها أنها سمعت عن ألف ليلة وليلة وأنها تسمع أحيانًا قصصا منها فى المسلسل الذى يذيعه الراديو «اللى جابهولى جوزى قبل ما تخلص منه البطاريات..» لكنها ظلت صامتة صمتا مثيرا وهى تسمعنى أتكلم وأطيل فى التفاصيل دون أتردد فى وصف المرأة أو الدب وهما يتعاطيان الغرام أو تفاصيل الذبح والرأسين المفصولين كما وصفتهما فى اللوحة. وكنت أنظر إلى وجهها وهى تسمعنى وأكاد أحس بما فى داخلها من أفكار وخيالات وهى تنعكس فى عيونها وعلى شفتيها وهى مستغرقة فى الإنصات وكأنما نسيت نفسها وتركتنى حرا تمامًا أقول كل ما أريد. كم كان بودى أن أعرف على وجه الدقة ماذا قلت وكيف تناولت الحكاية وأنا أحكى، لكننى كنت كلما تقدمت مع الحكاية أحس أن لوحاتى باهتة وأنها عديمة المعنى والقيمة ولولا أن وجهها الجميل شغلنى تمامًا وأنا ألمح ما يمر عليه من تغييرات ومن حركات خفيفة لقمت وألقيت ملاءة على اللوحات لإخفائها.. كانت المرأة أمامى تنبض بحضور ووجود حى يستثير بدنى وروحى كلها فكأنما أنا وحدى، وفى السر، أطل من طاقة على منظر يدفعنى دفعا على أن أتناوله بعينى ويدى..

- ياه دانت عندك كمان حكاوى حلوة خالص..

- انت اللى حلوة..

ووضعت يدى أربت على فخذها فقامت تنظر فى اللوحات من جديد وأنا أرقب ظهرها وهى تنحنى لتدقق فى اللوحات وعينى تنفذ بصعوبة إلى حنيات جسمها وراء الشياب العديدة، والتفتت إلىّ ضاحكة وكأنما اطمأنت وعادت طفلة.

- تعرف وأنا صغيرة.. ولسه فى الحارة مع ابويا.. قبل ما أجوز يعنى.. ضبطوا راجل

راكب على حمارة.. وفضحوه.. وأمي كمان زمان، قبل ما تموت يعني.. حكت لى عن واحدة تركية كان عندها قرد..

ـ وانت يا حسنية.. ترضى تنامى مع دب..

ـ بعد الشر عنى ياخويا.. كفاية اللى باشوفه من المدهول..

ـ مين المدهول؟

ـ جوزى.. يعنى مين؟

ـ بيعمل إيه؟

ـ أنا عارفة بأه.. إنت عايز إيه؟

ـ تيجى تقعدى هنا وتحكى لى انتِ كمان حكاية؟

ـ حكاية إيه؟

ـ أى حكاية..

ـ وعندما أجلستها بشىء من الإرغام مست يدى صدرها وخدها وأحسست بالثياب الكثيرة عليها وشعرت أن الطريق لم يعد طويلاً إليها وهى تترك يدى على فخذها بعد أن جلست..

ـ حا حكيلك حكاية.. على روحى.. لما ولدت الواد بتاعى اللى مات يا حسرة.. مانزلش لبن.. عماتى.. إخوات الراجل يعنى جابولى كلب صغير.. أبيض وحلو.. وقالوا لى.. رضعيه.. ياه وجعنى.. وجعنى وأسنانه علمت.. ونزل اللبن.. والواد ماالحقش يرضع.. بعد ثلاثة أشهر مات..

لم يكن الطريق فعلاً بعد ذلك طويلاً. لقد بدأت أسألها وهى تجيب وتحكى عن محمود

زوجها الذى يعمل أحيانًا فى مينا البصل ويتعطل أيامًا كثيرة ويطلع البحر ولا تعرف ماذا يعمل وكأنها لا تريد أن تقول إنه يعمل فى التهريب أو ما شابه ذلك لأنه يرجع فى أيام بفلوس كثيرة.. يصرفها كلها على الشرب إذا لم تسرق منه جنيهات تصرفها على الأكل عندما يغيب أيامًا لا تعرف عنه شيئًا.. ومع الحديث ومع إحساسى بالعطف والحنان عليها، وما قلته من كلمات عن جمالها وعن سعادتى بحضورها، وكأنها نعمة من السماء، بدأت يدى تجرؤ فى حركاتها. ورأسى، مع الروم، تختلط فيها الصور بالانفعالات. وحدثتها عن سميحة زوجتى وكيف ماتت وهى تلد ابنتى التى لم أرها، وأمى التى فقدتها وكيف ربتنى وعلمتنى بعملها.. وأنها فيها شبه كثير منها..وبدأت أحس وأنا أحكى تفاصيل كثيرة عن حياتى كأن أسوارًا كثيرة ترتفع بيننا وأنا أقبلها وقد كادت زجاجة الروم تفرغ. ألا يسير هكذا الحديث والحكاية مع المرأة دائما. وعندما صرنا فى الفراش وخلعت عنها ألف ثوب وأنا أضحك ووضعت فمى مكان الجرو الصغير بدأت ليلة من الغرام الذى كدت أنساه أو لم أعرفه من زمن واشتعلت كأنها جذوة متقدة وأنا أقبلها فى كل موضع وأقبل يديها وقدميها وكأنها ملكة.

وعندما انتزعت نفسها منى لترتدى كل ثيابها من جديد وقمت أضع لها فى صدرها عشرين جنيهًا رأيت فى عينيها دمعة وهى تحتضنى من جديد وتغمغم: إنت حنين قوى يا سى حسن.

وليلتها لم أستطع أن أعاود النظر فى اللوحات أو أراها مرة أخرى وخرجت معها بمعطفى الثقيل أوصلها إلى بيتها.

كيف علىّ إذن أن أواصل الاعتراف وفى أى طريق أسير وقد أصبحت حسنية جزءًا من

حياتى لا أستطيع الصبر على غيابها.

عندما عدت إلى البيت بمفردى وقد تبدد كل ما فى رأسى من غرام وروم وبدأت أعاود النظر إلى اللوحات أدركت ما لم أدركه من قبل عن عظيم خطيئتى التى ارتكبت وأنا أصنع هذه اللوحات. ماذا فعلت وإلى أى نوع من الخطايا تنتمى هذه اللوحات؟

ما الذى حدث بالضبط بينى وبين حسنية، وإلى ماذا قادتنى هذه الليلة معها. هل أنا ساذج برىء كطفل يصنع الواقع والأحداث على هواه ولا يستطيع أن يدرك ما وراءها فعلا من حقائق جافة جارحة. لقد تحولت حسنية فى نظرى إلى كائن علوى أسطورى بمجرد أن قالت لى ببساطة انت راسم حكاية؟ هل كانت هذه كلمة بسيطة ساذجة لا تدرك هى معناها تماما أم كانت حكما وإدانة وضعتنى مباشرة فى حلقة المزيفين فى الجحيم؟ ما الذى جعلنى أنسى من هى وكيف جاءت ولماذا جاءت، وأحس أنها تملك، بمجرد قدرتها على قول هذا الحكم، قدرة على المعرفة والتبصر والحكم والإدانة. كانت كلمتها صادقة مباشرة وكان يمكن لها أو من المتصور، أنه كان يمكن لها أن تقول أى كلام آخر على اللوحات. لكن كلماتها البسيطة المباشرة التى قالتها وهى تضحك قد جعلتها فجأة بالنسبة لى روحا ثمينة وعينا قادرة. إنها لم تكن ـ فيما أعتقد ـ قادرة على أن تدرك عظم ما قالت ولا أهميته بالنسبة لى. لكنها قد أصبحت مباشرة هامة عزيزة علىّ وكأنها قطعة من روحى قد غيبتها الأخطاء والخطيئة واستردتها فجأة. وإذا كنت قد أخفيت عنها تأثرى بكلمتها، ولم أكن أعرف كيف أشرح لها ذلك، فإن روحى وعقلى وكل مهاراتى مع المرأة قد تحركت جميعها لتمتلكها ولتجعلها لا تغادرنى حتى يجىء الفجر.. لقد استحالت هذه المرأة التى جاءت إلى بيتى ليلا، وقد تكون أسبابها واضحة بسيطة، إلى صاحبة طاقة روحية نافذة قادرة على إدراك خطايا الفن وهو أصعب أنواع الإدراك وأعقده. ولم يكن من

الممكن لى بعد إشراقها فى روحى بهذا المعنى أن أشك فى أنها جاءت فقط للنقود أو أنها جاءت لتبيع لى البدن وقد عرفت أننى وحيد وغريب. لقد قصت لى ما يدل على أنها تعرف عنى أشياء كثيرة وأننى على نحو ما هو معروف فى المنطقة. فالبيت الذى اشتريته من تاجر السمك الذى تعرفت عليه بعد أن رأيت البيت وقررت شراءه، قد اشتراه هو من أثرياء أجانب هاجروا من مصر بعد العدوان الثلاثى وأنهم كانوا يستخدمونه كابينة لهم فى الصيف وأن تاجر السمك كان ينوى أن يهدمه ليبنى محله عمارة جديدة وأنه قد يشتريه منى مرة أخرى إذا توفرت له نقود البناء. ولم تؤثر فىّ أخبارها ولم أفكر فى أننى قد أفقد البيت، فقد انحصر همى كله ليلتها فى أن أحصل عليها هى وأن أجعلها جزءاً من البيت وأن أسلك فى بدنها وفى روحها لأعرف ما هى خطيئتى فى لوحاتى وكيف وصلت إليها. وأخفيت جانباً من الهم ودفعت الهم الآخر حتى حصلت على ما أريد مما جعلنى أكثر شعوراً وخوفًا مما أخفيت.

كيف وصلت ورضيت لنفسى أن أرسم «حكاية» وكيف أسلمت الفن وأنكرته وفضلت عليه مجرد إثارة العطف أو الشهوة أو الفزع. أليس هذا هو الاستخدام الرخيص لعواطف البشر الخفيضة الدنية. أليس هذا هو النفى الحقيقى للفن؟ أليس هذا هو الطريق الذى يؤدى إلى مهارة رسم المناظر الطبيعية وعمل اللوحات التى يشتريها السواح أو عمل البوسترز لخدمة القضايا الوطنية والسياسية؟ وما هى الخطيئة فى كل هذا. عندما أسلم يهوذا المسيح أصبح النموذج الأعلى للخيانة والاستخدام الرخيص لأقدس ما قدم للبشر. ولهذا وضعه دانتى فى قاع القاع من الجحيم. وما يرتكبه الفنانون الذين يخضعون أنفسهم لتجارة العواطف وبيع الأثر الفنى للعمل ومهاراتهم فى المحاكاة هم مثل المومس الرخيصة.. بل الخائن الأكبر تمامًا.. هذه ليست براءة أو سذاجة منى، وليست تطرفًا فى الحكم، فكل

حكم تطرف وكل حقيقة واحدة، والعمل الفنى مثل الإيمان والتوحيد، الشرك فيه هرطقة وخيانة. لقد كان هذا معتقدى وسبيلى طول حياتى رغم كل ما أرغمتنى عليه ظروف الحياة والبيع والشراء للفن من رسوم وأعمال كان آخرها «عودة الفجر». لقد قبضوا عليها وحجبوها والحمد لله. إننى أذكر أننى فكرت فى أن أجرب تغيير هذا المعتقد، ويبدو أن هذا كان أول بذرة الخيانة والخطيئة. ويبدو أن وحدتى وعزلتى عن الناس ثم جوعى للمرأة قد جعلت شهوتى للخطيئة أكثر حدة، وعماء بصيرتى أكثر شدة، ويدى أضعف وأجبن على الإمساك بجمرة الفن ووجوده المستقل المفارق. إننى لا أدافع فقط عن الفن الحديث أو عما يسمى فيه بالتجريد لكنى أدافع عن جوهر الفن فى كل تاريخه وراء كل مذهب. وكل ما نسميه فنا حديثا هو مجرد إعادة اكتشاف لهذا الجوهر وتحرير له وتخليص من كل ما قد يشوبه أو يشوهه. ولست بالقاسى الغليظ أو البرىء الساذج الذى ينكر كل العواطف أو الأفكار. ولكن هناك فارقًا بين أن يبتعثها العمل الفنى حرة مستقلة فى نفس الملتقى وبين أن يستخدمها باستثارتها واللعب والمتاجرة بها.

لكننى قد عانيت، ومنذ عدت إلى مصر معاناة قاسية مريرة، وكأنها حصار، من نقص الخامات وتكلفتها لأعمل كما أريد فى النحت وفى تجسيد وجودات الفن وتجلياته. ما أصعب الحصول على الحجر. وهذا محمود لم يرد حتى علىّ، وأين المسبك الذى يصب لى ما أصنع من تماثيل وينقلها من الجبس إلى البرونز، وأين تكلفته. لقد تعلمت قيمة كل هذه الخامات والإمكانيات فى إيطاليا وعرفت ماذا يستطيع الفنان أن يعمل وحريته مكفولة فى العمل فى كل مراحل الإعداد والصب للأعمال. إننى أذكر هذا المثال التشيكوسلوفاكى الفريد الذى جاء إلى القاهرة يزور معرضًا أقامه مركز دولته الثقافى ووضع يده مباشرة على أزمتنا وعبر عنها تعبيرا حادا قاسيا ما زلت أذكره بعد أن سجلته فى وقتها: «.. أنتم

الفنانين المصريين تعملون فى ظروف صعبة.. أنتم أبطال.. مناضلون تنتجون فنا جميلا فى منازلكم وتقتصدون من قوتكم لتشتروا خاماتكم وأدواتكم ثم تتكدس أعمالكم الفنية ولا ترى النور..» إننا لم نعرف بعد هذه الحدة فى التعبير والإمساك بالحقيقة والإفصاح عنها بصرف النظر عن النتائج.. إننا دائما نحاور ونتوسط ونخضع ونستسلم ونرضى بالوسط من الأمور، ونقيم من الخنوع والرضاء والاستسلام فلسفة ودعوة وكأنها رسالة.

وفى نفس الوقت الذى كان يقول فيه الفنان التشيكى ما قاله. وكان ذلك من شهور عديدة - لا يزال محفوراً فى نفسى ما قاله وكتبه مثال مصرى كبير لا أحبه ولا أستطيع أن أرى فيما رأيت من أعماله إلا نموذجا للخطيئة فى حق الفن والادعاء وسذاجة الإدراك والمعرفة. لقد سمعته يصرح وكأنه زعيم من زعماء العرب: «الفنون التجريدية نوع من الدجل الفنى والتأثير السطحى والهروب من واقعنا..» ووقتها كنت أحس أنه دجال كبير يستخدم كلمات كبيرة جوفاء دون أن يعرف معناها تماما أو يتحمل مسئولياتها وكان بودى على الأقل أن أقول له ماذا تعرف فعلا عن واقعنا وهل ما نعمل يؤدى إلى معرفة بهذا الواقع المخفى عنا بكل طرق الإخفاء، وماذا تريد بالواقع وماذا تعمل فيه وماذا أنت قادر على أن تعمل به فيما تصنع من فن؟ إن أعماله كليشهات للعواطف وشعارات عالية الصوت بلا وجود ولا واقع فنى.. ما أصوب فكرة الجحيم هذه للفنانين الزائفين، بل ولهراطقة الفن مثلى الآن. فهل أستطيع أن أسترد إيمانى وأن أكفر عن خطيئتى مهما كان العذاب الذى دخلته منذ سمعت حسنية تقول لى ده انت راسم حكاية.. نعم يا حسنية لقد رسمت حكاية وليس فنا.. ونعم يا مثالنا الكبير أنا بعيد عن واقعنا لكنى أعلم أننى محروم من معرفته ومن صناعته، مجرد إلا من قدرة كاذبة زائفة على العمل فيه وبه..

لقد جعلتنى حسنية، إرضاء لها، وقد عرفت حاجتى لها ورغبتى فى الاحتفاظ بها، لقد

جعلتنى أشترى راديو صغيراً وأن أتابع الأخبار، أخبار القاهرة وحرب الاستنزاف وتحركات عبد الناصر. لقد كان الراديو مثل أشياء أخرى كثيرة أول ما أدخلته حسنية على البيت وعلى حياتى وعلاقتى بها تتقدم، وأزمتى مع اللوحات الثلاث وماذا أفعل بها تشتد وتحتد، وإحساسى بأننى فى قاع القاع من الجحيم يتأكد، ورغبتى فى الخلاص والتوبة مثل رغبتى فيها تتجدد وتشغلنى ليل نهار. كنت وما زلت أضحك من نفسى وأنا أشبه ما أنا فيه من أزمة بأزمة جمال عبد الناصر عندما ذهب إلى الرباط من أشهر فى «أخطر لقاء عربى».. وكانت كلماته وهو يترك الجلسة الصباحية للمؤتمر كلمات بطل محصور فيه عظمة الإيمان وفيه عجز الخاطئ عن الاعتراف الكامل بالخطيئة: «أريد أن أعرف الآن إذا كنتم ستشاركون فى المعركة أم لا.. وأنا أشكو لكننى أريد فقط أن أعرف وأنا مستعد لكلا الاحتمالين وسأخوض المعركة وحدى..» وهل أحد يخوض المعركة إلا وحده. هل لأحد أن يفعل الإيمان وأن يدافع عن المعتقد إلا وهو مستعد أن يعذب حتى وأن يصلب؟ إننى لا أشبه نفسى به ولا أريد أن أتهمه. فعظمة الرجل مقررة مؤكدة رغم أنه محصور محاصر ورغم أن قدرته على العمل محكومة بغيره. وهذا حكم التاريخ وظروف العالم لكنه كان عاجزا وسيظل غير قادر على الوعى بخطيئته والاعتراف بها. فهل سأستطيع أنا أن أخوض المعركة وحدى، أم سأظل أغرق نفسى فى الشراب وبدن حسنية حتى تحدث النكسة من جديد أو أزيف النصر بالدجل وأصطنع الأعمال المحدودة وأخفيها وراء الشعارات والحكايات، أم هل سأعود إلى الحصر من جديد، هل سأظل فى قاع الجحيم، هل لا أستطيع أن أكمل الاعتراف، فما أكثر ما تركته لم يقل..

فى الفن لا تلمس العاطفة أو تطلقها بل اختزنها وتعلم كيف تجعلها تفرض نفسها على من يرى، وفى الفن لا تعبر عن الفكرة أو تصوغها بل اجعلها تتجسد، وفى الفن يجب أن

تخلص من كل الإشارات والإحالات ليصبح كل مـا تعمل ضرورة.. ماذا جرى لأصابعى وأين الجبس ومـا هذا الإيمان الخـاطئ بالعيون؟ الوجـود سابق على الرؤية والرؤية مـجرد تأكيد وتقرير للوجود والكينونة.. وإنكار هذا كله هو خطيئتى التى ارتكبت.

كم أريد لو أستطيع، وكم يتكلف هذا من وقت وجـهد وصبر الدراسـة ومعاودة النظر.. أريد لو أكتب أو أعرض من جديد تاريخ الفن.. الرسم التـصوير.. والنحت.. منطلقا فقط مما أمسك به الفنانون وأقاموه من وجود ومن جهدهم المتصل المستمر للتخلص من المحاكاة وتمثيل الواقع فى كل ما يبدو أنه كـذلك. فى روحى صور متصلة متعاقـبة تبدأ مع الإغريق حتى فنون بيزنـطة والرينسانس، وقضايا القرن السـادس عشر حتى الثـامن عشر وهل الفن عـمل يدوى أم عمل إلهى.... مـا أكـثر مـا لدىّ من كلمات وأعـمـال مستمـدة مما رأيت ودرست.. وكم أتذكر الآن باولـو أوتشيللو Paolo Uccello. بدايات المنظور ولعـبة المسافـات والإيهام حـتى خداع البصـر.. وكم أريد أن أراجع فسـارى فى الحيـوات وأتتبع أخطاء تصـوير الواقع ومـهـارات الفنانين ومـا حقـقـوه من نقلة، إلى حـدود المرآة والوهم باللمس فى الملابس والسـتائر والأبسطة.. إننى لا أسـتطيع أبدا أن أفعل ذلك. لكننـى أفعله وأراه فى روحى وأؤمن إيمانًا عمـيقًا راسخًا بما حقـقه الفن من تحرير لطبيعـته وجوهره مع الفن الحـديث.. وتبرق فى ذهنى حـقائق وأقـوال عن الفنان الذى لم يعـرف كيف يصـور حركة الحصان فى عدوه وصورها من جانب واحد فـقط.. أو ما هو المعنى الحقيقى لواقعية جـيوتو وهو يصـور القديس المصـاب بالقـروح وحركـات النساء حـوله وهن يتقـززن من الرائحة ويلتفتن فى حركات كثيرة بعيدة عنه.. حتى فى هذا أستطيع أن أرى جهد التخلص من المحـاكاة وكم هو طبـيعى أن يجـرب الفنان كل مـا جربه فـيرونوز وتيـبلو فى زخرفـة الفيللات الإيطالية لنرى أعمدة حقيقية وأبوابًا حقيقية ورجالاً ونساء وليس هناك إلا سطح

من بعدين أمام العين.. فكل إيهام هو فى جوهره نفى للمحاكاة وإقامة لواقع مستقل يملكه الفنان. وماذا يحـدث بعد كل هذا الجهد؟ ما أكـثر التجارب مع الضـوء ومع اللون قبل أن يصل الفـن إلى ما حـقق من حـرية. إننى أحلم بالطبع وأسترجع حـريتى وأنا أتذكر وأرى ما أتذكر.. من الذى قال «إن سيزان أعطانا كمثرى وتفاحا لا تدين بشىء لحواء. وكان هذا توقفـا قاسيـا حاسـما لغذاء مـتصل من اللحم.. «نعم لحم الواقع الذى كـان على الفن أن يتوقف، كـما تفطم الأطفال، عن أكله.. أوليس هو خـوان جرى Juan Gris.. أم غيره وقـد نسـيت، الذى قـال: ليـست اللوحـة س هى التى يـمكن أن نقـارن بالموضـوع. لكن الموضوع س هو الذى يمكن أن يقارن بلوحتى..

إن عـذاباتى الآن بكل هذا التـذكـر، ومن المستـحـيل أن يكتـمل، هى من نفس عـذابات الجحـيم، حيث يكرر الخـاطئ إلى ما لا نهاية خـطيئتـه.. ولولا أن كل خطيئـة فيهـا روعة، وفيها جهد النفس لتجنبها، وأمل الخلاص منها، لما كانت هناك خطيئة.. أبدا.

يا إلهى.. مـاذا أستطيع أن أقـول.. وماذا أقـول الآن بالفـعل وهل هذا جزء من اكـتمـال اعترافى؟ إننى ما زلت أتجنب معاودة النظر إلى لوحاتى الثلاث وكأنما هى خطيئة لا أريدها أن تبلغ العالم.. على الأقل حتى أفهمها وأعيها تمامًا ويخلصنى وعيى بها من رياح المحاكاة السوداء..

إننى أريد أن أحطم شيئًا مـا أو أتحطم. والبيت قد جعلته حسنيـة.. لماذا أخطئ فى اسمها كثيراً وأسميها سميحة وكأنهـا زوجتى.. لقد جعلت البيت نظيفًا مرتبًا، وكان هذا ما تفعله سميـحة وما فعلتـه أمى طول عمرها منذ كنت طفلاً فى السـلاملك..كم أريد أن أعود إلى تلك اللحظات القديمة التى اكـتشفت فيها الرسم والقدرة فى أصـابعى وعينى على وضعه على اللوحـة.. وتلك القدرة.. متى بدأت..؟! فـى وسادات أصابعى على عـمل التمـثال،

وإقامته أمامى. هل خلاصى الحقيقى هو فى هذا البدء من جديد.. وهل هناك خلاص حقيقى لآدم إلا بأن يعاد خلقه من جديد؟

لقد تقدمنا فى العام الجديد.. عام ٧٠، وكأننى كنت أتصور أننى لن أبلغه، تقدمنا بعد بحر البقر وبعد ضربات العمق وكلمات جولدا مائير عن ضرورة بعث الشلل فى نظام عبد الناصر. شهور متعاقبة جعلتها حسنية بزياراتها المنتظمة شهورا من الطعام الجيد والجنس المتصل.. والراحة البدنية الطويلة التى لم يكن يزعجنى فيها إلا غيابها واضطرارى أن أزورها أنا فى بيتها مع كل ما فى هذا من مخاطر وفضيحة.. لكنها مع ذلك كله، لم تستطع أن تجعلنى أخلص من خطيئتى أو أنساها لم تستطع أن تجعلنى أنسى أن علىّ عملاً أقوم به وأن هناك فنًا آخر يتحرك فى نفسى غير هذا الذى وضعته فى اللوحات. ولم نكن نتحدث أنا وهى فى عملى.. كنت أحدثها عن جسمها وأعلمها الغرام وأسألها عن تجاربها مع زوجها ومع الرجال الآخرين. وقد فزعت وأنا أعرف أن ما علمته منى عن الحب لم تعرفه من قبل وأنها لم تعمل أبداً ببدنها.. «أنا عمرى ما كنت شرموطة..». لقد كانت فزعة دائمًا من صعيدية الرجل زوجها ومن أنه سيذبحها لو علم أو لو ضبطها.. وكنت مع ذلك أذهب إليها إذا غابت وأعاود سؤالها وسماع حكاياتها عنه وعن عمله وأرتنى بطاقة فيها اسمه.. ولم أعلق، ولم تعلق هى، وأنا أقرأ أن اسمه محمود عبد السلام.. مثلى.. لكنى لم أستطع بعد أن رأيتَ صورة الرجل إلا أن أطلعها على مجموعة اللوحات القديمة التى نشرتها المجلة منذ أشهر عديدة فى بدء وصولى إلى الإسكندرية تحت عنوان مستمر: «وجوه الصباح فى الإسكندرية».. وصرخت وهى ترى وجهه فى واحد منها.. «شفته فين..» ولم أكن أعرف أو أتذكر إلا أن اللوحة رسمت فى مطعم فول. وأخذت وقتا طويلاً لكى أقنعها أنى لا أعرفه.. وأننى لم أكلمه.. لقد رسمته

فقط.. فقالت مرة أخرى: «أما حكاية.. ياساتر يا رب.. أنا خايفة بلاش تيجى هنا..» وانقطعت عن زيارتها منذ أكثر من شهر ولم تكن تأتى لتزورنى إلا وقت الظهر وقد اشترت لوازم الطعام فتطبخ وتكنس وتذهب مرتعبة مرتعدة لا تريدنى أن ألمسها. وقد قبلت هذا الترتيب الذى فرضته دون نقاش أو محاولات كثيرة.. فقد كنت مثقلاً حريصًا على أن أتم اعترافى.. وأن أعمل.

وانقطعت عن العالم تمامًا إلا من زياراتها القصيرة العاجلة ومن الاستماع إلى الراديو وأخبار عبد الناصر فى موسكو.. ثم المبادرة الأمريكية.. وفظائع الأردن واتصالات يارنج مع مندوب الأردن وإسرائيل.. وبين الحين والحين أخبار عن حرب الاستنزاف بعد توقف غارات العمق وأصبحت واعيا تمامًا بحاجتنا فى مصر إلى عمل وإلى معركة كما أصبحت نافد الصبر بحاجتى أنا إلى عمل جديد.

أظننى الآن قد أكملت اعترافى. وبعد أيام طويلة من الصمت ومن العمل المستمر فى هذا القرص من الجبس الذى انتهيت منه الآن، لا أستطيع أن أتحدث عنه أو أن أعترف به. فأنا أراه كما رأيته وأنا أعمل... من البرونز المذهب.. كيف أستطيع أن أحقق ذلك الآن. إن عملى الكامل سيظل غير كامل إلا فى عينى.. كان كاملاً باستمرار تحت أصابعى وأنا أصل إلى التركيب فيه، وأحرك ما عليه من مساحات وأجعلها تتشكل دون تصوير لحركة أو شكل.. فى محيطه تحقق الوجود وصيانته وهذا النور الداخلى الذى أراه فى الوسط كأنه يتلقى ويكشف، جسما كامل الاستعداد للتلقى.. وهناك على خط مع النور منطلق منه، انحناءة جديدة تمسك الإعطاء.. المرأة والدب الإله.. وعلى اليمين إلى أسفل، مثلث من الاحتواء يستريح عليه الجسد المعطى.. أين هذا كله فى القرص فى وجهه وظهره. الحركة فى الخلف فيها اكتمال الذهاب إلى نور الوسط وكأنه ارتفاع كامل للبدن رغم ما أراه

وأعرفه من بطن وثدى.. وامتداد للجسد.. كيف يمكننى أن أعترف بذلك كله وهو ما زال فى الجبس لم يتحقق بعد فى البرونز الذهبى..

إننى أستطيع الآن أن أتركه.. أستطيع أن أحل نفسى من الصمت ومن الخطيئة وأن أحمل نفسى لأخرج وحدى لأغرق روحى وبدنى فى حسنية حتى ولو كان «عليها الدم».. وحتى لو عاد زوجها.. إنها بداية جديدة أو نهاية أسلم نـفسى فيها للواقع بعد أن اطمأنت روحى إلى صناعة الوجود ورفع الخطيئة.

صفحة الهوامش

على الرغم من أن الهوامش والحواشى فى النص الخطى كانت كثيرة فقد اكتفينا هنا بالإحالات إلى نصوص الكوميديا الإلهية الكاملة التى يعتبر المؤلف مسئولاً عن ترجمتها دون الاقتباسات أو الإشارات الكثيرة التى وردت فى النص إلى الكوميديا أو غيرها من المصادر ودون تحديد. والإحالات هنا هى إلى صفحة الكتاب المطبوع، فبداية السطر من الكوميديا، فالكتاب ، فالنشيد، فأرقام الأسطر:

بداية السطر	الكتاب	النشيد	السطر
هذيانك الغاضب نفسه...	الجحيم	١٤	٦٣ _ ٦٥
وأن يمضى قدما إلى الأمام...	المطهر	٣	١٠٠ _ ١٠٢
كرامة السير المتئد.. الاصعاد فى البداية صعب...	المطهر	٣	١٠ _ ١١
وقال لى لاتخشى شيئًا...	المطهر	٩	٤٦ _ ٥١
ورأيت بابًا عظيمًا...	المطهر	٩	٧٦ _ ٧٨
وبطرف سيفه قطع فى جبهتى رسم سبع «بيكاتوم»...	المطهر	٩	١١٢ _ ١١٤
وبعد أن فتح الأبواب المقدسة..	المطهر	٩	١٣٠ _ ١٣٢
وقد انحنيت للأسفل حتى أدقق فى أمره.. وأنا ما زلت فىّ القدرة على الخطيئة	المطهر	١١	٧٣ _ ٩٠
قصة وردان الجزار فى ألف ليلة وليلة بدءا من الليلة الثالثة والخمسين بعد المائة			
أن يُغفر لك غيرُ تائب...	الجحيم	٢٧	١١٨ - ١٢٠
ينسكب الاعتراف.. فلا أدع	الجحيم	٥	٧ - ١٢

أوراق زمرُّدة أيوب

- المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

صاحبتني أوراق «زمردة أيوب» سنوات طويلة، كادت تبلغ التسع، قبل أن أصل إلى نهايتها وأترك الأوراق كسِفر مرٌّ تأكله «تفيدة» الشخصية الثانية في الرواية. وما زلت لا أدري هل أكلت «تفيدة» السفر أم لا؟ وهل معنى الأكل هنا هو القراءة وبقاء الأوراق في فم شخصية أخرى. ولا شك أن أمل الكاتب أن يكون هناك من القراء من أكل السفر بهذا المعنى الذي انتهت به الرواية!

والواقع أنني تلقيت الكثير من آراء القراء الذين قبلوا التجربة، وتحمَّلوا مرارتها وعسلها الخفي، ومعظم من قرأوا الرواية في طبعتها الأولى ضمن كتاب «حديث شخصي» الذي أصدرته الهيئة العامة للكتاب، وبعد مرور أربع سنوات من بقائه مكتومًا في سراديبها وملفاتها، قد عبَّروا عن إحساسهم بأن «أوراق زمردة أيوب» قد ظلمت لأنها لم تنشر مستقلة. وعلى الرغم من أنني ما زلت أدرك معنى قراري الأول من نشرها كجزء من «رباعية حديث شخصي» التي ضمت أوراقًا لثلاث شخصيات أخرى، اشتبكت جميعها مع الكتابة ومع الموت، وسجلت تجربتها معهما. إلا أنني مع إصرار عدد من الأصدقاء الذين عبَّروا عن حرصهم على نشرها مستقلة، بدأت أرى قيمة ومعنى رغبتهم وآرائهم حول خروج العمل منفرداً.

وأودُّ هنا أن أشكرهم جميعًا، وأن أهديهم هذه الطبعة الجديدة التي يتحملون معي مسئولية إعادة نشرها.

بدر الديب

الوحدة الجديدة

دميرة فى طوبة ١٦٩٣

لابد إذن أن أكتب. لابد أن نصنع هذا الأفق بأنفسنا لأن الرب قد أراد أن تنغلق الأرض وأن يضيق الزمن، وأن أبقى بمفردى أمام القلب النابض فى الجسم بالألم. لابد إذن أن أكتب، لأن الألم يبدد الحقيقة منى ويكاد يجعلنى أستسلم لحياة لا عمل فيها ولا حساب. لابد.. فهل أستطيع؟

كيف تصنع الكتابة الأفق؟ إن الفارق كبير بين الكتابة والصلاة، وهناك هذا الوهم الدائم لدى من يكتبون، إنهم قد يستطيعون الصلاة بالكلمات. إن الصلاة فعلٌ وليست تعبيراً، وهى قدرة وإنجاز وليست تطلعًا، وكلُّ إخلاص وصدق فى الكتابة لايتجاوز حدود الداخل والنفس الممزقة والجسد المتألم. إن كريات الدم التى تجرى فى داخل جسدى، تجرى دون تحكُّم منى ودون أن أعرفها، لكنها هكذا، دون أن تُعلمنى أو أن تسأل عنى، قد أصابها المرض. فقد أصبحت تتهاوى فى داخلى بمفردها على نحو لا أدركه ولا أستطيع أن أوقفه. إن كل طبيب، وهذه الصغيرة بالذات التى تعالجنى، تعرف عن دمى أضعاف ما أعرف أنا، أما أنا فلا أعرف إلا الألم الذى ينشب فجأة وكأنه أظافر صغيرة أو مخالب حيوان غير مرئى ثم ينتشر وتتعدَّد خطواته وبصماته فى البدن كله، فى الرقبة وسلسلة الظهر وفى الصدر وفى الركبة وفى القدم والساق، وإذا به بعد ذلك يصبح هو الموجود الوحيد منفصلاً عن كل قدرة لى على أن أوجد. هناك حد أو حدود لايصبح فيها الألم تهديداً بموت فقط، لكنه يصبح نوعًا فريداً من الحياة المتروكة الملقاة التى لاتحس باقتراب النهاية بقدر ما تحس بأنها ديمومة من وجع لاينتهى دون أن يمتد أو يتغير. ما هذا النوع من الحياة عندما ينشب هذا النوع من الألم؟

لابد إذن أن أكتب، وكم قد كتبت فى حياتى. لقد كتبت بالعربية واختفيت وفكرت بالإنجليزية، لكنى كنت دائماً وأنا أكتب إما أحب أو أتفوق. كانت الكتابة حينذاك ممارسة للحظات الحياة وخوضًا لمياهها الضحلة والعميقة. كانت الكتابة فعلاً ومصيراً بنفس القدر التى كانت فيها تعبيراً. وليست هى الكتابة التى أحاولها اليوم، إننى أريد أن أتنفس، أريد أن أكسر ديمومة الألم، أريد أن أقول لنفسى إن هناك شيئًا أستطيع أن أصنعه أو أننى ـ على الأقل ـ أستطيع حتى الآن أن أتمثله.

عندما تبلغ المرأة الخمسين، وبينى وبينها أيام، تتغير المرأة كما تتغير الحياة. وكانت الأعوام تكفينى، لكننى أرى المرض أيضاً فى تلك الصفحة المصقولة التى تعكس وجهى. إن المرض لم يغير فى سمرتى التى أحببتها وافتخرت بها طول عمرى، ولكنه جعلها كالنيل الذى لا يفيض، لا غرين فيه. لماذا فعلوا هذا بالنيل؟ هو لا يعرف، كيف يغضب أو يحقد، هل استطاعوا ذلك لأنه لايعرف كيف يكتب أم أن هناك معنى آخر وأفقًا لم يعرفه أحد فى ذلك كله. لقد تغيرت الحضارة كما تغيرت المرأة (الأنا) وأصاب كليتهما المرض. وهل يلومنى أحد، إذا كنت لا أرى إلا اللوكيميا فى كل ما أرى.

لو أن من أحببت كان ما زال فى أفقى هنا لاعتمدت، أو لو أن ابنى هنا لما كنت فى حاجة أن أصنع أفقًا. إننى لا أستطيع حتى أن أسميهما وكل دمى يصرخ لدانيال أن يعود، دانيال.. دانيال .. إن اليد الكاتبة على الحائط المكلس تحرمنى من الصلاة كما حرمتنى أنت منك، والديمومة ليست حلمًا أو رؤية ولكنه محض ألم، لماذا لا تصنع أنت الأفق يا دانيال..؟

* * *

لقد وعدتهما معًا ألا أذكر اسميهما. الأول وعدته هو، لأنه طلب منى ذلك، وقد كان حبيبى. أما الثانى فقد استخلص منى هذا الوعد لأنه اختفى وحرمنى من أى احتمال لأن أراه أو أن أعرف أين هو، ومع ذلك فهو ابنى.

لقد وعدت كليهما وتعهدت لنفسى ألا أتحدث عنهما وألا أسميهما، ولكننى قد وصلت الآن إلى مرحلة المصارحة الأخيرة والمواجهة التى لابد منها والتى ليس وراءها مواجهة أخرى. إنها مواجهة لا تنتمى إليهما ولا تتعلق بهما، لكنها مع ذلك مواجهة.

هناك شقوق كثيرة فى الأرض الجافة المحروثة أمامى الآن وأنا أكتب. ومازالوا ـ كل أولئك الذين يعملون فى أرضى ـ لم يضعوا فيها البذور ولم يطلقوا عليها المياه. والشقوق فى الأرض المستعدة تحت شمس الشتاء خشنة غليظة كجسد المرأة أيام الحيض كلها حساسية وكلها توتر، لكنها مع ذلك أرض لا تتحرك فيها الحياة. فما هذا الذى أنظر إليه الآن وأريد أن أراه واضحًا محددًا، إنه ليس الماضى وليس التاريخ المتلاحق لتلك الحياة والسنوات الخمسين. وهو أيضًا ليس كل ما حدث. ألست مثل كل إنسان، فى كل لحظة من العمر، أريد أن أحصل على الدلالة، وأريد بالتالى أن أصنع من حياتى حبكة لها معنى وقيمة. ما أبعد هذا المعنى وهذه الشقوق فى الأرض المحروثة عن أن تعطينى ما أريد ولكنها هى ما أملك الآن أو على الأقل ما أرى.

أنا أجلس الآن فى شرفتى فى أرض دميرة. والشرفة والبيت هى كل ما أملك الآن فعلاً، أما الأرض فقد أخذها المستأجرون. لقد أصبحت عاجزة ـ كما قال المحامى ـ أن أغير شيئًا فى أوضاعها وعلىّ أن أقبل أنى أملك ولا أملك وأننى قد ورثت بعد كل تلك السنوات ميراثاً مغلوطًا أتجه أنا إليه ولا ينتمى هو لى. فكيف أستطيع أن أملك القدرة على أن أملك وأنا لا أملك. ألا أستطيع حتى وأنا أكتب الآن أن أقول إن هذا هو خاصية حياتى، ألم تكن كل تلك الحياة تراثًا وإرثًا لا أستطيع أن أملكه ولا أقدر أن أجعله لى.

يا رب، ما هذا المعنى الثقيل الذى أصل إليه فى هذا الصباح وقد جئت لأستريح هنا. لقد تركت بيت الزيتون لأن الطبيبة قالت لى إننا سنستريح أيامًا من الحقن، وأننى أستطيع أن

أنتظم بمفردى فى تناول الدواء حتى ترانى.. ـ بعد عيد ميلادى ـ إنها تعرف، فقد أخبرتها أننى بعد أيام سأصل الخمسين وأريد أن أحتفل بذلك وحدى فى تلك الأرض التى ولدت فيها. إننى أعرف أننى سأموت، لكنى لا أعرف ذلك كما يعرفه كل الناس، أعرفه تلك المعرفة الخاصة التى تجعلنى مضطرة أن أنفجر بهذا الحديث الشخصى وأنا أحاول هذه المواجهة مع نفسى ومع منَ كان حبيبى ومع من لا يزال ابنى ومع كل هذه السنوات التى تشدنى إلى مصر وإلى أمريكا ومع كل هذه المشاعر التى تشدنى إلى تلك الأماكن الغربية التى قد يكون فيها دانيال الآن. وتلك الأماكن القريبة التى أعرف أن كريم، نعم كريم عبد القادر يعيش فيها الآن.

ما أقرب هذا المجهول وذلك القريب، وما أبعدهما أيضًا؟

لقد آن الأوان لأتحدث. لمن؟ لأفهم؟. لماذا؟ لقد آن الأوان لأصل، أين؟ إلى تلك اللحظة التى ينطوى فيها الوعى والإرادة.. والألم. هل فى تلك اللحظة يظل هناك هذا الصوت الذى أسمعه الآن فى قلبى، هذه الدقات المتصلة العمياء. إنها مستمرة وطويلة.. وكأنها تريد أن تصل إلى بداية. أليس كل ما يريده كل إنسان أن يصل دائمًا إلى بداية؟

إننا لا نعرف كيف نختتم شيئًا أبدًا.. لا نعرف أن ننتهى ونريد دائمًا أن نبدأ. مهما مر من زمن ومهما علمنا، فنحن دائمًا نريد أن نبدأ. نريد أن نبدأ عندما نتكلم.. وعندما نكتب.. وعندما نحب.. فلماذا لا أبدأ أيضًا.. عندما أريد أن أموت.

لقد تحققت فى هذا الصباح من معنى الإرث الذى لم أرثه، وها أنا أتحقق مع الظهيرة من معنى البدء حتى ولو كان ذلك للنهاية. لقد قلت أسميهما، سميتهما على الورق، فهل أستطيع أن أبدأ، لقد آن الأوان، والساعة القديمة تدق الثانية عشرة، أن أتناول الحبوب والشراب.. أن أتمسك بكل لحظة لكى أبدأ.. ومازال الطريق إلى البداية طويلاً.

* * *

لا.. لم يكن قلبى هـو الذى يدق. كان وابور الميـاه يرسل هـذه النبضـات المتـصلة وكـأنه يستعد لشىء طويل لاينتهى. عن قريب يرسلون الميـاه إلى الأرض ولكنى لا أذكر الآن إلا وابور الطحـين القديم وهو يدق بنـفس هذه الدقات فى الظهـيرة مع صـوت اليمـام.. أين اليمام الآن؟ هل ذهب هو الآخر؟ ما أندر ما أراه الآن ومـا أسمعه. ولكن ها هو يعود، هنا فى دمـيرة. وها هو يـرسل هذا الشـجو البنى الغـريب الذى لا يصـدر إلا منه، وكأنه حلم لا يتحقق أو نداء إلى طريق لا يقدم فيـه أحد. علمنى المسلمون أنه يقول «وحدوا ربكم».. وأنا أحـس الآن كـما كنت أحـس وأنا طفلة أن هذا النداء لى.. وأن الرب يدعـونى لشىء لا أفهمه ولا أستطيع أن ألبيه.

لماذا عدت يا يمام! وابور المياه.. وابور الطحين.. وقلبى.. وأنا لا أعرف كيف أبدأ ولكنى أعرف فى الظهـيرة الساطعـة وفى هذا الألم الذى بدأ يتصاعـد فى ظهرى ورقبـتى وأسفل بطنى.. وأريد أن أصبر وأن أحتمل وأن أسمع النداء.

للرب طرق عديدة يدعو فيها البشـر، وأشد هذه الطرق رعبًا ورعدة تلك التى يخلقها فى نفس الإنسان فجـأة وفى لحظة غير مفـهومة أو مرتبـة ليرى فيما حـوله معنى لم يكن يراه، وليدرك فى يقين مخيـف أن الجو المحـيط به ينذر بشىء، وأن هناك أمرًا ما سيقع إن لم ينفذ الدعاء.. إن لم يسمع هذا النداء. هل ما زلت أسـتطيع أن أمسك بشىء.. هل ما زلت رغم الألم قادرة على أن أذكـر وأتذكر وأن أسمع هذا الصـوت فى داخلى الذى يتصاعد فـجأة ويروغ منى ويختفى ويترك كل شئ كما هو.. نور الظهيرة.. والألم.. ومن بعيد صوت اليمامة.

قالت لى أمى فى يوم من الأيام التى لا أذكرها، لا.. كان ذلك فى ظهيرة ـ كظهيرة اليوم ـ وهى فى المطبخ تعد ليوم الغطاس (افرحى يا بركسيـه مع لونيه وفوميه) كانت تلقننى بعض كلمات التـمجيـد التى سننشدها فى الكنيـسة عندما نذهب بـعد أيام، يوم ١٣ طوبة لأجل

شهادة قديستى دميانة. وبعد أيام، ومع عيد ميلادى، سيأتى هذا اليوم مرة أخرى ويحل عيد استشـهادها. ولقد جئت لأكون قـريبة منها.. فكم سنة مرت.. وأنا قريبـة من دميرة.. وكم سنة مرت وأنا بـعيدة عن دمـيرة وأنا أسـمع النداء وأريد أن أذهب مرة أخرى إلـى بلقاس لأحضـر القداس فى يوم تمجيدها.. وكم مـرة كنت أذكر خـلال السنة وأنا بعيـدة عن يوم مولدى. برودة طوبة وتاريخ استشهادها، أو جو بشنس وتـلك الكلمات الدقيقة فى الكتاب المقدس فى منتصف صفحة العائلة، من عام ١٩٢٨، هذا الخط الأنيق الدقيق لأبى وهو يكتب.

«فى الصبـاح ذهبنا إلى الكنيسة ونبـهنا على وكيل الدير بإعداد المعـمودية للطفلة..» هذه الطفلة المسطورة فى تلك الكلمـات التى ما زالت هناك فى الزيتون لماذا لم أحضـرها معى؟ هذه الطفلة المسطورة.. زمردة أيوب عبد الملاك.. «هذه هى الصبورة.. العفيفة دميانة».

ألا ينتهى هذا السـحر والنداء فى صوت اليمامة! لقد ظننت اليمام قـد اختفى من أرض النيل.. كمـا اختفت كنوز عـزيزة أخرى كثـيرة، لكنه يدعو ويدعـو وهذا النذير فى داخلى يوجع وجعًا متصلاً.. لا أستطيع معه أن أواصل الكتابة.. كم تضيق أنفاسى وبدايتى.

على فـراشى.. خلايا دمى أيـضًا تتـغيـر. مـا أغرب المورفـولوجى. لقـد أسمـيت الوجع ديمومة، لكنـه تغير. ديمومتى هى تغـير متصل نحـو الموت. لكن أليس هذا هو الحال لكل حياة. لماذا أعاتب الـقدير.. وأنا أنتظر يوم مولدى. لماذا أقول إنه يمتحننى وأنـا ما زلت حية وأكتب. لماذا أقول إنه يذوبنى.. وليـته يفعل.. إن كل ما صنع هو مورفولوجى تـتغير.. ألم أتعلم ذلك الآن عن اللوكيميا. دمى بكرياته البيـضاء شكل يتحور «ويضمحل ويزول» مثل السحاب.. «السحـاب يضمحل ويزول» والحياة تضمـحل وتزول، والحب يضمحل ويزول، والوعى، هل يضـمحل ويزول؟ إن مـا أدركه.. يا إلهى.. يبـقى ولذلك أكـتب.. حتى على الفـراش أكتب لأننى مـا زلت أريد أن أصنع الأفق، أو أن يصنع الأفق، فعندمـا نغلق الأفق لا ندرك

وقد لا نموت لكن عندما نغلق الأفق بشيء، بشخص، بمعنى فنحن نحاول أن نتجاوز الحياة والحب والخلق لنصنع الديمومة. فإذا ما صنعنا الديمومة، كما فعلت ـ وجدناها في جوهرها تغيرا.. يا رب، هل هذا تجديف.. ماذا إذا هذا الدم الأبيض الذى يسرى فى جسدى وتتكسر خلاياه ويتغير شكلها؟ هل هو سر الوجود والعدم معًا؟ هل هو المجموع الذى لا ينقص ولا يطرح منه شيء؟الكل فيه.. الموت والحياة، الحب والعدوان بالكره، الأمل الذى لا ينفد وساقية الوديان التى هى «عكرة بالبرد ويختفى فيها الجليد.. إذا جرت انقطعت.. إذا حميت جفت من مكانها».

لماذا أذكر أيوب وأقرأ لا أكتب.. «أبحر أنا أم تنين حتى جعلت عليّ حارسًا. إن قلت فراشى يعزينى، مضجعى ينزع كربتى.. تريعنى الأحلام وترهبنى برؤى».

***

الساعة القديمة تدق التاسعة. لقد توغلت فى الليل ولا أدرى ماذا فعلوا بى.. ماذا فعلت تفيدة قبل أن توقظنى لتعطينى الدواء مرة أخرى.. هل أكلت أو شربت قبل ذلك. ماذا حدث فى البيت من الصباح؟ ليتنى أستطيع أن أقوم إلى غرفتى القديمة على الشرفة الداخلية للمنزل وأجلس مرة أخرى على الكرسى الهزاز بمخداته الملونة تحت شباك دميانة الزجاجى الملون وحولها الأتراب الأربعون. لقد جئت لهذا.. لكننى ما زلت لا أستطيع. قالت تفيدة قبل أن تذهب إن أبانا حضر ولم يوقظنى وإنه سيأتى ليأخذنى إلى الكنيسة فى يوم السبت دميانة. لماذا لم يوقظنى، وهل سأبقى حتى هذا اليوم.. اليوم وغداً وبعد غد.. إننى لا أفكر فى عيد ميلادى بقدر ما أفكر فى الكتابة.. فى الطريقين اللذين عليّ أن أتخذ.. طريق الموت أو طريق الخطية. كلاهما تذكر. الموت صمت والكتابة صوت الخطية. كلاهما ما زال مفتوحًا أمامى. لكن الموت تخلص وليس خلاصًا. إننى أبتسم لنفسى وكأنما

أعـود صبـية وأنا أكـتـب.. أمـا طريق الخطية فـهـو طريق الخلاص، وهو طريق الإخـلاص والشجاعة وتحمل العدل.

أليست هذه كـلمات أبى؟ نعم تحمل العـدل، هذه كلمتـه. لقد قالهـا لى وهو يريدنى أن أتزوج من «حكيم غـالى». كنت مـازلت فى السـابعة عـشـرة وكانت دميانـة قد امـتلكت روحى. وكنت أحلم بهـذا القصـر المنيع الذى تعيش فـيه مع أترابهـا بعيـداً عن كل رجل، عروسًا للرب، وكان أبى حينذاك فى قلب قضيته التى لم أفهمها ومازلت إلى الآن، كان قد دخل فى صـراع غـريب مع بعض الـرهبـان الذين أخـذوا دون وجـه حق أرض الكنيسـة وسجلوها لأنفـسهم ولعائلاتهم. وكان يحـاربهم فى المجلة وبالكتابة وكان البطريرك يـحبه ولكنهم اسـتطاعوا أن يحرمـوه من عمله فى تفـتيش الأمـير عمـر طوسون.. فـهل كان من العدل أن أحتمل الزواج، من أجله، من حكيم غالى، وهو يكبرنى أكثرمن أربعين سنة.

هل كان من العدل أن يغرينى بهذا الشباك الزجاجى الذى صنعه لى على نفقة العريس فى بيت العريس. قديستى الحبيبة وفى يدها سعف النخل وحولها أربعون من أترابها.

هل كان من العدل أن أبقى هكـذا فى البيت عروسًا غيـر عروس وأن أحمل، على الرغم منى، دانيال وأن أذوق موت أبيه دون أن أحبه أو أعرفه. لقد تركنى أبى وتركتنى أمى وعادا للقاهرة ليستقرا فى الـزيتون ويتركانى وحـدى هنا قبل أن يموت حكيم، وبعـد أن يموت ودانيال فى يدى. كل هـذه الأرض التى ورثها حكيم من عائلـته وأرضه هو الذى اشـتراها وأضافـها إلى أمـلاكه، كل هذه أصـبحت لى ولدانيال، لـكنى لم أكن أملك شيـئًا إلا هذا الاختفاء الغريب الذى أراه فى قديستى وهى تتمسك بالزجاج ولاتخرج منه أبدًا.

وأنا صغـيرة كان أبى يحكى لى، وأمى أيضًا، عـن قبة الظهور. قـبة فى الكنيسة القـديمة التى لم أرها. وكـانوا يحكون أن جـلاليب الزوار الملونة فى المولد تنعكـس على جدرانهـا

فيصرخون جميعًا: السلامة لك يا جميانة.. السلامة لك يا جميانة.. السلامة لك يا جميانة.. ويتوقعون القديسين. منذ ذلك الحين لم أكن ألبس فستانًا ملونًا إلا وأذكر قبة الظهور، هذه الحقيقة غير الحقيقة. هذا الأمل في النفس الذى يخلقه ما يصنعه الإنسان بجسمه وما يعطيه له من لون. هل كان الناس يعرفون أيضًا أن القديسين الذين يتوقعونهم هم مجرد خيالات ولكنهم كانوا لا يهتمون.. ولا يهتمون إلا بقبة الظهور؟ لو أن أبى هنا يحكى لى هذه القصة من جديد، لكنه الآن مع أمى خيالات كخيالات القديسين المتوقعة، وأنا وحدى من جديد فى البيت.. بلا قبة للظهور وليس هناك إلا الشباك القديم الملون تختفى فيه دميانة وأترابها الأربعون. وجميعهن صامتات، كل واحدة منهن فى لوحة، ولكل منهن مكان وكلهن حولها فى المكان، بلا تلاحق ولا زمن. لقد تلاشى العذاب من وجوههن واختفين جميعًا فى الزجاج صامتات. فهل هذا ما يفعله العذاب. هل يحاول المرء أن يختفى عندما يتعذب حتى يصبح صورة على زجاج. وهل لذلك يرسمون القديسين على الزجاج الملون.. مزيج من قبة الظهور الموهوم ومن جهد الفرد الإنسان أن يختفى حتى لا ينفذ فيه أحد، فهل أصمت وأنتظر الزجاج؟

* * *

عندما ظلت الساعة تدق اثنتى عشرة مرة، واحدة بعد أخرى، بعد أخرى.. كنت قد اتكأت على الوسادة وأخرجت قلمى الذى يحمل بطارية صغيرة - هدية من دانيال ونحن فى أمريكا، لم تغادرنى أبدًا. وحرصت دائمًا على أن يكون لدى مخزون من بطارية فلا تنتهى لكن ها أنا أنتهى بها الآن أخرجت القلم وكراستى الصغيرة.. الجديدة للطريق الضيق الذى اخترته، وأردت أن أكتب فقط.. ماذا أنتظر.. لماذا لا أضىء النور.. ولماذا أطل فى المرآة على تسريحتى فى الغرفة فأجدنى ضخمة سمينة كأمى ولست كذلك أبداً.. لماذا

أحس أننى سمينة هكذا أو ثقيلة، إننى لا أرى خطوط جسمى فى المرآة، لا أرى هذه العصفورة الصغيرة كما كان يسمينى، ولا «ليتل موم» كما كان يقول دانيال. لا أرى إلا هذا الجسد الضخم المترهل لأمى وقد عجزت عن الحركة فى أواخر أيامها من الضغط والروماتيزم وبدأت تموت سمنة. كانت سمنتها تتزايد بسرعة وكأنها ستنفجر.. ولم تبق طويلاً بعد حكيم.. أليس كذلك؟ لماذا أريد أن أعد السنوات التى عاشتها قبل أن تلحق بزوجى الذى أرغمتنى هى وأبى عليه وعلى فراشه. كان أبى يذوى هو الآخر لكنه كان يذوى ضئولة وعصبية وكان جسده يزداد كل يوم هزالاً وحدة وكأنه أسلاك صدئة. نعم هى ماتت بعد حكيم بسنتين وهو مات بعدها بثلاث سنوات أخرى.. ولقد كتب أبى مولد دانيال ووفاة حكيم ثم وفاة أمى فى ظهر الصفحة التى كتب فيها مولدى.. ولم أكتب وفاته فلم أستطع، ولن أكتب وفاتى، وهل سيكتبها أحد؟ صفحة العائلة انقطعت بعد خمس سنوات من زواجى. لماذا أنشغل بهذا الحساب! أنا أريد أن أعود إلى جسمى فى المرآة، لا أريد أن أختفى فى ظلمتها. لا.. ليس بعد، هل أضىء النور؟ أم يكفينى هذا النور الخافت الذى يذكرنى بدانيال وكأنما أستطيع أن أنساه.

يا ربى، لماذا دفعتنى إلى هذه الوحدة التى كانت طريق الخطية. ولماذا بعد أن حدث كل ما حدث تجعلنى أعود مرة أخرى إلى نوع آخر من الوحدة أمام المرآة المظلمة؟ هل ستدفعنى إلى شىء جديد. هذه السنوات الخمس والعشرون التى مضت منذ سافرت إلى أمريكا ودانيال معى فى سنواته الخمس، هذه السنوات هى ما أريد أن أجتاب وأن أواجه، هذه السنوات هى التى أوصلتنى إلى اللوكيميا. هذه السنوات هى التى جعلتنى أجلس، كما أجلس الآن فى نصف الليل لا أرى نفسى إلا ظلمة فى المرآة وأوهم نفسى أننى سأراهم جميعًا مرة أخرى.. فى نفس المرآة المظلمة.

النور وحده سيرينى كل السنوات الخمس والعشرين. فى النور لا الظلمة يجب أن أكتب. ويجب أن أكتب وألا أبحث عن قبة الظهور. لقد تحطمت واختفت من سنوات وكل هؤلاء ليسوا إلا ذكرى بعيدة وكأنما كانوا يصنعوننى فقط لأسير بمفردى ولأظل بمفردى ولأصل إلى اللوكيميا بمفردى. ولأقف وحدى الآن أمام الرب بمفردى.. بمفردى.. فى هذه الوحدة الجديدة ودموعى فى عيونى تخفى حتى هذا النور الضئيل فى القلم، لتستبد بى رعدة طوبة التى فى داخلى والتى لا يجدى معها بطاطين أو مدفأة، حتى القربة عند أقدامى قد بردت.. وأسنانى تصطك.

***

نور الفجر يوقظنى وأصوات العصافير الصغيرة تنقر الظلمة وكأنها حبوب تجمعها قطعة قطعة وبنشاط متصل وبعد قليل يملأ الدنيا نور جديد.. وسوف يحدث هذا فى كل صباح. بعد أن أرحل. كل يوم، كل يوم، كل يوم. وفى كل يوم لن أكون موجودة. ألا يجعلنى هذا أحتمل الألم وأتحرك لأكتب. إن روحى تقوم فيها رغبة للصلاة وتتصاعد فيها الرغبة كما يتصاعد نور الفجر. لكن رغبتى فى الصلاة غائمة أيضًا ومازالت قاتمة كبقايا الليل. وأنا فى عتبة الصلاة أحس أن إصرارى على الكتابة أوضح وأكثر إلحاحًا، وتمتزج الرغبتان، الصلاة والكتابة، وأجد نفسى من جديد فى الألم. فى يدى القلم المطفأ والكراسة الصغيرة وكلماتى تتحرك مع تزايد النور.

لكننى أريد أن أصلى وأريد أن أصلى بألمى المتزايد.. هل فى الألم تبرير؟ هل فى الألم عقاب والعقاب جزاء وتكفير؟ هل بهذا تغلق الدائرة، دائرة الخطيئة! إننى أحس خطيئتى، وأحس وعيى وأحس حقى فى الصلاة أكبر من أن أغلق الدائرة. إن دائرتى ستظل مفتوحة كأنها جرح لا يندمل أو كأنها هذا التفتت المستمر فى كريات الدم بداخلى.

إننى يا رب لا أحسب التبرير بالعذاب لكن التبرير بالوعى. لكن الوعى لا يحمل تبريراً للذنب، بل يصنع مزيداً من الشعور به، وكلما ازداد الوعى ازداد الشعور، فهل لا تبرير؟

يا رب، إن رغبتى فى الصلاة ورغبتى فى الكتابة همّا معًا التبرير الفياض القائم فى داخلى، لكنى لا أعرف على أى أرض من الوعى أو الغفران أنا قادمة. إننى أحس أننى فى أعلى سلم، ومع ذلك علىّ أن أصعد.. فإلى أين؟ الألم الذى أنا فيه، هو غير الألم الذى أنا فيه. فالألم الذى أصاب الوعى والشعور والإرادة هو ألم تم بغير وعى أو بغير شعور أو إرادة. والألم الذى أنا فيه هو فزع السلم الذى انتهت درجاته، وهو فزع الوعى الذى قد أكمل.

يا يسوع، أعطنى القدرة على أن أعبر هذا البرزخ المستحيل بين التبرير والتفكير. إنك تعذبت وأنت تعرف. لكنك تعذبت دون مبرر. عرفت العذاب كله من قطرة الخل إلى صرخة الهوة المخيفة وأنت تقول الوى، الوى لما شبقتنى، لكنك وحدك القادر على أن تحيل اللحظة وفاجعة الآن إلى تاريخ. وأنت وحدك القادر على أن تحول مكان الفتك والعدوان إلى طريق لبشرية جديدة.. أنت وحدك قادر.. أما نحن.. فأوانٍ هشة وقوارير لا نستطيع مهما فعلنا أن نحمل صليبك.. نحن أوانٍ هشة وقوارير كتلك التى على تسريحتى.. ونحن أمام المرآة لا نستطيع بأى عذاب وبكل عذاب، أن نتبرر، ولا نستطيع أمام المرآة بأى وعى وبكل وعى إلا أن نظل دائمًا كما نحن نحن، وأنا أنا فى المرآة دائمًا.

***

بعيداً فى الصيف

الزيتون ١٢ بشنس ١٦٩٣

اليوم مولد قديستى دميانة.. وأنا بعيدة من جديد، مرغمة على أن أكون فى الزيتون. البيت الكبير فارغ من جديد لأننى عدت إليه وكأنما كنت أتصور أن يكون مليئًا. كم سنة مرت على هذا البيت منذ كان مليئًا. وما هو الامتلاء للبيت؟ لقد كان أبى فقط هو هذا المعنى كله. كان هو وحده يعنى الامتلاء والحركة والناس والزيارة وكل أولئك الآباء والقضاة والمحامين من أصدقائه. كانوا جميعًا يهتمون بالزيارة والحديث وكأنه كان الرجل الذى يجدون عنده معنى لكل محاولاتهم فى الحياة أو كأنهم عنده ومعه يستريحون. كان أبى بما يقدمه من إصرار على العدل وعلى الأمانة يجذبهم إليه ليستريحوا عنده أو ليستريحوا منه. كانوا يريدون أن يطمئنوا أنه لن يكشفهم ولن يهددهم كما فعل فى قضيته القديمة التى حارب فيها رهبان دميرة واستخلص للكنيسة الأرض منهم. كانت حربه الطويلة قد جعلته وحيدًا محرومًا من العمل، لكنها جعلته محطًا لزياراتهم ولأوقات يقضونها معه. كانوا يعزونه. كانوا يقولون إننا لن ننساك ولكنهم كانوا جميعًا يؤكدون وحدته بعد أن اعتزل العمل عند الأمير طوسون وبعد أن زوجنى فى دميرة وتركنى هناك وعاد وحده مع أمى إلى الزيتون يمضيان معًا الحياة حتى الموت.

هذه الصورة البعيدة للبيت المليء كنت أراها أحيانًا فى أيام زواجى الأولى، وبعد أن ولد دانيال. عندما كنت أجىء إلى هنا فى زيارات قصيرة أستريح كزوجة طفلة من غربة الزواج وضخامة الزوج علىّ وحيرتى بالطفل الصغير الذى أعطانيه الرب وكأنه منحة.

وفى دميرة.. كنت أجلس وحدى تحت شباك دميانة على الكرسى الهزاز. وكان حكيم فى عيادته طوال الوقت أو مع الأصدقاء فى بيوتهم. لم يكن يكلّفنى أن أكون مضيفة لهم ولم أكن أراه معهم إلا فى الكنيسة. هل كان يخجل منى ومن طفولتى فى البيت؟ كنت فى

السابعة عشرة عندما تزوجت وكان قد تجاوز الخمسين. وعندما ولد دانيال كنت أحمله فى يدى ليراه وكان ينظر إلينا معًا، وكأنما لايريد أن يرانا. كان وجهه فاجعًا كلما شملنا بعينيه الزرقاوين اللتين ورثهما دانيال وتحمر بشرته البيضاء. وكنت أحس أنه يقترب منى فى الليل كأننى فاكهة محرمة فى محراب. كيف أذكر كل هذا، ولماذا أكتبه؟ كيف لم تمح السنوات الطويلة كل هذه الذكريات وهذه اللحظات؟

إننى أذكر زمردة الصغيرة تحت شباك دميانة الذى هيأه لى أبى وحكيم أيام الزواج.. صورتها والأربعون. هى فى الوسط فى يدها سعف النخل وفوق رأسها، أربع، وعند أقدامها أربع أخريات، وثلاث على كل جانب من الأربع، وعشر أخريات فى كل طرف من الشباك. أربعون، لكل واحدة صورة ولا أستطيع أن أميز كل واحدة عن الأخرى، لكنى حينذاك كنت أعرفهم وكنت أصطنع لهن أسماء، وأحيانًا كنت أحكى لدانيال وهو على حجرى قصص الاستشهاد وأستعيد كلمات دميانة فى المحاكمة والتعذيب. كنت أقرأ ومازلت أحفظ كلمات الميمر فى اليوم الرابع من العذاب الطويل. ومازلت أتمثل فى داخلى صوتًا خاصًا مصنوعًا من حلاوة مسمومة، أو رنين زائف كالرصاص المخلوط بقشرة من ذهب، صوت الأمير الذى تقف أمامه دميانة وهو يقول لها «أما طاب قلبك يا ستى أن تسجدى لآلهة الملوك وتخلصى من هذا التعب كله» ويتردد فى داخلى أيضًا صوت دميانة القوى الواضح كخرير المياه النقية أو السيف الناصع المسلول: أيها الطاغى إن الحكيم لايقبل المجد والزهو الباطل، والجاهل مثلك أيها الأحمق لايمل من قبول المجد الفارغ. وسيدنا يسوع المسيح له المجد، قال فى إنجيله المقدس وهو أصدق القائلين: «الويل لكم إذا قال فيكم الناس قولاً حسنًا فاعلموا أنكم أخذتم أجركم» وكنت أحس فى هذه الطفولة الوحيدة، أن الزواج وأن حكيم هو أجر لا أستحقه وقول حسن علىّ أن أرفضه. وكان حكيم يعرف ذلك.

وعندما تشتد الظهيرة وأنا وحدى قبل أن يعود للغداء وأحس بالجوع، يحس دانيال على حجرى كل هذا الحديث ويتحرك وكأنما ينظر إلىّ يريد أن يفهم فأحدثه بصوت عال وأسترسل فى قراءة الميمر وفى صور التعذيب الفظيع الذى صبوه عليها:

«جاءوا بقدوم نجار وقورورا به طبقة رأس الست جميانة ثم غلوا زيتًا وزفتًا وسكبوا رصاصًا أقلبوها فى موضع ما قوروه، ثم قلعوا عينيها ثم سلخوا جلد رأسها الباقى من التقوير إلى صدرها ثم صبوا زفتًا وزيتًا على الموضع الذى سلخوه، فحست القديسة بشدة العذاب الزائد». وأصرخ أنا فيفزع دانيال على حجرى وأنظر إلى السماء الواسعة أرقب الحمام الأبيض وعند ذاك أسمع اليمام فى الظهيرة بصوته الحبيب. «وللوقت نزل طير حمام أبيض شافه الحاضرون على رأسها ورفرف بأجنحته عليها وعلى عينيها ولوقتها نهضت قائمة صحيحة من غير ألم البتة صحيحة العينين، سالمة الدماغ لم يكن بها مرض قط وللوقت طارت الحمامة إلى الجو وغابت عن أعين الحاضرين».

أيتها الممتلئة مجدًا، أم النور الإلهى، مريم، سيدتى العذراء، هل تشفعين لى، أنا هنا وحدى فى الزيتون أموت بمفردى، وكلى وعى بكل يوم أخطوه للموت وبكل لحظة تقربنى منه، هل تمسحين عنى كل هذه الذكريات. إن الألم والمرض أصبحا حقيقة ستزول بالموت.. أما الذكريات وهذه الصور فهى باقية، أشد من الألم وأشد من المرض، ومعها كل الحياة. كل هذه السنوات الطويلة التى مرت فى هذا الطريق الطويل من الشباك فى دميرة.. إلى تلك الحديقة القديمة الخربة أمامى الآن فى الزيتون. وها أنا أكتب من جديد فى نفس كراستى الجديدة وبقلم دانيال غير المنير والظهيرة يشتد قيظها.. وليس هناك فى كل الزيتون حمامة بيضاء واحدة.. ولا ترداد واحد لصوت يمام.

ماذا فعلت بكل ما كتبت من كلمات ولمن أكتب.. إننى بلا أكاليل، ولا أملك إلا هذا الذبول والاضمحلال المستمر ونفضات اليقظة والقدرة التى أقف فيها على حافة الهوة تزاحمنى الذكريات ولم تعد حياتى إلا هذه الزحمة على الهوة.. وحتى أسقط، لا حياة لى إلا بالكلمات.

لم تعد للأفعال معنى. لقد ذهبت الأفعال القديمة بكل معنى ولم يعد أمامى إلا هذه المواجهة التى ليست هى فعلاً وليست هى حركة إلى أمام لكنها مع ذلك شيء طبيعى فى داخلى كحركة الموج أو تفتح الزهرة أو صمود الظهيرة. لقد مرت الشهور الثلاثة منذ كنت فى دميرة وأنا غير قادرة على الكتابة. ذهبت إلى الكنيسة فى الثالث عشر من طوبة ومر ميلادى الخمسون دون أن أتلقى كلمة من أحد أو تهنئة إلا هذا الإشفاق الساكن فى عيون من يعرفوننى هناك لأنهم جميعًا يعرفون. ماذا يعرفون جميعًا.. وكيف يعرفون. إن الكنيسة قد احتوتنى طول حياتى.. تزوجت فيها وصلوا فيها على أبى وأمى ومن قبل على زوجى. وفيها عمدت دانيال. وبعد وفاة حكيم تجمعوا فيها ليقرروا مع أبى أن أتقبل تلك المنحة التى حصلت عليها الكنيسة من الجمعية النسائية الأمريكية لتوثيق الصلات مع الكنيسة القبطية.

لقد عرفت الكنيسة كل شيء عن الزواج وعن الحياة والميلاد والموت. لكن هل عرفت أى شيء عن روحى وخطاياى. لقد عرفت منذ التشخيص الأول للوكيميا الحادة بأنى سأموت فى أشهر قليلة لاتزيد على نصف سنة وكرست الكنيسة لى تلك الطبيبة الصغيرة وكلهم ينتظرون هذا الموت بهذا الإشفاق الساكن الذى يرعانى فى لحظات حركتى دون أن يقدم إلا عزاء موجعًا لا أريده.. ولا أنتفع به بل كم أتمنى أن يتركونى وحدى بمفردى.. أموت وأكتب.

عزيزتى الطبيبة الصغيرة قد صنعت كل شىء من أجلى. منذ تلك اللحظة الأولى التى شكت فيها فى وجود المرض ومنذ التحليل الأول للنخاع وتحاليل الكبد والكلى وتلك الكمية الصغيرة من الدم التى أخذتها من إصبعى. لقد كدت أموت وأنتهى منذ إبرة التشخيص الأولى، لكننى اتفقت معها أن أعرف وأن أقرأ وقد عرفت وقرأت. فى لحظة ما قالت لى إنك يا دكتورة تكادين تعرفين كل ما أعرف الآن. قرأت فى كتبها الضخمة كل ما هو معروف عن اللوكيميا الحادة والمزمنة وتوقعت أنواع الأعراض قبل أن تأتى وعرفتها وهى تظهر وتدرجت مع الطبيبة فى فهم البرنامج المعقد من الحقن والحبوب. واحتد وعيى بداخلى وأنا آخذ بانتظام تلك البودرة الحمراء التى تذوب لأحقن بها فتصنع ذلك الإحساس البغيض بالقىء والغثيان وعرفت حبوب البردنيسولون التى أشعر بعدها بالتحسن وبعودة الشهية والإحساس البسيط بالجوع والرغبة فى الطعام. وبعدها دائمًا كنت أستطيع أن أكتب.

وفى بقية الأيام والأشهر الماضية والباقية أرقب أحيانًا ـ وكأنما أنظر فى حركة دمى الداخلى وحركة النخاع فى عظمى. كيف يتم هذا التآكل فى كريات الدم وكيف تتكاثر الكريات البيضاء وماذا يصنع كل ما أتناوله من دواء فى الـ «د.ن.أ» والـ «ر.ن.أ» وكأن جسمى، الذى تقيسه الطبيبة لتحدد الدواء، قد أصبح مكانًا خارجيًا تتم فيه فاجعة لا حيلة لنا فيها مهما فعلنا ولا نستطيع أمامها أنا وهى والكنيسة وكل العالم.. إلا أن نرقبها.. وأن أحمل أنا وحدى مع الرؤية والوعى هذا الألم الشديد فى المفاصل وفى الرقبة.. وتلك الأورام المفاجئة فى أكثر من موضع.. وأحيانًا هذا النزيف الذى يتسرب منى وكأنه بداية انهيار السد الذى أخفى وراءه الحياة والذكريات.

يا رب، كيف أكون مسئولة على هذا النحو عن كل لحظة من لحظاتى الباقية. إننى لم أتغير وحدى.. لقد تغير كل شىء حولى، هذا البيت القديم والحديقة المهملة وشوارع

الزيتون التى أصبحت صاخبة مكسرة محفورة تتصاعد منها ضوضاء لاتنتهى. كل العالم حولى قد تغير، فأين الزيتون القديمة فى أواخر الأربعينيات وأنا أستعد للسفر إلى أمريكا من الزيتون الآن.. وما أراه حولى من تفكك وانهيار وما أسمعه من تحاليل وتشخيصات مكتومة أو معلنة عن أزمة مصر. إننى بكل ما أملك من صدق، لا أكاد أملك غيره الآن، قد ترددت طويلاً أن أكتب اسم مصر، كان ترددي هو نفس التردد الذى أحسسته وأنا أكتب اسم الحبيب الذى سمم حياتى أو اسم ابنى الذى ضاع وغاب عنى بعد تلك اللحظة المخيفة فى حياتنا التى لم يستطع أن يحتملها. إننى أتردد فى ذكر اسم مصر وكأنها كارثة خاصة غير تلك الكوارث التى يعرفها الناس والكنيسة والتى صنعت حياتى وكونتنى أنا الدكتورة زمردة أيوب.. دكتورة الأدب الأمريكى وأستاذة الجامعة التى تموت وحدها فى بيت الزيتون الفارغ.

لماذا أكتب.. ولمن أكتب؟ أليس الأفضل أن أعيش الألم فى صمت وأن أقبل خطيئتى فى استسلام، وأن أموت بلا معرفة ولا ذكرى.. بلا تعريف.. ولا وعى؟ كيف استطعت إلى الآن أن أخفى كل ما أخفيت وألا يظهر إلا المرض؟ كيف غابت تلك الحياة الطويلة عن العيون واختفت بداخلى وحدى.. وحدى.. وحدى؟ ألم يحن الوقت أن أسلمها قبل أن أسلم نفسى وروحى إلى هذه الكلمات؟ أليس من حقى أن أترك ورائى هذه الكراسة وأن أتصور أن عالمًا آخر بعدى، وناسًا آخرين غير من عرفت، قد يجدون فى هذه الحياة معنى، وقد يجدون للخطية تبريراً وعندئذ قد أنال إكليل الصدق.

إننى أصارع وحدى مع الظهيرة ومع الوحدة ومع اللحظة التى إذا ذهبت فلن أراها أو أعرفها من جديد، ومع تلك البقية الباقية من لحظات لا أعرف عددها ـ ولكن أشد من هذا جميعًا، هذا الإحساس القاتل للكتابة، لأننى أكتب للاأحد ولأن نفسى التى تكتب

تعرف مقدمًا ماذا ستعرف حتى وإن استطعت وقدرت على الكتابة. وليس أصعب من هذا الصراع مع ملاك المعـرفة المسبقة. فلأصـمت حتى يغيب عنى أو حتى أعرف كـيف أشتبك معه. فهذه تفيدة.. ملاكى الصامت تحمل لى الطعام والدواء والجرائد.

* * *

لا، لن يستطيع أحد أن يجعلنى أصمت بعد الآن، لم يعد هناك وقت للصمت. لقد آن لنا أن نتكلم جميعًا.. لـست أدرى مَن أقصد بنحن جميعًا.. لكننى أحس أننى متـعددة وكثيرة وأنا راقدة على هذا الفـراش فى جو الغروب المقـبض. ليس هناك نسمـة واحدة تدخل من الشبـاك المفتوح وكراسـتى على حجرى وقلم دانيـال فى يدى وأنا أريد أن أتكلم وأن أظل أكتب حـتى يتم التغيـر كله فِي دمى وحتى تسكت هذه الحـياة نفسـها. أحس أننى متـعددة وكثـيرة وأن كل من فى مصـر مثلى يحتـاجون إلى هذه اللحظة التى ترغـمهم على الكلام وعلى الكتابة المتـصلة دون توقف. الكتابة حتى الموت. إننـى لا أشتغل بالسيـاسة ولـم أهتم بها مـطلقًا. لقد كـنت أحس دائمًا أن مصـر قادرة على أن تصل إلـى من يحكمهـا وحدها وأنها قادرة على أن تتصرف مع كل من يحكم بنفـس القدرة الطويلة القديمة التى تصرفت فيها مع كل حاكم. هذا المعنى البسيط الساذج كان دائمًا يملأ نفسى ويجعلها تعيش منفردة بعـيدة عن كل أمـواج الرأى فى السيـاسة والثـورة وفى الإصلاح والمصـالح. كانت مـصر بالنسبة لى هى دائمًا بلدى التى أراها هناك، وأنا بعيدة عنها أو فيها.. هى زمردة مثلى لكنها خضراء، قوية صلبة، حتى وإن كانت ملقاة على النيل، حتى وإن علاها التراب.

كنت أحس أنها دائمـا مليئـة وقوية وقادرة على أن تلد وأن تتـوالد وأن تعطى كل الناس فيهـا كل ما يريدون. كنت أحس دائمًا أن مـصر مفضلة مميـزة عند الرب وعند العالم وفى التاريخ. ولم يكن هذا كله تحليـلاً أو معرفة، لكنه شـعور يتصاعـد فى نفسى ويفيض فـيها

كما يفيض النبع بالماء أو كما يجرى النيل. لقد عشت بعيدة عن مصر سنوات طويلة، لكن كانت مصر دائمًا هناك. وكانت الأرض فى دميرة وبلقاس هناك، وكانت الكنيسة بكل عزها وقدرتها هناك، وكان النيل والفلاحون واليمام والشمس والقمر و.. ماذا أريد أن أقول.. فقط أريد أن أقول إن شيئًا ما قد أخذ منى مصر وأن الذى يحدث الآن فيها هو أمر قاس مرير لايفهم وأننى أخشى وأنا أموت أن تتغير مصر تمامًا فلا أعود أعرفها.

إننى أعرف تمامًا أننى أكتب كلامًا ساذجًا فى السياسة، لكنى لا أقصد إلا أن أكتب ما يحدث فى هذه الروح التى تشرف على جسد ينهار ـ ويتآكل من الداخل. لقد أصبحت عاجزة عن أن أتابع شيئًا مما يحدث فيها إلا كما أتابع هذا النظام الدقيق الذى تضعه لى الطبيبة. إنى أعرفه جيداً وأدرسه جيداً، لكننى أعرف أيضًا أنه لا جدوى منه وأنه لحظة بلحظة، لا يؤدى إلا إلى الموت. لكن، أنا هى، التى تموت. وأما هذا الكلام المكتوب فى الجرائد، فهو كلام لمرضى مثلى لكنهم لايعرفون أنهم يموتون بلا وعى ولا معرفة فلا يكتبون إلا هذا الموت. لكنى أريد أن أعرف التغير وهو يحدث وأن أسجل التغيير الذى حدث وأريد أن أكتب حتى الموت. فهل أسترسل فى هذا الحديث عن مصر أو أعود إلى نفسى. كم قد تعلمت ودرست علاقة الفرد بالمجتمع وكم قد تعلمت ودرست كيف يصنع الفكر وكيف يكتب الأدب؟ لكنى أدرك الآن وبعد كل هذه السنوات من الحياة والدرس والحب والضيعة أننى أقف بمفردى تمامًا وأن كل ما حولى ومن حولى لا يملك لى شيئًا وأنهم أيضًا ـ مهما قالوا أو فعلوا ـ لايملكون علىّ شيئًا ولا يملكون على قدرة.. لقد ضيعتهم كما ضيعونى.. وها أنا أخونهم جميعًا كما خانونى، لكنى لا أنتقم.. بل أقول الصدق.

وهل هناك صدق وراء الكتابة حتى الموت. قد أكون مغرورة وقد أكون مضللة، لكننى أحس أن ما حدث فى روحى وجسمى هو انعكاس لما حدث حولى خلال تلك السنوات

الطويلة منذ تركوني جميعًا وحدى ومضيت أشق طريقى وحدى فى الخفاء بلا زوج ولا كنيسة، ولا أب أو أم حتى اختفى الابن ونشب فى جسدى المرض.. إننى عندما أكتب هذا أبكى لأننى أعرف أننى مخطئة وخاطئة وأننى وحدى المسئولة عن خطاياى وأننى وحدى المسئولة عن كل ما حدث. لكن ألا يحق لى أن أبكى وأن أتهم وأنا أموت، ألا يحق لى وأنا أستعد لهذه اللحظات القادمة أن أخطئ من جديد فى الحكم على الأقل وفى المعرفة. إننى لم أعد قادرة على أن أخطئ فى السلوك فهل أطلب العفو عن الخطأ أم المغفرة للخطيئة، أم أكتفى أن أتناول الدواء، وأن أقبل تفيدة، وهى تعدنى للقاء «أبونا» من الكنيسة كما تقول؟ إننى أسمع ضجته وتمتماته فى البهو وقد أنارته تفيدة له. لكنى لا أريد أن أترك القلم أو أن أطوى الكراسة لأننى أحس الخفاء يتلبسنى وأحس أننى غير قادرة على أن أتلقى ما يحمله لى وأننى «أرى ناموسًا آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى إلى ناموس الخطيئة الكامن فى أعضائى.. ويحيى أنا الإنسان الشقى من ينقذنى من جسد هذا الموت» نعم.. من ينقذنى!

ما أشد هذه الحموضة التى أحسها فى حلقى.

بمجرد أن خرج عادت لى الحياة. «مَنْ مِن الناس يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذى فيه..» كل ما قدم لى من كلمات وعظات.. وعزاء كانت تثقل علىّ وتجعلنى أريد أن أصرخ كى يصمت وأنا لا أستطيع. هل تستطيع المرأة أن تكون «أيوب». هل من حقى وأنا أعرف كتابى المقدس أن أقول لهم ما قاله الرجل. كم كنت أريد أن أقول له بصوتى:

«هذا كله رأته عينى. سمعته أذنى وفطنت به. ما تعرفونه عرفته أنا أيضًا، ولست دونكم. لكنى أريد أن أكلم القدير، وأن أحاكم إلى الله. أما أنتم فملفقو كذب، أطباء باطلون كلكم ليتكم تصمتون صمتًا. يكون ذلك حكمة».

ما أغرب الكلمات فى فمى وكأنى أصنعهـا صناعة جديدة. وكأنها لى وحدى، لم تصنع من قبل. هل أستطيع أن أرتفع إلى هذه التـجربة. هل وأنا امرأة. أستطيع أن أرتفع إلى هذه التجربة؟هل، وأنا امـرأة، أستطيع أن أتكلم بالحكمة وأن أقولهـا وحدى. يا رب، لقد كنت تعدنى لشيء غير هذا كله، وكانت روحى دائمـًا غرورة ترى ما هو أكبر منى على أنه وعد منك. عندما كنـت طفلة نشأت فى سيـرة قديستى دمـيانة وكنت أعشـقها وأحـسب نفسى سأكون مثلها بتولية وعروسًا لك. كان جسدى الصغير يعدنى لذلك، وكانت روحى تعرف القداسة فى الأرض والسماء وفى النجوم ونبـات الحقل. وعندما زوجونى ضاع ما أعددته لى، ولـم أكد أحصل على الثانوية حتى صرت أمًا وامتلكت من أجل أبى الأرض والضياع التى لـم يفعل بهـا شيئًا ولـم أفعـل أنا بها شيئًا، وعنـدما ماتوا جاءنى أب من الكنيـسة مثل هذا الذى ذهب، وقال لى فى وحدتى فـى دميرة: «سترعى الكنيـسة الأرض، إن الله يعدك للعلم.. اذهبى أنت إلى أمـريكا وادرسى وعودى لنا دكتـورة عظيمة وارعى دانيـال يرعاك الرب». ألم تكن هذه هى الكلمات التى صنعت حياتى من جديد وأمضيت بها هذا الطريق الطويل من ٤٩ حتى ٦٠ لتـصنعنى من جديد القوانين الاشـتراكيـة؟ لماذا لم تعدنى يا رب لشئىء لايعبث به البشر، وأين تراكمت هذه السنون؟ كانت مصـر تبعث لى أسهمًا مضيئة وبوارق، وكنت أعـرف دائمًا أننى سـأعود وأننـى لن أتخلى أبدًا عن أرضى أو عن سمـرة النيل فى بدنى. لم أفكر لحظة أن أحمل الجنسية ولم أفكر لحظة أن أتزوج.

لقد مررت فى سنوات الـ BA وقامت الثورة وأصرت خطابات مصر من الكنيسة، ومن أصدقاء أبى أن أواصل الدراسة حتى بعد انتـهاء المنحة. وظلوا يرسلون لى دائمًا ما يكفينى ويكفى دانيال وكنت أقـول للناس هناك إننى غنية مسـتغنية ومع ذلك عملت خـلال سنتين فى المكتبة قبل أن أحصل على الماچستير وهناك عشقت إميلى ديكنسون وعرفتها.

إننى أتعقب سنوات حياتى كى أفهم.. فهل أستطيع أن أفهم، هل أستطيع بما أحكيه لنفسى أن أقيم حياة جديدة أو أن أتبرر أمام الرب؟ إننى لا أملك إلا هذا وأنا غير قادرة إلا على أن أتذكّر وأن أسيج ذكرياتى بالكرامة. لقد رعيت دانيال وربيته وتابعته فى المدرسة؟ وعلمته فى البيت كتابنا المقدس وحدثته طول الوقت عن بلقاس ودميانة، عن دميرة وأبى والزيتون والنيل. وكم صنعت له من قصص، فهل يستطيع أن ينسى؟ إننى لا أريد أن أبكى الآن، ولا أريد أن أدع روحى تذهب إليه حيث لا أعرف الآن. أريد أن أنعم بتلك الذكرى وأن أعيش مرة أخرى وأنا على فراشى ـ لا أستطيع إلا أن أكتب ـ تلك السنوات الخضراء السوية المنتظمة من حياتى. أريد أن يعرف أبى ـ وهو ميت، وأبى الذى ذهب الآن، أننى كنت طوال هذه السنوات بنتًا تفرح بها الكنيسة وتحبها مصر. نعم.. كم كنت قريبة من مصر حينذاك وأنا فى قلب نيو إنجلند وفى شقتنا الصغيرة وأنا ودانيال فى أمهرست. كانت مدرسة صغيرى على بعد ناصيتين من شقتنا. وكنت أصحبه كل صباح إلى المدرسة وأنا فرحة فخورة كأنما أحمل جزءاً من مصر وأعرضه على الناس وإن كنت أخفيه تحت قبعته الفرو والمعطف الثقيل وغطاء الآذان الصغيرة. وما زلت أحس هذا الدفء الخاص به الذى أتصوره فى بدنه الصغير وأنا أقبض بيدى العارية من القفاز على يده المغطاة المبلولة بآثار الجليد والثلج الذى يلعب به. وعندما يعود من المدرسة كان يجدنى فى البيت لأطعمه بيدى وأنا أطمئن إلى سعرات الحرارة والبروتينات والفيتامينات من كتب تربية الأطفال التى كثرت فى مكتبتى، وهو يكبر أو يصيبه البرد أو الغدة النكفية، أو تؤلمه أسنانه أو تجزع قدماه. يا صغيرى إنك لم تستطع تذوق ما أطبخه لك من طعام مصرى حتى أصبحت فى السابعة وبعد سنتين من وجودنا فى أمريكا.. وبدأت تسعد بأن تقدم لأصحابك من البنات والأولاد الصغار الطعمية والبصارة التى أطبخها أكثر من سعادتك أن تأكلها أنت. ولم تستطع أن تقرأ العربية حتى انتهيت أنا من دراسة الماچستير، وكنت تفضل دائمًا أن

أقرأ لك من كتبك الإنجليزية أو أن تسمعنى فقط دون أن تفهم وأنا أقرأ فى الكتاب المقدس فى نسختى العربية. هذه الليالى الطويلة يا دانيـال هى عذرى الباقى، وهى أيضا ما أتقدم به إليك دائمًا لتعفو. لكنك لن تعود أبداً. لن ترضى أن تعـود حتى وأنا أموت. لكننى أستعيد فى بدنى وعلى جـلدى أنفـاسك الصـغيـرة وأنت إلى جـانبـى فى الفـراش هناك. لم يكن جسدى ما هو الآن. كـانت عذريته الكاملة قد عادت إليه، وكان عـدوان أبيك وميلادك قد اختفيا تمامًا وامَّحيا من مسـام البدن. وكنت أضمك إلى صدرى كـما أضم زهرة أو سلة تفاح أو أوركـيد أو عـصفور الجنة. وكـانت كلها فى بيـتنا الصغـير دائمًا.. أتـذكر.. كنت أقبلك قبـلاتى الصغيرة السريـعة على خدك وبين عينيك وفى جبـهتك وعلى يديك وأنت تقول لى «ليتل موم».. فإذا دخلت معك الحمام لأغسلك بالإسفنجة الزرقاء والماء الدافئ.. وقفت أمامى تسـتعرض بدنك الصغيـر وتحرك يديك وقدميك فى حركـاتك الرياضية التى تعلمتها فى المدرسة أو فى شجارك مـع الأطفال. فإذا تعرى صدرى وأنت تتحرك فى يدى لمسته بيدك وساعدتك بكتـفى وطرف ذراعى على أن تدخله من جديد وراء قمـيصى وأنا مشغولة في بدنك. وتمضى اللحظة السريعة سريعًا، ولا يخطر فى بالى أبدًا أنك ستصبح رجلاً.

لماذا لم تظل صغيـراً يا دانيال.. لـم يكن يغادرك لطفك وأدبك وابتسـامتك الهادئة الحلوة أو رغبتـك فى ألاتغادرنى إلا إذا كان حولى رجل. فـهل كنت تغار يا دانيال وأنت صـغير هكذا.. لا، لم يكن هناك رجل أبدًا فى أمـريكا.. كانوا جـميـعًا حولى أصـدقاء ومـعارف وكبـاراً فى السن يساعدوننى فى الدراسـة أو فى الحياة وأوراق الفـيزا أو الإقامـة وتصريح العمل.. وحـتى فريدون الذى فـاجأتنى بعـد ذلك بسنوات بثورتك عليـه لم يكن يعنى لى شيئًا. لقد أسـرنى بتجربته وحديثه عن ثورة العراق الجديدة وعن نورى الـسعيد وهو يقتل. وكان هاربًا لأنه كردى وكـان يتوقع الشر. لقد قصّ علىّ قصـصًا كثيرة فظيـعة عن السحل فى الشوارع وعن الجـثث التى رآها وكنت خائفـة ولا أفهم مـاذا يحدث فى المنطقـة كلها.

إنـك تذكر يوم أن سـهرت معه متـأخرة وعاد معى إلى المنزل وكنت تنتظرنـى عند الجيران فلم تكن صغيراً، بل كنت قد قاربت الرابعة عشرة، ومع ذلك إذا بك تفاجئنى بأنك ستقول لوالدك. لم أفـهم طبعًـا ماذا تـعنى، لكن كان غـضبك واضـحًا لـيلتهـا وأنا أصحـبك إلى الفراش كعـادتى وأقبلك، لم ترض أن تقول «ليتل مـوم».. لكننى يا دانيال صرفتـه بسرعة وعدت إليك فى الفراش، أحتضنك وأضمك إلى صدرى ويومها بكيت بكاء لم أعرفه فى أمريكا أبداً. بكيت لأننى وحيدة ولأنك بلا أب ولأننى أسلك وحـدى فى حياة لا أستطيع أن أشركك فيها أو أن أحدثك عنها، وقررت يومها أننى لن أتركك وحدك أبداً.

وعندما قلت لك ذلك فى الصـباح لم ترد علىّ. ولم ترض أو تنس حتى سافـرنا معًا وأنا أتابع موضوع رسالتى إلى يال ودار تموث وأمضينا أسبوعًا معًا فى بوسطن. لكنك علمتنى خلال رحلتنا القصـيرة أنك تنزعج وتغضب فى داخلك الصغيـر كلما رأيتنى مع المصريين الكثيرين هناك أو كلما سمعتنى أتحدث مـعهم بالعربية. لقد كنت ترفض بوضوح أن تحادثهم إلا بالإنجليزية وبلغة صحيحة موجزة وكأنما كنت حريصًا على أن تكون أجنبيًا عنهم.

وعندما عدنا إلى أمهرست حيث لانكاد نرى مصريًا واحداً عدت تحاول العربية وتواصل الدراسة الجادة للكتـابة والقراءة بها، وكأنما تريد أن تصالحنى وأن تسـترضينى. ولا أظن أن هناك فرحًـا فى حيـاتى كان أكبـر من فرحتى ليـلة أن قلت لى، وأنا أضم الغطاء عليك فى الفراش، وباللغة العربية الفصيحة، يا أمى الصغيرة.

أمك يا دانيال لم تعد صغـيرة الآن. إنها تموت انهياراً أو شيـخوخة وأنت غاضب لا تريد حتى أن تعرف ولاتريد حتى أن تجعلنى أعرف أين أنت؟

نعم.. يا تـفيـدة.. أعرف أنها التاسعـة.. سآخذ الدواء وسآكل.. لا لا أريد التـليفزيون.. ولا الراديو.. ولن أرد على التليفون.. لقد قـرأت الجرائد فى الصباح وهذا يكفى.. إننى لا أريد أحداً ولا أريد أن أعـرف شيئًا.. إن كل مـا أريد أن أعرفه بداخلى.. دعـونى.. دعونى فقط.. أكتبه.

* * *

لم أكن أعرف أننى أستطيع أن أحلم. وكنت أظن أن «الأكيوت مونوسيتيك لوكيميا» تزحم الحلم كما تزحم كريات الدم وصفائحه. لماذا لايوجد فى كتاب الطبيبة أى شىء عن الحلم فى المرض وعن انعكاسات الموت بالزحمة فى الدم على أفكار المريض، إنهم يحددون مواقع الهيبر بلاسيا والتكاثر المرضى للخلايا البيضاء، لكنهم لايحددون أى تغير فى الفكر والأفكار والأحلام والرغبات وكل وظائف البدن النفسية، أليس البدن المريض له روح أيضًا وله حلم؟

هذه الأفكار تزاحمنى الآن وأنا أحاول أن أتذكر الحلم الذى أيقظنى. هل أيقظنى الحلم أو دقات منتصف الليل؟ إننى أنام وكأنما أنام فى منحنى وأصحو لأستيقظ كلى رغبة للكتابة وللانتهاء من دفاعى. نعم، هل كان هذا هو الحلم؟ كنت فى غرفة أعرفها تمامًا فى الكلية فى أمهرست. كانت الغرفة التى تقدمت فيها لمناقشة الدكتوراه.

لكننى كنت مريضة كما أنا الآن، بل وعلى الفراش وأمامى ثلاثة غير الثلاثة الذين امتحنونى، وكانوا أبى ودانيال وكريم عبد القادر، إننى لا أستطيع أن أتذكر شيئًا من الحلم إلا تلك الحشرجة الصعبة التى ترفض أن تخرج من فمى ومشاعر غريبة صعبة على وجه كل منهم وفى يده، دون أن أستطيع أن أحددها أو أمسك بها. كان دانيال كأنه يريد أن يقوم ليمسك بى ويسندنى، أما كريم فقد تضخم رأسه ووجه الجميل وكأنما لايستطيع أن يحمله، وكان أبى عصبيًا حادًا يريد أن يتهم ولكن لاينطق.. نعم هذا الحلم. إنه كان كابوسًا ومع ذلك أقوم خفيفة فى عينى آثار دموع ورأسى كله ملىء بنيو إنجلند وزهور وحقول إميلى ديكنسون وحدائقها وصورة تلك الحديقة التى كانت تطل عليها من نافذة حجرتها والتى كانت تفصل بينها وبين بيت أخيها وزوجته الصديقة سو. لقد كرست نفسى لها سنوات البحث الطويل. ثلاث سنوات قبل أن أسجل الرسالة وفى أيام عملى

بالمكتبة، وثلاثًا من العمل المتصل بعد التسجيل. ولم يكن يفصلني فيها عن إميلي إلا مصر ودانيال، لكنني كنت آخذهما معي دائمًا وأنا أبحث في أرضها وفي أوراقها وفي تاريخ عائلتها وفي خطاباتها، وأنا أصنف وأعد كلمات القصائد وأراجع قراءاتها، أحاول أن أستعيد ما كان في بيت أبيها من كتب، وأن أحدد ما قرأته منها. وقد علّمت دانيال أن يميز الكثير من زهور ونباتات نيو إنجلند.. وكنت أحس أنني أتحدى ـ بما أحمل في روحي من مصر ـ كل مَن درسوا الشاعرة الأمريكية قبلي، وكل من حاولوا تفسير أشعارها وأبياتها. لقد كانت هي بنت نيو إنجلند تمامًا وبنت نهاية القرن الماضي. وقد عاشت تجربة عميقة من أجل التغيير في الشعر وفي الدين لكنها ظلت في عزلة كاملة وغربة تامة عن ناسها وعن كل من حولها. وأنا بنت مصر وبنت الكنيسة، وبنت حضارة طويلة قادرة على الاستيعاب والتمثل، فلا يكاد يكون هناك في العالم كله من يماثلنا نحن المصريين في هذه القدرة على فهم الآخرين ووضع أنفسنا في مكانهم. إننا نمتلك بهذه القدرة تاريخنا ونجعله ملكًا خاصًا بنا.

هكذا.. في الزمن القديم كنت أتكلم. كنت جالسة أمامهم في تلك الغرفة أقول هذا الكلام وأعتذر به عن أنني وأنا الغريبة في أمريكا، أريد أن أضع تفسيرًا جديدًا لأشعار الشاعرة الأمريكية الخالصة، وأن أغير في كل التفسيرات التي قدمت لحياتها، بل وأن أقول إن هذه التفسيرات لا تمسك بشيء وأنها قد أساءت الفهم والتقدير وحورت، كما تريد، معاني الشاعرة لترضي أصحاب الرغبة في تتبع الشائعات والغراميات الخفية والأخطاء المستورة والعلاقات المحرمة. فما أكثر ما كتب عن الشاعرة وما أكثر النظريات التي قدمت عن عاشقها القسيس من فيلادلفيا وعن معاني الغرام المتضمنة في أبياتها ومدى ما فيها من إشارات للجسد وعلاقات البدن. لكنني وقفت أمام كل هذا وقلت في بحث مستقل عن الرسالة ـ تقدمت به أولاً ـ إننا إذا أردنا أن نفهم شعر إميلي فلنكتف بهذا الشعر فقط. وإن كل ما يمكن أن تضيفه كل هذه النظريات هو أسماء غير هامة وعناوين وأرقام لبيوت في

شوارع لاتضيف شيئًا لقيمة الشعر ومعانيه الباقية. كان من السهل عليّ أن أصنع الرسالة بنشر وتحقيق عدد من الخطابات أو ببحث تفصيلى فى حياة أصدقائها أو عائلتها لكنى فعلت ذلك كله واستبعدته. تخلصت منه كله كى أحتفظ بشاعرتى متكاملة بذاتها وأن أراها كما أرادت لنا أن نراها فى شعرها فقط.

كم ما زلت أنفعل وتمتلئ دمائى شبابًا يزيح المرض وأنا أتذكر هذا العناء القديم والإصرار المصرى على ما اعتبرته حقًا. كنت مستعدة أن أستشهد من أجل شعرها ومن أجل أن أثبت أن حياة شاعرتى «الملكة المنعزلة» كانت كلها فى الاستعارة والرمز الموجودة فى قصائدها القصيرة وكان ديوانها الكبير الممتلئ بالنسبة لى مثل تلك اللوحة الزجاجية الكبيرة التى تسجل دميانة وفى يدها سعف النخل وصاحباتها الأربعون من حولها، ومع ذلك فإنها تسجل تاريخ عصر الاستشهاد كله ويتحرك فيها صور الإمبراطور والأمير ومعانى العذاب والخلاص. وقلت هذا أيضًا. قلت لهم إننى أقدر بمعرفتى بالكتاب المقدس بالعربية على أن أفهم إميلى. كانت إميلى تحفظ الكتاب المقدس وتنساه وكنت أحفظ الكتاب بالعربية وأعرف لغة الملك چيمس. وقد أدركت أن إميلى تتحرك فى المعنى المستمد من الكتاب دون أن تشير إلى اللفظ فجمعت كل إشاراتها المقدسة وتتبعت أثر الأغانى الكنسية على شعرها وعلى وزنه ومقاطعه. لقد أقمت بناء كبيراً بمفردى وبروحى وبإحساسى بغربتى وقدرتى الموروثة على الفهم والتمثل والمحاكاة. أخذت دانيال فى يدى ورحت أرى وأجمع زهور نيو إنجلند التى تكلمت عنها إميلى، بل وبحثت عن أسمائها بالعربية، وعرفت أن «الهليتروب» هو رقيب الشمس وأن «الهونى سكل» هو صريمة الجدى وعلمت دانيال أن ينطق «الردوندورن» وأن يعرف السم الموجود فى الهملوك والأولياندر. وكم مرة صحبته ليرى شرائط الفاوانيا البيونى أو عود الصليب بزهراتها الحمراء والقرنفلية والبيضاء، أو أن يلمس بيده القطيفة فى الماريجولد.

إننى الآن أحلم وقد تملكتنى تلك اللحظات البعيدة التى كنت أجرى فيها مع دانيال، وقد كبر وطال وهو يبلغ الرابعة عشرة، وأنا وهو نخرج للحقول مع طعامنا أيام الأحد. إن الصور تتحرك أمامى الآن وكأننى أقلب فى صورنا الملونة فى أدراجى ـ لم أنفض عنها التراب من سنوات ـ أو كأننى أرى فيلمًا ملونًا لنفسى وله وقد جرينا حتى تقطعت أنفاسنا وجلسنا عند نهاية الحقل على صخرة كبيرة وإذا بى فجأة أسمع صوت صراصير الحقل وأتذكر أبيات إميلى.. «أبعد فى الصيف من الطيور» وعندما صرخت بالبيت لدانيال وقرأت له القصيدة كلها أحسست أننى قد ملكت شاعرتى كما ملكت هى دنياها وأننى حصلت على عنوان رسالتى.. «أبعد فى الصيف..» جلست إلى جانبه أشرح له معنى هذا الطقس الذى تتحدث عنه إميلى وهى تصف تلك «الأمة المستضعفة» من صراصير الحقل التى اجتمعت موغلة فى الصيف قرب الخريف وبعد أن أعلنته الطيور لتقيم قداسها وتعلن النعمة القادمة وهى تغيير الفصول.. قبل أن تتحقق.

هل كان ذلك عام ٥٨ أم عام ١٩٥٩ كانت أخبار مصر تتردد باستمرار فى العالم، وكنت قد جمعت عزمى على أن أعود بعد أن أحصل على الدكتوراه مباشرة وأن يكمل دانيال عام التوجيهية فى مصر ليدخل الطب. كنت لأول مرة أحس أن سنوات الغربة لابد أن تنتهى وأنى لابد أن أعود بدانيال لأرده إلى بلده وكنيسته وأننى لا أستطيع وحدى أن أحتفظ به فى أرض الغربة. وشجعنى وضوح مصر فى روحى وقرار العودة أن أقيم دفاعى الخاص فى رسالتى وأن أنفذ إلى شاعرتى بكل تراثى ومعرفتى بالكتاب المقدس وأن أفهمها كامرأة تستشهد فى الخفاء دون حتى أن تنتمى للكنيسة كما تمارس العشق فى الاحتمال وتسجل لحظات الطبيعة فى قصائد مفردة من الشعر كأوراق الشجر وقطرات الندى أو لمعان النجوم أو قطع الزمرد الأخضر الصلب. ماذا لو أننى بقيت هناك وعشت فى المعجزة التى تعلنها أمة إميلى المستضعفة القليلة الشأن. ماذا لو أننى بقيت فى هذا

الخريف الذهبى الأحمر فى نيو إنجلند وظللت هناك إلى أن أموت.. لماذا عدت إلى مصر ولم أظل بعيدة أستشعر قدرها وقيمتها دون أن يمسنى منها كل هذا المرض. لماذا عدت، ولماذا عدت فى هذا الوقت بالذات الذى عدت فيه لقد قص على فريدون فى تلك الأيام التى عرفته فيها عام ١٩٥٨ وبعد ثورة العراق كيف عاد الملك فيصل والأمير عبد الإله ونورى السعيد.. تواجدوا جميعًا فى بغداد فى ١٤ يوليو، وكان المفروض أن يكون كل واحد منهم فى مكان آخر، كان من المقرر أن يذهب الملك إلى خطيبته فى لندن وأن يلتقى بأعضاء حلف بغداد فى أنقرة.. وكان الأمير فى أستنبول وعاد بلا مبرر.. أما نورى السعيد فكان فى لندن وطلب من الملك أن يستدعيه بدون مبرر واضح أو معروف، كلهم عادوا.. عادوا للسحل.. كان فريدون يغرينى أن أبقى فى أمريكا وأن أقطع صلتى بكل المنطقة، وكنت أتحرك إلى غير ذلك. كنت أحس أننى أتحرك إلى تغيير كبير وحاسم وأخير فى حياتى.. كنت أحس أننى قد نضجت وقد اكتملت وأن ابنى قد أصبح رجلاً لا بد أن يعود إلى وطنه وإلى ناسه. فماذا حدث لى بعد أن عدت؟ لماذا انقلبت الدنيا هكذا فى داخلى وفى الخارج، ولماذا أصبحت امرأة أخرى.. ولماذا خسرت كل شىء؟.

كم كنت قوية وأنا فى هذه الغرفة الصغيرة فى أمهرست وأمامى أولئك الثلاثة. برتقالى كاثوليكى ما زال يحلم بالبرتقال ونبيذ البرتقالوبولندى أمريكى نسى كل شىء عن بولندا، وقسيس بروتستانتى صلب من أمريكا البروتستانتية. كان الثلاثة يحادثوننى ويناقشوننى برفق وفى نوع من الحرج. كنت أحس أن هناك فى نفوسهم نوعًا من الخيفة من مصر وكأنهم يحسون أننى أحمل ما لا يحملون وما لا يمتلكون من الحضارة. كانوا يخفون شعوراً لم يخف علىّ بأننى مخطئة. وكلهم أشار إلى ضرورة اهتمامى بالخطابات وبأخطائى فى الفهم لأنى لم أدرس حياة شاعرتى بما فيه الكفاية وأننى لم أتعرف بالتفصيل

على تاريخ أمهرست الاجتماعي والسياسي. ولا شك أنهم جميعًا قد أصابوا في تصحيحي وأن هناك خطأ كبيرًا لم أعرفه إلى الآن قد وقعت فيه، ولكنهم اشتركوا جميعًا في الإعجاب بجرأتي بل وحاولوا أن يصفوا وأن يمتدحوا هذا الهامش الذي عشت فيه غريبة في أرضهم وفي أدبهم.. وكأنما لم يكونوا هم أيضًا غرباء.

كانت مناقشاتهم لي كأنها غزل خفي وكنت أحس ذلك وأسعد به، وأزداد إحساسًا بتفردي وبقدرتي وبرغبتي أن أعود إلى بلدي. لماذا يتميز أولئك الأمريكيون بتلك القدرة على الإعجاب بالغرور والعماء واعتبارهما إنجازًا وتحقيقًا يستحق الاحترام والتوقف عنده؟ عندما خرجت من الغرفة وكان دانيال في انتظاري ليأخذني في أحضانه قائلاً بفرح حقيقي مبروك «ليتل مام». واقترب منا البرتغالي وأنا في أحضان ابني وقال: احرص عليها أيها الرجل الصغير.. فما أكثر من يحسدونك على هذه الجوهرة الثمينة. ودفعت نفسي أكثر في أحضان ابني وأنا أنظر إلى الأستاذ وأبتسم وأحس أنني أريد أن أعطي نفسي كلها وأن أستسلم للمستقبل ولهذه المعجزة الغامضة لتغيير الفصول في نفسي وفي نفس ابني.. وفي حياتنا معًا.. فهل كانت رسالتي تعني كل هذا.. وكيف كان لي أن أرى كل هذه السنوات التي تفصلني الآن عن تلك اللحظة البعيدة بعيدًا في الصيف على شفا تغيير الفصول؟

ما أخفى تسلل الفجر الآن إلى غرفتي وأنا في هذا الليل الطويل لا أرى إلا الماضي ولا أحقق إلا الموت الذي لايتحقق. يا رب امنحني القدرة مع الفجر على أن أذكر اسمك وأن تتصاعد آياتك على لساني في هذه اللحظات التي تفرق فيها بين الظلمة والنور والتي تغير فيها الأوقات والأزمنة.. «ليكن اسم الله مباركًا من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت. وهو يغير الأوقات والأزمنة، يعزل ملوكًا وينصب ملوكًا، ويعطي الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهمًا. هو يكشف العمائق والأسرار. يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور..» يا رب.. هل من حقي أن أسكن إليك لأنام.. فما أقربني من تغيير الفصول!

* * *

هذا هو نور الصباح يملأ الغرفة كلها ويفضح الخفاء كله. وحلمى ورؤى رأسى على فراشى تعاودنى من جديد.. هل صرخت، لا أدرى.. لكننى أقوم فازعة غارقة فى عرقى وكأن مياه البدن كلها قد سالت.. ويدى ما زلت أرفعها وأنا راقدة أريد أن أتحدث.. وهم الثلاثة أمامى فى الغرفة، أبى ودانيال وكريم. فى نفس وضعهم الذى رأيتهم فيه أول الليل وبنفس حركات أيديهم وتعبيرات وجوههم.. فقط كان أبى يتكلم وكأنه قسيس فى كنيسة يقدم العظة. كان على لسانه كلمات كثيرة لكنها كلمة واحدة تتكرر فى دمى وفى روحى، كلمة باترة، قصيرة، طويلة، جارحة لاتزول. كلمة دانيال وهو يغادرنى إلى الأبد.. كلمة لم يكن يعرفها أبى.. ولكنها تجمعهما الآن فى الموت والغربة وتفصلنى وحدى حتى عن كريم الذى جعلنى.. ز..ا..ن..ى..ة..

متى أستطيع أن أواجه الرؤيا لأستريح إلى الأبد.. متى أستطيع أن أرفع الخفاء عن حياتى لأرى الأفق بلا فصول.

* * *

الآنية المسروقة

ماذا بقى لى غير الكلمات. غير هذه الكلمات التى أصنعها على الورق كلما دخلت إلى هذا الهامش بين الصحة والمرض، أو كلما أحسست أننى قادرة على شيء، ولست قادرة إلا على التذكر. إننى أريد المعرفة وأريد الخلاص وفى كليهما طلب كثير، وكلاهما دليل على طمعى الزائد الذى لاينتهى. ومع ذلك أقول إننى لا أريد شيئًا ولا أملك شيئًا. إننى أقصد بالطبع أننى غير قادرة على متعة أخرى غير متعة الكتابة. ولكن هل هى متعة، وهل أنا أحاول فى مثل هذه اللحظات التى أجد نفسى فيها قادرة أن أتمتع؟

لقد كنت قادرة على المتعة، وما زلت رغم تهالك البدن أحس رغباتى عميقة غائرة تريد أن تصعد كأنها حيتان ضخمة من قاع المحيط، إننى أتبين فى نفسى رغبة بل رغبات كثيرة، وحرصًا على التشبث، ليس فقط بالحياة، بل بكل ما ملكت فى الحياة وبكل ما ضاع من سنوات خطيئتى. هل هذا طبيعى مع أولئك الذين يقفون على حدود الموت. هل أنا أعيش لحظة طويلة مستطيلة ممدودة من لحظات خروج الروح من البدن. وهل يعرف الناس جميعًا فى تلك اللحظة كل ما أحاول أن أعرفه الآن، وأن أسجله، هل يعرفون الرغبة المركزة الكثيفة والتشبث بالأظافر بكل ما يملك المرء؟ هل يعرفون هذا الشعور بالانتزاع، هل يحسون كما أحس الآن وكأننى ألد، كأن شيئًا يخرج من بدنى وأنه سيجعلنى أموت؟ إننى أذكر لحظات ولادتى لدانيال وأنا أصرخ أريد أن أموت لكننى أذكر أيضًا لحظات الحب العميق القاسى الذى عرفته والتى كانت تجعلنى أهمس أيضًا بين أسنانى إننى أريد أن أموت أو أننى أموت.. وتنتهى لحظة الولادة ولحظة الحب ويجوع البدن لكليهما مرة أخرى، ومرات. وكلما أُعطى له عرف دون أن يعرف، تلك اللحظة القادمة التى لن يعرفها إلا إذا مر فى لحظة الانتزاع الأخير.. لحظة النزع الصاحى اليقظ رغم كل ما يحيط من غياب وشيك.

هل لم تعد هناك فعلاً متعة أستطيع أن أمارسها؟ إننى لا أريد الطعام ولاتشتهى روحى أبدًا مائدة أو أطباقًا معينة، إننى أحيانًا أشتهى السمك المشوى، لكننى أضحك على نفسى وأحصل على قطعة صغيرة منه لا أكاد أستطيع أن أكررها.

وأحيانًا أتصور أننى أريد أن أشرب كما كنت أفعل مع كريم، فلا يذكرنى هذا إلا به. إننى أريد أن أطمس عقلى ووعيى وإننى أريد أن أحطم لحظة الوعى فى داخلى أو لحظة العذاب وإننى أريد فى الحقيقة أن أتعجل الموت وأن أستحضره. لقد بدأت أفقد القدرة على القراءة إلا فى الكتاب المقدس. وفى إميلى ديكنسون. وفى كليهما، أنا فعلاً لا أقرأ، لكنى أترك ما أعرف يصعد من جديد وكأنما أدير شريط تسجيل قديمًا أعرف كل جزء قادم منه. فإذا تبينت جديداً فلأننى تذكرت شيئًا لم أكن أذكره، أو عرفت عن الماضى ما لم أكن أعى به وعيًا كاملاً، أو لأننى وأنا أقرأ فى متى ومرقس أو أقرأ فى إميلى، وأحس فجأة أننى هى التى تنطق وهى التى تقول، وأن هذه الكلمات التى أقرؤها تحمل معانى قديمة عن حياتى القديمة مهما كان فيها من جديد علىّ الآن.

لا.. ليس هذا صحيحًا أنا أقرأ فى إميلى أو أقرأ فى الكتاب المقدس وأكتشف أننى لم أر كل شىء فى حياتى وأن معرفتى القديمة بهما كانت غروراً وعماء وأننى أعرف الآن ما لم أكن أعرفه من قبل.

لكنى مع ذلك أحس أننى ما زلت فى نفس البقعة التى كنت فيها، وأننى أقلب النظر فقط، فأرى ما كان يجب أن أرى من قبل، وأتبين تعجلى وتسرعى القديم وتصورى أننى قد عرفت كل جزء من هذه الأرض التى يمثلها كتاباى الكبيران.

لكن هل يصبح هذا جديداً. هل يكون هذا اكتشافًا أم حسرة على الجهل القديم. إننى أقرأ فيهما كثيراً فهما كل ما أستطيع أن أعتبرهما متعة أو أن أقول إننى أعود إليها لأتمتع.

نعم.. لم تعد هناك متعة لأن المتعة أمر يتعلق بالمستقبل وقلب المرأ لايتمتع إلا بما يعرف أنه قادر علـى أن يكرره وأن يصنعه من جديد مرة أخرى. ما أغرب هذا المعنى للمتعة التى كنت أظنها دائمًا حاضراً مكثفًا فإذا بها بعد من أبعاد المستقبل. عندما يموت المستقبل تموت أيضًا القدرة على المتعة.

ما هذا إذن الذى أريده وأتشبث به وأحس أنه رغبة عارمة قوية أحسها فى أسنانى وأظافرى، فى يدى وأقدامى وأطراف أكتافى وأعماق بطنى بل وجذور شعرى. إنها ليست تعبيراً عن المرض نفسه، فأنا أعرف آلامه وأتبينها وحدها، وأتوقف عن الكتابة عندما تتملكنى. إننى أعرف أننى أريد وأرغب بجسدى وبناموس أعضائى الذى تغير واضطرب منذ عدت إلى مصر وبدأ يفرض نفسه علىّ كأنه حيوان يتنفس فى داخلى بمفرده، أعرف أنفاسه وحركاته ولا أعرف وجهه ولا إرادته إلا أن تكون هى هذا التغيير الخطير فى حياتى وفى بدنى منذ أن عدت من أمريكا وتنفست من جديد هواء مصر وضوءها. لكننى لم أعد أملك الآن أن أترك هذا الحيوان الخفى يتنفس بمفرده، لم أعد أملك أن أتركه يوجهنى وحدي وأن يدفعنى إلى ما لا أعرف وما لا أستطيع احتماله. لقد انتهى هذا العهد، لقد مضت السنوات التى كنت أستطيع فيها أن أتحرك وأن أنتقل فى الشوارع وأن أواجه الناس وأن أتنافس وأحارب وأبتغى وأطمع.

لقد مضت هذه السنوات وأصبحت جميعها ورائى مجرد ذكريات وكأنها الأرض فى دميرة وبلقاس بعد أن ردتها الحراسة، أملكها ولا أملكها وهى على كل حال حِمل ثقيل على أنفاسى.

إننى فى وحدتى هذه مع الكلمات أريد أن أمسك بهذه الرغبة المتحركة فى أعماقى وكأنها جمجمة بركان يريد أن يتفجر، أو غليان مكبوت أو رغبة خفية لامرأة فى الخمسين

تحلم بأن تُغتَصَب. فهل هذا فعلاً هو ما أريد.. إننى بلا خوف، فقد تجاوزت الخوف وأنا أسير طريق الهاوية، لكن الرغبة الخفية المعماة أشد من الخوف وأقسى. إنى أحسها الآن فى البقعة السمراء المجعدة من أثدائى وفى النبضات المتوالية المضطربة فى فتحات البدن، وفى تلك الرعشة القديمة على طرف شفتى العليا. فماذا ظل فى هذا البدن حتى تظل فيه هذه الرغبة فى أن يُغتَصَب؟ لقد تقطعت دورتى الشهرية منذ سنوات أربع وبدأت أعرف كما قال لى الطبيب يعقوب هذا العرق الليلى الغزير. لكننى كنت دخلت حدود الوحدة والتخلى ولم أعد أعرف فى البدن إلا أنه كان يقتات وينتظر دانيال حتى جاءنى هذا العام، عام المرض والاستعداد الأخير. فهل تعود الرغبة بعد كل هذا، وفى هذا الضحى المكظوم من أغسطس وكأنه ظهيرة؟

هذه الكلمات التى أكتبها هى السبب فى عودة هذا الرعب الصاعد من الأعماق فهل أواجهه أم أترك الكلمات التى هى كل الحياة الآن؟

* * *

نعم.. كل شىء يطلب منى ويدفعنى إلى أن أترك هذه الكلمات. لن يرضى عنها أحد. لن يرضى عنها أبى ولا دانيال ولا كريم ولن يرضى عنها الرب. إن المرض يكلفنى الكثير وكان أفضل لى أن أصمت. والرب يقول ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم. وهذا كله يخرج من فمى الآن. كل هذه الشرور التى تمت فى الخفاء. كل هذه السنوات التى صنعت الخطيئة وأدت إلى المرض.

لقد ارتعبت من الرغبة ومن الحيتان السوداء الساكنة فى أعماقى عندما تتحرك. لكن الخطر والخفاء يعذباننى، وكأنهما أمير الظلام القاسى الذى عرفته دميانة. ولو أننى صَمتُّ لضاع عذابى كله فى هذا الخطر والخفاء الطويل الذى تمتلئ به الدنيا من حولى. وما يخرج من الفم قد يكون أيضًا شهادة وصمودًا. لن أكون أنا التى «تتنزل سراً وتهرب».

سأصمد لكل عذاب، سأواجه كل إهانة وإذلال، سأعرف التكبر والإنكار والامتهان لما أقول، لكننى سأحتمل ما أتوقع، فليس هذا كله إلا «التعب الأول» لقد جردوا لحمها بأمواس حادة وأمر الطاغى أن يدلكوا جلدها بخرق من شعر خنزير، بخل عتيق وجير من غير طفى. ومضت قديستى فى العذاب من غير تردد، فلماذا أتردد أنا فى مواجهة الشرور التى هى فى داخلى وفى تحمل ما أجريته بنفسى على نفسى.

لقد ارتعبت مما اعترانى هذا الصباح من رغبة قائمة باقية وطلبى الخفى الدفين أن أُغْتَصَب. كنت أحسب أننى قد تحصنت بالوحدة والمرض وأننى قد احتميت بالموت القادم. كنت قد ظننت أنى خلعت ثوب الجسد إلى الأبد. لكننى لم أستطع أن أنضو هذا الثوب الضيق حتى أمزقه قطعة قطعة وأهتك فى كل قطعة جزءاً من الماضى الذى أعرفه فى فمى كالعلقم أو الخل. فلا بد لى أن أواجه هذه الأشباح التى تعاودنى كلما هدأت آلام المرض، وأن أعريها هى الأخرى قبل أن أتعرى أنا فى تجرد السلام.

لكن من يكون هذا القادم علىَّ ليغتصبنى. إنه ليس الزوج الذى مات، ولم تعد ليده فى روحى وأحلامى أى ثقل، وهو ليس أيضًا الابن الذى قطعنى بالكلمة الباترة واختفى فى غضبته إلى الأبد. وهو كذلك ليس كريم الذى كان يمد يده ليقطفنى كلما أراد، وها أنا لم تعد لى رغبة فيه بعد أن شفانى منه. لقد اختفى رجالى جميعًا ولم يعد للمرأة فىّ وهى تتخطى الخمسين إلا أن تحلم بأن تشترى الاغتصاب وأن تدفع ثمنه احتقاراً وكراهية لمن تشتريه. ما هذا الذى أقول وأكتب، ولم تدعنى يا رب لتجربة الشرير. لماذا تدعنى لهذه الأفكار وتفرض علىّ أن أجتابها وحدى بلا معين ولا هداية. ليس لروحى شكل وأنا أريد أن أعطيها هذا الشكل ولو بالاغتصاب. لم أعد قادرة على أن أمضى وحدى هكذا دون أن أتجرد وأنا أضع حياتى فى كلمات.

أليس هذا اغتصابًا بغيضا للروح وللبدن. لقد مر حوالى شهر منذ أن أمضيت يوم دميانة كله فى الكتابة وها أنا عندما أعود من جديد لكراستى أجد أن كل ما كتبت، لم يخلصنى من اضطراب روحى، ولم يعطنى الأفق الذى أريد. لقد تركنى كل ما كتبت فى حمأة غريبة لم أعرفها فى نفسى من قبل، حمأة الاعتراف المغتصب الذى لم أقدمه لأحد، والذى ليس لأحد علىّ - حتى الكنيسة - حق فيه، إنها حياتى أنا وهى خطاياي وليس لأحد سلطان علىّ، لكن هذه الكلمات كأنما تعطى الجميع سلطانًا وحقًا.

لو أنى أستطيع مرة واحدة أن أطلق عصفوراً حيًا ليحمل ذنوبى أو أننى أستطيع أن أعترف سراً فى أذن ذبيحة وأطلقها.. لو أستطيع أن أقول سراً يارب، كما قبلت اعتراف اللص وأنت على الصليب اقبل اعترافى وخلصنى من خطاياى.. ولكننى لم أعد أملك شيئًا من هذا كله. لم أعد أملك إلا أن أظل هكذا فى هذه القدرة العاجزة على الكتابة بين الصحو والمرض، أتردد فى الحياة والموت بين لحظات الصمت ولحظات الاستسلام والارتماء فى أحضان الشرير.

لماذا تفقدنى يا رب القيمة لما أكتب؟ هل هذا جزء من عذابك؟ وهل هو جزء من الغثيان الذى يعاودنى الآن؟ قد تعبت روحى وامتلأت غيظًا من الظهيرة التى تحتدم وتشتد بلا فيضان فى أغسطس وهى تكاد تختفى بلا فيضان مثل هذا الغثيان الذى يشتد فى نفسى ويشتد ليتملكنى هذا الشرير الآخر، وحبوبه المنتظمة.

فى العصر وقد أنهكت الشمس وانكسرت دون أن ينحل التأزم الخانق فى جو الزيتون أستجمع أنفاسى من جديد وقد انقشعت غمة الصباح عن روحى وبدنى وبدأت أمسك بقلمى، قلم دانيال، من جديد وأنا هادئة إلى الحر وضوء العصر فى الفيراندا. حديقة البيت القديمة هادئة أيضًا لكن كلها كيانات تنظر إلىّ بعين نصف نائمة، وترقبنى وكأنما هى كل

العـالم، وكل الدنيـا من حولى، وكـأن مـا فى نفسى مـن أفكار أجزاء مما فـيـها من تهـدل وجفاف وعدم رغبة فى الحركة.

لقد أمـسكت القلم من جديد بعـد أن قرأت الجرائد كلهـا، تصفحـتها صفـحة صفـحة، وواحدة واحدة ولـم أستطع أن أقرأ فى اتصـال إلا خطاب رئيس الجمهورية الذى قرأته فى الأهرام والأخبـار وشغلنى فى المـرتين عن كل شىء آخر فليس هناك فى الحـقيـقة مـا يقرأ غيره. كان السادات يتحدث إلى مجموعة من الطلبة المبعوثين المصريين العائدين من أمريكا وكندا والاتحاد السـوفييـتى. وكان يحاول بكل مـا له من حق وقدرة أن يرفع المستـقبل إلى نفوسهم وعيونهم وكأنه يرفع مـاء عذبًا لأرواحهم ويطمئنهم على النيل وعلى مصر «رغم التحدى والمصاعب والمحن» كما تقول أغانينا هذه الأيام.

كم كنت أتمنى لو كنت معـهم شابة من جديد أسـمع هذا الحديث عن المستقـبل وأشارك فيـه. وكم كنت أتمنى لو أننى قـادرة على أن أرى أو حتـى أحلم بحمـاس بما يرون. لكننى أقف على شاطئ، وهم على شـاطئ آخر، وليس بيننا عبـور. لقد فصل بيننا الزمن وقـسوة تجارب الماضى، وسوف يعيشون فى عالـم غير الذى عشته تمامًا ويكتوون بنار أخرى جديدة تمتحنهم وتجربهم. حـقًا لقد تغيرت مصر. تغـيرت، فهل يستطيع أحد أن يفتح عـينيه كاملة فى هذا التغـييـر؟ أو هل يستطيع هذا المجمـوع الضـخم الذى علمـته مصـر أن يعكف على التغيير ليدرسه وليسجله؟ ليس من شك أن عددًا كبيرًا منهم سوف يفعل ذلك عندما يعود. سوف يرى ويجمع ويحـقق ليصنع تلك الصلة التى تربطنا بالسبـعة آلاف سنة التى يذكرها السادات دائمًا وهو يؤكد الصلابة والأصـالة فى مصر وينفى عنها المرض. فكيف يمكن أن تمرض مصر؟ إن الذى يمرض هو أنا وهم أولئك الأفراد الذين يتـهمونها أو يريدون لها أن تمرض. أما هى فإنهـا تصبر وتصمد على كل هذه البثـور التى تعلو جسدها وعلى كل هذه

المحاولات الصارخة للتألم والتوجع والاتهام والحيرة التى تسود ما يصدر الآن من كتابات وهى تحاول فهم التغيير وتحديده فهل أنا من هذه البثور؟ هل كل ما أكتب هو مجرد صوت آخر من أصوات المرض ومجرد قشرة هشة ضئيلة سوف تسقط مع الزمن عندما تؤكد مصر دون حاجة إلى تأكيد أنها قوية قادرة لا مرض فيها؟ لقد صبرت مصر طويلاً وانتظرت فى صمت.. ماذا..؟ هل عودة الروح من جديد؟ لا.. لقد مضى هذا العهد، ولم يعد مثل هذا الإيمان بالعودة يكفى. إنها تنتظر تلك اللحظة التى ستتحرك فيها لفرض هذه الروح وتأكيدها. إننى أرتعش من هذه اللحظة القادمة وأحس أننى عندها سأشفى أنا أيضًا وستتحقق تلك المعجزة التى تقهر كريات الدم المتفتتة وتقيمها من جديد. فى هذه اللحظة سيكون كل الحظر قد رفع وكل الصمت قد انتهى وأصبحنا جميعًا قادرين على رؤية الجسد والروح فى وضوح وبسالة.

إننى أتحدث عن مصر وكأننى أتحدث عن نفسى فهل يمسك هذا بشىء، أم أننى فقط أنتظر لها كما أنتظر لنفسى يوم الدينونة وملكوت السموات؟ هل يستطيع أحد أن ينظر إلى العالم إلا بعينه أو أن يتلقى الدنيا إلا بقلبه وعقله هو، هل يمكن أن نجد نظرية تحقق الخلاص وكأنه تخطيط أو هندسة إنسانية كما يقولون؟ إن الألم حق، والخطيئة حق، لكن الخلاص أيضًا والقدرة عليه حق. ولايستطيع هذا إلا الفرد. لايستطيعه إلا القلب الواحد المتوحد إذا واجه مجرد إقرار بالذنب أو الخطأ، إنه التجربة الإنسانية الوحيدة التى تستحيل فيها المعرفة إلى وجود، ويصطرع فيها الفرد مع الزمن ليعلو عليه، لو أننا نتقدم جميعًا إلى هذا الاعتراف السرى. لو أننا ندرك جميعًا كم نحن خطاة. إننى أرتجف من هذا الكم الضخم من الخفاء الذى عاشت فيه مصر وعشنا فيه جميعًا وتمت فيه الأخطاء والخطايا. إننى واحدة ضئيلة الشأن قليلة الأهمية من كل الذى حدث، لكننى أعرف فى دمى ماذا يفعل الخفاء وحياة الظلمة وأرتعد وأنا أقترب من الغضب الآتى.

أمسكت بالجرائد مرة أخرى وأعدت قراءة الحديث من جديد. وليغفر لى الرب أننى لم أستطع أن أفكر فى المستقبل وهو ممتلئ به، لكننى غرقت مرة أخرى فى الماضى وفى خلاصى الشخصى. لقد دارت رأسى من قمة الصدق التى بلغها الحديث ورئيس الجمهورية يقول لأبناء المستقبل:

«كل ده تحمله اقتصاد مصر بالقروض قصيرة الأجل التى هدت اقتصادنا تمامًا. الحقيقة وهو كان تعبان من الأول من الستينات، من التطبيق الاشتراكى الخطأ اللى كان يعتمد على أنه ورق وأرقام ولكن واقع وحقيقة ما كانشى فيه إطلاقًا..».

يا إلهى. كيف استطاع هذا المرقى الصعب من الصدق! هل هى تكاليف المسئولية التى جعلته قادراً على هذه المواجهة للواقع والحقيقة؟ وهل يستطيع كل منا أن يجد فى نفسه الجرأة على أن ينظر على هذا النحو إلى الواقع والحقيقة؟ وإذا كان الذى ينفيه هو الواقع والحقيقة فهل هذا اقتصاد فقط؟ هل كان هذا أمر خطأ فى التطبيق أم خطيئة من نوع أضخم فى حق الواقع والحقيقة؟ إننى لا أحس بالغضب بقدر ما أحس بدوار تغير الرؤية وكأنما أنا طفلة صغيرة قد وضعوا عصابة على عينيها منذ رأت الدنيا ولم يرفعوها إلا وهى فى الخمسين.

لقد استوقفتنى وهزتنى تلك الإشارة إلى التطبيق الاشتراكى لأنى عدت إلى مصر مع بدايته، وبدأت أصطدم بالواقع الجديد وأتشكل بمصر الجديدة التى عدت إليها بعد غيبة كل هذه السنوات الطويلة فى أمريكا. عدت وقد تجاوزت الثلاثين ودانيال إلى جانبى شاب جميل قد اتفقت معه على أن يحصل على التوجيهية خلال عام فى مصر ليدخل كلية الطب. وكنت معه قد وضعنا هذا الخط لحياته، واتفقنا معًا على أن نستأجر شقة جديدة فى وسط البلد بدلاً من بيت الزيتون كى نكون قريبين من الجامعة التى نويت أن أطلب التدريس فيها، ومن كلية الطب إذا بدأت دراسته فيها. كنا قد فكرنا معًا فى هذا وقبلناه معًا

على الرغم من كل الخطابات التى وصلتنى من مصر ومن أهل حكيم ومن الكنيسة تنصحنى بالبقاء فى أمريكا والاستمرار فى تعليم دانيال هناك.

وكانت تتردد حوالينا، ونحن ما زلنا فى أمريكا، أخبار محاولات الهجرة من أعضاء الكنيسة ووصول بعضهم إلى كندا أو إلى نيويورك وكاليفورنيا، بل لقد وصلتنا خطابات منهم، ومر واحد من آباء الكنيسة علينا فى أمهرست ليحمل لنا رأى كل أقربائنا ومعارفنا والكبار الذين دبروا الأرض وأموال حكيم لنا ونحن فى غربتنا. كانوا جميعًا يطلبون منا ألا نعود.

لكنى كنت أحس أننى قد بلغت مرحلة من العمر لاتتحمل الغربة أكثر من ذلك وأن هناك صوتًا من مصر يدعونى لأن أعود بابنى إلى أرضه، قبل أن تفقده تمامًا ويتشكل نهائيًا بأمريكا وأرض الغربة. كنت أخشى من قراره ومن اتجاهاته ومن أفكاره التى يخرج بها أحيانًا علىّ، فهو مرة يعلن عن رغبته فى تعلم الموسيقى فى جوليارد، ومرة يريد أن نترك أمهرست لنذهب إلى يال ليكمل دراسته هناك. كانت أفكاره كثيرة ورغباته كثيرة وكنت أحس أننى حائرة وأنا أختار معه أو له، إلا أن أرده إلى مصر لكى يبدأ من هناك من جديد ولكى يخرج بعد ذلك إذا أراد.

وما أكثر الليالى التى حضرها معى يسمع النصائح ألا نعود، وتتردد أمامه القصص والشائعات والأحكام التى تروى عن الحكم فى مصر، وعن أحوال الناس وأعضاء الكنيسة. وكان دانيال خلال هذه الزيارات يسمع ويفهم دون أن يشارك فى الحديث، فإذا تحدث تحدث بالإنجليزية ليبدى تعجبه واستغرابه وكأنه يسمع حكاية أو يشهد فيلمًا طريفًا. كان بعيدًا عن مصر تمامًا وكانت القصص التى يسمعها لاتوجعه كما توجعنى، وكنت أتألم لذلك وأحس بمسئوليتى عن أن أرده إلى هذا الواقع الذى لابد أن يعرفه وأن يعيشه.. كنت

أخشى عليه أن يتسرب من يدى أو من مصر.. فإذا ما تركنا الزوار قال لى وهو يضحك وكأنما يزيح بيده أمراً غير هام أو عابراً.. «ليتل موم».. ما لنا وكل هذا؟

فأحس فجأة أنى بلا رجل، وأننى مجروحة متروكة وأمتلئ حبًا غامضًا للأرض والتراب والضوء فى مصر، وأجد نفسى على الرغم منى أتحرك بجسدى لأقنعه فأقبله وأضمه إلىّ فى الفراش وألعب فى شعره وفى أزرار بيجامته وأنا أحكى له عن مصر. إننى لا أدرى ماذا كنت أقول له حينذاك، لكنى أذكر انكماشى فى حضنه، وأنا أشعره بأنه الرجل الوحيد لى الذى سيحمينى هناك والذى سيردّ عنى كل المتاعب وسيعطينى الحياة التى انتظرتها منذ كنت صغيرة. لم أكن أتحدث بوطنية عن مصر، ولم أكن أكلمه فى السياسة فلم يكن هناك موضع لذلك كله. كان حديثى حديث أم وامرأة تحس أن شيئًا سيأخذ منها ابنها لو بقينا فى أمريكا، وأنه على نحو ما لن يصبح رجلاً أو رجلها إذا ظللنا هناك.. كنت أتهم له زوارنا ومعارفنا وأقرباءنا بأنهم جبناء، بل وأنهم يحاولون إبعادنا عن مصر ليتصرفوا هم فى أرضه الواسعة التى تركها له أبوه، وأن عليه أن يقيم العائلة هناك وأن يحفظ اسم والده.. وما أكثر ما قلت وقتها مما كنت أحس أنه لا قيمة حقيقية له ولم أكن أنا نفسى مقتنعة به. لكننى كنت لا أتحمس ولايرتفع صوتى حتى أجلس على الفراش إلى جانبه لأحاول أن أصف له دميرة أو بلقاس أو بيت الزيتون ولأحدثه عن النيل وعن الفيضان دون أن أعى ماذا سيفعل فيه السد.

وعلى قدر ما كنت أحس أن تحمسى ليس له موضوع حقيقى، كان هو الآخر لا يجد فى كلامى ما يقنعه بشىء لأنه لم يكن مصممًا على شىء أو واضحًا بالنسبة للرغبة فى طريق محدد.

وكان يحس، كما أحس، أن وجودنا معًا كما نحن الآن على الفراش هو كل ما يريد أو يطلب.. وأسكت، وينام، وأنا أزداد تصميمًا على العودة وانشغالا فى الصباح بمسائلها

وترتيبـاتها الصغـيرة.. كان تصـميمى على العـودة بلا موضوع فعـلاً، وكأنه مجـرد اندفاع طبيعـى لتغير الفـصول. وكانت معارضـته مجرد شـقاوة من رجل صغيـر يطلب مزيداً من قربى ومن تركيز اهتـمامى به، وكنت أحب ذلك وأسعد به. واندفعنا مـعًا لنعود.. وعدنا.. عدنا إلى حقيقـة وإلى واقع كم أريد الآن أن أستعيد مذاقهمـا! وأن أعرف على وجه الدقة طبيعتـهما! فما عادت هناك دعـوة ولانصيحة، وما عاد هنـاك قرب بيننا، ولم يعد فى قلبى ولا فى روحى إلا تلك الرغبـة أن أعتـرف وأن أصـعد إلى مـعـرفـة الوجـود التى تحـمل الخلاص.

يا ربى.. لم لايتركونى وحدى، كل أولئك الزوار الـذين تعلنهم تفيدة الآن.. ماذا يريدون منى..؟ أن أموت لـيستـريحوا من المجىء.. ومن العـزاء والمشاركـة.. ومتى تنتـهى الدعوة والنصيحة والتعزيـة من حياتى؟ قد سمعت كثيراً مثل هذا «معـزون متعبون كلكم. هل من نهاية لكلام فارغ..».

* * *

عجيب أمر هذا الإيمان. كل واحد يحاول أن يركـبه وأن يلبسه ولايستطيع أحد أن يكون عليه فارسًا حقًا أو أن يكون له سلطان. إنه رداء ومطية لكن أغلب الناس عليه أو فيه أبطال متـوهمون لايرون أنفسـهم، ويتصورون أن النـاس لايرونهم. اجتمـعوا حولى وانصـرفوا. وحدثونى وأنا صـامتة، أحس أن علىّ أن أبدو متـوجعة أو أن أموت وأنصـرف أنا ما داموا لايريدون أن ينصرفوا.

حـدثونى ـ المحامى والكنيسـة ـ عن عقـود الإيجار الخـاصة بـالأرض وعن متـابعتـهمـا لمحاولات استخلاصها من جديد وتأرجحت فى الحديث إشارات خفية إلى ميراث الأرض وماذا سيحـدث لها، وللأموال التى فى البنك، بل وأشاروا إلى ما تبـقى من مجوهرات من

تركة زوجى حكيم، كانت الإشارات رقيقة خفية لكنهم كانوا يعرفون أننى أفهم وأننى لا أريد أن أجيب، وكانوا يتلمسون الاهتمام بى ويترفقون - دون ترفق - فى الإشارة إلى غيبة دانيال وفى التلميح لى أن موضوع حيانى وموتى قد أثير فى اجتماعات المجلس أن أولاد إخوة وأخوات حكيم أحياء وكأنهم أبنائى. وقعت لهم على أوراق وعقود وحسابات الطبيبة والمستشفى، فما زلت حية، وما زالوا لايستطيعون أن يتصرفوا كما يريدون فى الثروة أو الأموال التى تتراكم فى البنك.

وتشجع خالى الذى يعمل فى السكة الحديد قال إن معجزات الرب كثيرة وغامرة وجسده ووجهه يتلويان ويخفيان الإيمان الهزيل فأشار إلى حماة سمعان وإلى أننى قد أكون مثلها يمسك الرب بيدى فأقوم لأخدمهم وامتلأت روحى غضبًا عليه وعليهم جميعًا، ولم أعرف ماذا أقول على الرغم من أن الكلمات كانت تزدحم فى صدرى وكانت كلمات قاسية مريرة.

وعندما رأيت دموعًا فى عيون زوجته استدرت فى الفراش أريد أن أشعرهم بأنى قد أجهدت وأننى أريدهم أن ينصرفوا. وعندما اتجهت إلى الحائط أحسست وكأن يدى تريد أن تكتب على الحائط بأظافرى وبخط واضح كبير «لأنه ليس شيئًا خفيًا لايظهر ولا صار مكتوما إلا ليعلن» لكن أحدًا لايرى ما كتبت ولايسمع ما أجرش تحت أسنانى من كلمات، وانصرفوا هم يقبلوننى فى جبهتى أو يباركوننى، خرجوا معًا دفعة واحدة وكأن كل واحد منهم يخشى أن يبقى بمفرده معى.

وعندما دخلت تفيدة لترفع الكراسى وصوانى الشاى والكيك والبسكويت اعتدلت فى الفراش وأنا أحس قوة جديدة فى جسمى وكأنما مسنى شىء وتجمع فى روحى عزم فريد على أن أقوم «لأخدم» نفسى، وأن أواصل الكتابة.. ونظرت لتفيدة وهى تتحرك، ولست

أدرى كيف استطاعت تفيدة أن تصبح هكذا، الشخص الوحيد فى العالم الذى أطمئن له تمامًا والذى أعتقد أنه يعرفنى ويعرف داخلى دون أن يتكلم أو أن يحكم ودون أن أحتاج أمامه إلى أن أبرر نفسى. إننى أؤمن أن تفيدة لها قدرة خاصة ونادرة على فهم الألم ومعرفته والصمت أمامه. لقد ورثتها فيما ورثت عن أمى من خبرة بالبيت والتفصيل وإعداد الطعام فى أيام الصوم. وعلى الرغم من أنها مسلمة وأنها تصلى بانتظام وتصوم فى رمضان كما تفعل الآن، فقد استطاعت أن تحب وأن تعرف عادات أمى وتقاليدها وأن ترتبط بهذا الشعور الدينى فى البيت منذ كانت طفلة صغيرة دون أن ترى فى البيت وأهله إلا أنهم أتقياء مؤمنون.

ولقد انقطعت عنها مع سفرى، وعلمت أنها تزوجت وأنها فقدت الزوج والابن وبقيت لها ابنة تزوجت مرتين بعد وفاة الأول وولدت عددًا من الأولاد والبنات فى سنوات غربتى. ولم أتردد لحظة فى أن أفرح بها وهى تعود إلىّ عندما عدت أنا ودانيال، وهى تطلب أن تبقى معى فى البيت تخدمنى حتى تموت كما قالت لى يوم أن عدت، وتقبلنى وتقبل دانيال وتذكر على رأسه اسم النبى وتدعو أن يحرسه الله. ومضت السنوات وتفيدة لاتسأل ولاتتدخل، لكنى أحس أنها تعرف كل شىء وترى كل شىء وتملك وحدها تلك القدرة الفريدة على أن تظل صامتة تخدمنى وتخدم دانيال، وتطبخ لنا وتغسل ملابسنا، بل وتساعدنى فى الحمام أيضًا، وفى اللحظات التى أختفى فيها فى غرفتى فى الصيف أو الشتاء أستخدم «الحلاوة» التى تصنعها لأنزع الشعر، وأحس بتجدد الدم وسريانه فى جسدى. وحتى فى أيام الحب، كانت تفيدة تعرف كل شىء بمجرد أن أشكو أو أن أعبر عن فرحى أو ضعفى. هذا النوع النادر من البشر، هل يتحرك بإيمان أم بصبر وتحل، أم أنها فقط قادرة على نوع خاص من المعرفة لايتعارض مع الوجود ولايزعجه.

إن ابنتها وأولادها كأنهم يمـارسون الحياة لها وهى مكتفيـة بذلك. فهى لا تأكل إلا قليلاً وبتأنـق شديد ولاتتناول الطعـام إلا إذا طلبت منها ذلك، وكم من المرات نـهرتها علـى أنها لاتفعل حتى وهى صائمـة إلا عندما أقول أو عندما أكون موجودة وما أكـثر ما نسيت ذلك تمـامًا أو انـشـغلت عنها فى خـارج البيت أو امتـلأت بمشاكلى ووحدتى حـتى لا أذكرها. وكم أتمنى الآن لو أننى أجلستـها أمامى وفتحت قلبـها وفكرها لأعرف ماذا فيـه عن حياتى وماذا فـيه من كل السنوات التى مرت. أصابعـها وأقدامهـا وشعرها وجسـمها قد شـهدت جمـيع أيامى منذ عدت، ورأتنى فى كل حـال من أحوالى، لكنها كـانت دائمًا مرآة تخـتزن الصور ولاتعكسها، وأصبحت لى الآن وكأن الأيام والسنوات تتـراكم فيها كما تتراكم فى نتيجة لاتنفد أوراقها ولايجرؤ أحد علـى أن ينزعها أو يتخلص منها. تفيدة.. هل تتكلمين هل تعـفـينى من أن أتحـدث أو أن أكـتب. ولكن مـاذا تعـرفـين، مـاذا يدور بذهنك وأنت تكررين فقط كلماتك المحـفوظة. ربنا يقدم ما فيه الخيـر.. أو الصبر طيب.. وربنا يولى من يصلح.. هل هذه كل أحكامك على الحـياة وعلى الدنيـا. إننى أؤمن مع هذا أنك تعرفـيننى وتفهمـيننى وأنك قادرة على أن تتمثلى كل شىء بل وعلى أن تفهـمى حتى هذه الكلمات التى أكتبـها لو قرأتها عليك، لكنك تخـفين هذه القدرة ولاتعرضينهـا للناس ولايظهر لك مكتوم. كلك خفاء موجود، وليس كخفائى الذى يأكلنى ويتآكل.

هل لو أننا تبـادلنا الحيـاة لتغيـر الأمر، أم أنك مـوجودة لأعـرف ولأفهم أن الخـفاء الذى أعيشه لم يكن واقـعًا ولا حقيقة، ولم يكن حيـاة وإنى لذلك لا أعرف كيف أموت دون أن أتحدث وأن أواصل الكتابة.

إنهـا تقف الآن إلى جـانبى وأنا أكـتب هذه الكـلمات وتـضع الدواء والماء على المنضـدة الصغيرة قرب السرير فى إيمان وصبر وتتحرك لتعدل الفراش ثم تقول لى وكأن الدنيا ليس

فيها إلا هذه الكلمات أو كأن كل مـا يمكن أن نفعله أنا وهى الآن، أن تغير ملاءات السرير وأن أقوم لأستحم قبل أن يجىء المغرب حتى لا أبرد كما تقول.

* * *

لم أتوقف عن التفكير فى تفيدة وأنا فى الحمام. لا لأنها كانت معى تساعدنى، وتحمل عنى منذ أن مرضت، هذه المشاق التى تتطلب حركة «ودعك». لقد صبغت لى شعرى، وهى تفعل ذلك منذ أن توقفت عن الذهاب إلى الكوافير، وساعدتنى على الرقاد فى البانيو والماء الساخن ودلكت لى ظهرى برفق بالإسفنجة، ورفعت ساقى وهى تسندنى بذراعيها، ووضعت أصابعها فى رفق وكأنها تتجنب مواضع الحروق القديمة فى أعلى فخذى التى أحدثها كريم فى ليالى الحب والبكاء القديمة. لم يكن وجودها فى الحمام معى أول مرة، لكننى فى هذه المرة كنت أحس أننى على وشك أن أتحدث إليها وأن أرفع الخفاء بيننا وأننى أقاوم رغبة قوية فى أن أرغمها على أن تتكلم هى، وكأننى أتوقع أن لها أيضًا خفاء.

ولم يحدث شىء من هذا الطبع. كانت تتحرك بحنان وصمت، لكنها تتحرك بسرعة وبإجهاد ولما سمعت أذان المغرب صرفتها بحزم وقلت إننى سأرتدى ملابسى وحدى وأجلس فى الفراش مرة أخرى أنتظرها لتسريح شعرى بعد الإفطار. ولست أدرى هل صيامها المنتظم هو الذى جعلنى أحجم عن أن أخترق صمتها اليوم وفى هذه المرة فى الحمام أم أننى عاجزة فعلاً أن أصنع هذا وأن رغبتى هذه هى مجرد محاولة أخرى من محاولات الحياة فى داخلى للفهم، أو رغبة فى تجنب الجلسة المنتظمة التى أعود إليها الآن للكتابة فى كراستى؟ لقد خرجت من الحمام أكثر حرصًا على الكتابة مما كنت وأشد رغبة فى التوصل إلى ما أريده منها وكأننى أعرف ما هو.

سقط قلبى عندما خرجت من الحمام وأحسست وكأنها سبقت ودهنت جسدى للتكفين. ولم أستطع أن أبقى فى الحمام لحظة واحدة، واندفعت دمائى فى عروقى وأصابنى نشاط

مفـاجئ وأنا أكتفى بأن أربط شعـرى بفوطة صغـيرة، وأن أضع على جسدى روب حـمام ثقيلاً وخرجت عارية إلى الفراش لأمسك القلم وكأننى أتشبث بالحياة. إننى لا أحتمل هذا الخوف من الموت وقـد تعودت على انتظاره كل هذه الأيام الماضيـة، لكنى أحس أن خوفى الآن هو من فقدان مـا أريد أن أحصل عليه قبل أن أغيب وينتـهى كل شيء، فما هذا الذى أريـد؟ هل هو مـرة أخـرى الحـب؟! نـوعًـا آخـر من الحب كامـلاً لا تقطُّع فيه ولا خـفاء ولا نقص أو زيادة، هل أريد أن أصل إلى حب يتنفـسه البدن وتسـبح فيه الروح فى كـمال وهدوء مطلقين؟

هل كنت أنشـد هذا الحب الآن عند تفيـدة! ما أسذج هذه الرغـبة الخـافقة الضـعيـفة فى صدرى لأهبط عليها وأستريح. إن فى صدرى عصفوراً أحمق يريد أن يهبط دون أن يدرى أنه قد يهبط على سلك عار كله كهرباء تصعقه. لا، إنها أنانية قاسية فى صدرى تريدنى أن أغرس فى صدرها مرساتى فـيهدأ هذا الزورق المتأرجح المضطرب الذى يحمل أيامى دون أن أعبأ أو أفكر فى أن الدم قد يسيل من قلبها. ما أغرب هذا الطريق الذى أسلكه وأنا أفكر فى تفيدة. لكنها السبـب فى كل ذلك. فهى صامتة صائمة تختم صيـامها الآن فى نعمة وأنا وحـدى أبحث عن خـلاص لا أجـده ولا أعـرف الطريق إليـه. ودخلت الآن على تفـيـدة وضـربت على صـدرها وهى تـقـول: «يقـطعنى.. أنت عـريـانة. الـدكتـورة تعمل فىّ إيه لو أخدتى برد..» وقـبل أن تقتـرب منى لتنتزع القلم والكراسـة أضعهـما جـانبًا وأنا أحس كأننى أريد أن أحتضنها.

* * *

ما أطول هذا الطريق الذى سلكته لأكتب حكاية حـياتى. أليس هذا ما أريد! لقد عطرتنى تفـيدة وملأت جـسدى بالبـودرة وأحس براحة وهـدوء وتبصر. كـنت أريد أن أحبـها وأن

أصل إليها لأعفى نفسى من كل هذه الكتابة. كنت أريد. وما زلت، أن أكلمها وأن أحدثها هى لأنتزع منها هذا الخلاص الذى أريد. كم اختلط علىّ الأمر ولا بد أن يختلط والروح تشارف هذه الهوة التى وعدونى بها والتى لا مفرّ من اندفاعى نحوها. إننى أعذب نفسى بكل هذا الحديث لأننى لا أسلك مباشرة إلى ما أريد. وها أنا أخدع نفسى تارة بأننى قد سجلت كل شىء واعترفت بكل شىء وتارة بأن ألتفت بمحبة إلى تفيدة لتعطينى التبرير. غير أننى فى الحالين أخدع نفسى فعلاً. فأنا ما زلت لم أسلك مرة أخرى طريق الخطية حتى تعلن لى «خفيات الحكمة» ولم يتضاعف فهمى حتى أعلم أن الله يغرمنى بأقل من إثمى. ألم يقولوا هذا لأيوب، لكن أيوب كان إنسانًا أصابه الفقد من عند الرب وظل يصيبه متكرراً متصاعداً حتى مس جسده وأصبح من حقه أن يخاطبه وجهًا لوجه وأن يصرخ من أعماقه «كف عنى فأتبلج قليلاً». أما أنا فقد صنعت الفقد بيدى وسعيت بنفسى لأن أفقد ما أمتلك وامتلأت غروراً بنفسى وقدرتى على أن أمتلك ما لا أملك.

أليس هذا ما حدث؟ ولكن لحظات الحياة وخطواتها هى المعرفة، وليست الحكم أو النتيجة. ليس العذاب فيما يستقر فى الروح من ندم، لكنه فى تفاصيل الماضى الذى لن أستطيع أن أتغلب عليه حتى أسلكه مرة أخرى خطوة خطوة.

أليس هذا معنى أن أحمل صليبى! طوبى لمن يحملون صليبهم طوال حياتهم ولاينتظرون لحظات النهاية ليعرفوا كيف يحملونه. وطوبى لأولئك الذين تكون «خطاياهم واضحة» تتقدم القضاء. أما أنا فمن أولئك البعض الذى تتبعهم خطاياهم. لقد جبنت أمام التفاصيل مع أنها هى الشفاء للعذاب وهى الخلاص الذى أريد. وما أشد غرورى الذى أنسانى ما فعلت بإميلى وما فعلت إميلى بى.

عندما عدت إلى مصر كنت أتصور أننى أعود لأسبح أنا ودانيال فى دنيا خاصة بنا أعرفها وأحبها وأننى سأصنع له كل ما يحقق له السعادة والامتلاء فى حياته. كنت أتصور أننى

أدخـل إلى أرضي وبيـتي بعد طـول غـيـاب وأنه لن يكـون عليّ إلا أن أعـيش وأن أطلب ما أريده لأجده. لم أكن أعرف ما أريده، لكنى كنت مطمئنة واثقة لما اتفقت عليه مع دانيال رغم كل الحكايات والقصص التى سمعتها فى أمريكا عن مصر. كان الإصلاح الزراعى قد سقط على أرض حكيم ومـا ورثه دانيال وما كتبه باسمى قبل أن يمـوت، وقد وقعت وأنا فى أمريكا أوراقًا كثيرة وعقودًا للإيجار وللبيع فى أول أيام الثورة.

وكانت خطابات الأقربـاء والكنيسة على طولها غيـر مفهومة لـى إلا فى حدود ما تطلب منى فعله والتـوقيع وإعادته إليهم مع بعض الأمـريكيين المسافرين من أمـريكا إلى القاهرة. كنت أحس أن هناك تحركًا واسعًا من أجلى ومن أجل دانيال. لكنه كان يذكرنى بقضية أبى والرهبان الذين أخذوا الأرض، وبخروجه من أرض عمر طوسون.

وكنت أتصور دائمًا أن ملكيـتنا لهذه الأرض أمر غير شرعى مـشكوك فيه. أو على الأقل كان يداخلنى نفور منها وإحساس أن أبى قـد باعنى من أجلها للزوج. وأن ما يجرى عليها حق على نحو ما، لكننى اعتبرت أن الأمر قد انتهى وتوقفت الخطابات المحمومة بشأنها بعد الإصـلاح الزراعى إلا من بعض أخبـار مـتناثرة كانت تصلـنى عن الدخل وعن حسـابات السنة يرسلها إلىّ المحامى الذى وكلته عنى وعن دانيـال القاصر، ولم أكن أجد نفسى على أية حال بحاجة إلى مال أو بحاجة إلى تدبيره.

وعندما عدت إلى القاهرة ذهبت فى ثانى يوم، أنا ودانيـال وكل مَن كانوا هنا اليوم معى، إلى البطريرك لأخذ بـركته. وها أنا أذكـر كل التفاصـيل. فقد تحدث عـن أبى حتى أبكانى وقال لدانيال كن دائمًا مثل عبد الله الحى دانيال وتذكره وتخللت كلماته إشارات خفية إلى توقع الشدائد. فذكر جب الأسود لدانيال، لكنه رفض أن يسـتمع إلى أحاديث الجماعة عن السياسة واتجاهات الحكم وتكررت فى حديثه آيات «لاتقاوموا الشر»، «وأحبوا أعداءكم».

«وباركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم». ولم أفهم بوضوح الشر الذى يشير إليه فلم يكن حولى إلا محبة وفرح أو لم يكن فى داخلى إلا ذلك.

لقد رفضت أن أفتح بيت الزيتون أول ما وصلت لأنى كنت أريد أن أصحب دانيال مباشرة إلى دميرة وإلى بيته هناك وإلى أرضه. وكنت أريد أن أذهب لزيارة قديستى. وقبلت أن أنزل معه فى بيت خالى الذى شبهنى اليوم بحماة سمعان. وما زلت أذكر ضيقى بتلك الجلسات الليلية الموسعة التى كانوا يجتمعون فيها حولى وحول دانيال فى بيت خالى الضيق بشبرا يخططون حياتى وحياة ابنى وينصحوننى بأن أبقى فى البيت دون عمل أو أدرس الإنجليزية فى مدارس الكنيسة وألا أفكر فى الجامعة. وراحوا يعرضون بشكل خفى علىّ أن أتزوج ويمتدحون قضاة ومستشارين أمامى. وتضيق روحى بكلماتهم وأقوالهم فأقول لهم إننى سأظل فى دميرة سنة على الأقل أستريح وأطمئن على انتهاء دانيال من دراسته وحصوله على التوجيهية، ولنترك الأمر بعد ذلك لما يختار الرب. نعم، كنت أستخدم نفس معانى الكلمات التى تستخدمها تفيدة، لكنى لم أعرف هذا الاستسلام الذى تحياه وتستطيعه.

كنت مصممة على خطواتى وعلى مشروعى كما وضعته مع دانيال فى أمهرست، وكنت أحلم بأنى سأدرس فى الجامعة عن قريب، وأننا سنستقر معًا فى شقة صغيرة فى القاهرة. وأنه سيدخل الطب وأننا سنجعل بيت دميرة بيتًا للراحة الأسبوعية والفسحة، بل كنت أريد أنا نفسى أن أبيع بيت الزيتون وأن أتخلص منه، فقد كنت أخشاه وأريد أن أتحاشى دخوله بعد موت أمى وأبى فيه، وكيف كان لى أن أعرف حينئذ أننى أيضًا سأموت فيه.

يا رب، كل هذه التفاصيل. وأنا أحيا هذه اللحظات الفارغة من كل شىء إلا هذا الامتلاء بالعذاب والرغبة المحمومة فى الخلاص. وهل يملأ هذا لحظات.. إنه يستهلكها ويستوعبها وتتلاشى فى هذا العدم الكبير المقبل.. وما كان أكثر امتلاء الحياة.

لقد مرت الآن أربع ساعات والساعة تدق التاسعة وموعد الحبوب من جديد.

* * *

لقد حلفت عليّ يا تفيدة أن أنام وأن أستريح. أطعـمتنى بكل صعوبة ودون كلام أقسمت عليّ بالنبى وبالست دميانة، فأنت تحبينها وتؤمنين بها، ألا أسهر الليلة حتى لا أصاب بالبرد واسترحت بعـد أن وضعت عليّ الغطاء واستدرت لأنام كى أجعلك تطمـئنين وتخرجين. لكننى أحس يا تفـيدة أن عليّ واجبًا أن أتمه، وأن هذه التـفاصيل التى يريـدها من الخلاص لابد أن تخرج وأن تـصور حيـة من جديد، إنهـا تلح عليّ وتضرب جنبـات رأسى وقلبى، ويدى، وتتـحرك دون تفـكير إلى قلمى بـبطاريته الصـغـيرة وأعـتـدل فى الفراش وأخـرج كراستى من تحت المخدة لأكتب من جديد.

كم كنت سـعيـدة فرحـة وأنا أعـود إلى دميـرة من القـاهرة لأول مرة بعـد هذه السنوات الطويلة. كان البـيت الكبير نظيـفًا مرتبًـا بغرفه الخمس وبمـفارشه وملاءاته. وكـان المحامى وخالى يتـرددان على البيت بانتظام خلال هذه السـنوات وكانا حريصيـن وهما يستعـملان الغرف أن يحتفظا لى بهذه الأغطية الثمينة التى صنعتها أمى أو اشتراها حكيم من أوربا فلم تبل ولم تتغير ألوانـها عندما وضعوها من جديد استـعدادًا لقدومى. إننى لا أنسى لهم أبدًا هذه اللحظات التى قـدموها لى وأنا أدخل البيت وأحس كـأنه كما هو تمامًـا منذ أن غادرته فى أواخر عام ١٩٤٩م.

غرفتى بشباك دميانة وكرسيّ الهزاز وفراشى الصغير وإلى جانبه أيضًا فراش دانيال الطفل كـان ما زال هناك. وغـرفـة حكيم ومكتبـه وفـيهـا الخـزينة التى أحتـفظ فـيهـا بأوراق أبى وبجـواهرى وبتلك الزمردة الخـضراء الكبـيرة التى أهـدانيهـا عندما تزوجنا وكـتب عليهـا الحرفين زد.. وآ.. آخر الكلام وأوله كـما كان يقول. لقد فتحت الخـزينة ورأيتها واطمأننت

عليها واطمأننت على أوراق أبى وتذكرت صمته وحيرته وموته وتذكرت صمت حكيم وحيرته أيضًا وإن لم أذكر من حبه أو كلماته إلا تلك الجملة التى انتزعها من نفسه انتزاعًا وهو يشير إلى الحرفين اللذين وضعهما على الزمردة وكأنما ليعفيانه من أى كلام آخر.. زمردة أيوب.

وارتعد جسدى وأنا أغلق الخزينة وخرجت من غرفة حكيم بعد أن فتحت الكتاب المقدس الذى كان مغلقًا إلى جانبها على سفر دانيال، وقرأت الآيات الأولى عن آنية الله التى أخذها نبوخذ نصر. لكنى تَركت الكتاب مفتوحًا على اسم دانيال لأنها ستكون غرفته، وخرجت كطفلة صغيرة أتفقد المنزل كله ركنًا ركنًا وأدخل المطبخ وأفكر فى تغيير الفرن الكبير وفى أوانى أمى العتيقة وأضغط على أزرار النور أطفئها رغم أننا فى النهار فرحة بالكهرباء فى المنزل الذى تركته مضاء بالكلوبات والشموع. كنت أحس أنى طفلة تمامًا ورحت أسترجع مع تفيدة كل لحظات الماضى البعيد وأنا أصرخ على دانيال الذى نزل إلى الحديقة لأحدثه عنه وأحكى له كل الصور والذكريات التى تجرى فى نفسى ذاهبة عائدة وكأنها جمع صغير من الأطفال يلعبون. لم أسعد فى حياتى كما سعدت فى هذه اللحظات وأنا أجرى وراء دانيال، وتفيدة تجرى ورائى، لأخرج به إلى الأرض والحقول. كنت أحس، وما زلت أذكر، هذا الضوء الذى كنت أحلم به وأنا فى أمريكا. ضوء الشمس فى دميرة وقد مازجته خضرة الحقول فأصبح وكأنه سائل دسم يتشربه البدن.

كنت أمد عينى ويدى وأنفى أريد أن أمسك بكل شىء دفعة واحدة وكأنى طفلة تضرب بأيديها وبفمها وعينيها لأنها وجدت الثدى فجأة وتريد أن تلتقمه كله. أمسكت دانيال بيدى وسرت وأنا أريده أن يرى وأن يسم رغبتى تتحرك فى جسمى وكأنها حنين فى بدنى لأن أرضعه. يا رب ما كان أحلى هذه اللحظات وأغناها. وما أكبر قدرة بلدى على أن تمسح الغربة فى لحظة، وأن يملأ نورها الروح والبدن وكأنما هو ميلاد جديد.

هل كانت هذه هي كل لحظات السعادة الخالصة المصفاة التي قدمتها لي مصر منذ أن عدت؟ لم يارب لم تجعلني أموت في العودة مباشرة. ما كان أسعدني لو أنني تبددت في نشوة اللحظة وذهبت مع الضوء والهواء والماء الجاري في قنوات الحقول. لو أن هذه اللحظة تعود، لكن روحي تطفو فيها الآن أبيات من إيملي وأحسها في عربيتي أكثر حدة وصدقًا وهي تقول «علينا لكل لحظة من لحظات النشوة، أن ندفع جوى وعذابًا، نافذًا حادًا على نفس قدر النشوة ونسبتها، ولكل ساعة محبوبة، مزيدًا زهيدًا من السنوات الجارحة ودريهمات مريرة متنازعًا عليها، وصناديق مليئة بأكوام الدموع».

نعم، مزيدًا زهيدًا من السنوات الجارحة. لم تمض أيام حتى بدأت أحس أن هناك شعورًا عدائيًا ضد وجودي في البلدة. وأن أنواع النزاع الكثيرة بين الفلاحين ووكيلي في التأجير قد خلقت في النفوس كراهية مبدئية ضدي وضد عائلة دانيال، وأن سنوات الغربة وسنوات الثورة الطويلة قد وضعت في الأذهان وفي لغة الكلام مجموعة من الأحكام التي تدفعهم إلى اتخاذ موقف مني ومن ابني دون أن أعرف بالضبط ماذا عليّ أن أفعل أو لمن أتجه. لقد كنت أؤمن بضرورة الإصلاح الزراعي لمصر على الرغم من كل ما يقوله أهلي وأقربائي، وعلى الرغم من مساسه المباشر بي وبمصالح ابني.

لكنني كنت لا أدري كيف أستطيع أن أعيد نفسي إلى هذا المجتمع الجديد الذي كونته الثورة وكيف أجعل نفسي مقبولة منه. ولست أظن أني مسئولة عن كل هذه التفاصيل التي بدأت أحسها في البلدة ولا عن عجزي أن أتغلب على مشاعر العداء التي أحسستها ضعيفة أول الأمر ثم تكاد تبلغ المقاطعة والتجنب بعد ذلك.

ويبدو أن انشغالي بزيارة الكنيسة وقديستي مرارًا وانشغالي بترتيب الكتب التي حملتها معي، وإدخال أثاث جديد إلى البيت لأعد لدانيال غرفة أبيه على نحو جديد، ولأوفر

بعض الراحة الجديدة فى البيت، وأخيراً العربة التى اشتريتها لأتحرك بها إلى القاهرة بسهولة، كل هذا قد باعد بينى وبين الناس، ولم يعطونى فرصة طويلة على أية حال ولم يتقدم لى أحد. لكننى فوجئت بعد أشهر قليلة بزيارة ضابط من المباحث وبأنواع من الأسئلة الغريبة عنى وعن ابنى وعن سبب عودتى من أمريكا وماذ أنوى أن أفعل. وقد أجبت بصورة مباشرة وقلت ما أنوى فعلاً أن أعمله، وقلت إن دانيال سيكمل دراسته، وإننى سأتقدم إلى الجامعة وأرجو أن تقبلنى وتساءلت لماذا كل هذه الأسئلة.. فكانت الإجابات عامة ونرجو الخير.. ومسائل أمن.. والبلد فيها ثورة.. وأنواع أخرى مماثلة من الإجابات لا أذكرها.

لكنهم جميعًا مؤدبون وإن كانوا يتغيرون كثيراً وتتعدد وجوههم وتبقى الأسئلة هى نفس الأسئلة. ولما رجعت إلى المحامى والأهل طلبوا منى أن أرفض الإجابة والمقابلة، لكنى لم أجد ما يدعو إلى ذلك، بل لم أجد ما يدفعنى إلى التشكك أو الخوف، وكل ما هناك أننى تعجلت أمر الكتابة إلى الجامعة وكتبت خطابًا مطولاً إلى عميد الكلية أطلب فيه منحى وظيفة التدريس وصورت شهاداتى ونسخة من رسالتى وأعربت فى الطلب عن حرصى الشديد على أن أكون نافعة لبلدى بعد كل الجهد والدراسة التى قمت بها. لقد كان خطابى مطولاً وما زلت أعتز به وما زلت أحتفظ بنسخة منه وإن لم أحصل أبدًا على رد له ولا سمعت عنه مرة أخرى حتى بعد أن تم تعيينى عن طريق كريم.

ولم يطل بقائى على أية حال فى دميرة. فقد بدأ العام الدراسى واستقر دانيال فى القسم الداخلى فى فيكتوريا حتى نستطيع أن نجد شقة مريحة فى وسط البلد وقريبة من كلية الطب كما اتفقنا. وأصبح علىّ أن أتردد إلى الجامعة وإلى الكلية لأسأل عن خطابى وكثر ترددى دون أن يلقانى أحد من الكبار أو أن التقى بأحد من الأساتذة لأنهم جميعًا كانوا

يحيلوننى إلى المكاتب. فالأوراق تارة فى مكتب الأمن، وتارة فى المعادلات فى الوزارة، ومرة فى المستخدمين وأخيراً ليست هناك درجات الآن. ولا بد من الانتظار حتى يتم الإعلان. ولما قلت إننى تقدمت بناء على الإعلان فى الجرائد قالوا إن الوظائف شغلت. ولا بد من انتظار إعلان جديد وأحسست أننى بدأت أدور فى حلقة مفرغة وأننى لم أعد أستطيع الاعتماد على نفسى وأن علىّ أن ألجأ إلى الأهل والأقرباء وربما للكنيسة مرة أخرى. ليساعدونى على صنع حياتى، لكننى كنت أحاول أن أعفى نفسى من هذا أو أن أؤجله ما استطعت. كانوا جميعًا يضيقون علىّ الخناق كلما رأونى، وكانوا كثيراً ما يروننى لأننى كنت أنزل عند خالى فى القاهرة وهناك تتكرر الدعوة والنصيحة بأن لا داعى للعمل، وتبدأ الإشارات مرة أخرى إلى الزواج. فإذا ما هربت من القاهرة وعدت إلى دميرة وجدت تفيدة فى انتظارى تحاول بصعوبة وأدب أن تقنعنى أن من الأفضل أن أعود إلى الزيتون وأن أصحبها معى وكأنما تريد أن تذكّرنى أن وجودى فى دميرة لم يعد مريحًا أو مرغوبًا فيه.

لكننى ظللت مصرة على أن أعتبر البيت فى دميرة بيتى. وأن أعود إليه لأقضى معظم أيام الأسبوع، وأن يأتى دانيال فى يومى السبت والأحد لنمضى الوقت معًا، أساعده فى دراسة العربية وأقرأ له الكتاب المقدس، وأحيانًا فى مقالات جده التى كان يكتبها فى المجلة القبطية. وحاولت أن أشغل نفسى بمتابعة الجرائد والتطورات السياسية السريعة العميقة للوحدة مع سوريا وللانفصال وأن أسمع الخطابات والتحليلات ومحاضر الجلسات.

لكنى لم أكن أستطيع أن أمنع نفسى، رغم حماسى وتحمسى للخطوات، أن أحس أن هناك حاجزاً ضعيفًا يفصل بينى وبين المجتمع الذى يتحرك وأنا غير قادرة على أن أعود إليه، أو أن أشارك فيه لا أكاد أعرف الطريق إلى ذلك. لقد صاحبنى هذا الإحساس الجارح منذ أن عدت، ولم أجد فى كل مَن حولى مَن يساعدنى على التخلص منه، بل كانوا يزيدونه إيلامًا لأننى كنت أقف فى وجوههم هم أيضًا وأراهم مثل المجتمع منفصلين عنى.

كنت أتابع الأفكار والتطورات النظرية وأحس أن الأحلام والآمال التى تدعو إليها الثورة أحلام شرعية لمصر وللشعب كله، لكن الخطوات إلى تحقيقها هى أقرب دائمًا لأن تكون ناقصة متكسرة متكررة والناس يتحركون إليها فى عجلة وتصلب وكأنما هم شخوص فى فيلم سريع أو كأنهم عمال يرتبون غرفًا فى بيت، وكلما فرغوا من غرفة أعادوا ترتيبها مرة أخرى. إننى أذكر هذه الصورة فى تلك الأيام، لأننى كنت أنا نفسى أصنع ذلك ولا أكاد أفرغ من ترتيب البيت وكأنى أخاف لو انتهيت منه أن يكون علىّ أن أواجه الحياة الجديدة التى لا أعرف كيف أملؤها أو كيف أصنعها. كنت أرتب غرفتى وأرتب أوراقى وأبدأ فى مشروع كتابة تاريخ الأدب الأمريكى بالعربية. وأتوقف ثم أرتب كتبى مرة أخرى وأتصور أننى فى حاجة إلى قراءات جديدة فى الاشتراكية، وعن الاتحاد السوفييتى ثم أنصرف إلى محاولة لترجمة رسالتى وأفكر فى طبعها.

وأجلس وحدى فأعود إلى قصائد إميلى أصوغ سطوراً منها بالعربية، وأخيراً لا أجد إلا الكتاب المقدس لأعود إليه وأغرق فيه من جديد لأعيد قراءته من البداية دون أن أحقق هذا الاتصال والاستمرار الذى أريده والذى بدأت أفتقده فى حياتى وفى المجتمع من حولى.

وما أسرع ما اشتد القلق فى نفسى وأصبحت أتحرك بين دميرة والقاهرة دون مبرر، وأكتب الخطابات التى تعبر عن بعض القلق إلى الأصدقاء والمعارف فى أمريكا وكأنما أحسدهم على ما هم فيه من استقرار واتصال دون أن أتلقى منهم ردوداً وكأنما انقطع بيننا الاتصال، أو أن هناك رقابة على البريد تمنع عنى خطاباتهم أو تمنع خطاباتى عنهم. وقد حذرنى المحامى ميلاد وأنا عند خالى فى إحدى الليالى، من أن أكون مراقبة.

وقد ضحكت واقترح أن نسحب بالتدريج الأموال التى فى البنوك وأن أسمح له بأن يدرس تهريبها إلى فرنسا أو سويسرا حيث يستطيع أن يجد معارف يساعدونه فى ذلك.

وقد ضحكت من كل هذه الأفكار وقتها ولم أكن أتصور أنه جاد فى حديثه حتى بدأ يحكى لى عن عمليات مماثلة أخرى، وبدأ يذكر أفرادًا وعائلات ممن أعرفهم أو أسمع بأسمائهم. وقد زاد كل هذا من قلقى وتحركاتى العديدة من دميرة والقاهرة وكدت ألحظ فعلاً أن هناك عربة تتبعنى، لكننى كنت لا أصدق أن هناك من يهتم بمتابعة ومراقبة هذا القلق الذى أحسه فى نفسى أو أن هناك خطراً على أحد أو على نفسى من هذا القلق. فلقد رفضت فعلاً طلبات المحامى وأفهمته أننى أريد أن أبقى فى مصر وأنى لن أغادرها من جديد إلا أننى لم أجد ما يمنع أن يسحب ما يريد من أموال ـ بلغت حوالى عشرين ألفًا فيما أذكر – ووضعناها فى خزينة غرفة دانيال وأضفت مفتاحها الكبير إلى مفاتيحى التى أحملها فى حقيبتى بعد أن كنت أضعه فى درج مكتب حكيم وأغلق عليه.

لقد تجاوز الليل منتصفه وأنا ما زلت يقظة أكتب وأفكر فى التفاصيل حقًا، لقد كنت حينذاك مقبلة على تغيير للفصول، لكننى لم أكن أدرى، ولم يكن هناك مَن يستطيع أن يقنعنى بذلك. فكيف كنت أتصور أن القوانين الاشتراكية قداس يعلن شيئًا خاصًا لى، أو أنى كنت مدعوة من أمريكا لهذا التغيير.

كان الوقت موغلاً فى الليل، وإن كنت ليلتها قد ظللت سهرانة وحدى فى غرفتى فى دميرة وراء شباك دميانة أقرأ من جديد فى ميمرها وأتتبع ضوء الشمعدان الكبير الذى أجلس تحته وهو ينعكس على صورتها وعلى وجوه العذارى. وما زلت أذكر أننى لم أتجاوز ليلتها سطور البداية، وأننى توقفت أحلم بقرارها عندما أراد أبوها أن يزوجها وهى فى الخامسة عشرة «يا أبى كيف يخطر ببالك هذا الفكر وأنا قد نذرت نفسى أن أكون عروسة السيد المسيح.. ولم تخطر ببالى هذه الفكرة..» ورحت وقتها أستعيد كلماتى لأبى وزواجى من حكيم وسنوات الغربة وأيام العودة وأحسست أننى منذ عجزت عن اتخاذ

هذا القرار أمام أبى وأنا لا أستطيع أن أتخذ قراراً بملء نفسى وروحى، وأن كل ما مر بحياتى منذ ذلك الحين كان مجرد انسياق للفصول وقرارات يتخذها الآخرون لأطيعها وأنفذها وأتحمس لها.. ولم أكد أطفئ النور وما زالت صور العذارى فى عيونى حتى تعالى دق الباب ودخلوا وتفيدة أمامهم تقول.. يا ليلة سوده.. الحقى يا ست زمردة.

ولم أستطع أن ألاحقهم وهم يدخلون بسرعة، ثلاثة ومعهم اثنان يرتدون الثياب المدنية. ولم أكد أفهم إلا أن معهم قراراً بوضعى ووضع دانيال حكيم غالى تحت الحراسة وأنهم مكلفون بجرد محتويات البيت وأوراقه. وأحسست وأنا أجلس فى البهو وأعطيهم مفتاح الخزانة وأتركهم يتجولون فى البيت أن وجودهم وحركتهم شىء مضحك وكأنه تمثيل، أو كأنه مجرد كلام من كلام الأهل والأقارب فى بيت خالى أو حديث المحامى الذى كنت أواجهه باستهانة وإنكار وضحك، على أنه شىء سيمر وينتهى وأنه مخاوف وقلق لا مبرر له.

وعندما تأخروا طويلاً فى غرفة حكيم، شكرت الرب أن دانيال فى المدرسة ودخلت وراءهم فالتفت لى لأول مرة كريم وتقدم يحادثنى من بينهم يقول: «لقد انتهينا.. ولم يعد إلا توقيع بعض الأوراق..» نعم كانت «انتهينا» أول كلمة يقولها لى كريم وهو يبتسم ابتسامته الحلوة الرزينة ويسقط الضوء على بدلته الزرقاء وكرافتته المنقطة بنقط بيضاء دقيقة وإن كنت مازلت لا أعرف حتى اسمه. ولم يتكلم بعد ذلك، لكنه اتجه للانصراف وترك واحداً من الآخرين يقرأ معى كشوف الجرد التى لم أتذكر منها إلا العشرين ألفا وعدداً لا أذكره من الأساور والعقود والحلقان وأوراق بتوقيع أيوب عبد الملاك. وارتعدت وأنا أسمع اسم أبى، فوقعت على الكشف ولم أفهم ماذا يعنيه بالضبط وهو يقولى لى إن مفتاح الخزينة سيسلم لى فى المكتب مع إجراءات التصرف. لم أكن قادرة على أى تصرف أو حديث إلا أن أنظر إليهم وأن أراهم يخرجون وكأنما أصبحوا وراء زجاج. وكيف كان لى وقتها أن أتنبه إلى أن الزمردة الخضراء ذات الحرفين ـ من آخر الكلام لأوله ـ لم ترد فى

الكشف، أو أنهـا كانت في ذلك الوقت قد سـرقت فعـلاً. لم يخطر في بالي وقتـها إلا أن أهدئ من روع تفيدة التي ظلت تقول يا ليلة سـودة.. يا ليلة سودة. وتهم بالصوات وكأنها تريد أن تستنجد بأحد وأنا أقـول لها في هدوء وتماسك: ده لازم حصل غلط بكرة المحامي يصحح كل حاجة.

ألم تكن هذه هي كل كلماتي.. بكرة كل حاجة تتصلح.. بكرة كل حاجة تتصلح.. بكرة كل حاجة تتصلح.. كم أود أن أظل أكتب هذه الكلمة. ولست أدري لماذا تتساقط الآن هذه الدموع غـزيرة حتى لا أستطيع أن أكـتب وقد انتهى كل شيء ولـم يعـد في نفسي الآن من كل هذا إلا أني لا أستطيع أن أقول بكرة كل حاجة تتصلح.. بكرة كل حاجة تتصلح.

يا رب.. إني أرتجف.. أرتجف.. لقد أفزعني منبه تفيـدة الذي ضبطته للسحور.. ولـم أعد أستطيع أن أواصل الجلوس وهذه الحمى تهز في بدني.. ما أشد سواد هذا الليل.

* * *

طقس الاعتراف

مـرت أيـام لا أعـرف عـددها بالضبط. ارتفعت فيهـا الحمى حتى أصبحت لا أكاد أعي بما حولى أو مَن حولى. وامتلأ البيت بهم. خالى جاء وأولاد إخوة حكيم، الرجال والبنات والسيدات. والمحـامى وأعضاء من المجلس الملى وأبونا ثيوفـيلوس ورسول من البطريرك.. ولابد أنه كان هـناك غير هؤلاء أيضـاً.. فقـد كان البيت دائـمًا مليئًـا بالحركـة والأصوات الهامسة.

وكانت الكلمات تعلو أحـيانًا وأحيانًا تحتد وكـأنهم يتشاجرون. وكانت تفيـدة والممرضة التى أحضروها والطبيبة الصغيرة ماتيلدة بطرس هن وحدهن يدخلن علىّ يتناولن جسمى وأراهن بعينىّ عن قـرب وهن يضعن الحقن فى ذراعى أو فـخذى، وكانت تفـيدة هى التى تصر على أن تقوم وحـدها بتغيير الملابس ووضع البودرة وأتشـبث بيدها وأنا لا أريد أحداً أن يظهر على جسدى أو يتلمّسه غيرها. ولا أظننى ارتكبت حماقة أو هذيت بما لايحق لى أو لا أحب أن أقوله.

لقد كـانت تفيدة دائمًـا على لسانى وكنت أكرر اسـمها وكـأنما عن قصد، حـتى لا أذكر أسماء أخرى أو حـتى لا أدعو دانيال وأنا تحت تأثير الحمى أو النزلة كـما أسمتها الطـبيبة. كنت حـريصـة على خـفـائـى وأنا أرفض أن يدخل علىّ أبونا قـائلـة: مش دلوقت.. مش دلوقت.. بعدين.. بعـدين.. فلم أكن أحسن أننى أموت أو أن ساعـتى حانت، بل كنت ما زلت قادرة على الغـضب عليهم فى الخارج، وما زلت قادرة على أن ألتقط أحـيانًا كلمة من هذا أو تلك. وسـمعت الطبـيبة مـنذ أيام وهى تتشـاجر أو تحتـد مع خالى وتذكـر تلك الكـلمة التى أعـرف مـعـناها جيداً ـ ترمينال ـ وهو يقـول لها أحسن.. تروح المستـشفى.. ولـم أعرف أننى لن أمـوت فى هذه الحمى الجـديدة التى أصابتنى إلا لأننى غـضبت غضبًا شديدًا فى داخلى وظللت أقول لا، كلما دخلت علىّ الطبيبة، أو دخلت علىّ تفيدة دون أن

أكمل لهم الجملة أو أعلن عن قصدي.. لكننى كنت مصممة أن أرفض أن أموت إلا هنا في بيت الزيتون حيث مات أبى وأمي.. وكأنى لم أكن أنا التى أردت أن أبيع البيت أو أن أتخلّص منه. كنت مصممة على ذلك وكان غضبى يطمئننى أن ساعتى لم تأت بعد.

كلا.. لم يحدث شيء آخر خلال تلك الأيام.. لكن يبدو أننى سألت.. أو طلبت من تفيدة.. أو حادثتها بشئ عن دانيال.. أنا لا أستطيع أن أذكر الآن.. لكنها قد وضعت صورة متوسطة الحجم له في بروازها الجميل المفضض بحيث أستطيع أن أراها وأنا فى السرير. وكانت الصورة هي كل ما تغير في الغرفة.. نعم لم يتغير شيء آخر إلا أننى ازددت إحساسًا بالضعف والتهالك وأحسست كأننى فقدت الكثير من وزنى.. وإن كنت لم أجرؤ إلى الآن على أن أنظر إلى المرآة.. لكننى أستطيع أن أقوم الآن.. وأن أذهب للحمام وحدي.. وقد انتهيت فعلاً من إعلان إصرارى بوضوح لخالي ولغيره وللطبيبة بأننى لن أغادر المنزل. وكم ابتسمت في فجيعة في داخلي.. وأنا أسمع تفيدة، تتدخل معى، إلى جانبي، لتقول لهم مرة أخرى تلك الكلمة القديمة التى سمعتها منى.. فى تلك الليلة البعيدة.. بكرة تتصلح كل حاجة.. بكرة تتصلح كل حاجة، وكأنها لاتملك شيئًا آخر تستطيع أن تقوله، لا يا تفيده.. لن يصلح الغد شيئًا.. لكنه سيأتى فقط ليتمم عذابى.

إنك يا تفيدة، لاتعرفين ماذا تعنين لى الآن، ماذا تفعلين فى روحى كلما آراك. إنك لاتجادلين فى شيء ولاتطلبين شيئًا، وكأنما أوامرى مهما كانت، كلمات مقدسة تنفذينها بلا تردد ولاتفكير.. لقد قلت لك احملى صورة دانيال إلى موضعها على مكتبه، ففعلت مباشرة بلا تعليق أو حديث، وكأنما أنت التى أخطأت بإحضارها إلى هنا. وقلت لك إنى لا أريد زهورًا فى البيت أو بخورًا فأخرجتها كلها، وكم مرة أجبت على التليفون لتقولى، كما طلبت منك، إننى نائمة.

وعندما طلبت منك أن تحدثى الكنيسة أو تطلبى الأب تيوفيلوس فعلت، وحضر بالأمس، وتركتنا بمفردنا أكثر من ساعة وكأنك غير موجودة فى المنزل. فإذا همست أريدك أو أطلب ماء كنت فى لحظة إلى جانبى وكأنما تصلك كلماتى قبل أن أنطق بها. لو تعرفين أى نعمة أنت، لو أنك قادرة على أن تقرئى لى فى الكتاب المقدس لما احتجت أن أرى أحداً غيرك، بل إن أحداً غيرك لايقدم لى شيئًا يا تفيدة. إن الطبيبة الصغيرة تعرف أنها مهما غيرت من نظام الحبوب أو عادت إلى الحقن فالحالة ترمينال وهى لن تحقق معجزة، وكلهم جميعًا يريدون أن أنصرف.. أن أرحل. حتى دانيال فى غيبته وغربته قد يعود إذا قرأ أننى مت فى الجرائد أو عرف ذلك حيث هو الآن.. لقد أصبحت حملاً ثقيلاً لايستطيع أحد أن يحمله إلا أنت.

وإذا كان الرب قد منحنى هذه المهلة فلأنه يريدنى أن أعدد خطاياى ليزداد مجده. إنك لاتقرئين معى يا تفيدة رسائل بولس ولا أستطيع أن أحدثك عن الخلاص الذى أنتظره وعن التبرير الذى أبحث عنه. إن هذا.. هذا فقط هو ما لا أستطيع أن أشركك فيه ولا أستطيع أن أتصورك قادرة على فهمه.. لكنى موقنة يا تفيدة أنك قادرة على أن تفهمى عنى كل ما أريد أن أقوله.. حتى هذا الذى أبحث عنه وأريد أن أصل إليه، لقد اجتزت معى بالأمس مخاضة صعبة لم أكن أعرف كيف أجتازها وحدى، ولم أكن أقدر أن أطلب العون من أحد غيرك ولا حتى من «أبونا» الذى حمل نفسه أن يعبر معى هذه الأيام الباقية إلى الموت.

عندما دخلت علىّ بالأمس تعلنين لى عن مقدمه كما طلبت، وقفت إلى جانبى ساكنة تنتظرين ردى، ووضعت يدك على رأسى وأنت تقولين لى إنت والله منورة زى الملاك. لم يقل لى أحد ذلك من قبل. وابتسمت لك وكأنما أحسست فجأة أننى قد بلغت من روحك هذا الموقع الذى كنت أريد أن أهبط فيه. ووجدت أرض خفائى وسألتك إن كنت

تعرفين الكراسة التى أكتب فيها. فلما أجبت برأسك تقولين نعم وعيونك تفيض فهما، قلت لك إننى لا أريد أن يراها أحد بعد أن أموت.

فلما سألت ولا دانيال؟ قلت لك ولا دانيال. خذيها إلى دير الست وهناك أحرقيها دون أن يراك أحد، وأشعلى باسمى شمعة. وظللت أضغط بيدى على ذراعك بكل ما أستطيع من قوة حتى خرجت من بين شفتيك كلمة حاضر.. من عينى، وهما مليئتان بالدموع وتركت ذراعك وأنا أحس أنه قد سرى بيننا شىء أو أننا قد أتممنا معًا كاتشيزم يحررنى ويعطينى القدرة على أن أحتمل أيام العذاب القادمة كلها وأنك قد أصبحت ملاكى الذى يشفينى كل يوم من عذاب كل يوم، وأن شيئًا لن يصرفنى عن هذا الصراع الذى دخلت فيه، حتى ينتهى.

هل تعرفين يا تفيدة، ما الذى يجعل احتمال العذاب والتعذيب ممكنا! لقد جعلتنى لحظتنا هذه قادرة على أن أوجه لحظاتى مع القس المقدس كما أريد. وطلبت منه أن يقرأ لى سفر هوشع فلم أعد قادرة على أن أرفع الكتاب المقدس الثقيل على يدى وطلَبت منه أن يحضر لى نسخًا من رسائل بولس مفردة، خاصة رومية وسألته أن يدعو لى الرب بتحمل العذاب والفهم.

من يعرف ماذا يفعل البشر بأنفسهم إذا ما أصبحوا هكذا وحيدين منعزلين يواجهون بمفردهم النهاية والموت. إن معظم الناس، إن لم يكونوا جميعًا، يموتون كما يحيون جماعة. لا أحد يموت بمفرده لأن كل واحد يموت فى حياة وعن ناس، وكأنما هو يأخذ منهم شيئًا عندما يرحل. كل واحد يحمل عندما يذهب بعضًا من الناس وبعضًا من الحياة وقد يترك فراغًا كفراغ الضرس المقلوع، لكن الفك الكبير الضخم ملىء بعدد لا نهاية له من الضروس، ويظل بعد كل موت يطحن الطعام والحياة.. أما أنا فإننى أموت وحدى..

وحدى، لحظة.. وراء لحظة، فى الصحو وفى النوم، فى الحديث.. والصمت، فى الحلم والعين المفتوحة، فى اليد المقبوضة واليد المبسوطة، فى حركة القدم أو تعطلها، فى اتجاهى للآخرين دون اتجاه، وفى انصرافى عنهم وهم حضور. ألا يكون هذا هو فقدان الصلة الحية مع الواقع الذى يتحدث عنه أطباء النفس. لا أظن أننى مريضة بمرض آخر غير هذه اللوكيميا التى تفتت الكريات الحية وتبتلع لحظات الزمن كأنها خيط تشده إلى داخلى لينتهى.

لقد مرت أيام طويلة، أسبوعان، بل ثلاثة بل وبضعة أيام منذ عقدت هذا الحلف الخفى مع تفيدة، لست أدرى بالضبط ماذا حدث فى روحى بعد ذلك. لماذا صمتت، وظلت غير قادرة على أن تدفعنى لأمسك القلم خلال هذه الأيام الطويلة. هل هو أثر الأدوية الكثيرة.. وهذا الجهد الغريب الذى تبذله طبيبتى الصغيرة فى صمت وكأنها تتحدى أو تجرب وتتعلم فى بدنى. لقد غيرت نظام الحبوب والحقن وقالت لى: إنها تجرب خطة جديدة للعلاج جاءتها من أمريكا وأنها تجد بدنى يستجيب!.. لماذا؟ لماذا يا صغيرتى إننى أعرف بدنى وأعرف أنه دائمًا يستجيب! وأن استجابته كانت دائمًا أكبر منى وأكبر مما يستجيب له. إننى أعرف أكثر منك هذا البدن لأننى رأيته يستجيب للنور وللشمس والهواء وروائح الزهور وطراوة الماء وعرفته يستجيب أو لا يستجيب لكريم وحكيم، ورأيته يعيش ويستجيب لحياة دميانة وعذابها وعرفته يضوى ويجف مع قصائد إميلى، ويخف ويتبدد مع آيات الكتاب ورسائل بولس ووعد الخلاص.. إنه يستجيب يا بنيتى لكل هذا واستجاب، لكنه ظل دائمًا مفروضًا عليه أن ينسى وأن ينتقل من استجابة إلى أخرى فى طريق واحد.. هذا البدن أنا أعرفه أكثر منك. لقد عرفته طوال خمسين سنة.. عرفته.. فلا تحاولى، أنت لا تفعلين غير مد المدة، غير إطالة الوقت، غير تكرار الاستجابة.. أما هو فطريقه واحد إلى الموت، لقد تكونين أصبته بالصدمة وأغفيته أيامًا معكوسًا على نفسه فأصبح كالبركة التى يتكاثر فيها

الأسن والطحلب الأخضر حتى تسود المياه فلا تعكس الضوء.. إنه راكد.. آسن. إما أن يشفى، يتغير.. فلا.. أنا وهو وحدنا نعرف ذلك ونعرف أن الخيط قد بدأ يفرغ من بكرته وأن البكرة تهتز اهتزازاً شديداً للنهاية.

هل أنت السبب بحبوبك ونظامك الجديد فى أننى صمت عن الكتابة وأننى ظللت كل هذه الأيام بعيدة عن قلمى وكراستى.

إن هناك رعشة فى بدنى قائمة تجعلنى أعرف أن هذا النظام الجديد، وهذه الحبوب مثل زائر غريب يبحث فى جبانة واسعة عن قبر العزيز الذى يريد أن يزوره فلا يهتدى، وأن جسدى يرقد، وقد رقد، بلا رجاء إلا رجاء القيامة. قد أصبح الآن هو وحده الذى يعرف أحواله، لكنك مع ذلك جعلتنى أشفى من نزلتى وجعلتنى أتحرك من جديد.

لقد ظللت أياماً طويلة أعالج بنفسى ركود روحى وأسنها وأترقب عودة تلك القدرة على تحمل مسئولية المعرفة والفهم وسلوك الخلاص بهما من خلال الكتابة. ظللت أنظر إلى روحى وهى صامتة وأنا أسترسل فى صناعة هذا النسيج الغريب من الأحلام، واستعادة الصور والأحداث، والتفكير المبدد، واستيحاء المواقف والأفعال القديمة، وتصور نفسى أصنع غير ما صنعت، وأتصرف بغير ما فعلت، أو أقول وأتحدث بكلمات أخرى غير ما قلت حينذاك. هذا النسيج الغريب الذى يسمونه أحلام اليقظة كان قد لف روحى وقدراتى كلها وأصبحت ـ منذ تلك الليلة التى اتفقت فيها مع تفيدة على أن تحرق أوراقى ـ غير قادرة على أن أضيف شيئًا إلى هذه الأوراق.

هل كان هذا الحلف خطية جديدة ضربت روحى بالتبطل والعجز وأسلمتنى لتلك البركة من الأفكار والأحلام الصامتة التى تنمو فيها نباتات الظلمة، كلها جذور سطحية معشوبة

بلا ساق ولا زهر أو ثمار. هل ضربت بهـذا الحلف قدرتى على بلوغ الخلاص. كانت أيام الصمت وأحلام اليـقظة أيامًا تمد من حولى تلك البركـة الآسنة، فأحس أننى أغرق دون أن أصل إلى الضوء أو الفـهم لكل هذا الماضى ولتلك الحياة التى أريد أن أستعيدها، وأحـيانًا أخرى كنت أحس أننى بأحـلامى الساكنة غيـر المكتوبة أفتت كل الماضى وأدوسـه بأقدامى وكأنه أوراق خريفية هشة، وكأن هذه الأحـلام الساكنة هى تلك العملية الشيطانية الأخرى فى دمى التى تأكل الكريات وتدفع بى إلـى الصمت المطبق الأخـير. لقد بلغ بـى الفزع من عجـزى عن أن أكتب أن واجـهت كل ما فى روحى عن يسوع وعـن طريق الخلاص الذى صنعه بالصليب. وكم من المرات ناقشت نفسى وحاورتهـا فى صمت لأميل بها إلى التوبة وإلى تلك العودة إلى الحضن الإلهى الذى منه يسيل الغفران وينبلج النور.

وأمـسكت بالرسـائل التى حـملهـا لى الأب تيـوفـيلوس ورحت أقـرأ وأقـرأ. روميـه، كورنثـوس، غلاطية، واحـدة واحدة، مـرة بعد أخرى، آية بعـد آية. أقرأ كأنمـا أستعـيذ من الماضى، أقرأ كأنما أزيح أشبـاحًا أو أكسر كبرياء الخطيئة. غيـر أن الخلاص الذى هو نعمة، لايأتى على روحى المجهـدة. كنت أقرأ وكأننى أغـرق أو أختنق. وكانت كلمـات الرسول الحـارة الحادة وهو يكلم الأمم تحـاصـر روحى بنار باردة كـالصقـيع الشـديد تجمـدها ولا تحرقها، وكأنما أنا محرومة من ناره التى ستمتحن عمل كل واحد.

كانت كلماته عن الخـطيئة تصيبنى وكـأنها تصفنى، وتدفعنى أن أحلم من جـديد بحياتى وخطاياى وأستسلم، وكأنما للشـرير، إلى أحلامى الصامتة من جديد. وما أكـثر ما كررت قـراءة كلمـاته عن التـوبة. وأظل مع ذلك أعـرف فى داخلى أن حـزنى مـا زال هو «حـزن العالم» الذى ينشئ موتًا.. أما ذلك الحزن بحسب مشيئة الله.. ذلك الحزن الذى ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة.. فـأين هو؟ أين أنا منه؟ وكيف أصل إليه؟ كان يدعـونى ويفصلنى عنه

فى كل آية. أسمعه يتحدث عن «أبناء المعصى» وعن «سلطان الهواء»، فأريد أن أجتمع مع أولئك الذين سمعوه وشفوا، وأتعزى وهو يقول «نحن جميعًا تصرفنا قبلاً بينهم فى شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار وكنا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضًا» وتنتظر روحى الجافة المتكسرة.. الله الذى «هو غنى فى الرحمة».. لكننى لا أعرف الطريق إلى محبته الكثيرة. إنها قائمة هنا.. أعرفها وأؤمن بها لكننى لا أجد منفذًا إليها ولا أعرف متى قد تحل أو تنطلق كالريح من باب ضيق.. كنت أقول وأنا أكلم نفسى وكأننى أريد أن أكلمه إنك تتكلم «إنسانيًا» من أجل ضعف جسدنا وإنك تعلم أن جسدى «مبيع تحت الخطية».. وأنت تعلم كما «أننى أعلم أنه ليس ساكنًا فىّ، أى فى جسدى، شىء صالح». فماذا أفعل.. ماذا أفعل.. «والقادر أن يفعل فوق كل شىء، أكثر جداً مما نطلب أن نفتكر بحسب القوة التى تعمل فينا..» هذا القادر تركنى دون قدرة أن أخلع أعمال الظلمة وأن ألبس أسلحة النور.

يا رب، يا رب.. لماذا أسلمتنى إلى هذه البركة الآسنة التى تسكن فى أعماقى وفى أعماقها الخطية الساكنة فىّ؟ ولماذا تركتنى، بكل إرادتى الحاضرة لا أستطيع أن أفعل ما أريد؟ لماذا تركتنى أفعل ما فعلت؟ إننى أندم، لكننى أندم ندمًا بلا خلاص ولا توبة.. وكلمات الرسائل تفزع روحى وكأنها عذابات دميانة وأنا أعرف أن لا أمل فى شفاء. إن طريقى طريق آخر وما زالت تجاربى مع الشرير لم تكتمل.

نعم، ما زالت تجاربى مع الشرير لم تنته، وما زالت تتملكنى تلك الرغبة التى قد تكون عقيدة شريرة فى أن أعرف حياتى مكتوبة وأن أخطوها مرة أخرى بالكلمات وبالوعى. هل الوعى من الشرير؟ هل هذا الطريق الذى أسلكه هو طريق غير مسيحى؟ هل أنا ماضية فى لعنتى، أم هل هذا هو طريقى للخلاص. طريقى لأن أتلقى النعمة عندما تأتى وأن أكون معدة لها عندما تهب.

إنى لم أكن قادرة فى أيام الصمت حتى أن أعود لإميلى. كنت أحسها جزءاً مما أنا غير قادرة على أن أعود إليه مع حرصى ورغبتى فى أن أفعل ذلك. كنت أظل فى فراشى أحلق فى الفراغ وكراستى تحت المخدة لا أنزعها، وقلمى معها. وأحاول أن أمنع نفسى من أن أستعيد مناظر غرامنا أنا وكريم فى شقة الزمالك التى شهدت كل خطيئتى. وكانت مناظر الحب بيننا تنثال عنيفة مضطربة كلها حركة بدنين انفجر فيهما نهم ورغبة متجددة تتشكل فى كل لحظة فى صورة أو حركة جديدة. وكانت هذه الصور تملأ الغرفة والفراش الذى أرقد عليه فأحس أننى أسيء إلى رسائلى المقدسة، وأننى أستحى منها وكأنما أريد أن أبعدها عن أن تشهد هذه الذكريات. كانت صور الماضى تأتينى غير مرتبة وغير متسلسلة ككل تذكر. ولم أكن أريد أن أذكر بل أن أعى وأفهم.

وامتلأت روحى بهذا الإيمان بالطريق الآخر للخلاص الذى لا أستطيع أن أصوغه ولا أستطيع أن أحدده بأكثر من هذا الحرص على أن أمسك بعذابى وأن أسلسله فى الكلمات المكتوبة التى أتركها ورائى أو لا أتركها. لقد حاولت، وأنا أجد نفسى غير قادرة على الكتابة، أن أسترجع شتات دراستى وقراءتى فى الأدب لأستبعد صور الحياة الماضية التى تستبد بى.

ومر بخاطرى هذا السؤال الغريب عن كل الأدب وعن كل الكتابة، وعن كل محاولات ومخاطرات الكتاب والشعراء الذين عرفتهم. هل يسجلون ويكتبون ليصنعوا بأعمالهم هذا الخلاص الذى كانوا يريدونه؟ هل كانوا هم أيضًا يبحثون عن الخلاص. إنهم يحاولون، ويكسرون كل منطق، وكل صورة، وكل تقليد لينطقوا، ليسجلوا لحظات وحيوات لابد أنها أيضًا قد استبدت بهم، ولم يكن هناك طريق للسيطرة عليها إلا بما قدموه وتركوه من أعمال وروايات وقصائد.

وعلى الرغم من امتلاء حياتى قبل كريم وبعده بقراءات ودراسات لا تنتهى، فإننى أحس أننى وحيدة متروكة لا عون لى من كل مَن عرفت وأحببت من كتّاب وأنه علىّ بمفردى أن أصنع حكمتى وطريقى. كان يخايلنى أحيانًا چويس وحلم التسجيل الكامل للداخل وأحيانًا أتذكر فولكنر وضغوط البيئة والتاريخ التى يصعدها فى كلماته. لكنى كنت أحس أن كل الصور والأساليب التى عرفتها ودرستها فى الأدب لاتنفعنى ولاتطلق ما أريد من معرفة. وعندئذ أحس أن ما ينقصنى فعلاً هو المعرفة. فأنا لا أعرف لماذا أحببت كما أحببت، ولماذا استسلمت كما استسلمت، ولماذا عاش كريم هذه الحياة التى عاشها قبل ٥ يونية وبعدها، وما هى علاقة كل هذا الحب والحياة وما تكشف فيهما من خواء، ببلدى ومجتمعى وبمصير هذا البلد، حتى بعد أن عشت أنا وحيدة معزولة وقد تغير هو، وابتعد واختفى من حياتى وكل أضواء أكتوبر تتفجر فى مصر بأنوارها ومشاكلها ومتاعبها. إننى لا أستطيع أن أضع كل هذا فى دلالة واحدة مخلصة. لكن هل تستطيع أى كتابة أن تفعل ذلك؟ هل يمكن أن أصل فعلاً بالكلمة المكتوبة إلى السر الذى يصرع الشرير ويختتم تجاربى ختامًا غير موت المرضى باللوكيميا؟

لقد مرت لحظات بالبشرية كانت فيها الكتابة عملاً وطقسًا يتم من خلاله الخلاص للفرد والمجتمع. ولكن مَن الذى يستطيع الآن أن يعيد أثينا أو أن يعيد أيام شكسبير! إن كل كتابة الآن محاولة لخلاص فردى يتشبث بها الأفراد الآخرون وكأنما يطبقون على خشبة صغيرة فى محيط قاس من الموج. لقد تفتتت المعرفة كما تفتتت كريات دمى من طول ما فرضه المجتمع على أفراده من خفاء قد أرغمهم عليه حتى ألفوه ولم يعودوا يعرفون كيف يعيشون من دونه. وهذا الخفاء الذى يصنع الفرد هو لعنة العصر التى عشتها كما عاشها غيرى، وهى اللعنة التى تحرمنى كما تحرم كل فرد آخر من أن يجد فى كل مؤسسات المجتمع، بكل أنواعها وأشكالها ما يمنحه الخلاص الذى يحرره من فرديته، فيعطى عذابه

دلالة عامة يشاركه فيها الجميع بل والمجتمع كله والتاريخ والمستقبل. وما أقسى صراع الفرد مع الشرير بمفرده فى البرية، وما أضعف طرقاته على باب السماء ويده وروحه مشغولة بالشرير.

إننى لا أعرف ولن أعرف أبدًا إن كان ما كتبته قد سلك بى طريقًا آخر للخلاص أم لا، ولا أعرف إذا كنت قد انتهيت فعلاً مما أريد أن أقول. لكنى أحس أن طريقى الوحيد هو كمال العذاب نفسه، وإننى لا أستطيع أن أجد تلك الراحة التى أنشدها حتى أنظر النظرة الكاملة لكل ما هو شر. أليست تلك هى كلمات هاردى وإن كنت أتذكرها ناقصة مشوهة. إذا كان للمرء أن يجد أفضل طريق فعليه بالرؤية الكاملة لأقصى ما هو شر. لقد مر هذا الوقت الذى كنت أستطيع فيه أن أقفز إلى مكتبتى لأجد الأبيات بموضعها ونصها. ولم يعد أمامى إلا أن أجترها بقدر ما أستطيع وأنا على الفراش فلا قيمة حقيقية لأى حصول أو تحقيق.

لكنى ما زلت رغم كل ما كتبت فى هذا اليوم الطويل منذ الصباح حتى المغرب، لم أسجل تلك اللحظة التى اشتعلت فى روحى منذ أيام، والتى مكنتنى أن أعود مرة أخرى إلى الكتابة وأن أحس أن الطريق قد أصبح مفتوحًا أمامى لاتوقف فيه. هل كانت لحظة من الشرير هل كانت جزءًا من الجحيم الذى يتحدث عنه بليك. فلتكن أسرع لأن تذبح طفلاً فى مهده، من أن ترعى بداخلك الرغبات غير محققة. أليس هذا جحيمًا بالفعل. أليس هذا من الشرير حتى وإن كانت رغبتى هى أن أعود إلى كنيسة دميانة وأن أزورها من جديد.

لقد وجدت نفسى بعد طول السباحة فى بركة الأحلام الآسنة أشهق بهذه الرغبة وكأنما أستنقذ بها نفسى وأواصل صراعى للبقاء. كانت قدرتى فى بدنى قد أصبحت حاضرة وخفّ هذا التهافت الذى عرفته فى كل شهور اللوكيميا، وأصبح عجزى عن الكتابة هو

مـرضى الذى أريد أن أخلص منه. وقد يكون الـشرير أقـرب ما يكون للروح عندمـا تحسّ عجزها وتعرفه. فلم أكن أرغب فى الحقيـقة أن أزور قديستى، لم تكن هناك دعوة منها فى داخلى ولم أكن أتشبث أو أتضرع بعذابها. كنت فى الحـقيقة أنظر بطرف روحى إلى تفيدة وكأنما لا أريدها أن تعرف أننى أراقبها. كـانت تتحرك بالبيت طول أيام المرض وأيام تحسن صحـتى ورقدتى المستمـرة فى الفراش وكانت تكلمنى كلمـاتها العادية السـاكنة وكأنما لم يحدث بيننا حلف أو لم نتفق على شىء أو كأنما هى قـد نسيت أو تناست تمامًا أننى أموت وأننى أتوقع منهـا أن تنفذ هذا الحـريق الذى اتفقنا عليـه. وصنع الشرير فى روحـى عويلاً متصلاً يدفـعنى لأن أسحب كراستى وأنظر فيها وأن أحس بفـراغها وخلوها حتى الآن من حـكاية الخـطية. فـهل يفـتخر الـشـرير بأننى أكـتب، وهل يـجد فى ذلك خطيـة جديدة؟ هل فقدت الإيمان والثقة بملاكى الحـارس الصامت فى تفيدة؟ أم هل خفت وارتعدت من تصور غيـبتى، لحظة تنفيذها لاتفاقنا! لست أدرى، لكن رغـبتى اشتعلت فى اختـبار نفسى واختبار تفـيدة وفى التخلص من رقدتى فى الفراش. وربما كنت مدفوعـة برغبة جديدة فى أن أستـحضر الموت أو أن أتعـجله بيدى، لكننى قد أصـبحت بكل هذه الأفكار غيـر قادرة على أن أصـمت عن تحقـيق فكرتى بعد أن حبستـها يومين متـاليين لم أستطع فيـهما النوم ولـم أستطع أن أصرفها عن ذهنى.

وصرخت على تفـيدة فى الصباح، وجـاءت لى مسرعـة وهى تقول: اسم الله عليك. فى إيه؟ وخـجلت من نفـسى وأنا أسـتجـمع قـدرتى على أن أضع طلبى فى كلمـات بسـيطة وكأنـنى أريد أن أخفى الشيطان الذى يستبد بروحى. وطـلبت منها أن تتـصل بالتليـفون بفؤاد، ابن بنتها، ليجىء ليحملنا بـالعربة إلى دميرة لأنى أريد أن أزور دميانة. وسألتنى ألن أتعب، وهل نستـأذن الطبيبـة؟ فقلت لها وأنا لا أسـتطيع أن أخفى كل مـا فى نفسى، إننى أريد أن أريك المكان الذى ستحرقين فيه الكراسة. وصمتت تفيدة صمتًا مخيفًا طويلاً وهى

تنظر إلىّ، وكأنما رأت كل مـا كنت أخفيـه. ولم تنطق لمدة طويلة حتى هززتها من ذراعـها وظللت أضغط عــليه كـما فعلت ونـحن نتـفق، حتى قـالت مـرة أخرى، لكن فى صوت لا لون له ولا عاطفة.. حاضر من عينى.

عندما جلسنا فى الـصباح الباكـر فى عربتى البيـضاء الكبيـرة، كانت تفيـدة تحمل حقيـبة صغـيرة خضراء فـيها ترمـوس به ليمون مـعصور وزجـاجات حبوبى، ومـصحف صغـير يحـرسنا فى الطريق. ولم أكن قـد رأيتهـا تضع كل هذا فى حـقيبتـهـا، لكنى أعرف أنهـا ستحمل كل هذا من أجلى. ومن يدرى ماذا كانت تحمل أيضًا فى صدرها أو فى حقيبتها؟ جلست على اليسار فى العربة وجلست إلى اليميـن وحاولت أن تضع مخدة صغيرة ورائى أو عند رأسى فـرفضت، وأنزلت بيننا مـسند المقعـد ورحت أرقب وجه فـؤاد فى المرآة وقد أدار العربة وظل ينتظر أن تسخن قبل أن نبدأ رحلتنا.

لم أتبادل مع فؤاد حديثًا قبل أن ننزل من البيت. فلقد جاء مبكرًا وأفطر مع جدته وعندما استعدت تفيدة للنزول جاءت لتصـحبنى، ولأراه على مقعد القيادة فى العربة، ولم تقل إلا أن «فؤاد جـاهز» وكـأنما تشعـرنى أنها تنفـذ حرفـيًا مـا أريد.. وقد فـتحت هى لى البـاب وأجلستنى قبل أن تجلس، فلم ينزل فؤاد ولم أحدثه.

كان وجهـه الأبيض جميلاً، لكنه شاحب لا حـمرة فيه، وكان يرتدى حلة كـاملة بكرافتة قاتمة وكأنما كـان مستعـدًا لأن يقوم بمهمة رسـمية. وابتسمت وأنا أرى شـعره الطويل على عادة الشبـاب اليوم، ومرت بى، فى لحظة، صور دانيال وخاطر أنه غـاب قبل أن تظهر هذه الموضة. وعندمـا خرجت من بين أسنانى كلمـات خفيـضة لتفـيدة أقول لهـا: «لازم دانيال دلوقت مطول شعـره هو راخر» فإذا بها تجيـبنى ـ وكأنما نتحدث بلغـة غير مفـهومة ـ: «أنا جاية معاى الصـورة فى الشنطة» وانفتحت فى صدرى هوة واسعة صامتـة، وتحركت فيها

ريح من الغضب والكراهية لتفيدة لهذه الملاحقة اللصيقة بمشاعرى وداخلى، وقامت فى نفسى رغبة فى أن أعاقبها طول الطريق بالصمت التام فلم أرد عليها واتجهت إلى فؤاد لأقول بصوت آمر «مش تطلع بأه» وتحركت العربة مباشرة فى صمت وهدوء، ولم أشعر بالدقائق القليلة التى أخذتها العربة لتخرج من القاهرة وفؤاد يسلك طريقًا لا أعرفه.

وعندما أصبحنا فى الحقول لم تتغير سرعة العربة وكأنما السائق ينفذ تعليمات صارمة من جدته التى أخرجت حبوبى، وفى ابتسامة ودون كلمة، طلبت منى أن آخذها فتناولتها بيدى، وأمسكتها طويلاً قبل أن أبتلعها بالكوب الصغير من الليمون الذى قدمته وأحسست أننى أبتلع الموت. ولم تخرجنى الحركات الصغيرة عن صمتى، لكنها جعلتنى أقول بالإنجليزية وبصوت عال «هى نيو نوهاست».

فتطلعت فىّ تفيدة فى صمت وتلوّى وجهها وتخفى فى عينى، وأنا أقاوم الدوار والغثيان المفاجئ، وتراكم عليه أكثر من ظل، فيه خضرة وفيه صفرة، وتعاقبت عليه قسمات من التهديد والتخويف والصمت والرقة، واستمرت العربة فى سرعتها المنتظمة واعتلت حركتها تقطيع مقاطع أبيات إميلى التى حفظتها وكررتها مراراً «لأننى لم أستطع التوقف للموت، فقد توقف هو لى من لطفه، ولم تكن العربة تحمل إلانا فقط، والأبدية» «بيكوز أى كود نوت ستوب فور ديث، هى.. كيندلى ستويد فورمى، ذ كريدج هيلد بت جست أور سلفس، آند إيمور تليتى» ولست أدرى هل كنت أنطق بالمقاطع بصوت عال أم كانت تنزلق فى صدرى وعلى لسانى الجاف فحسب، لكننى أحسست بالرعدة والبرد وأنا أصل إلى: «فور أونلى جوسمار، ماى جاون، ماى تيبت ـ أو نلى تول» وشعرت أن ثيابى قد شفت وأن لفاعًا من التول يتحرك حول عنقى وأنفاسى فصرخت بصوت عال: «أقفل الشباك» وتوقفت العربة مباشرة وتفيدة ترفع مسند المقعد وتحاول أن تضمنى إليها وهى

تقـول اسم الله عليـكى. فـأسترد أنفـاسى وأحـرك لـسانـى فى فـمى كـأنما أبتلع المقـاطع وأستجمع صوتى الهـادئ لأقول لفؤاد: «سوق بسـرعة شوية يا فـؤاد ما عندناش وقت.. وعاوزين نرجع قـبل الضلمة» وانقضى ما بينى وبين تفيدة من شجار لم أعلنـه، فوضعت إصبـعى على شفـتى أحذرها من أن تتـكلم، وربتّ على يديها وأنا أرفع المسند مـن جديد بيننا، والعربة تنطلق فى سرعة أكبر.

وأنا لا أذكر إن كنت قد غـفوت أم لا، لكننى لـم أكد ألتفت إلى الطريق وإلى مـا فيه من حقول وأشجار ومبادئ الخريف، إلا ونـحن نخرج من المنصورة ونكاد نعبر كوبرى طلخا. كنت قد غـرقت فى داخلى تمامًا واستكنت إلى الصـمت الذى فرضتـه علىّ العربة دون أن أعرف بوضـوح ما أنا غارقـة فيه. وقـد كنت أعرف أننى مـقبلة على فعل مـصطنع، وأننى أحمل نفسى وأحـمل تفيدة جهداً لا معنى له ولا مـبرر، لكنى كنت أحس أننى أكرس كل هذا الجهد لأتغلب على هذا الشيطان الشـرير الذى يمنعنى من الكتابة ويعرقل طريقى إلى الخلاص.

كنت جـادة مـصممـة ومع ذلك متـخلية، عـارفة بأن ما أصنعـه قد لايؤدى إلى ما أريد، بل لقـد كان يخامـرنى الشك بأن هذا كله هو أيضًـا من الشرير وأن مـا أصنعه فـيه قـسوة وتجريح مؤلم لنفسى ولتفيدة معًا.

وعندما أدركت أننا نقترب من مقصدنا بدأت أتردد فـيما أنا مقبلة عليه، وأخشى من عين الله ومن غضب قديستى ولومها. وبينما نحن نعبر الكوبرى الجميل تجرى تحته المياه الوفيرة وقد فضضتها الشمس، حـتى رأيت قادمًا من الشرق سربًا أبيض من الحمام. وتذكرت أبى وهو يقص لى رحلاته إلى الدير وهو صغـير، وكيف كان يذهب إلى هناك مع جدته راكبـين الحمير حتى إذا وصلوا طلخـا وخرج عليهم الحمـام كما أراه الآن قال لهم الفـلاحون إن «الست»

ترسل حمامـها ليرحب بكم فإذا بالجدة العـجوز ترفض هذه القصص الساذجـة وتخبرهم: «تعالوا عندنا من الحمام ده كثير..» وتصورت ماذا يمكن أن يقول أبى الآن إذا رآنى وعرف ما أنوى أن أفعل أو إذا رأتنى تلك الجـدة التى لم أرها ولم أعرفها. هل كـانوا يعرفون هذا الطريق السـوى للإيمـان والخـلاص الذى لم أعرفـه، وهل لم يكن فـى حيـاتهم مـثل هذا الصراع الذى عـرفته دون أن أعرف كـيف أخرج منه إلا بمثل هذه الأعمـال والطقوس التى يطل من ورائها الشرير أو يختفى فيها.

ولم أستطع ـ حتى بعد أن طار الحمام واختفى ـ أن أطرح من رأسى صورة أبى وحـياته الصلبة المستقـيمة، وكيف ظل يكتب مدافعًا عن قضيته مهاجمًـا الشرير فى كل ما يكتب. وعلت عيونى غشاوة رأيت من خلالها وجهه فى السـماء وعيونه ترمقنى، فأغمضت عينى بقـسوة كى لا أرى تلك النـظرة، وإذا بى أرتجف وقد انصـفق فى داخلى نفس هذا البـاب الذى أغلقه دانيال وهو يولينى ظهره ويخرج غاضبًا بعد أن رمانى بكلمته الجارحة. وكدت أصرخ من جـديد وأطلب أن نعود إلى الزيتـون. وإذا بتفيدة مرة أخـرى وكأنهـا تلاحقنى وتعرف ما يدور بداخلى:

ـ نفوت على دميرة الأول تستريحى شوية.. قـبل ما نزور الست. فؤاد كمان عايز يشوف أمه وخطيبته.

كانت كلماتها خفيفة متوسطة فيـها طلب ورجاء خاصة وهى تشير إلى فؤاد وإلى ابنتها، وكأنما كانت خجـلانة من أن تطلب منى وألا تكون رغبتها الوحيـدة أن أستريح فى البيت، لكن الشيطان ركـبنى تمامًا، غضـبت كأنما أهنت إهانة ضخـمة أو كأنما أحـد يريد أن يأخذ منى فجأة كل ما أملك.

ولست أدرى إلى الآن لماذا كان كل هذا الغضب أو لماذا تضخمت تلك الكلمات البسيطة التى قالتهـا تفيدة فأصـبحت كأنها مؤامـرة علىّ؟ كنت مرهقة إرهاقًا شـديدًا وكان الهدف

الذى أسعى إليه يثقل علىّ كما تثقل علىّ رغبتى فى التخلص منه، والعدول عنه. وكانت كلمات تفيدة كأنما هى فسحة لى أن أتراجع وتأييد لرغبتى فى العودة. فتحركت كل تلك القوى الغامضة التى ما زالت تدفعنى للحياة وللكتابة إلى الآن وصرخت فى وجهها: لا.. لا.. حنطلع بلقاس على طول.. وحنزور.. ونرجع.

ولم تنبس تفيدة بشىء. ونظر فؤاد إلى الخلف، ثم دار بالعربة ليتجه فى الطريق إلى بلقاس مبتعداً عن الطريق إلى دميرة الذى أعرفه تماماً والذى سقت فيه مراراً، متخذاً هذا الطريق الجديد إلى الدير الذى لا أعرفه ولم آخذه أبداً من قبل. وشغلتنى قسوتى عليهما عن صورى القاسية المضطربة. وبدأت أفكر كيف أكسر هذا الصمت الثقيل الذى فرضته على العربة وكيف أقترب من تفيدة من جديد.. إننا مقبلتان معاً على شىء. وأنا أعتمد عليها تماماً فيه، فكيف أحملها عليه وهى غاضبة، وكيف أطمئن إلى صدقها وقد أهنتها وأهنت حفيدها؟.

كنت أحس بقسوتى، لكننى كنت أدرك أن هذه القسوة قد أعطتنى قوة فقدتها طول الطريق وصقلت عزمى وتصميمى من جديد، وليس علىّ الآن إلا أن أبحث عن شىء ليبعث على شفتى تفيدة بسمة. وظللت مدة غير قادرة على أن أصل إلى كسر الصمت أو ابتعاث الصلة من جديد بيننا حتى بدا الدير وظهرت قباب كنائسه وخفق قلبى خفقاناً عما سنفعل. وإذا بى أميل عليها وأقول لها فى شيطنة: «فاكرة يا تفيدة اللى بيقوله الناس.. اللى يبص لواحدة ست وهو رايح يزور الست تورم عنيه..» وكافأنى الشرير ببسمة من تفيدة واكتفت بأن ربتت على يدىّ وكأننى طفلة صغيرة.

لقد ارتكبت الكثير من الخطايا، وروحى مثقلة بالحاجة إلى الخلاص، لكننى لا أظننى قد عاينت الشرير كما عاينته فى رحلتى، هذه، وفى هذا الطقس الشرير الذى ارتكبته مع تفيدة

وحملتها عليه بكل ما أملك من سلطات عليها. لقد ارتكبت حرامًا لا أعرف ما هو، ولا أعرف الناموس الذى يحرمه، لكننى أعرف من هذه الرعشة ومن تلك الحيرة والاضطراب العصبى الذى أصابنى، ومن تلك النذر والصور التى رأيتها فى رحلتى، أن هذا الذى فعلته كان خطية كبيرة، لكننى فى نفس الوقت كنت أحس أن علىّ أن أصل إلى هذه الأغوار من الخطية وهذه المواجهة البينة مع الشرير حتى أخلص من عجزى ومن عدم قدرتى على الاعتراف الكامل التام.

توقفت بنا العربة عند الجانب الشرقى للدير وكنت قد وضعت لنفسى صورة عن العمل الذى سألقنه لتفيدة والمكان الذى اخترته لذلك. سنسير على قدمينا من الجانب الشرقى حتى كنيسة العذراء وهناك نضع شموعنا وأصلى أنا كما أريد للحظات، ثم ننتقل إلى الجانب الغربى حيث كانت الكنيسة القديمة، وحيث كان المغطس القديم كما حدثنى أبى. إنى لم أر هذا المغطس، لكننى أعرف أننى قد عمدت فيه، وفى هذا المكان كنت أريد من تفيدة أن تحرق أوراقى.

كانت حقيبتى الصغيرة تحمل إلى جانب أدوات التواليت القليلة التى أحملها، زجاجة كبيرة من الكولونيا وهذه الكراسة الرقيقة التى أكتب فيها، وقلم دانيال. أما حقيبة تفيدة فقد عرفت ما كان فيها وإن ظلت هى لاتعرف ما أحمل حتى صليت صلاة سريعة لم أرتعد فيها إلا وأنا أقول «ونجنا من الشرير» وأسرعت بالخروج من الكنيسة إلى الجانب الغربى. كان المكان هادئًا ويكاد يكون، فى هذا الوقت من النهار الذى وصلنا فيه أى حوالى الثانية عشرة، مهجورًا تمامًا. وحتى الكنيسة لم يكن فيها إلا الأضواء الخافتة والصور على الألواح الزجاجية. لم أكن قادرة على أن أهدأ للصلاة أو للتطلع فقد كنت مدفوعة فى حركة مستمرة كى أنجز ما بدأت، رغم كل شئ، خائفة على نحو ما أن تفلت منى تفيدة أو أن يتبدد ما بيننا من حلف.

وعندما وصلنا إلى البقعة التى كانت مكانًا للمغطس القديم، وضعت حقيبتى على الأرض وأمسكت تفيدة بكلتا يدى وأنا أنظر فى عينيها كالمجنونة وقلت: هنا.. بصى.. بسيطة خالص. فى الشنطة معايا قزازة كولونيا كبيرة.. تصبيها على الكراسة وعود كبريت واحد بس.

وفتحت الحقيبة ولم أخرج منها شيئًا، لكنى تيقنت أنها رأت ـ كانت عيونها بسيطة كلها سؤال لا أعرف الإجابة عليه، وفيها الكثير من الرحمة أو المسايرة وكأنها لاتملك إلا أن تقبل ما أريد لأننى أموت.. أو لأننى مجنونة أو مجرد بلهاء.. وأحسست بالغضب يتصاعد فى نفسى مرة أخرى فصرخت فيها:

ـ شفتى....

فلم ترد إلا أن قالت حاضر.. حاضر من عنية ياللا نرجع بأه.

ولن أستطيع أن أسجل هذا الجهد والإجهاد الذى أحسست به وأنا أقطع الطريق من الغرب إلى الشرق، وأنا أضع نفسى فى العربة وحقيبتى ما زالت مفتوحة. وعندما أغلقتها لى تفيدة، وتحركت العربة وكنت نصف نائمة أو فى حالة إغماء ولا أكاد أتذكر من الطريق إلا أنها رفعت المسند بيننا واقتربت منى لتضع رأسى على صدرها ولتجعلنى أستريح لأنام والعربة تجرى بسرعتها الثابتة المحسوبة.

وعندما وجدت نفسى فى الفراش فى غرفتى مرة أخرى، فى حوالى الرابعة، كانت دموع غزيرة تجرى فى عيونى وكأنها تغسل شقاوة وتعاسة قديمة، وكنت أحس بقدر من الراحة فى البكاء لم أعرفه من قبل. كنت قد أصبحت كلى حنان وحب لا أعرف كيف أوجهه أو إلى من أعطيه، ووجدتنى أدعو تفيدة مرة أخرى لأقول لها: وحياتى.. خلى فؤاد ياخد العربية ويرجع يشوف أمه. وعندما أحسست أنها ستنفذ رغبتى استدرت ورحت مرة أخرى فى نوم عميق لم أعرفه منذ زمن.

* * *

آنية الهوان

لم يعد هناك وقت.. لم يعد هناك وقت.. هذا الزمن يمر، الأيام تسحب بعضها واحداً وراء آخر مثل أغنام صغيرة تذبح. جسمى يحس النهاية فى داخله وفى تكسر خلاياه.. لكنه أيضًا يحس هذا الجهد الذى تبذله الطبية والأدوية، وتمر علىّ لحظات من الصحة هى أقرب إلى السكون أو الموت الحى.

ولقد كنت أعتقد أن الصعوبات التى تقف أمامى للكتابة قد انتهت. كنت أحسب أننى فكرت بما فيه الكفاية فى صراعى مع تلك المعرفة المسبقة بما سأكتب، وأننى تغلبت على هذا الملاك الساخر المتهكم بما سأقول لأننى أعرفه مقدمًا.. وهو فعلاً معروف. ظننت أننى قد خلصت من عينيه ومن ابتسامة الاستهانة على شفتيه.. ظننت أننى قد أعطيت لما سأكتب قيمة بإصرارى وبحرصى على أن أقوله وبأن أسجله.

لقد انتصرت عليه بالفعل.. ولكن ها أنا ما زلت لا أكتب.

لقد تصورت أيضًا أن تلك الرحلة إلى دميانة مع تفيدة ستخلصنى من ملاك آخر، وستطلق يدى وروحى إلى ما أريد من كلمات. تصورت أننى عندما أطمئن إلى أن ما سأقوله سوف يحرق وأنه سيختفى تمامًا، فإننى سأكون قادرة على أن أحرر نفسى من كل القيود التى تمنعنى من الكتابة. ألا يحب المرء أن يخفى خطاياه فعلاً، حتى وإن كان من الضرورى أن يكشفها ليتخلص منها أو ليبيع الخلاص الذى يريده.

لقد حسبت أننى عندما أطمئن إلى هذا الخفاء الجديد الذى سيلف أوراقى فإننى سوف أعود إليها حرة خفيفة قادرة.. ولكن ها أنا من جديد غير قادرة.. فما هى القيود التى تمسكنى؟.. ماذا يمنعنى؟ لماذا لا أستطيع.. ولماذا أهرب كل يوم من كراستى ومن قلمى.. إلى لا شىء أو إلى قراءة تافهة ضائعة فى الجرائد والمجلات وحل الكلمات المتقاطعة. كم من الساعات أمضيت وأنا أصنع هذا، وروحى تنظر إلى داخلى الذى لايريد أن يتحرك

إلى القلم وإلى الكتابة وإلى ما أريد أن أقـول دون أن يتحرك فى هذا الداخل شىء يدفعنى إلى الورق من جديد.

مـا هذا الذى ينقـصنى.. لقد فـكرت طويلاً.. فيـمـا أريد أن أكتـب.. وتكونت منه على لسانى أسطر كثيرة.. كلها تتبـدد وتزول كزبد الموج أو كقطع السحاب، وأظل على فراشى تتـرامى حـولى الصـحف والمجـلات، أقـلبـها وأقرأ أسطراً هنـا وأسطراً هنا وأعرف أننى لا أحتـاج إلى كل هذه القراءة، فـأعود إلى الكلمـات المتقـاطعة وأحس بسـذاجة مـا أفعل وتفـاهتـه. لكنى أتقـدم فى قدرتـى على القراءة غـيـر القـراءة.. وعلى الحل لتلك الألغـاز البـسيطة، فـلا يكاد يكفينى مـا يتجـمع على الفراش من جـرائد ومجـلات.. ومع كل يوم يتجدد اسـتسلامى وتزداد سرعـتى فى أن أتخلص من جرائد اليوم ومجـلات الأسبوع وكل الكلمات المتقاطعة.. إننى أبتلعها بسرعـة كأنها حبوب.. أو كأنها إدمان. وكلما ابتلعت زاد ضيقى بها وفى نفس الوقت زاد هذا الاستسلام الغريب إليها.

فى الصبـاح بعد أن أفطر.. أمنع تفيدة من أن تـرد على التليفون. أجعلهـا تقول لزوارى.. إننى نـائمـة.. حتى عنـدما جـاءتنى طالبات من سنوات التـدريس ولم يفعلنهـا من قبل.. لا.. لا أريد أن أرى أحداً.. خالى والمحامى يقـتحمان علىّ الغرفة رغم إصـرار تفيدة.. وما أسرع ما أجعلهـما ينصرفان بأن أدير ظهرى.. وأنا أستشـعر التعب والإرهاق.. أنا لا أفعل شيئًا.. إننى أتعب جداً وأحس بإرهاق شديد عندما يكونان هنا.. فينصرفان بسرعة، وإذا بى أعود إلى الفراش لأحملق فى الفـراغ بعض الوقت، أو أشرب كوبًا من الماء البارد، وإذا بى أنزلق من جـديد إلى إدمانى الجـديد.. وفى العصـر.. قبل المغـرب وبعده.. أواصل لعـبتى وفراغى وتبديدى للحظات القليلة التى أعـرف أننى لا أملك غيرها وأنها لن تدوم طويلاً.. وأحـيـانًا أحس كـأننى أنتـظر البـريد وأسـأل عن الخطابات.. وعلى الـرغم من أننى طوال

عمْرى لم أكن أنتظر خطابات فإنه أحيانًا، فى هذه الأيام، أحسن وكأننى أنتظر شيئًا، خطابًا خاصًا، خطابًا غير محتمل ولا متوقع ولايمكن أن يأتى.. خطابًا منه.. وفى لحظات من الشوق لدانيال أتصور أنه قد يكتب.. وأن هذه الخطابات التى تصلنى سيكون فيها واحد منه.. وتصلنى فعلاً خطابات.. تلك النشرات القديمة من ناشرين..

واشتراكات مجلات من أمريكا وإعلانات.. بل ووصلنى خطابان من أمريكا.. قرأتهما وتذكرت الصديقات.. والأستاذ ، وعشت مع كلماتهم لحظات، ليس أطول من قراءة الخطابات نفسها.. وانتهى كل شىء.

عاد الصمت إلى داخلى ولم أجد أية قدرة على أن أرد أو أن أكتب كلمة لهم. ماذا أقول.. كل هذا الجهد الذى بذلوه لتذكرى وتذكّر لحظاتنا القديمة معًا وتمنياتهم الطيبة لى فى حياتى وسؤالهم عن دانيال وعن الجامعة وعن التدريس ماذا أقول عن كل ذلك.. وكيف أرد؟. إن عندى الكثير مما أستطيع أن أقوله لهم وعندى على الأقل الدافع والرغبة فى شكرهم لكنى لا أتحرك، لقد انقطع الزمن بيننا وقد صمت عنهم أمداً طويلاً فكيف أعود للكتابة إليهم وقد تغير كل شىء.

كم كنت أود أن أجد القدرة على أن أتحرك إلى مجموعة الاسطوانات وأن أخرج باخ.. وسانت ماتيو بالذات، وأن أسمع وأنا أعيش مرة أخرى تلك اللحظات من الوجود والتحقق والمعرفة. لماذا لا أستطيع؟ أم هل أنا فعلاً أريد وأنا فقط أغرر بنفسى وأضللها عن هذا السكون المطبق فى داخلى وهذا الاستسلام للحظات التى تمر ويقضمها الزمن واحدة وراء أخرى.

هل أنا لا أستطيع أن أجمع الحوادث وأن أرتبها بحيث تصبح منطقًا واحداً يفسر لى ما أنا فيه. وهل هذا ما أريد فعلاً.. هل أريد أن أرتب السنوات وأن أتعقبها لتصبح

ضرورة، وهكذا أخلص.. هل أنا من جديد أريد أن أصل - ولا أستطيع - إلى أن أرفع عن نفسى المسئولية وأن ألقيها على «الدنيا». ما أغرب هذه الكلمة! إننى على العكس أحس مسئوليتى دون منطق ودون تسلسل.. أحسها قائمة، فأنا التى عدت إلى مصر، وأنا التى أحببت، أنا التى فعلت ذلك كله ولم يفعله أحد آخر مهما كانت الأسباب التى دفعتنى إلى أن أفعل ما فعلت أو أن أصل إلى ما وصلت.. ثم ما علاقة مرضى واقتراب الموت بهذا كله.. لماذا أريد أن أخلق صلة ضرورية بين الماضى وبين هذا الحاضر الذى أقف فيه على الهوة. لماذا أريد أن أحصل على المعنى قبل أن أكتب، أريد أن أجعل حياتى كلاً واحداً له معنى قبل أن أموت؟ هل هذا مطلب لى فيه حق! إن هذا التطلب للمعنى خديعة أخرى للروح، غشاوة أضعها على عينى كتلك الغشاوات الكثيرة التى كانت عليها طوال سنوات حياتى. إننى أتصور أننى لو حصلت على معنى لحياتى. فإننى سأتبرر. هل يمكن للإنسان أن يقدم للرب معنى، وماذا يفعل الرب بالمعنى وأنا ما زلت لاأعرف الباب إلى هذا الطريق وليس لدى أحد كلمات أو نصائح تقودنى إليه. إننى كلما بحثت عنه سواء بالقراءة أو التفكير أو سماع الناس وأهل الكنيسة ازددت خطايا وبعدت عن الرب. هل يعرف أحد كيف يصل إلى التوبة؟ إننى على الأقل أعرف الآن أننى لن أصل إليها بالكتابة، وأن هذا الشوق المستمر فى روحى لأن أكتب والذى يتجدد بين حين وحين هو من الشيطان. وهذا العجز الذى أعانيه أمامه هو حماية للروح من خطايا جديدة، لكننى لا أستطيع أن أتوقف مهما كانت النتيجة ومهما أدى بى الطريق.

فى الأيام الثلاثة الأخيرة، كان يعاودنى حلم صغير سريع يتكرر كلما غفوت، ويتبدد بسرعة فى رعشة للبدن وتوقف للتفكير. لقد جاءنى أكثر من مرة هذا الحلم، وأنا فيه طفلة صغيرة أرتدى فستاناً منقطاً ملوناً كفساتين العيد، وعندى ضفائر تتأرجح ورائى وأنا أجرى

فى خضرة، خائفة أهرب من خوف لا أعرفه، وأظل أعدو لأصل إلى ما يشبه جبلاً عاليًا، فإذا ما اقتربت منه عرفت أنه مشتعل بنار عالية تشع منه وكأنها تريد أن تجذبنى إليها فأظل أعدو من جديد محاولة أن أدور حوله وإذا بى أجد الجانب الآخر من الجبل جليدًا كاملاً يبعث الرعشة التى توقظنى وأنا أحس البلل ما زال فى أقدامى من الخضرة التى كنت أجرى فيها ويقوم فيها الجبل. فى بداية رؤيتى للحلم كنت أحسبه جزءًا من مرضى وتكاثرًا للتغير فى داخلى وتيقظًا فى روحى لما يحدث فى البدن. لكنى أراه الآن ظلاً فى البدن لهذا التلوى الغريب بين النار التى أخشاها لو اندفعت وتركت نفسى أكتب، وبين هذا الجليد المتجمد الذى ينتظرنى لو صمت.

لماذا أترك نفسى لهذه الصور وكأنما ما زلت أبحث عن معنى! إننى أعرف على الأقل الآن أنه لن يعود بعد أن كتبته وعبثت به على هذا النحو فهل أنا أريد أن أكتب لأتخلص من كل هذه الأحلام الأخرى فى بدنى ولأقتل كل ما حدث فلا يعود، أم أنا فى الحقيقة قد بلغت اليأس الذى يتحدث عنه كير كجورد. ما أقسى هذا الصامت الكاتب، المتنكر المفضوح. إننى أتذكر كلماته التى عثرت عليها وأنا أشغل نفسى عن الكتابة وأبحث فيه عن طريق التوبة، فإذا فمى يمتلئ مرارة وأنا أترجم لنفسى كلماته:

«إن الدنيا كلها تنقسم إلى مَن يكتبون ومَن لايكتبون. أما الذين يكتبون فيمثلون اليأس، ومن يقرءون لايرضون عنه ويعتقدون أن لهم حكمة أعلى.. ومع ذلك فلو أنهم يقدرون على الكتابة لكتبوا نفس الشىء. إنهم جميعًا على حد سواء يائسون، لكن الواحد منهم إن لم يجد هناك فرصة لأن يصبح مهما بيأسه فإنه يرى أن الأمر لايكاد يستحق اليأس أو يستحق إظهاره، أو هذا ما يعنى إذن أن يتغلب المرء على اليأس؟».

ما أشد مرارة الكلمات وما أقساها وما أشد ما أنا فيه من يأس، لكن هذا فعلاً هو طريق التخلص والخلاص.. وأيضًا طريق الكتابة.

نعم.. يا تفيدة.. لقد قاربت الساعة التاسعة وأنا أنتظر الآن قبل أن تتكلمى وقبل أن تدخلى وقبل أن تحملى لى اليأس من جديد.. سأبتلع حبوبى فى صمت، لكنى سأظل أكتب.

* * *

كان ذلك فى يوم أحد.. إننى أذكر هذا بوضوح فقد قررت وأنا فى الكنيسة أن أذهب إليه. لم يكن قد مضى علىّ سنة فى مصر، وكنت قد بلغت هذا الحد من الحيرة والغربة والتأبى على كل ما حدث وإن كنت ما زلت لا أعرف بالضبط ماذا علىّ أن أفعل. كان خالى ما زال يضغط علىّ، هو وبنات الأسرة كلها، أن أتزوج وأن أعدل عن فكرة التدريس فى الجامعة وكان المحامى دوس يرى أننى قد أخطأت فى أننى لم أسمع نصائحه من قبل وأتخلص على قدر ما أستطيع من الأموال والأرض بالبيع والتهريب، وأن الطريق أمامنا طويل للوصول إلى أى حق، بل وحتى إلى استخراج هذا التقدير للمبلغ الذى يصرف لنا شهريًا للمعاش بعد الحراسة. وكانت الكنيسة بكل ما فيها تغلى بقصص عائلات أخرى وضعت تحت الحراسة فى الصعيد.. وكان هناك قدر كبير من الهمس واليأس من فساد الزمن، وقال لى أحد أصدقاء أبى القدامى لقد أصبح «قضاتها ذات مساء لا يبقون شيئًا إلى الصباح». أما أنا فقد كنت ما زلت أحس أننى أملك حقًا على بلدى وأن بدنى وجسمى وروحى كلها طاهرة، وأن أحدًا لا حق له أن يحرمنى من شىء أو أن يأخذ منى شيئًا.

كان دانيال قد استقر فى مدرسته وبدأ يستعد للتوجيهية، وكنت ما زلت حائرة فى التردد بين بيت خالى فى شبرا وبين البيت الكبير فى دميرة حيث تنتظرنى دائمًا تفيدة، وحيث كنت ما زلت أحاول أن أنصرف إلى كتابة أبحاث أو ترجمة الرسالة استعدادًا لأن أصل

إلى الجامعة على الرغم من حيرتى مع الأوراق، وعلى الرغم من التردد الكامل بل والتجنب الذى أحسسته من العميد ومن كل الأساتذة الذين حاولت الاتصال بهم. إننى أتذكر كل هذا الآن فقد كان البداية، لكن أى بداية وبداية لأى شيء؟

في ذلك اليوم البعيد فى الكنيسة كنت قد قررت، بينى وبين نفسى، أن أذهب إليه، كريم عبد القادر، فى مكتبه الذى ترك لى عنوانه فى تلك الليلة التى داهم فيها البيت وعمل مع مساعديه الجرد وطلب منى أن أحضر إلى المكتب لأتسلم صورة الجرد ولأوقع على إجراءات الحراسة التى فرضت علينا، لكن البداية لم تكن كل هذا. لم تكن البداية هى حتى قرارى أن أذهب إليه. كانت البداية فيما أعتقد فى بدنى وروحى وفى تلك الحركة العنيفة المضطربة التى تتحرك فيهما نحو التمسك بالحياة وبحقى أن أصنعها لنفسى ولابنى، وكانت الحياة ما زالت تتدفق فيّ وكأنها لبن ممسوك فى الثدى.

كانت تلك هى البداية فيما أعتقد. كنت ما زلت أحس أننى بلغت الثلاثين، مع أننى كنت قد تجاوزتها، وكنت أتحرك ببدن خفيف تنحبك عليه تاييراتى الخضراء والبنية التى كنت أحبها وأحذيتى ذات الألوان نفسها والكعب العالى. هل ما زلت أستطيع أن أذكر كيف كنت أنظر لبدنى. كان الروج الخفيف والأحمر البودرة على خدى يعطيان لسمرتى غوراً كنت أعرفه، وستاراً كنت ألقى به الناس، وأعتقد أنه يفرض عليهم قدراً من الإعزاز والمحبة لى إن لم يكن الغيرة.

لقد كنت أعرف نفسى جيداً، فما أكثر المرات التى نظرت فيها للمرآة حينذاك فأجد نفسى قادرة فى أعماقى أن أرفض كل محاولات الأسرة والكنيسة لأن أتزوج وأن أسلم نفسى لرجل من جديد. كنت أحب ما أرى فى المرآة وكان يكفينى. وكان الجسد لا يضنينى ويدفعنى إلى احتضان دانيال وتقبيله أحياناً وكأنه أقصى ما كنت أريد. إنى أذكر كل هذا

الآن لأنني أعرف أن «روح الزنى» التى عرفتها فيما بعد، لم تكن قد سكنتنى، وأنتى ذهبت إليه وأنا كاملة متماسكة، جميلة حقًا، لكنى كنت غاضبة فقط وأريد أن أعرف وأفهم.

نعم لم يكن بى ضعف فى ذلك اليوم إلا أنى لم أكن رافضة. لم أكن مثل كثيرين حولى أرفض القوانين الاشتراكية، وكنت حزينة على الانفصال، وكنت أحس أن الثورة قادرة على أن تصنع شيئًا كبيراً فى مصر وأن تفتح آفاقًا لا نهاية لها، لكنى لم أكن أفهم كل ما يحدث ولا ضرورة لكل التفاصيل والعنف الذى أسمع عنه والذى مسنى مباشرة دون مبرر حقيقى من إقطاع أو غيره. لم تكن الأرض تتجاوز كلها المائة والخمسين فدانًا قبل الإصلاح الزراعى، لم يكن لدينا من الأموال ما يستدعى الحراسة مثل بقية الأسر والشخصيات التى سمعت عنها.

كنت أحس أننى فى حاجة لأن أتكلم وأن أعبر عن غضبى وأن أضع أسئلتى كلها أمام شخص مهم، شخص آخر غير كل الذين يرفضون من حولى والذين أتهرب دائمًا من أن أسمع نصائحهم أو أنفذ رغباتهم فى صنع حياتى.

لماذا أتذكر الآن كل هذه التفاصيل.. وما هى تلك الكرة البيضاء من الضوء التى أرى فيها تلك اللحظات البعيدة وكأنما أشاهد شخصًا غريبًا عنى تمامًا، يسير بمفرده تحت هذا الضوء الأبيض الذى يجعلنى أحس أننى عثرت على البداية. ما أغرب هذا الإحساس الذى أمارسه الآن وأنا أكتب، وكأننى أنظر فى تلك الكرة من البللور الأغبش التى تكشف المستقبل. إننى أتحرك بعربتى إلى هذا الجزء من جاردن سيتى المطل على شارع قصر العينى والذى يمتلئ بمحلات تصليح العربات والجراجات. فى هذا الجزء فهمت أن هناك مكاتب باسم ما للحراسة، وأن علىّ هناك، فى لحظة ما أن ألقاه، كنت أعرف العنوان، وقد ترددت طويلاً أن أذهب أو أرجأت الذهاب أسبوعًا وراء أسبوع، حتى كان ذلك اليوم فى الكنيسة

الذى أحسست فيه وكأننى محاصرة من الجميع وأن علىّ أن أهرب وأن أواجه دون أن أقول لأحد إننى ذاهبة، ولا حتى للمحامى الذى كان مقرراً أن يذهب معى. دفعت العربة وسط الزحمة وكدت أكثر من مرة أصدمها، لكننى وفقت توفيقًا كبيراً فى الباركينج، وجدت لعربتى مكانًا آمنًا تمامًا، ونزلت على قدمى أبحث عن المكان، سألت: أين الحراسة. فنظر لى الميكانيكى قائلاً: حراسة إيه يا هانم. فقرأت العنوان فى يدى.. الشارع والرقم.. قال العمارة.. اهيه.. حتى هذا أذكره وهو ينظر إلىّ وفى عينيه فهم خاص، وكأننى بمجرد السؤال قد أصبحت مباحة. كان يبدو واضحًا أنه يعرف تمامًا المكان.

ولست أعرف تمامًا كيف وصلت إلى مكتبه، وكيف سألت عن اسمه، أو نطقت به أول مرة، لكنى أرى نفسى فى هذا الضوء الأبيض تمامًا من نور النيون فى غرفة واسعة مفروشة بالسجاد العتيق والجو المكيف الذى يجعل الغرفة تميل نحو البرودة، ونحن فى العشرينات من مارس، فأنا أتذكر النتيجة والصورة الكبيرة ورائحة التيبروز، واللون الأحمر الخاص لعصفور الجنة فى الغرفة، وأنا أتجه إلى يمينى لأقطع الغرفة الفسيحة إلى مكتبه الكبير.

لا.. لم يكن الحب من أول نظرة أو أى شىء من هذا. لم أضطرب أو أصعق بوجهه الجميل، وإصبع يده اليمنى الكبير فى فمه، أو نظرته الهادئة التى كان لها ثقل وهى تقع من أهدابه الثقيلة الطويلة. كان وجهه أقرب إلى صورة مرسومة لأمير شاب أو شاعر. وكأننى لم أكن قد رأيت وجهه من قبل فى تلك الليلة، فلم أذكر إلا أنه كان يرتدى نفس البدلة التى كان يلبسها فى الليلة السوداء، كما تسميها تفيدة.

لم ينتظر حتى أجلس، ولم يقم ليحيينى بيده، وكنت مستعدة أن أمد يدى. لكنه مد يده وأخرج من تحت المكتبة سماعة تليفون لونها كلون عصفور الجنة وقال هامسًا: الدكتورة زمردة أيوب.. ودون أن يعيد السماعة قال: اتفضلى.. الأوراق جاهزة. كان صوته محايداً كنور النيون، لكنه كان خفيضًا وهادئًا وغير متجه إليه، وكأنه لايرانى.

إنى أذكر تمامًا كيف جلست وأنا أريد أن أظل واقفة من الغضب الـذى أحسه فى داخلى ومن الكلمات التى تزدحم فى صدرى، وأريد أن أخرجها كلهـا دفعة واحدة، فاقتربت من المكتب بصدرى وكأنى أحـاول أن أزداد اقترابًا منه عبر المكتب، وبدأت دفـعة واحدة أقول: أنا لم آت عشان الأوراق.. أنا عايزة أفهم.

وينطفئ تمامًا هذا النور الأبيض الذى أرى فيه هذا اللقاء الأول البـعيد، لكنى أذكر حركة بدنى وأنا أضع حقيبـتى على المكتب، ويكاد صدرى يلمس البللور على المكتب والكلمات العامـة المجردة تخرج مـن فمى وكأنهـا دفاع نظرى أو كأننى مـرة أخرى فى غـرفة امتـحان الـرسالة. كنت غـاضـبة فقط وأنا أتحـدث عن عودتى إلى مـصر لأننى أحبهـا وأؤمن بها.. بل واستـخدمت كلمات عـربية غريبة علىّ مـثل "قلبا وقالبـا" وأنا أتحدث عن عبـد الناصر والثورة وأنا أتساءل لماذا فعلتم هذا بى...؟ أنا أريد أن أخـدم بلدى وقريتى، والجامعة، أريد أن أشترك فى هذا التغيير الكبير فى بلدى.. لكنى فى كل لحظة.. نعم.. هذا ما قلته، فى كل دقـيقة أجـد شـيئًا، لا مـعنى له ولا دليل ولا مبرر، يـقف أمـامى ويعوقنى.. دون أن أعرف ما هو.. ولماذا.. ليه.. ليه.. بدى أعرف.

لم أكن أبدًا على وشك البكاء أو الانهيار فى مقعدى، لكنى كنت أحس أن كل شىء فىّ يريد ذلك، وأننى إن لم أصـمت فقـد يحدث هذا دون أن أملكه وقـد تتغـير نبـرتى المجردة والعـامة، وقـد أكلمـه عن فرحـتى بالعـودة، وعن أحـلامى وأنا فى نيـوإنجلند.. وتماسكت صامـتة وهو صـامت. فارتفع الغـضب من جديد فى صـدرى، وتذكرت كل الذيـن كانوا حولى فى الكنيسة، وتذكرت ما يحـدث لى فى دميرة وقلت: من حقى أن أعرف السبب؟! قلتها بكل مـا أملك من عقل ومن ثقل وأنا أنطق القاف وأضغط عليها ووجـدته يبتسم ويضع إصبعه مرة أخرى فى فمه، ويقف وكأنما يريد أن ينهى المقابلة ويقول فى هدوء وكأنه لايحدثنى:

ـ أنا أنصح.. ماتبحثيش كتير عن السبب.. وبلاش المحامى دوس يحاول عمل حاجة.. بالقانون.. أو غيره .

ومرت فى خاطرى خطابات دوس وكلماته عن التهريب والبيع، وكل ما كان يصلنى من الأهل وأنا فى أمريكا من نصائح، وأحسست أننى لا أعرف كيف أرد، وأنى لا أتحدث مع شخص واحد، فقلت وأنا واقفة وجسدى يرتعش.. عايزينى أعمل إيه:

ـ تمضى الأوراق.

ـ هاتوا..

ووقعت على أكثر من صفحة ويده تقلب الصفحات لى.. وتلمسنى فى لحظة، جعلتنى أحس كم كانت يدى باردة مرتجفة، وأعطيه القلم الحبر الذى أعطانيه دون أن أغطيه مرة أخرى.

لم أقرأ شيئًا وقعت عليه، ووقف أكثر من مرة، وكنت على استعداد لأن أوقع كل ما يريد منى مرات متعاقبة كى أنصرف إلى العربة وإلى الطريق إلى دميرة مباشرة، فلم أكن أتصور أن أعود إلى شبرا وأن أرى أحداً.. حتى ولا دانيال.

وعندما أدرت مفتاح العربة تحدرت دموع كبيرة من عينى، ولم أشكر العامل وهو يساعدنى فى الخروج، وأحسست أننى أبدأ طريقًا طويلاً من الظلمة والوحدة والانفصال.

هل كانت هذه هى الأرض التى تبذر فيها بذور الحب. إنى لا أستعيد الآن إلا ارتجاف الغضب والدموع فى العربة، وأنا أسلك الطريق الطويل لأصل مع الليل إلى دميرة.. وحدى.. صامتة.. لا أعرف ماذا يريدوننى أن أفعل.

* * *

كم أنا قانعة راضية بهذا اليأس الأبيض الذى جعلنى أنام وأصحو بلا حلم وفى تهيؤ واستعداد وكأننى سأقوم بواجب رسمى للكتابة. إننى أحس صراعى كله بعيداً غارقًا فى يأس ناصع كأنه جليد واسع أو ظهيرة جافة أو كأنه «وودن واى» فى أقدام إميلى. إننى أعرف طريقى فيها وأصل إلى ما أريد فى الديوان الملقى إلى جوارى بسرعة وهدوء وكأننى أريد أن أؤجل الكتابة أو أتذوق هذا اليأس والاستسلام الذى أحسه:

يجيء على المرء بعد الألم الشديد، شعور رسمى

وتنتصب الأعصاب متمسكة بالطقوس كأنها قبور

ويتساءل القلب المتصلب، أكان هو حقًا الذى أحتمل؟

وهل كان هذا بالأمس أو من قرون مضت؟

وتمضى الأقدام آليًا فى مسارها

من الأرض، من الهواء، أو العدم،

على درب من خشب

ويصبح المرء وقد زال النظر،

فى قناعة الكوارتز كأنه حجر.

تلك هى ساعة الرصاص ـ

يتذكرها المرء، إن عاشها،

كما يتذكر من جمدهم الثلج ـ الجليد،

فى أول الأمر ـ رجفة البرد ـ فقبضة الذهول ـ وبعد ذلك ـ بسطة الاستسلام.

ذن ذا ليتنج جو.. ليتنج جو. لو أننى أستطيع أن أكرر الكلمة حتى أجدها فى العربية، لو أننى أستطيع أن أترك نفسى فعلاً لبسطة الاستسلام. لماذا تضع إميلى هذه الشرطات والفصلات والغريبة بين كلماتها. ما هذا المنطق الخاص للحظة الاستسلام الذى كشف لها هذا النحو والتنقيط الخاص. كم حاولت فى سنوات الدرس أن أحل اللغز وإن أصبحت أدرك الآن أن الخطأ هو فى اعتباره لغزاً غامضًا يحتاج إلى تفسير. إنه يحتاج فقط إلى متابعة، إلى قراءة، إلى ليتنج جو. كل ليتنج جو.. واحد، وكل «ليتنج جو».. فريد منقط بشرطات وفصلات خاصة.

دقات الساعة الآن وهى تدق منتصف الليل فى البيت الساكن تمامًا ضربات ذاهبة إليه، وأقدام آلية على هذا الدرب من خشب. فى كل ضربة حركة، وفى كل ضربة خطوة أخرى إلى الاستسلام، إلى اليأس الأبيض الأخير. لقد حانت اللحظة التى أعرف الآن أننى لم أكن أعرفها ولا أفهمها. لحظة هى حلم، هى ذكريات واقعة، هى تكرار بلا تذكر، لا تعاقب فيها ولا معنى، لكنها نقطة، أو فصلة أو شرطة طويلة فى جملة خاصة لاتتجاوز سياقها.

إننى أسترد الآن النور الأبيض الذى أرى فيه فراشنا فى شقة الزمالك. أنا عارية تمامًا، وهو قد مد طوله إلى أسفل كى يضع رأسه بين صدرى. أصابعه تعتصرنى، وفمه على ثديى وأنا أحاول أن أتكلم وهو يمنعنى، بأن يضع إبهامه فى فمى، اللحظة كاملة مطلقة، لا نقص فيها ولا تردد. لكنها هناك على الفراش كاملة، نعم كاملة، وهو يعلّم هذا البدن كل حركات الحب التى لم يعرفها والتى لم يكن يعرف أنها موجودة أو قائمة فيه. لم يكن

يتـركنى حـتى يـجن بدنى ويصـرخ وأطلب الموت. إنى لم أعـرف هـذا الحب من قـبل فى حياتى، ولم أعرفه بعده إلا حيرة وضيعة فى ساعات الهوان.

لقد تكررت تلك اللحظات التى عرفته فيـها عارية بجواره، حتى لم أعد أستطيع الآن أن أعدها أو أميزها بعضها عن البعض الآخر. لكنى عندما كنت ما زلت فى تلك الأيام، كنت أرقبها وأميزها وأفصل بينها بما كان يفعل أو يجعلنى أفعله.

كان هادئـًا صبوراً فى الحب يصـعد فـيه فى رفق وانشـغال حـتى يحرك كل خلايـا البدن وذراته، كانـت الخطيئـة تتكرر فى هذا النهم الذى صنعه فـىّ والذى أصبح وكـأنه ضرورة داخلت جـسمى كله مرة واحـدة، دون أن أعرف كـيف تسربت إليـه أو أين تقع. ولم تكن الخطية هى البـدن وحده، وما بيننا من لحظات يعيـشها فى داخلى. كان يحب أن يسـتنفذنى كلى وكان يطلب منى وأنا عـارية فى حضنه أن أقرأ.. نعم.. أن أقرأ له.. إنـنى أكاد أصرخ الآن ولا أستطيع أن أكـتب ماذا كنت أقـرأ له، وماذا كنت أعمله وهو يحـبنى. إنى مع كل يأسى الآن، لا أستطيع أن أنطق بما قرأت له. صمت كصـمت جوتلاند يلفنى. فقد يجدف المرء لكنه لايستطيع أبدًا، بعد أن يفعل، أن يذكر ما قال، والتذكر الصامت يقتل اليأس لأنه يؤجج نار الخطية، إنى أتمسك «ببيت أون» ولو سمعت قهقهة الشيطان.

ودق جرس التليفون بإصرار واستمرار وكأنه هذا الشيطان الذى أكتب عنه. وعلى الرغم من سـخف التـوقع وحماقـة الانتظار، فإن قلبى كله وبدنى بأكمله، قد تحـركا له وكأنما هو ما أنتظر أو مـا لا يمكن أن يحدث. كأن صـوت الجرس فى الليل والبيت السـاكن، وتأخر تفيدة عن أن توقفه لحظات طويلة، عرفت فيـها حماقة القلب وعجزه عن أن ييأس، ورأيت فيـها دهاليـز الروح التى يختلط فـيهـا توقع المعجـزة بتطلب التوبة والنعـمة، بل والغـفران

البشـرى. ما أحمق هذه الخطوات التى أخذتهـا مرتجفـة، لأسبق تفيدة، إلى التليـفون ولكى أجدها قد وصلت عنده وهى تمسك السماعة وتكرر كلمات السائل:

ـ المعلم صاحى!!

ـ معلم مين؟.يا سيدى النمرة غلط.

كان صوتهـا الهادئ لا غضب فيـه، وكأنها تعرف مقـدمًا استحالة كـل ما أتوقع وتعرف أيضًا حماقة القلب ورجـفة الروح فى داخلى وفشلى الساذج فى أن أصل إلى اليأس الذى تصورت أننى وصلت إليه.

أخذتنى بذراعـى ويدها وراء ظهرى وكأنهـا تسندنى لتعـيدنى إلى الفـراش، وهى تقول: انت صاحية ليه؟ أعملك كباية لبن سخن.. كاكاو.

ولم أستطع أن أعـتذر لها، أو أن أخفى معـرفتى بأنها عرفت، لكننى اسـتطعت أن أمسك هذا الغضـب المجنون عليها وأن أهمـس لها وأنا أنتزع نفـسى منها لأسير إلى الأجـزخانة وأحس الجفاف الشديد فى حلقى التهابًا كعمود النار فى صدرى وجسمى كله.

ـ هاتى لى كوباية مية باردة.

واسـتخلصت لنفسى حبـتين صغيـرتين من علبة الحبـوب المنومة وأنا أتساءل مـتى يحين الوقت لأبتلعها كلها دفعة واحـدة لأنام، لكنى عدت إلى فراشى أرشف الماء البارد وأكتب هذه الكلمات بعـد أن قرأت ما كتبت طوال الليل، وعندها انتهيت، كنت أهدأ بعـد فزعة التليـفون، وكنت أكـثر استـعدادًا لأن أحـتضن روحى وحـدى لأستـعيد من جـديد يأسى الأبيض الذى كان يحمينى من الفزع، ويبدو أنه يحمينى الآن من الانتحار.

***

لـم يبق فى الصباح شىء من فزعة الليل أو من حماقة التوقع. خرجت إلى الفيراندا المطلة على الحديـقة القديمـة المغبـرة وجلست على مقـعد من القش وإلى جانبـى الجرائد وراديو

صـغير وكـوب مـن المـاء. فأنا ما زلت عطشى وأمسكت قلمى وكـراستى أحاول أن أصل ما انقـطع من يأس. وعلى الرغم من أننى لم أستطع أن أسـتعـيد تلك اللحظة الفـريدة من بسطة الاسـتسـلام، ولا أسـتطيع أن أتصور أن من المـمكن تكرارها ما دمـت قد أفـسدتهـا وعبثت بهـا، إلا أننى أريد أن أحاول، وأرشف الماء البارد بين الحين والآخـر وكأنما أتصور أنه سيصل بى إلى قاع الروح وإلى أرض اليأس الثابتة التى لاتتحرك.

لماذا لم يكتب أحد أنشودة اليأس يغمغم بها القلب، فيستحضره ويقنع به، وتهدأ كل تلك الرغبـات والأوهام وتصورات المعنى والدلالة، وتتوقف كل حـركة إلى أى شىء. إنه شىء آخر تمامًا غير الموت وغير اكتـمال العدم، إننى أريد أن أتصوره مجرد هذا القص الذى أقوم به الآن للحظات حياتى وأنا أراها تنساب كالرمال بين أصابعى ولا أعرف ولا أهتم كـثيراً إن كـان هذا مـاضـيًا أو أنه حـاضـر ومـسـتـقبل، بل إننى أريد أن أحس أن كل عـائق من رغبـة أو أمل أو بحث عن معنى قد زال تمامًا مـن أمامى، وأننى قد أصبحت قادرة على أن أستسلم.. أستسلم لماذا؟ لا أدرى؟

لقد خرجت إلى الفيراندا وأنا أحس راحة وهدوءًا فى بدنى كله بعد النوم الطويل، وقلت لتفيدة إننى سأجلس فى الفيراندا وإنـنى سأستقبل أى أحد من الزوار، وإنى سوف أرد على التليفون، وإنها تـستطيع أن تخرج فى أى وقت إذا شاءت لتقضى مشـاوير البيت، بل وإنها تستطيع أن تذهب لحـفيدها فـؤاد حيث يقطن مع أقاربه فى شـبرا إذا أرادت. كنت أريد أن أخلص من كل مـا يربطنى به محبـة أو غضـبًا، وكنت أحس أننى قـادرة على أن أواجه أى شىء آخر. وليس غـير تفيـدة الآن يربطنى بها الحب والغـضب. ورفعت فىّ تفـيدة عينيـها الجميلتين كعينى حفيدها وبدا فيهما شىء من الفزع وعدم التصديق، وقالت:

ـ على راحتك.

ثم استمـرت واقفة قليلاً إلى جـانبى تعبث فى أوراق الجرائد والكتب التى وضعـتها على المائدة إلى جانبى وتعدل فى الراديو وكوب الماء ثم قالت وكأنها تختبرنى.

ـ أكلم أبونا فى الكنيسة.

ولم أرد أن أغضب مرة أخرى فأفسد محاولاتى لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من أن أقول لها فى تحد:

ـ كلميه.

وانصرفت عنى تفيدة. وها أنا وحدى أمامى الخضرة الغبراء المتربة فى أشجار الحديقة القديمة، ولم يحضر أحد ولم يدق التليفون مرة واحدة، وكلماتى تقودنى شيئًا فشيئًا إلى نورى الأبيض الذى أرى فيه ما أريد دون أن أريده أو أن أحاول أن أمسك به.

كنت فى دميرة فى صباح كهذا الصباح، لا أعرف ماذا أعمل بنفسى ولا أعرف إلى من أتحدث أو من أستشير، دانيال قد بدأ دراسته فى كلية الطب، وأخبرنى أنه سيبقى فى القاهرة حتى يوم الأحد محاولاً مع خالى وزملائه البحث عن شقة لنا لنستقر فيها. لم نكن نعرف بعد هل ستترك لنا الحراسة بيت الزيتون أم لا. لكننا كنا نتصور حسب تقديرات المحامى، أنها ستستولى على البيت فى دميرة.

كانت قد مرت عدة أشهر على زيارتى الأولى فى مكتبه، وكنت قد استطعت أن أمنع المحامى أن يتعقب الأوراق التى وقعتها أو أن يسأل عما ينوون أن يفعلوا ولم أكن أتوقع شيئًا أو أريد أن أتوقع شيئًا إلا أننى سأبقى مع دانيال فى القاهرة، أرقبه وهو يدرس فى شقة جديدة حتى ينهى دراسته ويصبح طبيبًا، وأننى سأكرس نفسى له وأمضى وقتى فى القراءة والكتابة لنفسى ـ إن استطعت ـ نعم.. كنت فى حال من اليأس والتخلى يذكرنى بما أنا فيه الآن، لكنى كنت دائمة الحركة فى البيت الكبير الواسع فى دميرة، أدخل الغرف وأخرج منها وأدور فيها وأنا أحدد الأشياء التى سآخذها معى لو طردونا من البيت وأصوغ الكلمات والدفاع الذى سأقوله ليسمحوا لى بأخذ لوح دميانة الزجاجى، وكرسى الهزاز،

وبعض أوانى أمى وفازاتها التى أحبها. كنت أعيش لحظة توديع طويلة لكل شىء آخر فى البيت، وكأنما أريد أن أدرب روحى على اللحظة القادمة. لم يكن هناك ما أفعله غير هذا إلا أن أواصل القراءة كلما خلوت لنفسى فى الكتاب المقدس أو فى إميلى مرة أخرى. كانت تفيدة كثيرة التغيب فى الصباح بعد أن تنتهى من عمل البيت لتذهب إلى ابنتها وتبقى هناك حتى موعد الغداء فتعود لى وتتركنى لوحدتى من جديد.

كنت أتوقع بالطبع أن يطبقوا علىّ ـ علينا فى لحظة ما ـ وكنت لا أتصورهم إلا مجموعة من عدد كبير من الضباط الذين يلبسون كما يلبس كريم ويتحركون جماعة أو يصدرون أوامرهم فى صوت واحد بحيث لايستطيع أحد أن يحادثهم أو أن يكلمهم كأفراد، أو أن يتحاور معهم. كنت أتصورهم دائمًا يتحركون، ولايستطيع أحد أن يتنبأ بما سيفعلون فى الخطوة القادمة. وقد حول لقائى الأول مع كريم كل الكلام الذى أسمعه وأقرؤه عن الثورة وعن التحول الاشتراكى والميثاق إلى واجهة من الضجة والكلام الجمعى تخفى وراءها تلك الحركة المبهمة الغامضة الجمعية التى لاتقبل المناقشة ولا تستطيع أن تميز فيها إلا صوت جمال عبد الناصر وهو يخاطب الناس ويبنى لهم مستقبلاً لا أستطيع أن أشارك فيه أو أن أتفهم بوضوح خطوات بنائه.

ولم يكن أمامى بعد الضربة التى وجهوها لى دون حكم أو محاكمة إلا أن أنتظر تصاعدها، وأن أفكر فقط فى كيف أجعلها أقل قسوة وشدة علينا بأن أهرب.. أهرب إلى أين.. خامرتنى حينذاك فكرة العودة إلى أمريكا، لكننى أحسست بما يعنيه ذلك من تخلٍّ كاملٍ عن مصر، وخضوع لما تمليه العائلة علىّ.

وأحسست أن هذا يعنى فشلاً كبيراً لنفسى وإقدامًا على حياة جديدة من جديد لا أعرف شكلها ولا ماذا سيحدث لى فيها. ولم أكن إلى جانب ذلك كله أستطيع أن أتصور كيف أقنع دانيال بالعودة إلى أمريكا بعد كل محاولاتى وأنا هناك، أن أقنعه بالعودة.

لم يكن هناك فى الحقيقة أمامى إلا أن أظل أدور فى البيت وأن أتحسس أثاثه وأوانيه وأن أرقب الضوء والظلال فى أركانه وأنا أقلب موقفى فى رأسى وكأننى فى مصيدة.. نعم.. فى ذلك الصباح كان الشعور السائد على روحى أننى محصورة محاصرة وأن كل هذه الأشياء العزيزة الغالية على نفسى قد استحالت فجأة إلى قضبان المصيدة بعد أن أصبحت هى نفسها مهددة فى أى لحظة بالاختفاء عنى وحرمانى منها. إنى أذكر خطواتى فى غرفة حكيم التى يستخدمها دانيال وأنا أشاهد الخزانة القديمة التى كانت تحمل أوراق أبى ومجوهراتى وقد رد بابها دون أن يغلق منذ أن جردوها، وأحس أن السنوات قد أصبحت طويلة بعيدة تمامًا منذ أن مات حكيم ومنذ أن كنت عروسًا صغيرة فى هذا البيت. فأخرج إلى الفيراندا وأعبر لوح دميانة، وأحاول الجلوس إلى مقعدى الهزاز وأريد أن أعود إلى ميمرها فأقرأ، لكنى لا أستطيع أن أجلس فأتحرك مرة أخرى إلى المطبخ وأفتح شباكه المطل على الطريق الزراعى القادم من القاهرة، وعلى حقول الفول الخضراء ذات العطر الثقيل، وأحس كأننى مهما فتحت من نوافذ على الهواء فإننى أضيق بتنفسى ولا أستطيع أن أُدخل إلى صدرى القدر الذى أريده منه. وأغلق شباك المطبخ وأعود إلى البهو المظلم الكبير، ذى النجفة الثقيلة الكريستال، الذى كان حكيم يستقبل فيه ضيوفه والذى أصبح الآن المكان المختار لتفيدة لتجلس على الكنب البنى الثقيل ولتسمع الراديو أو لتختفى بعيدة عنى وعن أن تزعجنى. وجلست فى البهو وحدى وقد انتشرت ظلاله القائمة على كل البيت وكأنما ليس هناك شمس فى الخارج أو هواء.

وما كدت أجلس وأضع رأسى بين يدى، وكأنما أريد أن أخفى رغبتى فى الصراخ أو الدموع، حتى فزعت من الساعة الكبيرة فى البهو وهى تدق الواحدة ومعها أسمع أصواتا فى خارج البيت لوقوف عربة وحركة أطفال الحقل وهم يتجمعون كما يفعلون مع

كل عربـة. ودون أن أدرى أسرعت إلى شبـاك المطبخ من جديد لأفـتحـه، ولأنظر منه على الطريق، وعلـى البـاب الخـارجى للبـيت، دون أن يرانى أحـد، وإذا بى أرى تلـك العـربة المـرسيدس السـوداء الكـبيرة على الباب، وأسمع الكلاكس الذى يدعـو للرد عليه، لكننى لم أتوقع أبداً أن تكون العربة أو صاحبها لى أو للبيت واعـتقدت أنها سوف تذهب سريعًا بعد أن يهديها الأولاد إلى ما تريد، أو الى الطريق. وأغلقت شباك المطبخ من جديد وعدت إلى البهو المظلم لأجـلس، وإذا بى أنتفض من جديد بدقات جرس البـاب الداخلى للبيت. تحركت وأنا أرتجف لأفتح الباب الذى يفضى مباشـرة إلى البهو الذى كنت جالسة فيه وأنا ما زلت أعتقد أن الزائر الغريب عارض عابر لن يستغرق صرفه دقائق منى لأعود من جديد لانحصارى وظلمة البيت ووحدتى.

كيف أذكـر الآن بهذا الوضوح حجم الضـوء، ضوء الشمس الذى دخل من البـاب وكاد يُعشى عـينى وأنا أراه واقفًا طويلاً، كله يكاد يمـلأ الباب ويتحـرك لكى يدخل وكأنما كنت أتوقعه وهو يقول:

ـ أخيراً.. لقيناكى يا دكتورة.

وفى جفوة شديدة وكأنما أمنع دموعًا قلت له:

ـ إيه؟! خلاص. وانتـزعت كلمة «اتفـضل» من فمى بالقوة وأنـا أغلق الباب وراءه وهو يدخل بسـرعة ويجلس على نفس الكنبـة التى كنت جـالسة عليـها، فـأتحرك دون أن أدرى لأضىء النجفة الكبيرة وأراه من جديد حليقًا نضراً وكأنه قادم إلى حفل أو سهرة.

وأجلس على مقعد مقابل له وبيننا عرض البهو الكبير منتظرة أن يتكلم أو أن يعمل شيئًا، وكأننى أتفرج عليـه. لكنه ينتقل إلى المقعد المجاور لى، ويـجلس من جديد، وكأنما يريد أن يهمس لى بشىء أو أن يكون قريبًا ما استطاع.

ويقول: آه.. يا دكتورة.. الحمد لله خلاص.

هل كان صادقًا مخلصًا وهو يحمد الله، هل كـان سعيدًا فعلاً بأنه ينقل لى نجاحه فى رفع الحراسـة عنى وعن دانيال. إننى لا أذكـر بوضوح الآن كل كلمـاته. لكنها كانـت مضطربة متـقطعة لاتحـمل إلا الخبـر وتكرره دون أن تقدم تفسـيرات أو أن تعطى تفصـيـلات. كان يتحدث عن لجنة انعقدت وعن إعادة للنظر فى الأمر، وعن إجراء تحقيق تجديد فى الأوراق التى عندهم، وأخيراً عن أنه ينتظر استصدار قرار جـمهورى برفع الحراسة عنا خلال أسبوع أو أسبوعين.

لم أفهم فى أول الأمـر كل ما يقوله، وقد أظـننى أعدت سؤاله مرة أو مـرات، وأظننى قد بدا علىّ من الاضطراب مـا جعله يحس أنه بغيـر حاجة لأن يشـرح لى التفـاصيل وأنه من الكـافى لى أن يعطينى الخبر هكذا فى صـورة عامة وسريعة، لكنه كان ينتظر منى شـيئًا آخر أو ردًا آخر عليـه غير هذا الاضـطراب المستمـر الذى لم أستطع أن أتمالكه، حـتى قمت من جواره وجلسـت وسط الكنبة الكبيرة ووضعـت رأسى بين يدى وبكيت.

ووقف على قدمـيه دون أن يقترب منى وهو يشـرح لى كيف حاول الاتصال بى تليـفونيًا فى الزيتـون أيامًا طويلة، وكـيف أنه سـأل عنى فى المجلس الملّى وأنه أبلغ الخـبر اليـوم إلى البطريركيـة الذين أخبروه بأنـنى فى دميرة. وقـال أيضًا إنه فكر فى إرسال أحـد رجاله إلى دانيال فى الكـليـة، لكـنه خشى أن يزعجه، وأنه فـضل أن يأتى بنفسه ليرانى ويـخبرنى. إنه لم يشر بشىء إلى لقائنا الأول فى مكتبه، ولـم يشر ولو من بـعيد إلى دفاعى الذى وجهته له فى مكتبـه والذى كان أشد ما أعـتز به وما أحتـاج إلى تقدير له. ولما رأى صمـتى ودموعى المستمرة، تحـرك عابراً من موقعه قرب مقعـده إلى الكنبة ووقف قرب رأسى وكأنما يريد أن يمد يده ليلمسنى أو يربت علىّ وهو يقول:

ـ كفاية بأه.. معلهش.. بكرة كل حاجة تتصلح.

وفزعت من الكلمة التى كانت كلمتى والتى رددتها لتفيدة فى الليلة السوداء، ووجدت نفسى أبتسم له ابتسامة كاملة عريضة وأنا أقف في مواجهته قريبة منه جداً ومن وجهه، وأحس أن علىّ أن أفعل شيئًا آخر غير أن أمسك به أو أن أفعل شيئًا أوسع من هذا، فأمد يدى إليه وأشد على يده قائلة:

ـ أنا عاجزة عن شكرك على الخبر. وعلى إنك جيت بنفسك.. اتفضل.. اتفضل.. دقيقة.. هاجيب لك حاجة ساقعة.

وقبل أن يتكلم مرة أخرى كنت كالطفلة الصغيرة أجرى إلى المطبخ. وأفتح الشباك من جديد، وأتنفس، وأصب له كوبًا من عصير الليمون البارد وأعود به على صينية وكأننى عذراء خجلى تتقدم متعثرة إلى خطيب.

* * *

لم يطرق علىّ أحد الباب ولم يدق التليفون مرة واحدة. حتى أبونا تيوفيلوس لم يحضر وقد حسبته قد جاء، عندما أنقذتنى تفيدة مرة أخرى من تلك اللحظة التى غرقت فيها فى توقع الحب كما فعلت تمامًا فى ذلك اليوم البعيد الذى زغردت فيه من أجلى.

ناولتنى تفيدة حبوبى وطلبت منى أن أستعد لتناول الطعام، واقترحت أن أعود إلى الفراش من جديد فقد تجاوزت الساعة الثانية عشرة ويحسن بى أن أستريح.

ولم أسترح إلا قليلاً جداً بعد الطعام، لكننى أغلقت الغرفة.. وفى جوها المظلم إلا من نور عند رأسى على السرير، أريد أن أعاود الإمساك بلحظات السقوط التى أحالتنى شيئًا فشيئًا إلى آنية الهوان، كيف يقع المرء فى الحب وهل الحب نفسه أهم، أم ذلك السرداب المضىء الذى يقود إليه.

لقد خرج كريم يومها بعد أن شرب كوب الليمون، بسرعة عندما عادت تفيدة من الخارج وهى تكاد تصرخ عندما رأته فأسرعت بوضع يدى على فمها قبل أن تقول يا نهار أسود كما كنت أتوقع.. وما كاد يخرج حتى أخذتها بين ذراعى أحتضنها وأرغمها على أن تدور معى فى البهو المنير بالنجفة الكبيرة، وكأننى أعلمها خطوات للرقص، وأنا أحكى لها الخبر وأكرر فى كلمات منغمة: كل حاجة اتصلحت.. كل حاجة اتصلحت.. وما كادت تستطيع أن تفلت من حضنى ومن طفولتى المفاجئة حتى وقفت ترقبنى وأنا أتحرك وألمس المقاعد والكنب ومكان جلوسه بيدى، وإذا بها تعتدل وهى تتفرج علىّ لتطلق زغرودة عالية تتردد فى البيت الكبير الفارغ وتردنى مباشرة إلى الهدوء وإلى مزيد من الخجل من نفسى لأننى لم أعرف كيف أحكم مشاعرى.

لكن زغرودتها ترن الآن فى أذنى لأننى لا أذكر أنها فعلتها مرة أخرى فى حياتها معى هذه الأيام، بل لا أذكر حتى أننى سمعتها منها عندما تزوجت.

إن يدى ترتجف وأنا أدخل من جديد هذه المنطقة من التذكر التى تكشف لى عن البداية التى حاولت الإمساك بها طوال هذه الأشهر منذ بدأت الكتابة. إننى أحس هذا الخوف «كالسهم المريش» الذى تحس به إميلى فى أبيات قصيرة غريبة وتقرنه بالتباهى والدمعة:

«خوف كالسهم المريش.. وتباه.. ودمعة»

لقد تركنى هذا اليوم وقد بدأت أنتظره، قال إنه سيعود بعد أسبوع أو أسبوعين ليخبرنى بصدور القرار وبدأت أنتظر ولست أظن أن هناك أنفذ إلى المرأة من الانتظار. فيه تفقد القدرة على المقاومة وعلى معرفة ذاتها، إنها تمتلك قبل أن تستسلم وترتبط قبل أن تحب،

لكنها تعيش لحظات فريدة تجعلها مستعدة كالأرض، نضرة كخدود الورد الصغير. لقد تحول انتظارى للقرار دون أن أدرى إلى انتظار له. بدأت أتذكر وجهه وصوته وطريقة مشيته وبدأت أحس أن علىّ أن أتعرف عليه، وأن أدخل إلى نفسه وأن أجعله يتحدث إلىّ وكأن هذا قد أصبح كل ما علىّ أن أفعله. لم أُخطر أحدًا بما حدث - فيما عدا دانيال - إلا بعد أن أذاعت تفيدة الخبر للجميع، ولم أكن أجرؤ على الخروج من البيت أو الذهاب إلى القاهرة إلا بعد الظهر خوفًا من يأتى فى الصباح كما جاء.

وكان علىّ أن أنتظر مجىء دانيال فى يوم الأحد، وبدأت أشغل نفسى طوال يومين كيف أعد له البيت، وماذا أعد له من الطعام وكيف سأخبره وماذا ننوى أن نفعل بعد ذلك. كانت حركاتى خلال يومين طويلين أذكرهما تمامًا وبتفاصيلهما وكأننى قد أصبحت فجأة ومرة أخرى ربة بيت بدأت أتابع تفيدة ونحن ننظف البيت ونرتب الغرف ونزيح التراب من تحت المقاعد ووراء الكنب، وبدأت ألعب من جديد فى دولاب ملابسى وأنظم أدوات الزينة وزجاجات العطر، ودخلت المطبخ أتفقد كل تلك الأوانى والحلل والطاسات التى لم أرها ولم تمسها يدى من زمن. كانت تفيدة تغنينى عن كل هذا، وكانت قد جعلتنى أطمئن على روتين عملها ولم يكن لدىّ رغبة أو دافع على أن أتدخل. ولم أكن أدرى بوضوح ماذا أفعل أو ماذا أنتظر. لكن مجىء دانيال كان الحجة التى أقولها لنفسى ولتفيدة وأنا أتحرك ولا أقف عن الحركة فى البيت.

ولم أذهب للكنيسة فى صباح الأحد لأننى لم أكن أريد أن ألقى أحدًا أو أن يتبعثر منى هذا الفرح الذى فى داخلى فأقص الخبر قبل أن أحكيه لدانيال. وبقيت طوال الصبح مع تفيدة نكمل ما بدأت إعداده من الليل. ذكر بط محشى فريك وورق عنب وملوخية،

وعملنـا أيضًا يومهـا طعمـية باللحـمة المفـرومة، وأخرجت زجـاجة نبـيذ أباركـا وبردتها، وحركت الأطباق والسكاكين والشوك والأكـواب التى لـم نستعملها من وقت طويل. أظن أننى فكرت فى الشـمع، لولا أننا كنا نسـتعـد للغـداء وشعـرت أن الشمـوع زيادة غريبـة، فأدخلتها بعد أن أخرجتها وكأنما كان يكفينى أن أتذكر مكانها وأن أعرف بوجودها.

وعنـدما ظـهـر دانيال فى ضـوء بـاب البـهو كنت أجـرى لأرمى نفسى فى أحـضانه وإن لم يفتح ذراعيه وأنا أقول له وكل جسدى يرتجف بالانتظار والشوق:

ـ وحشتنى.. يا حبيبى.. أما ليتل موم عندها خبر.

كان دانيال قـادمًا من القاهرة ومن البـحث عن شقة وكان غـير موفق وغاضـبًا، ويبدو أن جلساته وأحاديثه مع خالى والمحـامى قد جعلت أعصابه متوترة وجعلتـه غاضبًا حتى علىّ. وأحسست هذا الفارق الكبير بينى وبينه وكأنـه قد أصبح أكبر منى سنًا وأقدر على التحكم فى نفسـه. لكنى لم أكن أتصور وأنا أجلسه على المائدة وأقص عليـه خبر الزيارة أن غضبـه سـينفجـر على هذا النحـو فى كلمة عنيـفة قـاسيـة، كان مـن الواضح أنها بقـيت معـه من مناقشات شبرا ومن أحاديثه معهم.

قال دانيال: «أولاد الأفاعى..» وصمت وبدأت حفلتى التى أعددتها له تبرد دون أن أكون قادرة على أن أبعث فى نفـسه سروراً وحمـاسًا لشىء. ظللت أحدثه عن أننا سنبـحث معًا عن الشـقة فى مصـر، وأنه لن يكون بحـاجة إلى البـقاء عند خالـى أيام الأسبوع، وأنـنا قد نسـتطيع أن نسـافـر فى الصـيف إلى أمريكـا أو إلى أوروبا.. لنزور باريس ولندن. كـانت روحى مليئة بمعان ومشاعر تتفـجر فى داخلى واحدة وراء أخرى، وهو ساكن متزمت. فإذا تحدث، عبّر مـرة أخرى عن شعوره بالغضب والضيق من أننا لعـبة فى أيديهم، وأنه لـم يعد يحس بالأمـان لا فى الكليـة ولا فى الطريق ولا فى البـيت. وبدأت تتسـاقط منه كلمـات

استهجان لما يحدث فى مصر وما يجرى ويشاهده فى الكلية مما يسمونه عملاً سياسيًا، وقال لى وهو يحاول أن يـأكل: اشكرى الرب أنك لاتدرسين فى الجـامعة. ولما كـثر حـديثه عن الجامعة وعن تصرفات الأساتذة، وعما بدأ يدركه ويشاهده من تصرفات مع الأقباط، بدأت أحس أنه يتحدث بلسـان أهلى وأننا نقف وكأننا فى معسكرين مخـتلفين، وأن هذا الفارق يزداد كلما تحدثنا، فبدأت أهدأ وأصمت.

إننى أذكـر الآن نظرتى له وقـد صمت وصـمت، ونحن على المائدة، وأنـا أنظر إليه وقـد أصبح رجلاً يختلف تمامًا عن أبيه فى كلماته وصوته الهادئ، ويختلف عن أبى فى عصبيته وانشغاله بالكنيسة وبالدين. إنه قد أصبح شخـصًا له غربة علىّ لا أستطيع أن أفهمها أو أن أتجاوزها بسرعة. هل كبر دانيال فجأة وأصبح رجلاً من ورائى ودون أن أدرى، أم هل كنت غارقة فى سحر المـفاجأة والعطاء الذى جلبه كريم فلم أشعر «بتغـير الفصول»، أم هى تلك اللعنة التى صاحـبت حياتى كلهـا والتى أراها الآن وأنا أستعـيد تلك الحيـاة، والتى تدفعنى دائمًا لأن أستعد وأن أهيئ نفسى فـإذا اندفعت بكل قواى وبكل روحى صحوت على هذا «الفجر المختلف الآخر». فهل ما زال علىّ أن أستنشق فجرًا آخر مختلفًا.

إننى أذكر وكأننى ما زلت هناك فى دميرة من أكثر من خمس عشرة سنة، ودانيال يواصل طوال اليـوم سكوته وتزمته ويجردنى من كل محاولة أبذلهـا معـه، حتى إذا دخل فـراشه بالـليل وذهـبت إليـه فى آخر جـــهدى لأن أقـتـرب منه وأن أقـربه منـى فـقـبلنى بـبـرود، ولـم يستـخدم مـرة واحدة ليتل مـوم، لكنه قال لى وأنا أتظاهر بدس الغطاء حـوله: يا ريتنا سمعنا الكلام وفضلنا هناك.

ولـم أنم تلك الليلة، وظللـت أتقلب ببدنى وروحى وأعـرف منهـما أحـاسيس كنت قـد ظننتها انقضت. لكن أتذكر وخزهمـا الأول الآن، وقد استحال إلى هذا الخوف الذى يمزق الروح كـأنه «السـهم المريش»، وأنا أسـمع تفـيـدة تتسـلل إلى الغـرفة لتـخـبـرنى أن أبونا تيوفيلوس قادم علىّ.

وقبل أن أراه أحس أن روحى وبدنى يصـرخان فى داخلى، وأننى لست إلا مرضًا كاملاً يقارب النهاية، وأنى أفقد من جديد تلك البداية التى أمسكت بها فى كلماتى الآن، ولا أكاد أعرف دفاعًا عن نفسى إلا أن أعد روحى لأن أسأل أبونا أن يقرأ لى من جديد.. وبدأت أسمع قبل أن يدخل علىّ كلمات «هوشع» وآيات جومر.

* * *

جومر، جومر، ماذا تعنين لى؟ أنت «امرأة زنى» وأنا كذلك. فهل أتخذك رمزًا لى؟ هل أحاول بذلك وبطلبى من أبونا قراءة هوشع أن أزداد فهمًا، أن أعرف المهبط الذى وصلت إليه، أو أن أرقى من خلالك إلى الفهم وإلى معرفة اللعنة والتوبة معًا.

إن السفر ما زال مفتوحًا أمامى بعد أن خرج أبونا وهو يكاد يدرك أننى أفهم السفر الغريب فهمًا غير الذى شرحه، أو أننى لم أكن أريد منه إلا أن يقرأ وأن يحمل الكتاب الثقيل لى. أما أن يفسر وأن يشرح وأن يستخرج العظة، فهذا ما جعلته يفهم أننى لا أريده.

كتابى مفتوح أمامى وأنا أنقل منه كلمات أريد أن أرددها، وكأنها عديد يفتح الطريق لقلبى أن يصل إلى ما يريد وأن يختتم هذا الصراع الطويل مع الورق والقلم:

«والآن أكشف عورتها أمام عيون محبيها ولاينقذها أحد من يدىّ، وأبطل كل أفراحها وأعيادها ورءوس شهورها وسبوتها وجميع مواسمها». هل ما زالت لى عورة لتكشف. وهل بقيت عندى أعياد ومواسم.. «وأخرب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتى التى أعطانيها محبىّ وأجعلهما وعرًا فيأكلهما حيوان البرية».

كانت هى إذن أجرتى. هى تلك الحياة وهذا الحب وهذا الانطلاق والتشكل وراءه ومعه فى القاهرة وخارجها. فى الأدب والسياسة والثقافة والتنمية للمجتمع، وفى كل هذه المراحل والخانات التى خلقتها الثورة والاتحاد الاشتراكى، واجتماعات الداخل والخارج مع الأساتذة وممثلى الدول الاشتراكية وغيرهم ممن كانوا يخدمون النظام أو يستخدمهم.

لم تقدم لى أجرتى مرة واحدة، ولم تقدم لى كمقابل، لكنها صاحبت الخطيئة والخطأ. وما أبسط الأمر لو كانت أجرة، أو لو كنت عرفت أنها كذلك، إن أبى تيوفيلوس يخطئ تمامًا فهم الأجرة. وأنا أيضًا ما زلت لا أفهمها تمامًا، لكنى لا أفهمها كما لا أفهم كل رمز. إن كل رمز هو مرقى، وقد يكون أحيانًا مهبطًا، لكنه أساسًا محاولة للفهم، وعندما نحاول أن نفهم نهبط دائمًا بما نريد فهمه. إننا نحوله عما حدث إلى مساق له معنى نختاره ونحدده. وهذا البحث الشاق مع نفسى للحصول على معنى لحياتى وعقابى هو تحرير لما حدث وانحراف به.

فى أشهر قليلة بعد رفع الحراسة، كنت قد عينت فى الجامعة.. قابلت العميد واستمعت منه إلى كلام غريب عن قيمتى وقيمة تخصصى فى الأدب الأمريكى، وحرص الجامعة على أن تنتفع بى. ولم أكن أتصور كيف يمكن أن تتغير العقبات، وأن تجد الأوراق مَن يحركها، ومَن يوقعها ومَن يبحث عنها ليحقق بها الأمر الذى وجه إليهم من كريم عبد القادر أو كما قال لى: احنا.. كلمناهم.

لم أكن أتصور أن هناك أمرًا يستطيع أن يغير رأى الجامعة والأساتذة وأن يحل مسائل الميزانية والدرجات، وكأنها لم تكن عقبات حقيقية على الإطلاق أو كأنها كانت مجرد أوهام أو أوامر أخرى. ولم أكن قد تعلمت بعد أن الأوامر هى أيضًا أوهام فى نظام كالنظام الذى عشنا فيه. وحاولت أن أقنع دانيال أن الأمور تتغير وأن أمه «ليتل موم» قد أصبحت لها قيمة فى بلدها، وأنها ترقى وتتحرك فى مدارج قريبة من السلطة ومن أصحاب الأوامر. وكنت حينذاك ما زلت أحسب أن الأوامر رأى وأنها حكمة وأنها سلوك علينا أن نفسره وأن نتقبله ونشرحه للآخرين. لكن دانيال بشبابه كان يرفض. كان ينغلق على نفسه ويزداد كل يوم غربة عنى مع ازدياد محبتى له وتعلقى به كفرح مطلق وككل ما أحتفظ به لنفسى من نجاح لاشك فيه ولا ريبة ولا أوامر.

كانت الحوادث والأحداث، والأعمال والأيام التى تربطنى بكريم، تصنع بينى وبينه غربة متصاعدة وكأنما هو يرانى أتحول إلى رمز لكل ما لا يستطيع أن يقبله أو أن يفهمه من الثورة والنظام وما يحدث فى الكلية عنده.

إننى أعلم تمامًا أننى أفكر، ولا أحكى. وكيف أحكى ما حدث وأنا فى كل لحظة أحاول أن أجعل له معنى، أو أسجن نفسى فى رمز يكشف لى دلالته. لم تعد هناك حكاية بعد فى كل ما كتبت، لكن هناك معاودة مستمرة لما سجلت هنا من صراع الروح مع ما أحس أنه عقاب إلهى على «أيام بعليم» التى أمضيتها حتى ضاع منى دانيال وأغلق كريم بابه فى وجهى واستحالت علىّ رؤيته ورأيت بالمصادفة الزمردة الضائعة على صدر زوجته.

«وأعاقبها على أيام بعليم التى فيها كانت تبخر لهم وتتزين بحزائمها وحليها وتذهب وراء محبيها وتنسانى أنا يقول الرب».

وعندما أردت أن أعود إلى جومر عادت تفيدة لتردنى إلى طريق الحبوب والموت.

***

لم أستطع أن أصرف تفيدة بسهولة. لقد حفظت الطقوس، طقوس الموت القادم، وكان عليها أن تحفظ الوقع للحياة الباقية. وقد عرفت منها أن البشر لايستطيعون مواجهة الموت حتى عندما يعرفون أنه قادم. إنهم دائمًا يتصورون أنهم قادرون على فعل شىء أمامه. وكلهم ينتظر المعجزة، وهم لا يعلمون أن كل لحظة حياة معجزة. إنها الآن تحاول دائمًا أن تقترب منى، وأن تعرفنى أكثر مما عرفت، لأننى أحمل الموت وهى تحس أنها إذا علمت ما فى روحى وما فى بدنى فستصبح أقوى. كيف يصبح المرء أقوى بمعرفة الموت.

عندما جاءت ولم ترد أن تنصرف، قالت لي ماذا تريدين وكأنما إرادتي معرفة لها. وكان السؤال أصعب عليّ من أن أجيب، أنا أريد يا تفيدة معنى لحياتي، وأريد أن يعود دانيال، وأريد أن أموت وأنا فاهمة لإرادة الرب متفاهمة معها، فهل تستطيعين أن تساعديني في ذلك. إن كل ما تستطيعين أن تحملي لي الموت في أكواب المياه وحبوب الدواء، وفي محبتك التي لاتنفع فيما أسلكه من صراع.

هل من المستحيل أن تلقي القناع الذي صنعته علاقتنا، قريبة أو بعيدة لقد اقتربت مني حتى غسلت بدني وتعرفت دون أن أدري على علاقاتي بكريم وعرفت متى كنت أعود بعد أن رقدت له. لكنك لم تعرفي إلا الأجرة. فهل أنت صاحبة الحق في المعرفة، أم هل أنت مجرد جزء من هذا الإطار الذي وقعت فيه أيام بعليم وأنك بذلك مشاركة فيه؟

إنني أنتظرك في منتصف الليل، لأن هذا موعد حبوبي. وبين التاسعة ومنتصف الليل ماذا تفعلين. هل تنتظرين موتي، تنتظرين لحظة التخلص مني، أم تنتظرين المعجزة؟

ليس لدي شك في أنك تعرفين كل حقائق حياتي. لكن الذي لا تعرفينه هو ما أريد أن أسجن فيه نفسي من رموز. أما الذي لا أعرفه أنا فهو حكمك عليّ، وكل ما أريده هو هذا الحكم وكأنه المعنى الذي أريده. فهل نستطيع أن نتصارح أو أن نتكلم مرة واحدة دون طقوس. إن في هذا استحالة كاستحالة وصولي أنا إلى المعنى، لكنك لاتدركين ذلك أو هكذا أتصور.

تفيدة، تفيدة، كيف أصبحت تعنين ما تعنين بالنسبة لي؟

هل كل تلك الرموز التي أستحضرها حولي هي بعض من تباريح الموت جومر ودميانة، إميلي وتفيدة، كلهن فجأة رموز. لم أصنعها بنفسي، لكني أتخذها لنفسي دون أن أدرك بوضوح معانيها ودلالتها.

لقد وقعت على جومر دون سابق معرفة أو إصرار من جانبي. لقد أسرتني قصتها وأنا أقرأ كيف عاملها زوجها: «ها أنا ذا أتملقها وأذهب بها إلى البرية وألاطفها وأعطيها كرومها من هناك ووادى عخور بابا للرجاء وهى تغنى هناك كأيام صباها وكيوم صعودها من أرض مصر».

إننى أطلب الرحمة، أطلب الملاطفة. أطلب الغفران الذى يردنى كما كنت يوم صعودى من أرض مصر. فهل هذا هو كل ما أريد من جومر، هل لهذا تحيا فجأة فى روحى وتتوهج كأنها زمردة؟

وأنت يا تفيدة مع كل يوم، وأنا أنظر إلى صمتك وحركتك، أراك تحتوين كنوزًا أطمع فيها وأود لو أنها فجأة تفتح لى بابًا لرجاء، لكنك تصمتين، تصمتين الصمت الذى أعرفه، وتتكلمين وتتحركين لتحركى الحياة لى كى تمر. لقد قسوت عليك قسوة شريرة يوم ذهبنا معًا إلى دميانة. لكنك لم تفاتحينى مرة أخرى فى الأمر، وكأنه كان مجرد حبة ابتلعتها أنا. ما هذه القدرة الفريدة فيك على هذا النوع من الصمت؟

إننى أصنعك لنفسى معركة مفتعلة، أريد أن أنتصر فيها بعد كل هزائمى.. فهل تخضعين.. هل أستطيع أن أجعل نار الموت التى تتأجج فى داخلى تلفحك.. ولو مرة.

إننى أحسه يقترب بشدة.. لكنه يتشكل حولى فى رموز وأنا أريد الذكريات. أريد الحقائق فلا أصنع إلا غموض الرمز. ما أكبر الفارق بين رموز الرب ورموز الإنسان عندما يريد أن يفهم. رموز الرب، وكل كتابنا رموز، هى وقائع وسلوك وقيمة مقررة، لا تستقر ولاتقوم إلا فى الروح الخالصة للرب المكرسة له. لاتعرفها حقًا إلا دميانة. أما أنا فأصنع من كل شىء معارك منحولة، أنتحل الغوص وأنتحل الدلالة وأنتحل القيمة.. كل ذلك لأحاول الفهم!

لماذا لا أتساءل مباشرة عن الواقع، وعما حدث. لماذا لا أكتبه وحده، ولكن كيف. هل هناك أبدًا واقع وحده.. الموت فقط هو الواقع المفرد.. المنفرد.. أما طريق الحياة، وطريق الخلاص فكله رموز إنسانية هى معارك مصنوعة، هى محاولات فاشلة للفهم، هى تنزيل للواقع كى يصبح فى متناول الفهم. وعندما نفعل ذلك ونجعله رمزًا يزداد فشلنا فى الفهم.

هل لهذا تزدهر الرمزية فى عصور الانحدار والتدهور. إننى أذكر كيف اصطرعت فى شبابى مع نفى الرمزية عن إميلى. وكم أود لو أستطيع العودة إلى هذه القدرة وأنا أنفض كل أوهامى ورموزى التى هى أقرب إلى أوامر الديكتاتور المطلق السلطة.. مجرد أوهام. إننى أريد المستحيلين على الأرض والسماء.. الفهم ونعيم الرب:

فهل النعيم.. مكان.. سماء.. شجرة

إن السبيل الضيق للحيز والمكان أمر من أمورنا

أما للموتى

فليس هناك جغرافيا

لكن بلوغ المجد إنعام وتركز.

فأين يطير.. هذا الحضور الدائم؟

ما زالت إميلى تعلمنى أن علىّ أن أقنع بالجغرافيا، وما زالت تفيدة تفرض علىّ الحيز والمكان والثانية عشرة.. وكوب الماء.

* * *

الأبوكاليبس

قمت فـى الصباح متشبثـة بالجغرافيا، إننى لم أحلم لـكنى تذكرت، تذكـرت بوضوح الجغرافـيا، تذكرت أو حلمت أو وجدت نفسى مرة أخرى فى جغـرافيا واضحـة محددة. أليست الجغـرافيا واضحة محددة، ألـيست الجغرافيا هى الشىء الوحـيد الذى يستطيع المرء أن يعود إليه ثانية.

كنت معـه مرة أخرى فى اجتمـاع، حفل. كثيـرون هم الذين وضعونى، وضعنـى معهم، كلهم مثـقفـون يريدون أن يعملوا، أن يصـبح لهم دور وأن يصلوا إلى هذا الدور بما لديهم من أفكار هى فى الحـقيـقـة كلمات. كـان الكبـار يحضـرون الاجـتمـاع، الحفل، مـرة فى ملابـسهم العـسكرية، ومرة فى حللهـم الرسمـية والسـولكا الملونة الهادئة. كـانوا جـميـعًا مثـقفـين، دكاترة وأسـاتذة، ومتخـصصـين. وكان الكبـار يبدون نحـوهم نوعًا من الحـيرة والحرج. إنهـم لا يستطيـعون مرة واحـدة أن يسكتونهم أو أن يـرفضوهم وكل مـا يريدون معهم أن يصلوا إلى طريقة يسكتونهم بها وكأنهم أقرباء فقراء.

كـانت الثقـافـة بالنسبة لهم، أو بالنسـبـة للكبـار، فأنا لا أسـتطيع مـرة واحدة أن أحـدد الجغرافيا، مجـرد معرفة وكأنها معرفة لبعض الشوارع فى مـدينة، معرفة بمصنع أو بحديقة، مجرد معلومات، واحد مر من هنا وواحد لم يمر.

وعندمـا يخطب الأستـاذ الجـامـعى، مَن هو، إننى لا أسـتطيع أيضًـا أن أحـدده. كـانت الكلمات تنصب، تصدر، تتولد من شدقيـه وتحس بوضوح أنها لاتهبط أو تصنع فى عقله. كان يقولها لهم وكأنها أشياء جاهزة متزايدة كاللعاب فى فمه.

ولم يكن هذا كل الحلم أو الجغرافيا.

فى ساعة أخرى من الليل: فى لحظة مفروضـة علىّ من التذكر، فى شارع آخر كنت أسير وحدى فى الليل الذى هو ليس حلمًا.

لماذا أتوقف ولا أستطيع أن أسير، إنه الحلم الذى كان يجعلنى طوال هذه المرحلة من الكتابة أقف، أنصرف، أتجه بروحى إلى شىء آخر.. إلى ذكرى أخرى.. إلى إميلى.. إلى الكتاب المقدس.. أو أنتظر الحبوب من تفيدة.

إننى أعدد الأحلام كى لا أصل إلى هذا الدور الليلى حول بيته والذى ما زال قائمًا فى روحى وكأنه دائرة الخزاف الذى صنع آنية الهوان.

لكن قبل أن ينتهى النهار، هذا اليوم، أريد أن أكون قد خلصت من كل حلم. لكن روحى تتشبث بالخفاء وتريد أن تواصل إخفاء الهوان وكأنما أنا لا أريد أن أفرغ من الكتابة.. أو من الحياة.

عندما كنت إلى جواره.. أين هذا الجوار الآن.. ولماذا أريد أن أبدأ به. هل لكى لا أصل إلى آنية الهوان؟ هل لأتجنب هذا الليل الذى لم يكن جواراً ولم يكن حلمًا. إن أحداث حياتى معه، كريم عبد القادر، تنتصب أمامى كأنها شواهد تتجاور ولا تتلاحق ثم تغير أماكنها دائمًا وكأنها لم تحدث من زمن بل هى مجرد قائمة هناك، لا.. إلى جوارى هنا على الفراش.

ما هى ذكريات المرأة بعد الخمسين إلا كل أولئك الأطفال الذين لم تلدهم. لقد ظللت أمنع الحمل طول علاقتنا معًا لأنها كانت حياة فى قلب الضوء والحكم والسياسة. وهل أريد الآن أن أتذكر بالتفصيل كيف انزلقت إلى هذه الدائرة. إننى أتقاعس مرة أخرى لكنى أريد أن أصل ولايهم الطريق. كم ظللت أبحث عن البداية وما زلت حتى أصل إلى قرار.

هل محاضراتى فى الجامعة وتحمسى لها وتحركى مع الطلبة والطالبات وأحاسيسى بأننى أعود فعلاً إلى مصر داخل الحرم هو البداية؟ كم بداية اخترت!

كنت أكتب وأقرأ لهم بالإنجليزية وأترجم معهم ليتذوقوا وليملكوا الأدب والفكر، وكنت محاطة بتلك الرعاية الغربية التى تشعها كلمات كريم من بعيد فى التليفونات، أو أحيانًا فى زيارة قصيرة إلى الجامعة وفى لقاء نجتمع معًا فيه مع العميد وبقية الأساتذة. كان واضحًا للجميع أننى محاطة برعاية خاصة، وكنت أحسها حقًا لى قد تأخر، أو دليلاً على أننى أعمل فعلاً ما يجب أن يعمل. لكنى فى الحقيقة كنت أسوّى على نار هادئة فى فرن خاص لأكون مهيأة له، هل هكذا دائمًا تستسلم المرأة.

فى البداية إحساس بالحق ثم الزهو والتفتح كنضوج الزهرة والثمرة. وبعد ذلك.. بعد ذلك.. آنية الهوان. لماذا أجمجم ولا أنطق، وأتابع ما حدث فى الحرم. على عينى الآن أشجاره القصيرة الطويلة بين الكلية وإدارة الجامعة. والغرف والقاعات التى جلست فيها هى قاعات المحاضرة، وأنا أشارك فى الاجتماعات التى صنعها التحول الاشتراكى. كان هذا التحول مثل تيار من الكلمات ينجرف فيه الأفراد ويغير من مواقعهم وهم لا يملكون إلا الاستسلام فى فرح أحيانًا وغيظ أحيانًا أخرى، ولكن فى دهشة مستمرة.

لقد نجحت فى الانتخابات، ورقيت إلى مساعد أستاذ وأُحْتُسِبَت أقدميتى فى الدكتوراه قبل أن ينتهى دانيال من سنة أولى طب. هل أتذكر الآن مرارة هذه السنوات أم اندفاعها وفورتها، وكنت أدفع شيئًا فشيئًا إلى إعادة كتابة تاريخ الأدب الأمريكى ليتفق مع سياستنا الخارجية فى الستينيات. وكنت أكتب أحيانًا فى الصحف، وظهرت صورتى أكثر من مرة فى الاجتماعات أو على مقالات عن الثقافة والإعلام والتحول الاشتراكى أو عن شخصيات الأدب الأمريكى التى صاحبت أزمة الثلاثينيات.. أبدًا لم أتحدث أو أكتب عن إميلى.

لم نكن قد غادرنا هذا البيت الذى أموت فيه بعد. وكان دانيال يضيق ضمن ما يضيق به، وهو كثير، من تلك الرحلة اليومية إلى الزيتون. ما أكبر الفارق بين صحبتنا معًا أنا ودانيال

فى هذه السنوات وصحبتنا معًا فى أمريكا وبعيدًا فى الصيف. كنت فى كل يوم أزداد معرفة بالميثاق وبخطب الرئيس ومشاكل التخطيط الإنمائى والثقافى والإعلامى وكان دانيال يزداد قربًا من الكنيسة ومن أقربائنا فى شبرا أصدقائه وصديقاته فى كنائس الزمالك. كنت أحس أنه يقصر أو يتباعد عنى صمتًا وانغلاقًا على نفسه وأنا أنفتح بسيل لا ينقطع من الكلام والكتابة التى لا أذكر منها شيئًا الآن إلا منظر أسطرها على الصفحات.. يا إلهى لم كان كل هذا النور الزائف؟ وكل هذه الحركة غير المفضية إلى شئ. وأين ذهب كل هذا الجهد؟

كان دانيال فى عز امتحاناته فى السنة الثانية عندما بدأت، فيما أذكر، أتركه لتفيدة أو لبيت خالى وأسافر مع الوفود إلى برلين وموسكو وصوفيا وبلجراد.

وقد لايستطيع أحد أن يسجل كيف كان كريم يدير هذه الوفود دون أن يتصدّرها، ويضع جدول حركاتها وأعمالها وكلماتها وخطبها دون أن يتحدث هو أو أن يتكلم باسمها. وكان هناك كثيرون، وكنت منهم يحسون بالأهمية وبالقدرة على التعبير والافتخار ويشاركون فى الاستماع والتحليل والنزهات والحفلات. لكنى أستطيع أن أذكر أن أيدينا قد بدأت تتماس هناك أو تتماسك للحظة فى المتاحف فى درسدن أو فى مماشى قصور العصور الوسطى وبيوت النبلاء.

وأذكر أننى بدأت أعرف فى عينيه عندما ينظر لى ضوءًا جديدًا وكأنما يريد أن يقول كلمات الحب. هناك أكلت معه وحيدة على مائدة مفردة فى الفندق أو فى جماعة فى مطعم بالطريق وشربت مع الآخرين ومعه، وزارنى مرة أو مرتين فى غرفتى فى الفنادق دون أن يحدث بيننا إلا مزيد من الاقتراب والألفة وليس الاستسلام. كان هناك دائمًا من الأمور أو القضايا أو التعليقات على مسئوليات الأفراد وما يشغلنا أن نكمل الطريق.

إن المرأة لاتتذكر بالضرورة أول مرة نامت فيها مع حبيبها، بل قد تنسى ليلتها الأولى مع زوجها الذى مات، لكنها تذكر لحظات وليالى أخرى للحب أو للهوان.

لماذا ينتصف النهار هكذا بسرعة، ولماذا تصبح الساعة الثانية عشرة مرة أخرى.. لماذا لاتدعينى ياتفيدة أو تنسين، لقد كنت أقترب.

قمت فى الثانية عشرة بعد ساعة من النوم. وروحى تصرخ على الحب الذى ضاع وعلى الابن الذى اختفى. هذا العويل المخفى فى داخلى هو أقرب ما يكون إلى قلق الترقب، سسبنس. إن إميلى تنتقم منى فى كل لحظة إنها تسيطر على ذاكرتى ومشاعرى وتصنع لى اللحظات «قلق الترقب ـ أعدى من الموت». هذه المرأة كانت مثلى تنتظر شيئًا، تترقب باستمرار فى قلق. إن الأبيات، أبياتها تتصاعد إلى قلبى وتكاد تمسك بلسانى فى تشنج مقتضب.

«الموت ـ مع أنه دائمًا بين حر ،

مجرد موت ، لايستطيع أن يزيد ـ

أما قلق الترقب ـ فإنه لايختتم ـ

لكنه يفنى ـ ليحيا من جديد ـ

لكنه بمجرد أن يتجدد يموت ـ

إنه المحق ـ ينضره طلاء

من الخلود ـ» .

إنه المحق ينضره طلاء من خلود. لكن ماذا أترقَّب، خبرًا أم ذكرى، عودة أم وقوعًا، أم هو الأبوكاليبس. إنها رؤيا لاتريم لكنها لاتحل فى كل لحظة من لحظات حياتى الأخيرة وأنا

أكتب أراها تمتزج بالمرض وبالألم، وبكل ما أكتب من كلمات وبكل ما أفعل، وأنا على الفراش، مع مَن أرى من الناس.. ما أشد آلام هذا السسبنس أم هو المرض قد ارتد إلى الروح واستحال فيها إلى هذا القلق المترقب؟

إننى أحس أننى أقترب وكم أتمنى أن أعبر وأن أجتاز وأن يقع هذا الذى أترقب.

لايفض السسبنس إلا الرؤية. والرؤية تامة لايحذف منها شئ، وليس فيها رموز، لكنها قابضة على الحياة والموت والدلالة معًا. أنا جالسة على البساط القرمزى فى بهو الشقة بشارع شجرة الدر، متسربلة فقط بالكومبينيزون والروب الأرجوانيين، لايربط صدرى أو وسطى شئ، وشعرى الأسود محلول تنعكس صورته فى كأس كبير بيدى، به براندى مصنوع من البرقوق من يوغسلافيا. كان الفراش الأبيض فى غرفة النوم باديًا وراء ظهرى من الباب المفتوح وأنا أعرف أن ملابسى الداخلية ملقاة على طرفه وملابس كريم على المقعد المجاور مرتبة واضحة، بنطلون حلته الزرقاء والجاكت والكرافت بل وحذاؤه أيضًا.

كنت أشبه براقدة على البساط أسمع من غرفة النوم بقية أنغام كونشرتو الفيولين لبرودين وأسمع من الحمام صوت المياه الكثيرة المنسابة وهو يغتسل وأنا أنتظر دورى والدفء الذى يشيعه المكيف فى الشقة يجعلنى أستعذب الانتظار وأريده أن يستمر. كل الألوان والطعوم والأصوات والحركة التى لاتهدأ فى البدن قد أصبحت مألوفة معتادة متكررة، لا يفرغ لى نهم إليها ولا أريدها أن تنقطع.

كنت جالسة منبسطة على البساط القرمزى وأمامى على الأرض ما كنت أقرأ فيه وما إن أستمر وأواصل القراءة حتى يعود إلىّ مرة أخرى ونغرق مرة أخرى فى هذه القبلات التى لاتنتهى والتى تصنع طعومًا وأصواتًا أخرى تشدنى إلى حافة أخيرة كأنها حافة الموت.

لم أكن قد عرفت هذه اللحظات فى حياتى من قبل. ولم أكن أعرف أنها موجودة داخل هذا البدن. لكنه علمنى أن أجدها وأن أطلبها وأن أحن إليها وأن أستشعر ضرورتها طوال هذه الأيام الكثيرة المتكررة من عام ١٩٦٦ بعد أن حصل لى على هذه الشقة.

قد لا أستطيع أبداً أن أعرف البداية، لكن ليس فى الرؤيا فى الحقيقة بداية. إنها كانت، قائمة، لاتزال. كانت رحلاتنا إلى الخارج معًا قد تكررت وكان دانيال يجد نفسه محتاجًا إلى شقة خاصة به أقرب من بيت الزيتون الذى ظلت ترعاه تفيدة لنا.

وفى عز أيام التحول الاشتراكى والعروض العسكرية، حدثنى كريم نفسه، قبل أن أحدثه فى حاجتنا إلى مثل هذه الشقة، وأضاف أنه ستكون فيما بعد العيادة التى سيحتاجها دانيال بعد أن يتخرج. واستمررنا نطلق عليها ونحن نضحك اسم العيادة حتى بعد أن أصبحت شقة الغرام الذى لم أعرفه من قبل ومكان الاستسلام والجوع الذى أصبح تياراً جارفًا لاينتهى فى داخلى.

إننى لم أفكر أبداً فى هذه الأيام، وهى تتكرر.. كيف بدأت، لكنى كنت أفترضها معطاة لاتنتهى وكان كل همى هو أن أسكت خوفى من انقطاعها أو من أن تمس دانيال أو كريم نفسه وزوجته.

وأظن أننى أرى الآن الخطيئة ليس فى أنها تقع، لكن فى أنها تستمر. فما أكثر التشكل الذى يفرضه على الروح استمرار الخطيئة. هذا التشكل هو الذى يجعل ماء الخفية عذبًا ويلقى العماء على القلب والمرض فى البدن. كم تحركت خلال هذا العام لأصون الخفاء. ترتيب جدولى فى الجامعة حتى أصبح حرة فى صباحات يريدها كريم وينشغل فيها دانيال.

رحلتى من العيادة بعد الحب إلى الزيتون حتى أرى تفيدة وأبقى معها هناك لأترك لدانيال الشقة لنفسه ولأصدقائه ولمذاكرته ولا أثر فيها إلا لى ليتذكر ليتل موم. انتظامى الطقسى مع حبوب منع الحمل وحقيبتى الصغيرة التى أحمل فيها بعض ما فرضته ساعات الغرام من حاجات. ما أكثر هذه الحاجات وأكثر تنوعها وغرابتها الآن.. أحيانًا صوراً قديمة لى وأحيانًا ثوبًا أريده أن يرانى فيه وبعض مجوهراتى أتحلى له بها، ثم أخلعها، وخاتم زهيد الثمن أهدانيه لأضعه أمامه وأخلعه إذا ما تركته.

إن استسلامى لم يأخذ وقتًا طويلاً بعد أن أثثت الشقة وساعدنى فيها، وجاء لأول مرة يزورنى فيها عندما تم كل شىء حتى المكيف فى البهو وفى غرفة النوم، والسخان فى الحمام وعلى حوض المطبخ. لقد ساعدنى فى كل شىء وجعل كل شىء ممكنًا بسرعة وبعدد كبير من الرجال الذين لايتكلمون ولايريدوننى أن أحاسبهم على ما يعملون لى. وخلال كل أيام إعداد الشقة كانت علاقتنا تشتد، لكنها كانت بريئة تمامًا إلا من نظرات أو تماس أيدٍ أو ضحكات متبادلة. وهكذا.. عرفت الروح أن تتشكل قبل أن أحصل على لحظات الحب وعرفت كيف أناقش دانيال فى تجنبه لكريم ونفوره مما يحيطنا به من رعاية.

كان هذا العام، عام ١٩٦٦ هو عام صعوده السريع وظهور صوره كثيراً فى صحبة الكبار، وإن ظل حريصًا على ألا يجعلنى أعرف أو أرى إلا مظاهر قدرته وسلطته التى كان يعرفها الجميع. أوامر التليفون أحيانًا القصيرة المبهمة التى قد لاتتجاوز لا، أو طيب، أو بعدين. وأحداث مقررة يخبرنى بوقوعها قبل يوم أو ساعات من إعلانها على الناس، بل وبرامج ومقالات فى الإذاعة والتليفزيون والصحف. ما أسذج مظاهر السلطة وما أكثر ما تتكرر أمامنا دون أن ينقضى سحرها أو نخلص من سيطرتها على النفوس. كانت بعض هذه المظاهر أراها واضحة عامة أمام الناس فى الاجتماعات أو فى الرحلات وكان بعضها الآخر يتم أمامى وحدى من تليفون العيادة فتزداد أهمية وغموضًا وتنغلق الروح عن التعرض لها أو التصدى لمناقشتها لأنها كانت تحيطنى بالخفية التى أريدها وبالأمان الذى ازدهرت فيه زهور الرغبة الفاغمة المثقلة.

هل حللت رموز الرؤيا وعرفت البداية. لقد تمت القبلة الأولى ولم تنته فى بدنى وصوته يدعونى عصفورتى الصغيرة وحضنه ينفتح لى وكأنما ليحمينى من انهيار هذا السد القديم الذى وضعته على البدن طوال طفولتى وزواجى وأيامى مع دانيال فى أمريكا.

إننى أرى الآن وأعـرف الدم الذى تتكسـر صـفائحـه فى داخلى، وأرى الآن وأعـرف أن مظاهر الحب كمظاهـر السلطة كلاهما خطيـئة إذا ما تكررت فى الخفاء ولن يزيحهـما إلا الأبوكـاليبس، الرؤية الأخيرة للـعذاب القـادم على الزانية العـظيمـة.. الجالسـة على ميـاه كثيرة.. هى شعوب وجموع وأمم وألسنة.

لـم تكن القبلات قد انتهت فى بدنى أو من على صدرى عندمـا عاد دانيال فى غير موعده لسبب لم أعرفه الآن، ليـدير مفتاحه الخاص فى باب الشقة ويخطو مـباشرة إلى البهو الذى أجلس على بساطه القـرمزى. إننى ما أزال أراه على مـدخل البهو يرفع رقـبته ويدير عـينيه ليرى ويسمع ويعـرف وتنفجر فى فمه كلمتـه وهو يستدير ليصفق الباب خـارجًا ويصمت معه صوت المياه ويستمر أنين الكمان كبقية من ماء الخفية المنسكب...

إن ما عند الرب علىّ غير قليل.. وها هو ذا الويل الواحد يمضى «ويأتى ويلان أيضًا بعد هذا».

* * *

اليوم الجمعـة وأمامى أربعة أيام قبل موعد زيارة الطبيـبة. ولابد لى فى هذه الأيام الأربعة أن أكـمل الرؤية وأن أفرغ من كل التـشكل. لم يعـد هناك رموز ولـم يعـد هناك بحث عن دلالة أو بداية. إننى أسير نـحو واحة خضراء سأسـتريح فيهـا ولابد أن أقطع هذه الصحراء بكل العطش ومرارة الجوف. إن سفرى الصغير يتضخم وأحس كأننى آكله فأنا لم أعد أكتب.

لقد حل الويل الثانى بعد أشهر قليلة من فقدى لدانيال. كـانوا جميعًا يشيرون إليه بأنه قد اختفى وكانت بلاغاتهم للبوليس والمستشفيات وللأقارب هى جميعًا سؤال عن شخص قد اختفى. أما أنا، أنا، فلم أكن أفعل إلا أن أكرر لنفسى أننى فقدته. لقد أحسست ذلك لحظة رأيته يصفق الباب ويخـرج. أحسسته وأنا جالسة وجسـمى عار وعرفت، كألم السكين فى القلب، أنه قد اتخذ قرارًا وأنه سيترك البلد، سيرحل عن مصر وأننى لن أراه مرة أخرى.

هل عرفت القرار الذى لم يقله لى لأنه ابنى أم عرفته من ضيقه وتبرمه المتصاعد قبل منظر البساط، أم عـرفته لأننى لم أكن قد خلصت من حبى ولم يكن هناك حل بعـد ما حدث إلا أن يسافر. ليس أصعب من أن تصل المرأة من جراء حبها إلى هذا القدر من الهوان.

إن دانيال لم يشأ أن يكسر سياج الخفية، لم يشـأ أن يصنع الفضيحة وليته فعل. لكنه ابنى. إن عـذاب الفقـد قد يكون أقل لو أننى واجـهت الفـضيـحة أو واجـهت غضـبه. أمـا هذا الصمت، هذا القرار فكأنه ظلمة أحاطت بالروح لتجعلها أكثر شراً وتجعل ما فيها من رغبة وتمسك بالخطيـئة أكـثـر ضـراوة وشـراسة. إننى لم أَنُحْ علـيه ولـم أبك، ولم أناقش من يتحدثون عنه أو من يسألون. صمت، وكأنما هو الذى أخطأ وأن علىّ أنا أن أنتقم فى نفسى منه. كان لابد أنه استعان بأحد من أهلنا أو من أصدقائنا أو من الكنيسة أو من معارفه هو.. واحد من بين كل هؤلاء الذين يسـألون والذين يحاولون العثور عليـه جريحًا أو ميـتًا، كان شريكًا معه فى إعداد السفر وتيسـيره له. لقد هرب، وساعده أحد على ذلك. إنه لايستطيع ذلك بمفرده، لكنه أوهمنى أنه فـعل ذلك وحده، يريد أن يجعلنى أعتـقد ذلك، فلم يقل لى أحـد كلمة، ولـم أستطع أن أحـدد الكاذب فى كل من يسـألون. والتـوت عيـونهم أمـامى وأصـبحت كـلماتهم جـمـيعًا ذات أكـثر من معنى ولها أكثـر من حمة تلدغ بها فى القلب أو فى أطراف البدن حتى محارمه الداخلية. لـم يكن السفر سهلاً حينذاك وكانت مصر مليئة بصور الناصر والظافر وبأصوات الجيش القوى المستـعد وكانت حركات كريم تزداد سرعة وخفية ويزداد ورود اسمه أو صوره على صفحات الجرائد.

إن الظلمة والخفـية التى رانت على نفسى وعلى حـركاتى، كانت تتأكد وتـشيد بكل هذا الضوء والصوت العالى والحركات السريعة الدولية والعربية التى كانت تحدث فى مصر فى الشهور الخمسة التى سبقت حرب ١٩٦٧م

ولست أدرى متى يستطيع أحد أن يكشف بوضوح ماذا كان يحدث فى مسارب السلطة تحت كل هذا الضوء والصوت الجهير. لقد ازددت أنا حينذاك، كما لم يحدث من قبل، رغبة فى معرفته أو المشاركة فيه على أى نحو من الأنحاء، لكنى لأننى بدأت أحس أننى أسقط من الاجتماعات ولاأدعى إلى الكثير منها ولأننى بدأت أجد صعوبة شديدة فى الاتصال بكريم.

لقد مرت أيام عديدة وأنا مقيمة فى شقة الزمالك. أذهب إلى الجامعة وأعود إليها دون أن أصحب تفيدة معى فى انتظار اتصال تليفونى منه بعد اختفال دانيال. وبدأت ليالى الانتظار فى الشقة تتكرر، وبدأت أعرف أنه إن لم يأت هذا الإثنين أو هذا الثلاثاء أو هذا الأربعاء فقد يأتى الأسبوع القادم.

كنا نلتقى مرتين فى الأسبوع على الأقل، وهما الأيام التى لا أذهب فيها للجامعة فى الصباح. كنت أعد نفسى، ملابسى وعطرى وشرابى وأبدأ فى الانتظار من العاشرة حتى إذا انتصف النهار وبدأت الساعة تقترب من الواحدة بدأت أشرب وحدى وأحاول القراءة وإدارة الموسيقى قبل أن أحمل نفسى لأسوق العربة إلى الزيتون لأتغدى هناك.

وهنا فى الزيتون فى الأشهر الخمسة بدأت أعرف عيون تفيدة وأعرف معرفتها، وهى ترانى أدور فى الغرف وأقترب من التليفون وأحاوله وأتركه أو لاأجد رداً أو أسمع هذا الصوت الآخر الذى لا أعرفه والذى يقول لى إنه مشغول أو غير موجود. وأعود مرة أخرى أنتظر الإثنين والأربعاء فى الزمالك.

فى هذه الأيام كان الانتظار يبدل الحزن على فقد دانيال إلى رغبة فى كريم. وتستحيل رغبتى فى رؤية دانيال والبكاء أمامه إلى حريق فى قلبى للبكاء فى أحضان كريم والموت فى لحظات الغرام. ألم تكن هذه هى مهابط العذاب ومهاوى الخطية التى جلبتها على نفسى

وعاقبنى عليها الرب؟ أليس من العذاب أننى كنت أقول لنفسى حينذاك إننى قد أحتمل فقدان دانيال لكنى لا أحتمل الحرمان من قبلات كريم.

ماذا يحدث فى كيمياء العذاب والهوان لتستحيل المشاعر هكذا ولتصبح هذه الأم المحرومة، امرأة كلها رغبة فى الفناء فيمن تحب. كم أحببته هذا الشهر الذى مضى على فقدان دانيال، كم كنت أريده وكم كنت أتجمل له ليأتى وهو لايجىء. تلك اللحظات، لحظات الانتظار وأنا أبدل ملابسى فأرتدى التايير مرة وأرتدى فستانًا قاتمًا محتشمًا مرة أخرى، وأحيانًا أكاد أوقن أنه قادم فأرتدى روبى الأرجوانى وأضع خاتمه ثم أخلعهما بسرعة وكأنما أخشى أن يرانى أحد.. فى تلك اللحظات أحببته كما لم أحب من قبل واحتجته احتياجًا عاصفًا مريراً. فى تلك اللحظات كنت أشغل نفسى بأن أجمع بقايا حبنا. تلك الورقات الصغيرة التى كان يكتب لى فيها كلمات قليلة بخطه الدقيق المنمق. أحبك، أراك اليوم. هل نلتقى غداً.. عصفورتى الصغيرة.. كلمات قليلة ووريقات أقل. فلم يكن بيننا كتابة، كان هناك مناديل له. لكن كنزى الكبير كان ثلاثة أو أربعة أشرطة كاسيت. لا أذكر - عليها حديثنا فى لحظات الغرام وقراءتى له وتعليقاته القليلة الضاحكة وأنا أشرح له قصائد من إميلى أو أقرأ له فى الكتاب المقدس. كان هذا هو كل شئ.. كنت أضعه أمامى وأقلب فيه، وأحيانا أدير الشرائط لأسمع بين كل حين وحين صوته أو صوت تنفسنا وقبلاته.. ما أقل ما كان لدى منه. لكننى لم أكن أتصور حياتى بدونه وكأن الأيام المقبلة لم تكن تحمل لى مرة أخرى «تغييراً فى الفصول».

ما كان أكثر سذاجتى وما أحمق القلب عندما يستسلم للشرير. إننى لن أستطيع أن أفهم عقابى وأن أحصل على خلاصى كما أحس الآن إلا وأنا أرى بوضوح، وكأنه فى سفر مكتوب، هذا الحب الضائع الذى صنعته الوحدة المتراكمة والضيعة بين الناس، وسقته

الخفيـة دماء الخطيئة. إننى لـم أعد أتحدث بالرمز ولـم أعـد أختفى وراء التجريـد. لقد كان كريمًا يحيا حياة مختلفة تمامًا عنى وكان يعمل فى خفاء كخفاء الشر الذى أقامه فى قلبى.

كـان كل مـا يفكر فـيه هـو أن يحصل عـلى ما يـريد وكنت أنا بعض مـا أراده فى بعض الزمن. كانت له القوة والسلـطة فاستطاع أن يبسط علىّ إرادته فى الخفـاء. وفى الخفاء يولد الشر والقسوة وعقارب العذاب.

كنت أقف فى الفـصل ألقى مـحاضـرتى يوم الثـلاثاء عندما دخل عليـنا الساعى يحـمل مظروفًا كبيرًا رسـميًا كتلك المظاريف التى تعودت استلامها من كريم ليدعونى إلى اجتماع. وكـانت ورقاته الصـغيـرة التى تجمـعت لدى خلال عـام عـلاقتنا تأتى أحـيانا مع مـثل هذا المظروف. كنت أتلقى الخطابات قبل ذلك فى فرح وفى ثقة، لكننى لم أستطع إلا أن أجلس وأن أضع يدى عليه لأخفـيه حتى أكمل المحاضـرة. وكانت الورقة الصغـيرة بخطه الدقيق هناك. وكانت تحمل الكلمتين «أراكى غدًا».

فى هذا الأربعاء، ولـم يعد هنـاك ما يدعو الآن إلى تذكر لحظة لحظة قال لى: دانيـال سافر إلى الخارج. لـم أسـتطع أن أستـخرج منه إلا أن هذه «معلومـاتهم»، ولـم أستطع أن أقـترب منه. كان قد جـاء وقد قرر أن يبتـعد وأن يبتعد بلا مـواجهة ولا شرح ولا حـتى حزن. كان مضطربًا وكأن هناك أشياء أخـرى قد حدثت فى عالم آخر غير عالم الشقـة التى عشنا فيها لحظاتنا وغيـر عالم الغـرام الذى أحسه فى قلبى. كـان خائفًا أو جـبانًا، أحس فى حـركاته وكلمـاته شيئًـا جديدًا لم أره من قـبل، ولم يكن فـيه شىء من ذلك المسئول الكبـير الذى جلس على مكتب الحراسة يومًا. وجدته يستـدرجنى وأنا أبكى، لأفهمه، حتى أجمع له كل تلك الأوراق والشرائط ورأيته وهو يتحرك إلى حوض المطبخ ليحرقها جميعًا فى الحوض، وهو واقف وظهره لى وكأنما يـريد أن ينتهى من مهمة أو يريد أن يطمـئننى أنه لـم يعد هناك

أى شىء يمسكه أو يمسك عليه. كنت أقف وراءه أريد أن أفهم، أريد أن أسأل عن ابنى ولا أريد أن يقول ما كنت أنتظره.

- لقد تغيرت الظروف.. وأرجو أن تنسى كل شىء تمامًا.. حتى اسمى.. أرجو ألا تذكريه مرة أخرى.

كيف يريدنى أن أفعل ذلك، كيف أستطيع أن أمنع نفسى من الإحساس بالخوف عليه. قلت له ذلك فلم يقل أكثر من كلمات كتلك التى تقولها تفيدة.. شيئًا مثل. ربنا يستر.. وشد يديه من يدى. وفى سرعة كسرعة الجند وهم يهربون، خرج، وإن أغلق الباب خلفه بهدوء وكأنما هو متأكد أننى لن أتبعه. رأيته من النافذة يختفى فى عربة حمراء صغيرة غير العربة التى عرفتها له، وظللت واقفة حتى اختفت عن نظرى. ولست أدرى ما الذى جعلنى حينذاك أنصرف إلى الحوض لأغسله وأمسح آثار الرماد المحروق منه وأفتح الشباك لتتبدد رائحة الحريق.

إن هذا الويل الثانى ما زالت له أبواق. وما زال علىّ أن أرى نفسى بعد أسابيع من خروجه وقد بدأت محاولات التليفون مرة أخرى. لكننى لم أكن أجد حتى الرنين، ومجرد صمت تام وكأننى أضرب أرقامًا لا وجود لها على الإطلاق. ما كل هذه القدرة على إزاحة الآثار وحذف الوجود وحرمان الآخرين من السؤال. إن الكثيرين الذين حاولوا الكشف عما حدث فى مصر فى هذه الأشهر القليلة قبل حرب يونيه وبعدها قد يستطيعون أن يفهموا تصرف كريم أو يفسروه بل وقد يرونه متكرراً معادًا. أما أنا فلم يفهم قلبى النزق، الحريص على خطيئته، المتطلع إلى المتعة، إلا أن يخاف عليه وأن يحس أنه فى خطر. كانت مصر كلها فى خطر. وأنا لا أكاد أعرف أو أسمع إلا هذه الأصوات العالية التى تعد للحرب وتدفع بالناس جميعًا إلى حماس كحماس الزار. لم أكن أفهم ما حولى تمامًا، فقد

تقعطت صلاتى تمامًا بالمسئولين وبالاجتماعات، ولم تعد هناك إلا تلك الظلمة التى تعيش فى داخلى وكأنها بئر الهاوية.

إننى لا أعرف تمامًا كيف لدغنى ذلك الجراد الذى له سلطان كسلطان العقارب. ولا أعرف كيف وجدت نفسى أدور حول بيته فى ظلمات مايو وفى شوارع الزمالك التى تتردد فيها أصوات الكلاب. كنت أسير بالليل حول البيت الكبير الذى يسكنه وأرى النور فى بعض الغرف وأحس أنه وراء بعض هذا النور خائف مرتعد وأن علىّ أن أصل إليه وأن أحميه. أنا الضائعة فى الشوارع بالليل وعربتى مغلقة بعيدة تنتظرنى وتنتظر جولتى الحمقاء أسير حول البيت، أدور حوله.. وكأننى سأجده فجأة قادمًا إلى بيته فى عربته السوداء مرة أخرى، وأننى سأراه، سأراه من بعيد.. هل يمكن للمرأة أن تفعل ذلك. هل يمكن أن تسير فى الشارع، فى الظلمة، محملة وكأنها حامل بتلك الرغبة المحمومة لرجل لايريد أن يراها ولايريدها أن تذكر اسمه. لقد تكفينى تلك العذابات التى كانت تجعلنى أطلب الموت فلا أجده، وأرغب فيه فيهرب منى.

ثم بوق الملاك السادس.. فانفك الأربعة الملائكة المعدون للساعة واليوم والشهر والسنة لكى يقتلوا ثلث الناس.

***

اليوم الأحد. لقد ختمت صلاتى فى الفراش وروحى تهفو لقداس كامل. غدًا يحين موعد الطبيبة وقد بدأ الجسد يتهاوى، وعرفت نقط الدم التى تتسرب منى وعرفت معناها أيضًا. إن قدرتى على الإمساك بالقلم أو الإمساك بالفكرة تضعف ويكلفنى كل سطر جهدًا لايكاد يحتمل وكأننى أحمل فى كل حرف ثقلاً ثقيلاً لايرفع.. إن كل الرموز والمعانى والدلالات وأبيات إميلى، وآيات الكتاب وكلمات دانيال وكريم وتفيدة وفصول حياتى،

كل منها أصبح حرفًا ثقيلاً.. ثقيلاً متصاعد الرقم والحساب. «لقد بُنى العقل للحمولة الثقيلة العظيمة». أول الحرف:

سقط أمل كبير

فالخراب كان بالداخل

باللحطام الماكر الذى لايحكى حكاية

ولا يدع أى شاهد أن يدخل فيه

أبيات إميلى حروف أخف.. والفكرة «التى صعدت إلى ذهنى اليوم» والتى كنت قد امتلكتها من قبل ـ لكننى لم أكملها ـ فى بعض ما كان من قبل ـ فلم أستطع أن أحدد السنة».. لكنها ثلاث سنوات ونصف السنة.. إننى لم أفتعل الرؤية ولم أصنعها. إنها مسجلة مكتوبة فى السفر الذى أكلته سنوات المنفى. سنوات الصحراء. سنوات الوحش وجرحه المميت قد شفى.

إنه الويل الثالث، هو الفكرة والحرف الثقيل وعلى العقل أن يحمله. أيام بلعيم تنقضى لى. يا فرحتى.. كأيام صعودها إلى مصر. تلك الجالسة على المياه أُعطيت حزنًا لأنها قالت فى قلبها أنا جالسة ملكة ولست أرملة، ولن أرى حزنًا.

ولقد رأيت الحزن فى الحفل. بعد ثلاث سنوات ونصف السنة من غيبة دانيال وأنا فى البرية. وعدت لأرى رجوعه أيضًا من السجن والمحاكمة. لم أشهد شيئًا من هذا، لكننى عرفته.. ما أثقل الحروف.

رأيت الحروف فى الحفل على صدر زوجته الـ A والـ Z وأيها كان أول. هل للزمردة أهمية الآن. إنها حرف ثقيل، لكنها فى الحفل ويل ثالث لو أننى أقدر لوصفت الويل

أو لاتكأت على حرف خفيف.. إنها جميعًا تختفى.. فى النهاية.. البداية.. زمردة حكيم على صدر زوجة كريم وأنا أعرف السبب.. وهو لايتكلم.

يدى تتقبض على حصاة بيضاء.. وعلى الحصاة اسم جديد مكتوب لايعرفه أحد غير الذى يأخذ.

الحصاة.. الحصاة.. والنجار العطوف يدق فيه المسمار ليغلقه إلى الأبد وعلى تلال الأردن يخدع الرياضى الملاك ويغلبه.. الحرف.. الحرف الثقيل.. هل ستأكل تفيدة.. السِّفر.. تفيدة تأكل السِّفر.

٩ مساء ١٣ مارس ١٩٧٩

الرياض - ليلة خسوف القمر

هوامش على النص

حرصتُ على أن أضيف عـدداً من الهوامش على النص، فى طبعته الثـانية، وهى مشكلة أخرى لى. فـأنا ضد إعداد هوامش لعـمل فنىّ ما، فإن هذه الهـوامش بمعنى تبيان مـصادره ومراجعـه أمر يطول. وثار سؤال ماذا أضع ومـاذا أترك. وسيظل هذا السؤال مفـتوحًا رغم اسـتقـرارى على هذا العـدد الموجـز من الهـوامش للتـعـريف بحكاية القـديسة «دميـانة» واستشـهادها؛ وكذا تحـديدًا مواضع الاقـتباس والإشارة إلى الكتـاب المقـدّس بعـهديه. وما أكثر حاجتى لهوامش أخرى صـارعت نفسى حتى لا أدرجها، حرصًا على النص أو كى لاتخـرج الرواية من دائرة العـمل الفنى إلى البـحث التاريخـى والأدبى. فقـد كنت أودّ أن أضع هوامش مطوّلة عن كثير من شخصيات «الإنجيل» التى جاء ذكرها فى «أوراق زمردة أيوب» والتى لعبت دوراً هامًا فى تشكيل الشخصية وتحـديد أبعادها مـثل «أيوب ودانيال وجومر وهوشع وبولس الرسـول وغيرهم..» كما اكـتفيت بنشر النص الإنجليـزى لقصائد «إميلى ديكنسـون» التى استُخدمت فى الأوراق، رغم أهمـية الشاعرة ومـركزية دورها فى حـياة كـاتبـة الأوراق. فليعـذرنى القـارئ الذى يريد هوامش أكـثر، فـهـذا أمر لاينتـهى. وليعذرنى القارئ الذى يُفضل إسقـاط الهوامش، بدعوى أن لا داعى لها. وقد حرصتُ ألا تضغط الهوامش على القارئ أو على النص. فلم يُشَر إليهـا بالأصل واكتفيتُ بوضعها فى هذا الملحق المستـقل، وبذا أصبح القارئ حرًا فى رجـوعه للهوامش أو إسـقاطها، حسـبما يريد أو يرى. راجيًا أن تظل مرارة وحلاوة «الأوراق مثيرة للقارئ وجديرة به.

١ **زمردة:** الاسم قبطى ومستخدم وإن كان غير شائع ولا أعرف مسلمة بهذا الاسم.

٢ **الوحدة الجديدة:** الإشارة إلى رسائل القديس بولس، ٢ كورنتوس ٥: ١٧ «إذن إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة».

٣ **دميرة:** Desmayer, Demayer كما تكتب فى كتاب «وصف مصر» وهى بلدة قديمة قريبة من «نبروه» كان فيها أيام الحملة الفرنسية ستة مصانع لصناعة النوشادر «الخطط التوفيقية ١١: ٥٧» وكان فيها تفتيش للأمير عمر طوسون.

٤ **اليد الكاتبة على الحائط المكلس:** سفر دانيال ٥:٥ «فى تلك الساعة ظهرت أصابع يد إنسان وكتبت بإزاء النبراس على مكلس حائط قصر الملك والملك ينظر بطرف اليد الكاتبة».

٥ **وأشد هذه الطرق رعباً ورعدة:** انظر: أيوب ٤:١٤ «أصابنى رعب ورعدة فرجفت كل عظامى».

٦ **افرحى يا بركسيه. مع لونيه وفوميه:** من قطعة شعرية تنشد فى ١٢ بشنس فى تمجيد القديسة دميانة أولها:

«عروسة قد هلت   من وادى الزعفران»

ويأتى البيت رقم ٤٧ ضمن الأبيات التى تعدد قديسات الكنيسة على النحو التالى:

«افرحى مع بربارة   سفرى مع يوليانة
لك رمزاً وإشارة   يا حرة منصانة
ادخلى مع صوفية   سُرى مع اللوريا
افرحى يا بركسية   مع لونيه وفوميه»

سيرة الشهيدة دميانة. القاهرة، مكتبة المحبة القبطية الأرثوذكسية، دون تاريخ، ٤٧ ص. القطعة ص٤٤ ـ ٤٧

٧ **«هذه هى الصبورة العفيفة دميانة»:** من نفس القطعة السابقة سطر١٩:

عروسة منقية   خطيبة عمانوئيل
هذه هى الصبورة   العفيفة دميانة

٨ تابعة مَجْمَرة وشـــــورة مريم فخر رجانا

هـذه تدعـى ســـــوسنة وزهرة الأوديـة

٩ **القديـر:** لماذا أعاتب القـدير: القدير اسم إلهى قديم يرجع إلى عـصر الآباء، وهو ترجمة العبرية El Shaddai والاسم نادر التكّرار خارج الكتب الخمسة الأولى

١٠ فيما عـدا أيوب. «أول وروده: تكوين ١٧:١» أما فـى أيوب فيتكرر باستمرار. وترجمة «القدير» لايرضى عنها بُحَّاث الكتاب المقدس المحدثون.

"La teaduction commune: "Dieu Toutpuissant" est inexacte.

١١ Le Sense. probable est "Dieu Le Montagnard"

CF LE Bible de Jerusalemp. 23, ســـاكن أعـــالى الجـــبـــال
1956 paris

١٢ ولكن ترجـمة «القـدير» هى المستخـدمة فـى الترجـمة العـربيـة و«أعاتب القـدير» تستحضر للقارئ مباشرة سفر أيوب.

١٣ «**السحاب يضمحل ويزول**»: أيوب ٩:٧

«**ساقية الوديان.. جفت من مكانها**»: أيوب ٦:١٥ - ١٦

«**أبحر أنا.. برؤى**»: أيوب ٧: ١٣ ـ ١٤

المجلة: المقصود «المجلة القبطية»

تفتيش عمر طوسون: كان تفتيش دميرة تابعاً للأمير عمر طوسون. وقضية الأب لها أصل تاريخى مأخوذ عن المجلة القبطية ٦٣٤ ـ ٦٤٤ وكانت شركة البحيرة قد اشترت أرضاً من الحكومة فى بداية القرن وبدأت تقسيمها وبيعها. وهنا استغل أحد المطارنة فرصة أثمان الأرض المنخفضة واشترى أرضاً كتبها باسمه مع أنه كان يدفع ثمنها من مال الأوقاف. تاريخ القصة يرجع إلى سنوات ١٩٠٦ ـ

١٤ ١٩٠٨م وقد عرف عن الأمير عمر طوسون إلى جانب رحلاته وكتبه العلمية اهتمام خاص بحياة ودير القديسة دميانة.

القديسة دميانة: «دميانة» أو «جميانة» قديسة مصرية لها سلطان على قلوب المسيحيين والمسلمين فى مصر. والأجانب يخلطون بينها وبين القديسة كاترينا «صاحبة الدير فى سيناء» وهى تسمى عادة «الست دميانة». ودميانة استشهدت فى اضطهاد دقلديانوس «أوائل القرن الرابع الميلادى» وقصتها أنها نذرت نفسها منذ أن كانت فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها للمسيح وطلبت من أبيها أن يبنى لها قصراً «وليس ديراً كما تقول بونشر أو غيرها» تعيش فيه مع أربعين فتاة من أترابها وكأنهن لخدمتها أو للمشاركة معها فى تجربة المسيح. وكان أبوها واليًا من قبل الإمبراطور على «الفرما» شمال فوهة قناة السويس وبقايا الآن بلدة «الطينة» مقابل بورسعيد. وهناك خلاف حول مدى مصرية «دميانة» وهل كان أبوها مصريًا أم لا. فأقباط مصر يعتبرونها مصرية خالصة هى وأبوها، وهى لاتُذكَر بالفعل إلا فى كتبهم. ولأن الأب كان حاكماً فى عهد الرومان فإن البعض ينفى مصريته باعتبار أن السياسة الرومانية كانت تتجنب وضع أحد أهالى البلد حاكماً لها وكذلك الجيش لاتستعمله فى نفس المنطقة. ويبدو أن الأب كان مقرباً للإمبراطور، دخل فى تجربة قاسية طالبه فيها الإمبراطور بالسجود لأوثانه، ويبدو أنه كان قد دخل المسيحية بالفعل. غير أن ابنته أصرت على استدعائه إليها وإقناعه بالصمود، حتى قتله الإمبراطور وأرسل لتعذيبها هى وأترابها أميرًا وجندًا. وبدأت أيام التعذيب التى استمرت حوالى عشرة أيام، وإن كان تاريخ القديسة يقص بالذات عن خمسة أيام فقط، وهى أيام التعذيب الفعلى للتفرقة بينها وبين أيام السجن. وتروى القصة أنه استشهدَ معها الأربعون من أترابها وأنه قد استُشهدَ معها «من مبدأ عذابها إلىَ كماله أربعمائة نفس» وتُروَى القصة فى مصادر متعددة كلها نابعة من ميمر الشهيدة دميانة.

الميمر كلمة يقال إنها سريانية ويرى البعض أنها مجرد تحوير للكلمة اللاتينية الأصل memoria بمعنى سيرة أو قصة وأحيانًا أسطورة.

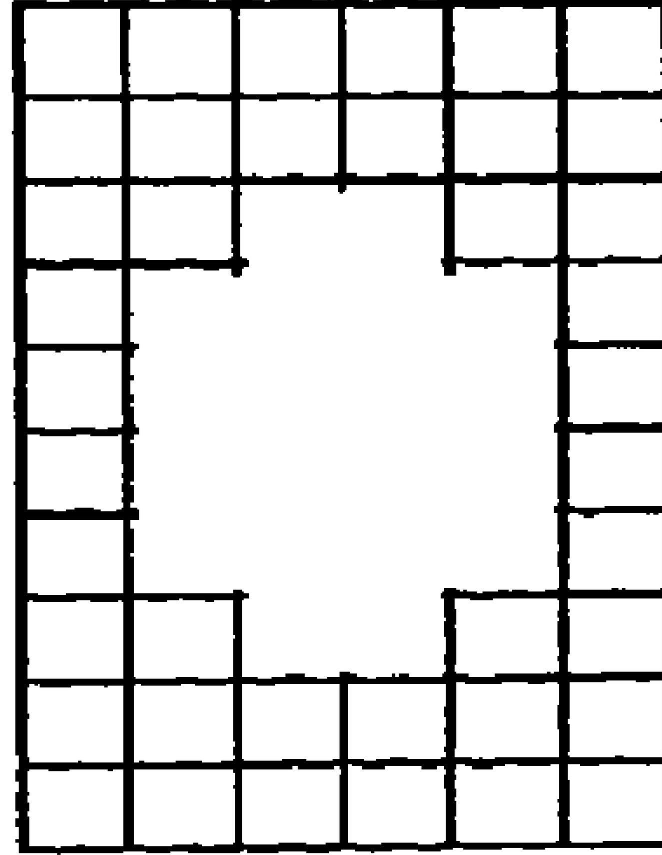
وميمر الشهيدة دميانة، يعُرَف له أربع نسخ. وقد نُشرَ لأول مرة عام ١٩١٧ ونُشرَ له طبعة ثانية ١٩٤٨ والطبعة الثانية هى التى صاحبتنى أثناءَ الكتابة: «ميمر الشهيدة دميانة»، مقدمات الميمر وتصحيح الذيل الملحق به بقلم جرجس فيلوثاؤس عوض.

الطبعـة الثانية، القـاهرة، مطبعة الشـمس الحديثة «منطقة شق الثعبان، كلوت بك» ١٩٤٨م، ٩٦ص.

والنسخ الأربعـة للميـمـر ترجع كلهـا إلى أصل واحـد من وضع يؤنس أسـقف البرلـس عـما وجـده بخط خرسطوذولُس تلمـيذ يوليـوس الأقفـهسى «أقفـهس فى مـركز الفـشن مـديرية المنيا» ويـوليوس الأقـفهـسى أرخ لعـدد آخر مـن القديسين وتاريخه يرجع إلى ما بعد أيام استشـهاد دميانة «انظر سنكسار ٢٢ توت، و٢٥ بابة» أما الدير، والكنائس المحيطة به فهي قديمة وقد ذكرها المؤرخون الأقباط كما ذكرها المقريزى. ويشير المقريزى بالذات إلى دير جميانة «٢: ٥٠٨» وإلى دير المغطس «فى منيـة طانة مقابـل سمنود» ويروى الميـمر أن أول كنيـسة بنيت لهـا كانت فى عـصر قـسطنطين وأن والدتـه هى التى بنت الكنيـسـة فى الزعـفـرانة بوادى السـيـسـبـان «والزعفـرانة ما زالت موجودة من أعـمال كفـر الشيخ» وهناك حاليـاً كنيسة كبـيرة وكان هناك خمس كنائس باسم أنطونيوس والعـذارى، ومارى جرجس إلى جانب الكنيسة المعلقة التى هى على اسم العذراء.

الاستشهاد والتمجيد: التواريخ المعتمدة بناء على الميمر هى: الاستشهاد ١٣ طوبة، تكريز البـيعـة ١٢ بشنس، وهى أيام المولد، وتـقع فى الصيف،، وكـان بعض الأقبـاط يذهبون إليـه للفسحـة «بدلاً من الذهاب إلى الإسكندرية» كـما يلاحظ أنه يقع تقريباً فى نفس الوقت الذى يقع فـيه مولد السيد أحمـد البدوى فى طنطا. وقد استفـدت كثيراً من مقـدمة الميمر التى كـتبها جرجس فلـيوثاؤس عوض الذى قص ذكرياته عن الدير والمولد والطريق إليه.

صورة دمـيانة: هناك صورة قديمـة للست دميانة فى كنيـسة أبى سرجة فى مـصر القديمـة، وتصور فى أغلب الكنائس فى يدها سـعف النخل يحيط بهـا أربعون من أترابها وتوزيع اللوحة كالتالى:



المغطس: كانت المغاطس موجودة عادة فى الكنائس القديمة، وهى توجد عادة فى الغرب، وما زال فى بعضها إلى الآن مغاطس، وإن كانت مغطاة. وهى أحيانا ـ كما فى كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة ـ عند الدخول على اليمين من الباب الشمالى لعدم وجود باب غربى. وهى بقية معمارية من التراث الرومانى، وكانت المغاطس عادة تمتلئ بماء النيل مع الفيضان. ويجتمع الشعب القبطى ليلة الغطاس «ليلة الحادى عشر من طوبة» ليقدسوا على المغطس ويغطسوا فيه وقد سبقت الإشارة إلى دير المغطس الوارد ذكره فى المقريزى.

قبة الظهور: معجزة ظهور القديسين مألوفة فى كثير من كنائس العالم، وظهور الخيالات متكررة وقد عُرِفَت حتى وقت متأخر فى دير العريان بالمعصرة «خط حلوان» وأذكر أننى أعرف وأنا طفل احتفالات مولد العريان حيث كان الناس يصيحون: ياعريان يابن التبّان إظهر وبان عليك الأمان».. أما قبة الظهور فى كنيسة القديسة فقد عُرِفت منذ تاريخ طويل وهناك وصف مُفصَّل لها ولصيحات الشعب فى كتاب أب يسوعى فرنسى زار مصر ثلاث مرات فيما بين ١٧١٢ ـ ١٧١٤م وكتب كتاباً عن «الرحلات الثلاث» «باريس ١٧١٧» وهو يصف تلوّن الخيالات بألوان ونسبتها إلى قديسين مختلفين بناء على اللون الذى كانوا يرسمون به فى الكنائس عادة. ويروى القصة نفسها تماماً جرجس فيلوثاؤس عوض فى أثناء زيارته للمولد ١٨٩٧ ومرات أخرى بعد ذلك حتى ١٩٤٩ أما زمردة فلم تر قبة الظهور لأنها كانت قد اختفت ضمن ما دخل من تعديلات على معمار الكنائس والدير. انظر أيضاً عن دميانة: بوتشر «تاريخ الأمة القبطية ج١: ١٧٦ ـ ١٨٠

١٥ **الطريق الضيق:** أنظر الباب الضيق متى ١٣:٧ ـ ١٤

١٦ **إلوى إلوى:** انظر مرقس ٣٤:١٥

١٧ **بعيداً عن الصيف:** (Emily Dickinson: Further in the Summer) أنظر بعده لنص القصيدة. ملاحظة رقم ٢٩

١٨ **صورتها والأربعون:** «انظر ملاحظة ١٤»

١٩ **أما طاب قلبك يا ستى.. التعب كله»:** انظر ميمر الشهيدة دميانة. فقرة ٢١،

سطر ١٠ ـ ١٤، ص٧٤

٢٠ **«الويل لكم إذا قال فيكم الناس...»:**
متى ٢:٦ و١٦ لوقا ٦:٦ الجملة مركبة من الموضعين.

٢١ **جاءوا بقدوم نجار:** **ميمر الشهيدة دميانة:** فقرة ٢١، سطر ١ ـ ٤، ص٧٥

٢٢ **وللوقت نزل طير:** ميمر: فقرة ٢١، سطر ٨ ـ ١٣، ص٧٥

٢٣ **أيتها الممتلئة مجداً:** ميمر نفس الموضع.

٢٤ **إبرة التشخيص الأولى:** إجراء طبي لتشخيص المرض وهي تؤخذ من العمود الفقري.

٢٥ **وإنني أرى ناموساً آخر:** روميه ٧: ٢٣ ـ ٢٤

٢٦ **مَن مِن الناس:** ١ كورنثوس ٢:١١

٢٧ **هذا كله رأته عيني:** أيوب ١٣: ١ ـ ٥

٢٨ **الملكة المنعزلة:** "Recluse Queen" اسم أطلقه على إميلي ديكنسون. Thomas Wentworth Higginson أول من أرسلت إليه إميلي شعرها.

٢٩ أبعد في الصيف من الطيور: الإشارة إلى قصائد إميلي مأخوذة عن: The complete poems of Emily Dicknson, edited by H.Johnon. Boston, Little Brown&co. 1960 لقصيدة رقم ١٠٦٨ كُتِبَت حوالي عام ١٨٦٦، ونشرت لأول مرة عام ١٨٩١ وفيما يلي نصها:

Further in Summer than the Birds
Pfthetic from the Grass
A minor Nation celebrates
Its unobtrusive Mass.

No Ordinance be seen
So gradual the Grace

A Pensive Custom it becomes
Enlarging Loneliness.

Antiquest felt at Noon
When August burning low
Arise this spectral Canticle
Repose to typify

Remit as yet no Grace
No Furrow on the Glow
Yet a Druidic Difference
Enhances Nature now

«علامات الوقف واستخدام الحروف الكبيرة لإميلي، وكان لها أسلوبها الخاص في ذلك وقد احتفظنا به في كل النصوص المأخوذة عنها كما اعتمدها ناشر أعمالها الكاملة توماس.هـ.جونسون».

٣٠ **وكلهم عادوا.. عادوا للسحل:** المعلومات موثقة في توفيق السويدي. مذكراتي، نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٩، ص٥٨٨ وما بعدها.

٣١ **ليكن اسم الله مباركاً من الأزل:** دانيال ٢ ـ ٢٠ ـ ٢٢

٣٢ **الآنية المسروقة:** انظر دانيال ١: ١ ـ ٢

٣٣ **ليس ما يدخل الفم ينجس:** متى ١٥: ١١، مرقس ٧: ١٥

٣٤ **أمير الظلام القاسي:** الأمير الذي أرسله دقلديانوس لتعذيب دميانة.

٣٥ **تنزل سراً وتهرب:** لما جاء الجنود يطلبون دميانة قالت لأترابها: «من كانت منكن تريد أخذ الشهادة على اسم المسيح فلتقم هنا ومن لم تطق العذاب فلتنزل سراً وتهرب إلى حال سبيلها..» ميمر فقرة ١٣، سطر ١٥، ص٦٧

٣٦ **التعب الأول:** فى صلاة دميانة خلال تعذيب أول يوم: «واقبل منى هذا التعب
الأول على اسمك المقدس» ميمر فقرة ١٦ س٩، ص٦٩

٣٧ **لقد جردوا لحمها:** ميمر فقرة ٨ سطر ١٨ ـ ٢٢، ص٧٠

٣٨ **ليس لأحد علىّ:** حتى الكنيسة ـ حق فيه: اتخذت الكنيسة الأرثوذكسية طوال
قرون طويلة موقفاً صلباً مضاداً للاعتراف كما تعرفه الكنيسة الكاثوليكية.

٣٩ **أطلق عصفوراً حياً:** لاويين ١٤: ١٦، ١٦: ٢٠ وما بعدها.

٤٠ **كما قبلت اعتراف اللص وأنت على الصليب:** من كلام القس فى القداس
الأرثوذكسى بعد انتهائه من طوافه بالمبخرة بين الشعب يدخل الهيكل ويقول هذا
الدعاء سراً.

٤١ **رغم التحدى والمصاعب والمحن:** أغنية شائعة، والحديث والمناسبة من الواقع مباشرة.
«كل ده تحمله...»: نص منشور فى الجرائد.

٤٢ **«قد سمعت كثيراً مثل هذا...»:** أيوب ١٦: ١ ـ ٢

٤٣ **حماة سمعان:** مرقس ١: ٢٩ ـ ٣١ «فتقدم وأقامها ماسكاً بيدها فتركتها الحمى

٤٤ حالاً وصارت تخدمهم».
تكتب على الحائط: دانيال ٥: ٥

٤٥ **لأنه ليس شيئاً خفياً لا يظهر:** مرقس ٤: ٢٢

٤٦ **وكأنها سبقت ودهنت...»:** مرقس ١٤: ١٨ «عملت ما عندها، قد سبقت

٤٧ ودهنت بالطيب جسدى للتكفين».
خفيات الحكمة: أيوب ١١: ٦ «ويعلن لك خفيات الحكمة أنها مضاعفة الفهم

٤٨ فتعلم أن الله يغرمك بأقل من إثمك».
كف عنى فانبلج قليلاً: أيوب ١٠: ٢٠ «أليست أيام قليلة. اترك. كف عنى

٤٩ فأنبلج قليلاً».

٥٠ **احمل صليبى:** لوقا ١٤: ٢٧

٥١ **خطاياهم واضحة:** انظر تيموثاوس ٥: ٢٤

٥٢ لاتقاوموا الشر: متى ٥: ٣٨، ٥: ٤٤

٥٣ علينا كل لحظة من لحظات النشوة: Complete Poems. No 125

كتبت حوالى ١٨٥٩ ونشرت لأول مرة ١٨٩١:

For each ecstatic instant
We must an anguish pay
In keen and quivering ratio
To the ecstasy.

For each beloved hour
Sharp pittances of years-
Bitter contested farthings-
Amd Coffers heaped with Tears!

٥٤ «يا بنتى كيف يخطر ببالك...»: ميمر فقرة ٤، سطر ١٦ ـ ١٨، ص٥٧

٥٥ الحضن الإلهى: يوحنا ١: ١٨

٥٦ ناره التى «ستمتحن عمل كل واحد»: ١ كورنثوس ٣: ١٣

٤٧ «حزن العالم...»: ٢ كورنثوس ٧: ١٠

٥٨ «أبناء المعصية»، «سلطان الهواء»: أفسس ٢:٢

٥٩ «نحن أيضاً جميعاً تصرفنا قبلاً...»: أفسس ٢:٣

٦٠ «هو غنىّ فى الرحمة.. من أجل محبته الكبيرة...»: أفسس ٢:٤

٦١ تتكلم «إنسانياً»: روميه ٦: ٦ «أتكلم إنسانياً»

٦٢ جسدى «مبيع تحت الخطيئة»: روميه ٧: ١٤

٦٣ أعلم أنه ليس ساكناً فى، أى فى جسدى...»: رومية ٧: ١٨

٦٤ «والقادر أن يفعل فوق كل شىء...»: أفسس ٣: ٢٠

٦٥ «أعمال الظلمة». ألبس «أسلحة النور»: روميه ١٣: ١٢

٦٦ أليست تلك هى كلمات هاردى: أظن أن كلمات هاردى هى شىء كهذا:

If way to the Better there be it النص الكامل ضائع منى الآن،
exacts a full look at the worst

٦٧ بليك: Proverbs of hell: "Sooner murder an infant in its
crad lethan nures unacted desires".

٦٨ هي.. نيو.. تو.. هاست، Complete poems No 712 كتبت حوالي
١٨٦٣ ونشرت لأول مرة ١٩٥٠:

Because I could not stop for Death-
He kindly stopped for me-
The Carriage held but just Ourselves-
And Immortality.

We slowly drove - He knew no hatse
And I had put away
My labor and my leisure t55,
Flr His Civility-

We passed the School, where Children strove
At Recess - in the Ring-
We passed the Fields of Gazing Grain-
We passed the Setting Sun-

Or rather- He passed Us-
The Dews drew quivering and chill-
For only Gossaner, my Gown-
My Tippet - only Tulle-

We paused before a House that seemed
A Swelling of the Ground-
The Roof was scarcely visible-
The Comice - in the Ground-

Since then - tis Centuries - and yet
Feels shorter than the Day
I first surmised the Horses' Heads
Were toward Eternity-

٦٩ **آنية الهوان:** إشارة إلى الآية فى رومية: ٩: ٢١: «أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يَصنَع من كتلة واحدة إناء للكرامة وآخر للهوان».

٧٠ **إن الدنيا كلها تنقسم:** كيركجورد. لم أستطع مراجعة الأصول عند إعداد هذه الهوامش، لكن النص منقول فى ملاحظات إعداد الرواية على النحو التالى:

"The whole world can ve divided into those who write and those who do not write. Those who write rerepresent de- spair and those who read disapprove of it and believe that they have a superior wisdom - and yet' if they were able to write, they would write hte same thing. Basically htey aer all equally despairing, but when one does not have the op- portunity to become important with shis despair, then it is hardly worth the trouble to despair and show it. Is this what it is to have conquered despair?"

٧١ **قضاتها ذئاب مساء لايبقون شيئاً إلى الصباح:** صفنيا ٣: ٣

٧٢ روح الزنى: «أفعالهم لاتدعهم يرجعون إلى إلههم لأن روح الزنى فى باطنهم وهم لايعرفون الرب» هوشع ٥: ٤

«أ.. وودن.. واى...»: Complete poems no 341 كتب حوالى ١٨٦٢ ونشرت لأول مرة ١٩٢٩

After great pain, a formal feeling comes-
The Nerves sit ceremontous, like Tomvs-
The stiff Heart questions was it He, that bore,
And Yesterday, or Centuries before?

The Feet, mechanical, go round-
of Ground, of Air, or Ought-
A Wooden way
Regardless grown,
A Quartz contentment, like a stone-

This is the Hour of Lead-
Remembered, of outlived,
As Feezing persons, recollect the Snow-
First- Chill - then Stupor - then the letting go-

٧٤ كصمت جوتلاند: الإشارة إلى حياة كيركجورد وتجديف والده على الرب فى جوتلاند.

٧٥ بيت أون: هوشع ٤: ١٥ (Bet - Aven) وهى تُتَرجَم فى إنجيل أورشليم: Maison de neant Sobriquet de Bethel (Bet - El mai- son de Dieu)

٧٦ خوف كالسهم المريش.. وتباه.. ودمعة: Complete poems No 87

كتب حوالى ١٨٥٩ ونشرت لأول مرة ١٩٤٥

A darting fear - a pomp - a tear -

A waking on a morn

To find that what one Waked for,

Inhales the different dawn.

٧٧ **أولاد الأفاعى:** متى ١٢: ٣٤

٧٨ **الفجر المختلف الآخر:** انظر ملاحظة رقم ٧٦ The different dawn

٧٩ **جومر.. امرأة زنى:** هوشع ١: ١ - ٣، وامرأة زنى تعنى إما أنها كانت كذلك أو أنها ستصبح زانية.

٨٠ **والآن اكشف عورتها.. حيوان البرية:** هوشع ٢: ١٠ - ١٢

٨١ **أجرتى....:** هوشع ٢: ١٢ «واضرب كرمها وتينها اللذين قالت هما أجرتى التى أعطانيها مُحِبى..»

٨٢ **أيام بعليم:** هوشع ٢: ١٣

٨٣ **وأعاقبها:** هوشع ٢: ١٣

٨٤ **ها أنذا أتملقها:** هوشع ٢: ١٤ - ١٥

٨٥ **إننى أطلب رحمة:** هوشع ٦: ٦ «إنى أريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات».

٨٦ **فهل النعيم.. مكان.. سماء.. شجرة:** Complete poems No 489

كتبت حوالى ١٨٦٢ ونشرت لأول مرة ١٩٢٩:

We pray - to Heaven

We prate - of Heaven-

Relate - When Neigbors die -

At what o' clock to Heaven - they fled-

Who saw then - Wherefore fly?

Is Heaven a Place - a Sky - a Tree?

Location's narrow way is for Ourselves-
Unto the Dead
There's no Geography-

But State- Endowal - Focus-
Where - Omnipresence - fly?

٨٧ **قلق الترقب أعدى من الموت:** Complete poems No 705 كتبت حوالى ١٨٦٣ ونُشرت لأول مرة ١٩٢٩:

Suspense - is Hostiler than Death-
Death- tho' soever Broad,
Is just Death, and cannot increase-
Suspense - does not conclude-

But perishes- to live anew -
But just anew to die -
Annihilation - plated fresh
With Immortality -

٨٨ **الزانية العظيمة:** رؤيا ١٧: ١ - ١٥ الألوان تُذكَر بالآيات. قرمزى (١٧: ٣) أرجوان (١٧: ١٤) كأس من ذهب (١٧: ١٤)

٨٩ **إن ما عند الرب علىَّ غير قليل:** إشارة إلى تعبير من الرؤيا ٢: ٢ إلخ «لكن عندى عليك قليل..».

٩٠ **الويل الواحد يمضى هو ذا يأتى ويلان أيضاً بعد هذا:** رؤيا ٩: ١١

٩١ **سفر مكتوب:** رؤيا ٥: ١

٩٢ **عقارب العذاب:** رؤيا ٩: ٣ - ٥ «.. من الدخان خرج جراد فأعطى سلطاناً كما لعقارب الأرض سلطان.. وعذابه كعذاب عقرب إذا لدغ إنساناً».

٩٣ **بئر الهاوية:** تعبير إنجيلى متكرر انظر مثلاً رؤيا ٩: ١

٩٤ **أبواق،** انظر: «ثم بوق الملاك»: رؤيا ٩ و ١: ١٣ .. إلخ

٩٥ **ذلك الجراد،** انظر رؤيا ٩: ٣ - ٥

٩٦ **ثم بوق الملاك السادس،** رؤيا ٩: ١٣ - ١٥

٩٧ **متصاعد الرقم والحساب،** الإشارة إلى طريقة إعطاء قيم رقمية للحروف والكلمات فى الشعر والسحر والأسرار الدينية. انظر رؤيا ١٣: ١٧ . ١٩: هنا الحكمة من له فهم فليحسب عدد الوحش ففيه عدد إنسان. وعدده ست مئة وستة ستون».

٩٨ **لقد بنى العقل للحمولة الثقيلة العظيمة،** The cemplete poems No 1123 كتبت حوالى ١٨٦٨ ونشرت لأول مرة فى ١٩٤٥ وأبياتها متناثرة فيما بقى من الفصل فى الكتاب:

A great Hope fell
You heard no noise
The Ruin was within
Oh cunning wreck that told no tale
And let no Witness in

The mind was built for mighty Freight
For dread occasion planned
How often fundering at Sea
Ostensibly, on Land

A not admitting of the wound
Until it grew so wide
That all my Life had entered it
And there were troughs beside

A closing of the simple lid
That opened to the sun
Until the tender Carpenter
Perpetual nail it down

٩٩ **التى صعدت إلى ذهنى اليوم.. والتى كنت.. أحدد السنة:** The com- plete poens No 701 كتبت حوالى ١٨٦٣ ونشرت لأول مرة ١٨٩١:

A Thoughet went up my mind today-
That I have had before-
But did not finish - some way back-
I could not fix the Year-

Nor where it went - nor why it came
The second time to me-
Nor definitely, what it was-
Have I the Art to say-

But somewhere - in my Soul - I know-
I ve met the Thing before-
It just reminded me - twas all-
And came my way no more-

١٠٠ **سنوات الوحش وجرحه «الميت قد شفى»:** رؤيا ١٣: ٣

١٠١ **كأيام صعودها إلى مصر:** هوشع: ٢: ١٦

١٠٢ **لأنها قالت فى قلبها أنا جالسة.. ولن أرى حزناً:** رؤيا ١٨: ٧ وأنا فى البرية: رؤيا ١٢: ٦

١٠٣ **حصاة بيضاء.. يأخذ:** رؤيا ٢: ١٧

١٠٤ **النجار العطوف يدق فيه المسمار:** انظر ملاحظة ٩٨

١٠٥ وعلى تلال الأردن يخدع الرياضى الملاك ويغلبه: The complete poems No 59 كتبت حوالى ١٨٥٩ ونشرت ١٨٩٠م

A little East of Jordan,
Evangelists record,
A Gymnast and an Angel
Did wrestle long and hard-

Till morning touching mountain-
and Jacob, waxing strong,
The Angel begged permission
To Breakfast - to return-

Not so, said cunning Jacob!
"I will not let thee go
Except thou bless me" - Stranger!
The which accedes to -

Light swung the silver fleeces
"Peniel" Hills beyond,
And the bewildered Gymnast
Found he had worsted God!

١٠٦ تضيدة تأكل السفر: انظر رؤيا ١٠: ٩ - ١١ «فذهبت إلى الملاك قائلة له أعطنى السفر الصغير فقال لى خذه وكله فيجعل جوفك مراً، لكنه فى فمك يكون حلواً كالعسل فأخذت السفر الصغير من يد الملاك وأكلته فكان فى فمى حلواً كالعسل وبعدما أكلته صار جوفى مراً. فقال يجب أن تتنبأ أيضاً على شعوب وأمم وألسنة وملوك كثيرين».

إعادة حكاية حاسب كريم الدين وملكة الحيات

المحتويات

رقم الصفحة

رقم الصفحة

(١)

أوراق تمهيدية

فى هذه الأيام الغريبة من أيام حياتنا، فى بلادنا العربية، موجة متزايدة متصاعدة من كتابة المذكرات... كنا نظنها فقط فى مصر، وبعد خمود أنوار عبد الناصر، لكنها فيما يبدو سمة من سمات العصر، فهى فى كل مكان من أرضنا العربية. وكلهم يحاولون إعادة كتابة التاريخ، أو صنع التاريخ الذى يريدون، ففى الحقيقة لم يكتب التاريخ ليعيدوه.

فى مصر، ما شاء الله، تخمة من المذكرات، لكنها أيضًا فى المغرب والجزائر وفلسطين، وأظنها تستعد لتتصاعد فى لبنان والعراق، ومن يدرى، حتى فى السعودية. أصل المسألة، بالطبع، أننا مازلنا لا نعرف التاريخ. نعامله كأنه جب مسحور، من يدخله، يسرق ما يريد ليخرج هاربًا قبل أن تغلق عليه الأبواب فيموت، وكأننا ما زلنا نكتب ألف ليلة وليلة.

ولا مانع دائمًا مع تعدد الأبطال والليالى أن نعيد تركيب الصورة، فليس للصور إطار أصلى يحفظها، لكن لأننا جالسون لا نصنع شيئًا، فنحن لا نتحرك فى زمان أو مكان. لكننا نصطنع المسئولية ونصنعها كما نريد.

لكنه - أن نعلم - حتى فى ألف ليلة وليلة مسئولية وتركيب.

أنا حاسب كريم الدين. ولست أعرف مسئوليتى عن اسمى أو عن الدين، إذا كنت حاسبًا فهل هناك تناقض مع أننى كريم.

وإذا كنت كريم الدين فهل أنا كريم بالدين، أم الدين الكريم هو الذى جعلنى كذلك؟ وأخيرًا ما الذى أحسبه، وأى دين هذا الذى أنا فيه!

ما أصعب اسمى وما أعقده، وهل كل أسمائنا العربية كذلك؟

إننى أحسه وأنا أشرع فى كتابة هذه المذكرات أنه معادلة رياضية معقدة صعبة، وقد تحتاج إلى حاسب آلى لحلها أو تحديد أبعادها ودلالاتها.

تقول ألف ليلة وليلة، إن والدى كان اسمه دانيال.

ودانيال الذى نعرفه من التاريخ نبى عظيم من أنبياء إسرائيل. صاحب فى زمانه السبى البابلى وكانت له حكمة ووزارة فى الغربة. وكانت له تنبؤات ومعرفة بالمستقبل، ومن بينها النبوءة الكبرى بالنبى القادم فى آخر الأيام، أيام اليهود؟!

ولما كنا نخشى من حكايات الأنبياء، فقد أصبح أبى حكيمًا من الحكماء. ولما كنا نحسب الحكمة فى أرض اليونان وحدها، فقد أصبح أبى حكيمًا من حكماء اليونان.وهكذا بدأت مذكراتى المكتوبة فى النص السابق لهذه المذكرات.

وقد حضرت أنا فى «حاضر العصر والأوان» لأعيد كتابة هذه المذكرات.

هل أبدأ من البدء،

أم أبدأ بالمعنى.

وماذا تعنى الكلمة التى كانت هى البدء؟

فهل وراء الخلق كلمة؟

أم أن وراء الكلمة كينونة.

وبين الكينونة والخلق، كلمة، قد جعلت الوجود خلقًا،

وصنعت للكينونة وظيفة.

لو بدأنا بالوظيفة انحسرت الكلمة فيها، ولو بدأنا بالكلمة وقع بينها وبين الكينونة.

عدم لا يعبر،

واستقلت الكينونة بنفسها فى حرية مطلقة

لا يمسكها شيء إلا تكرار الكلمة.

ومن التكرار يصنع الزمان والمكان،

ومن الحرية تمارس الكينونة وجودها.

ولكن الكلمة ترد الكينونة إلى عُقالها

بأن تحدد الوظيفة.
وهكذا تنتهى المسرحية الأولى
وتستريح البطلات الثلاث.
الكلمة والكينونة والوظيفة،
وتصبح أسماؤها الجديدة:
كن والخلق والعبادة
ثلاث من الإناث يرسمن
مصائر الوجود
ويكررن فى كل زمان ومكان
«وما خلقناكم إلا لتعبدون».
فلنبدأ من البدء الحكاية.

الفصل الأول
الإرث والميلاد

جاء فيما قلت فى الأسطر السابقة أن اسمى حاسب كريم الدين وأننى أريد أن أكتب مذكرات مثل المذكرات التى تكتب فى العالم العربى هذه الأيام. لكننى فى الحقيقة - كما قلت - لا أكتب هذه المذكرات بل أعيد كتابتها، فهى مكتوبة مقروءة فى ألف ليلة وليلة من الليالى (٤٦١ -٥٢٧) لمن يريد أو يفضل قراءتها بغير فهمى وأسلوبى الذى اخترته لإعادة الكتابة. فالواقع أن إعادة الكتابة هى تقرير للعجز عن الفهم أو هى محاولة لفهم ما لم يكن مفهومًا أو ما لا يمكن فهمه وما أكثر ما لا يمكن فهمه فى حياتى.

لكنى وقد تقدمت بى السن الآن قد وجدت أن القصة المكتوبة قد اختلطت فيها الحقائق، بل وتعارضت مع الواقع فأخفت الكثير من المشاعر وأسقطت الكثير من الوقائع. فأنا مثلاً على عكس ما تقول القصة المكتوبة لا أنعم بهذا القدر من المعرفة الكلية الشاملة التى تنسبها إلىّ فى آخر حياتى ولا أظن أحدًا يمكن أن ينعم بهـا، كما أننى ما زلت أنتظر، ولم يصلنى بعد، هادم اللذات ومفرق الجماعات. لكننى وقد أحسست تقدم السن ورأيت أن عينىّ بدأتا تضعفان ضعف الشيخوخة وبدأ يداخلنى الشعور بالفناء القادم علىّ، شعرت أن علىّ أن أحسب وأن أحاسب ما مر من أيام.

وأول ما أدركته من كشف الحساب والأمر الذى جاء فى مقدمة كل أمر، هو أن الكتابة كذب ونزييف لما حدث، فما هو مكتوب ليس هو ما حدث إلا إذا قلت إن ما حدث هو المكتوب وسكت. وكل كلام أقوله هو أيضًا كذب وتزييف، فمجرد القول تجديد لواقع يخلو منه القول فأنت لا تحكى ما حدث، بل تقول ما يحدث وأنت لا تنقل الواقع بل تصنع واقعًا لا يمكن نقله لأنه دائمًا يحدث وأنت تقوله وهكذا تغيره دائمًا وتكذب عليه.

وإذا كانت هذه الحقيقة فى رأس كشف الحساب فهو ولا شك حساب خسارة لا تنتهى وكل إضافة، مهما كانت، مخصومة من البدء مستوعبة فى حجم الخسارة الكبير. أما المكاسب على الطريق فهى تلك الدعوات القائمة فيما حدث لإعادة الكتابة أو لبدء الحكاية من جديد.

اللهم أعنى على مـا ابتليـتنى به من مـسئـوليـة وعلى ما حـملتنى من أمـانة. فـأنا من بنى الإنسان الذين هـم أعجز عن أن يحملوا ما حملوا من أمانة.

لقد ولدت - على غير ما تقول الحكاية المكتوبة - فى إحدى ضواحى القاهرة الجميلة أيام كانت جميلة. وكان أبى على غير ما تقول الحكاية بستـانيًا عارفًا بالنبات وقد جعلته القصة حكيمًا طبيًا عارفًا بالأدواء والأمراض.

وإذا كنت فى الحـقـيقـة قـد عرفت أبى وعـايشـته فـإن الحكاية تريدنـى أن أكون كـأبناء الحكايات قد جئت على كبر وبعـد يأس من الخلف واستغفار وتوبة إلى الله المانح الوهاب. وبعد صلاة طويلة وتأمل أخير فى حياته قـام أبى وواقع أمى فعلقت منه فى ليلتها بعد عقم طويل. وقد لا أسـتطيع أن أعرف أبدًا ماذا كـان فى صلاة أبى أو فى غـرامه ليلتهـا وما هى كيمـياء الاستغفار إذا امـتزجت بالرغبة والشهـوة ولا كيف يمكن أن يكتب هذا الواقع إلا بالقول إنه مكتوب. فكل واقع فى الحقيقة، مكتوب، أو غير مكتوب هو مكتوب لأنه واقع. ولست أريد أن أقول إن الطريق الذى اختـارته الحكاية أفضل أو غنى بالدروس التى يمكن أن تستـفاد منـــه. لكنى أقبل المكتـــوب لأنه مكتوب ولأن ما حـدث فيه من تزوير ونقص لا يمكن تصحيحه إلا بإعادة الكتابة التى ما تبدأ إلا ليصبح من الضرورى إعادتها من جديد.

ويبدو أن الليلـة التى وقع فيهـا الحمل كان وقـعها ثقـيلا على أبى. فـعندما أقبل الصـباح ورأى أبى وجه أمى وقد استنار واستدار وظهر فـيه ضوء غريب مما وقع فى داخلها صمت وصمتت لم تكلمه. فـأدار الرجل ظهره إليها فى الصباح حتى لا يحمـل نفـســه مسـئولية ما حـدث وكأنما كـان يتمنى ألا يجـيبه الله إلى مـا سأله منه. وبعـد صمت فى الصـباح بلغ الضحى قال لهـا - كما قالت لى - إن عليه أن يسـافر. سألته إلى أين قال لا أدرى فـسألته لماذا فكرر لها نفس الجواب. فـقالت له ما الذى يجعل الأمر ضرورة. ولا أظنـه إلا قد تحير كثيرًا قـبل أن يجيب، لأنه لم يجد ما يجيب به إلا تلك الكلمـات الغريبة التى يؤرقنى الآن فهمها: مكتوب.

ولا أظن عقلي هو الوحيد الذى تحير أمام المكتوب فكل أمتنا وحضارتنا - فيما يبدو - قد تحيرت كذلك أمامه دون أن تفعل شيئًا إلا أن تعيد كتابة المكتوب. فليس هناك ما يدعو إذن - ولا نتيجة - لأن نتوقف عند هذا.

وقد سافر أبى فى الواقع أكثر من مرة تاركًا أمى حاملاً، لكنه فى الحكاية كان جادًا قاطعًا لأن البدء يريد مثل هذا القطع وتلك الجدية الحاسمة.

وهكذا قال لها: ليس لدى أغلى وأعز من كتبى. وكانت كتبه فى الواقع كثيرة وفى عدة لغات. واستمر قائلاً لها أنا لا أستطيع أن أفارقها. فوضعت أمى يدها على صدرها وبطنها وقالت: لكنك تستطيع أن تفارقنى أنا. فلم يجب أبى ونظر مرة أخرى فيما وقع على وجهها من نور وسألها مرة واحدة مفاجئًا لها: من أين لك هذا النور؟ فضحكت سعيدة وكأنه لن يسافر وقالت داعية متحببة: منك. فأدار الرجل وجهه وحمل كتبه كلها فى صناديق وخرج.

وكم كنت أريد أن أعيد كتابة هذا المكتوب أكثر من مرة حتى أصل فعلاً إلى ذكر حقيقة ما وقع، لكننى فى الحقيقة لا أستطيع لأن هذا سيشدنى إلى طريق غير الطريق الذى اخترته الآن وسوف يضيع منى الكثير مما أظن أننى قد وجدته فيما هو مكتوب.

حمل أبى كتبه فى مركب وسافر راكبًا البحر. ولست أدرى لم اختار أبى المركب والبحر؟ وكأنه يريد أن يكون وحيدًا وأن تذهب كتبه جميعها إلى البحر. فهل كان يريد أن يخلص من حياته بعد أن انتهى من ليلة الغرام التى استجاب فيها الله له، أم كان يريد أن يخلص من ثقل كتبه التى ربطته وأخذته من كل شىء فى الحياة حتى زوجته، أم هو كان يعد فى الحقيقة لوصيته ولما سيتركنى فيه من يُتم؟

ها أنا فى الحقيقة أتعجل ما حدث وأريد أن أسد تلك الفراغات المخيفة فى الواقع المكتوب كما تفعل الكتابة تمامًا ودائمًا. فلا أظن أن الصدق الكامل يرضى بأن تنتقل فى الكتابة من كلمة إلى أخرى لأن بينهما ما لا نهاية له من كلمات.

لقد عـاد أبى وكان يمكن ألا يعـود. عاد ومعـه معنى سـفرته فقـد تحطم المركب من ريح البحر وغـرقت الكتب بصناديقها واخـتفت فلم يَعُد له من العلم إلا ما حـصـله فى صدره وما أصبح خفيًا لا يملكه غيره. فهل كان هذا المعنى هو الميراث الذى يعده أو أعده لى؟

فقد قالت لى أمى والحكاية المكتوبة - وهل هما أمـران أم واقعان مختلفان؟! - إنه عندما عاد إلى بيته كان معه خمس ورقات بقيت من الكتب التى وقعت فى البحر.

«فلما رجع إلى بيته وضع تلك الأوراق فى صندوق وقفل عليها، وكانت زوجته قد ظهر حملها، فقال لها اعلمى أنى قد دنت وفـاتى وقرب انتقالى من دار الفناء وأنت حامل فربما تلدين بعد موتى صبيًا ذكرًا، فإذا وضعتـه سميه حاسب كريم الدين وربيه أحسن تربية وإذا كبر وقال ما خلف لى أبى من الميراث فأعطيه هذه الخمس ورقات فإذا قرأها وعرف معناها يصير أعلم زمانه. ثم كان أن ودعها وشهق شهقة ففارق الدنيا..».

لقد تفكرت كثيرًا فى هذه الكلمات المكتوبة والمسـموعة من أمى وقرأتهـا مرارًا ورددتها ترديدًا لنفـسى. وتوقفت عند «اعلمـى..» وعند وأنت حامل.. ثم «فـربما تلدين بعد مـوتى صبيًا..» وإذا كـبر... فإذا قرأها وعرف معناها... أعلم زمـانه... فهل هذا المكتوب هو إذن حياتى وهل هذا مـا وقع؟ إنه كامل مليء بالدلالة الحية المتحركـة ومع ذلك فهو ناقص من كل جانب. فـأنا لا أظن أن الورقات الخـمس قد بـقيت من كتبه أو كـانت مكتوبة فيـها. ولم يكن هنا داع - ربما- لأن تصف الحكاية الصندوق الذى وضع فيـه أبى ورقاته الخمس والتى كانت فيما أجزم مكتوبة بخطه. فقد امتلكت الصندوق وصاحبتنى الأوراق طول حياتى.

إن الكلمات فى الحكاية مكتـوبة كما يجب ومع ذلك فقـد جرؤت بما أعرف من أسلوب أو علم للأسلوب - إذا كان هناك علم بهـذا الاسم - أن أعيد الكتابة وأن أختـصر الرسالة أو أركزها متقصيًا موجات وأهداف التـعبير. وأظنها قد بقيت فى صدرى على هذا النحو:

«اعلمى قد دنت وفاتى وأنت حامل فإذا وضعته سميه حاسب كريم الدين وإذا كبر فأعطيه هذه الخمس ورقـات فإذا قرأها يصيـر أعلم زمانه» ولا يكـاد يفرغ لى تعـجـب مما حذفت ولم أضافت الحكايـة ما أضافت وأسـرار العلاقة بين صناعـة المستقبل والقص عن الماضى وما فـى التعـبير مـن حث على الوقوع في المكتـوب. لكن هذا أمر لا ينتـهى مثـل وجوب التكرار والإعادة لكل كتـابة. ومن الأولى بى أن أتذكر وأن أذكر ما تركتـه الحكاية تمامًا وما أخفته فى بطنها من تفاصيل ومن معنى كلى شامل.

كان الصندوق صـغـيراً من الأبنوس الأسود وكان عليـه قفل ومفتـاح ذهبى فـيه، فـكأنه غيـر مقفول إلا بالـشكل. وكانت الأوراق الخمس مـوضوعة واحدة فـوق الأخرى، أوراق قديمة كأنها فـعلاً منتزعة من الصفحات الفارغة من الـكتب. وكانت كل ورقة تحمل عدداً قليلاً من الكلمـات لا يتجاوز السطرين وكـأنها مكتوبة على دفـعات متقطعـة بين كل منها فكر وزمن.

ولقد تحيرت كثيراً وما زلـت لا أستطيع أن أجزم بمعـرفة السبب الـذى من أجله أخفت الحكاية المكتـوبة نص الورقات الخمس. فـهل كان ذلك لأنها أرادت أن تخـفى المعنى الذى أرادنى أبى أن أعرفه، وهل أخفته إشفاقًا علىّ من حكمها بأننى سأصير أعلم زمانى وأنا لم أصبح كذلك، أم أنها أخفته لأن المعنى فى الحـقيقة خفى لا يمكن لأحد أن يقطع على وجه اليقين بأنه قد عـرفه. أم هى قد أخفته لسـبب أبسط من هذا كله وهو أننى أخفيت الأوراق ولـم أطلع عليهـا أحداً وقد جلدتها مـعًا بجلد رق وخطتهـا فى ثيابى أنزعها وأخـيطها من جديد مع كل ثوب من ثـيابى التى أبلتهـا الأيام. لاشك أن هناك أسبابًا أخـرى كثيـرة لهذا الإخفـاء قد يتـعلق بعضـها بأسـلوب الحكايـة وإمكـانيات الكتـابة وصـناعـة المعنى دون ذكره أو تحديده أو غير ذلك من أسباب.. لقد صحبتنى الأوراق وما زالت تصحبنى فى أيام

وأماكن كثيرة وقد قرأتها وأعدت قراءتها قبل ما حدث لى وأثناءه وبعده وما زلت أعتقد أن غموضها وما فيها من إشارات لم تتكشف تمامًا لى وإن كنت قد بدأت أرى فى نصها المصمت كوات من نور ونبوأت تتحقق أو تحققت مما جعلنى أصير إلى أن أكون - كما تقول - قاتلاً وخائنًا دون أن أصبح كما وعدت أعلم زمانى فليس للعلم نهاية يقف عندها الإنسان.

لقد حملت مسئولية هذه الأوراق طول حياتى وها أنا قبل أن أقص تلك الحياة أو أعيد كتابتها أقدم لذلك بنص هذه الورقات محذراً ما استطعت كل قارئ من أن يعتبرها أوراقه أو مخاطبة له وإن كان كل أملى ورجائى ألا أكون وحيداً مكتوبًا علىّ أن أحملها بمفردى:

«اعلم إذا كنت لا تعلم أنك قادر على أن تتعلم كل معرفة. والمعرفة الكاملة «حية» بالمعنيين تقتلها أو تقتلك.

إنها طريق آخر غير طريق الخلود والسلطان. فإذا أردت الخلود احترقت وإن سلكت طريق السلطان فتذكر السيد سليمان.

يا بنى المسكين طريقك إلى المعرفة هو الطريق الوحيد المفتوح أمامك. لكنك فى نهايته تصير قاتلاً عارفًا خائنًا كآدم ناكثًا للوعد كأبيك الكبير.

يا بنى المسكين كل الطرق الثلاث تبعدك عن الكينونة لأن الذى وراء الكينونة هو الحب. وليس الحب طريقًا لكنه سياحة متواصلة وانتظار مستمر للموت لا ينتهى ولا حتى به».

وهنا وبمقتضى الأصول للإعادة يجب أن أتوقف لأبدأ من جديد.

(٢)
لقاء الملكة

لقد جاءتنى المعرفة ودانت لى الدنيا «بعد شدة»، تمامًا كما قال المنجمون. وقد كذب المنجمون ولو صدفوا. فالحياة مهما تنبأ بها المنجمون وتوقعها الإنسان هى غير ما يتوقع لأن وراءها معرفة وإرادة لا يلحق بها عقل الإنسان. «كن» الخالقة جديدة متجددة وقانونها الأزلى وهو الحدوث أو الوقوع لا تحدثه إرادة ولا يمسك به وقوع مهما بلغ العلم أو هُيِّئ للنفس والعقل أنهما قد امتلكا الأحكام والقوانين بالمعرفة المسبقة. وإذا كانت هناك قيمة حقيقية لإعادة الكتابة للحكاية المكتوبة فهى أنها تثبت لنا ذلك وتجعلنا نمسك بهذا المعنى من الجدة والتدفق غير المنظور فى المعانى بل والأحداث.

جمعت أمى المنجمين بعد أن ولدت وبعد أن مات أبى. وبعد أن حسبوا الطالع - فقدرى من أول حياتى محسوب وأنا حاسب - وما يقابله من الكواكب قالوا لها «اعلمى أيتها المرأة أن هذا المولود يعيش أيامًا كثيرة لكن بعد شدة تحصل له فى مبدأ عمره، فإذا نجا منها فإنه يعطى بعد ذلك علم الحكمة..» فهل كانت حياتى إذن محسوبة منذ البدء وليس لى فيها خيار. ولقد اشتغلت أو نظرت فى أواخر حياتى التى أعيشها الآن بمسألة الجبر والاختيار. واستقر فى نفسى أن من الخطأ أن نقول إن الإنسان مجبر أو مخير لأن الإنسان يحصل على المعنى من حياته ويحاول وهو يتتبعه أن يصنعه ليدركه. فالمعنى هو تميز فى بقية مصنوعات الله. وعندما يتراكم المعنى أو يخيل للإنسان أنه يدركه يحس بمشاعر الاختيار والقدرة على التصرف وهى فى الحقيقة ارتفاع إلى الفهم والمعنى ومقاربة منه.

فهل كنت مختاراً وأنا أولد أو وأنا أتلقى ميراث أبى أو كلمات المنجمين أو أخضع لرغبات أمى دون أن أخضع لها. وهل خضعت لشىء من هذا الذى حدث لى فعلاً بل وهل كان إجرامى وخطيئتى اختياراً؟ إننى ما زلت أبحث عن معنى ما حدث، وحقيقة إعادة الكتابة هى ذلك. وعلى هذا فالإنسان غير مجبر أو مخير لكنه مهيأ بخلقه للسعى

وراء المعنى. وكل سعادته وشقائه درجات من التوفيق والفشل فى الإمساك بهذا الأمر العصى النادر كالمعادن، البعيد كالكواكب، الغائر كأعماق الأرض والذى هو المعنى..

ولست أزعم أننى قد أمسكت بالمعنى من حكايتى أو حياتى فلقد وجدت بعد كل ما حصَّلت أو أعطيت من حكمة أن المعنى ظل «منعكسًا لِـ «كُنْ» الخالقة يتجدد ويتسع ويتلقى منها مع تغير المكان ومرور الزمان أشكالاً جديدة قد تتصاعد وتتراكب وقد تفترق وتسقط لتبدأ رحلتها من جديد من البدء الذى لا ينتهى. وهكذا فقد وجدت أن المعنى هو دائمًا نهاية مظنونة يتولد منها دائمًا بدء جديد.

لقد ظللت أكثر من سنة أقرأ حكايتى المكتوبة لأستخلص المعنى. ومر علىَّ حين ظننت أننى قد وصلت إلى صلب المعنى الذى يجمع ويستخلص الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية والمسيحية ثم الإسلام الذى يحيط بهما معًا ويقرهما فى الروح والتاريخ والأرض. فتصبح حكايتى انعكاسًا لما حدث فى السماء. لكننى وجدت المعنى الكبير ينداح ويتسع وتتلاشى حدوده وأركانه لينصرف إلى النظر والحصر لمصنوعات «كن» الخالقة التى وسعت السموات والأرض دون أن يؤودها حفظهما داخل الزمان وخارجه وفى المكان المحدود أو اللامتناهى. ومن البدء الجديد انصرف المعنى إلى ثراء التراث البشرى كله فى كل أصقاع الأرض وحلقات التاريخ عند اليونان والهنود وعلى أرض بابل وفارس القديمة. فهل إذا اعتبرت المعنى ضفائر مجدولة كان ذلك أقرب إلى إدراكه والإمساك به أم أننى مهما ضفرته يظل منسدلاً كشعر المرأة الجميلة، كل شعرة منه فيها كل المرأة، وكل الأنوثة وكل السحر الذى لا ينتهى ولا يمكن الإمساك به.

إننى بعد كل ما حصلت من معرفة وعرفت من تجارب وعذابات للبشر وخصائص وغرائب مصنوعات الله أبدأ من جديد بمعنى كان كامنًا وراء كل معنى، مكتوبًا فى كل

ما خططت من كلمات إلى الآن. إن الكينونة أسبق من كل معنى وليس كل معنى إلا سعيًا متصلاً لا ينتهي لمعاينتها والإقرار بكينونتها. فوراء الكينونة، بمعنى الحركة إليها، هو كل ما يمكن الإمساك به من معنى.. وهل السياحة فى الحب التى خلفها لى أبى وما زلت لا أعرفها شيء آخر غير ذلك، أم أنها هى نفس المعنى وأننى إذا وصلت إليها وصلت للنهاية التى هى بدء لا ينتهى...

وضعتنى أمى فى الكُتَّاب لأتعلم شيئًا من العلم فلم أتعلم فأخرجتنى من المكتب وحطتنى فى الصنعة فلم أتعلم شيئًا من الصنعة ولم يطلع من يدى شيء من الشغل. وبعد أن بكت أمى متحيرة من صدامها مع المكتوب نصحها «الناس»، وقد رأت أن لديهم من الحكمة ما ليس عندها، أن تزوجنى. وهكذا، وبسرعة أراد الناس أن يبتلعوا حياتى ومعناها وأن يردوها إليهم لتصبح جزءًا لا يفترق عن مجموع حيواتهم. قالوا لها إنه إذا تزوج فقد يحمل «هم» زوجته ويتخذ له صنعة.

ولقد ظللت طول حياتى لا أعرف كيف يقبل الناس أن يختزلوا حيواتهم فى صنعة!! وإن كنت أرى وأعرف أن هذا هو طريقهم الوحيد فى الحياة. وأظن أننى لم أحمل «هم» زوجتى لأن حياتى كانت متجهة إلى «همّ» آخر لم أعرفه ولم أفهم معناه إلا بعد أن كادت تلك الحياة تنتهى حين قاربت أن أدرك ميراث أبى وأشرفت على التبصر بهم الكينونة.

وليست حياتى المكتوبة أو المعادة إلا التدرج فى التعلق بهذا الهم والتعرض لصعوباته ومخاطره. فقد ظل عجزى عن اتخاذ «صنعة» هو «الصفة» التى أصبحت لى. وكم لاقيت من «الصفة» فى مطلع حياتى وأواخرها..

كنت أخرج من بيتنا لأخلص من همّ أمى وزوجتى وأطلع إلى الحقول ووراء الحقول إلى الغابات، أريد أن ألمس وأن أكون جزءًا من الأرض الندية بالندى أو المروية بالماء المنداح

فيهـا أو أن أضع جسمى على الحجـر لأعرف صفته وصـفتى التى لـم أعرفهـا بعد. وكانت الأشجار تـنتـصب فى عينى وفى صـدرى وتمد جذورها داخلى، وأحس أجنـحـة الطيور أو حوافر الأنعام قطعـًا أو لحظات من بدنى وزمانى وكـان المعنى الذى لا أدركه يتـرجرج دائمًـا فى روحى كومـضات الماس أو ألوان مـا سمـعت عنه من أحـجار كـريمة. وكـانت السمـاء والشمس والقـمر والنجـوم قريبـة منى دائمًا وكـأنها فى أصـابعى ومع ذلك أدرك محزونًا أو فرحًا حـسب الأوقات والأشـكال، أنها جميعا حـرة ومستـقلة ومكتفية بذاتها لا تريد منى حبًا ولا تريد أن تمنحنى معنى.

وكنت أرى ويرانى فى خروجـاتى التى لا تنتهى جمـاعة من الحطابين أصحـاب الصنعة. ومع أننى لم أكلمهم ولم يكلمونى إلا بالسلام فقـد تحركوا بالعطف البشرى الذى ما يلبث أن يصبح مؤامرة وكراهية، إلى أن يدخلوا فى حياتى ليصنعوها أو ليخلصوا منها كما دخل إخوة يوسف عليه السلام حياته فصنعوا أحداثها الأولى التى بدأت بها.

وفات الحطابون على أمى وقالوا لها «اشترى لابنك حـمارًا وحبلاً وفأسًا ويروح معنا إلى الجبل فنحتطب نحن وإياه ويكسب ثمن الحطب له ولنا وينفق عليكم ما يخصه..».

وتكرُّ الأحـداث مسـرعـة مع الأيام حتى تصـل الحكاية إلى تصويـر البدء من جـديد فى أحداثها مستخدمة كلمة «فاتفق» التى تدل على مـفاجأة تجمع مجموعة من الأحداث توجه الأفراد والمعانى إلى مـا تريده الحكاية من معنى أو تجربة. فيـتفق فى يوم من الأيام أن تسقط الأمطار شديدة ويسرع الحطابون وأنـا معهم إلى مغارة عظيمـة فى الجبل نحتمى فيـها حتى إذا أصبحنا فى مأمن، وكأنما أريد دائمًا أن أكـون وحيدًا، أضرب الأرض بجسمى أو فأسى فأنعزل عنهم ضـاربًا أرض المغارة بالفأس حتى أحسـها خالية من تحت الفأس فـأظل أحفر لأصل إلى بلاطة وفيها حلقة...

وتكتمل هذه الحلقة من الأحداث بأن أشد الحلقة وترفع البلاطة لأكشف تحتها جبا ملآن عسل نحل. نعم، لقد كشفت لهم عن هذا العطاء الربانى المخزون وكأنه كنز محفوظ فكأنما تجمع فيهم كل ما فى نفوسهم من طمع وكل ما فى قدراتهم من صنعة التجارة. وظللت بأمرهم أرفع العسل لهم فى مظاريف ليبيعوه فى المدينة وقد تركونى أحرس لهم الكنز الذى يعرفون بينهم وبين أنفسهم أنه لى. حتى إذا فرغ العسل وأرادوا الانفراد بما حصلوا من ربح تركونى فى الجب لم يسحبونى لأخرج وانصرفوا لأمى يحكون لها قصة الذئب الذى أكل يوسف وأضافوا أنه قد أكل الحمار...

وهكذا صرت وحيداً مقطوعاً عن الناس بما لهم من صنائع محجوبًا عن الدنيا بما فيها من هموم وأصبحت أمام صفتى التى لا أعرفها ولا ينفع فى تبينها بكاء أو كمد.

لكن الأحداث كانت قد اتخذت اتجاهها وتعرت لروحى جوانب من الكينونة لم أميزها بعد، لكنى أصبحت مستعداً مهيأً لأن أميز «الصفة» التى تفصح بها عن نفسها. وهذا التبين لما رأيت والتهيؤ بداخلى لتمييزه هو الذى يجعلنى أقرب إلى أن أقطع بأن الأمر لم يكن حلما مررت به بعد طول البكاء والوحدة فى الجب. فليس هناك ما يمنع أن تقرر الحكاية أنه كان حلمًا لو أنه كان كذلك. ومعنى الحكاية لا يتغير سواء كانت الأحداث حلمًا أم كانت واقعا فريدا متميزا فالحلم رؤية تكشف المعنى، والواقع منظر يجسد المعنى. والأحداث والكلمات فى الحالين مثقلة بالدلالة والمغزى. وما الغرابة فى أن يكون الواقع غريبًا مزدحمًا بالألوان والأشكال والأضواء والحكمة المستترة وهو دائمًا كذلك وكان الله دائمًا قادرا على أن يخلق ما لا تعلمون. لو أننا كنا نستطيع بأى علم أو أى تحليل أن نحيط بالكينونة لاخترنا أن نسمى ما لا نحيط به حلمًا أما ونحن فى الواقع غير محيطين بكل ما هو كائن فكل ما يكون قد يكون حلمًا أو واقعًا على حد سواء. إن الأحداث والكلمات فيما حدث

لى تتفق وتتجمع وتأخذ اتجاها ومعنى وهذا كل ما يعنينى أو فى الحقيقة ما أنا قادر على حكايته دون أن أشغل نفسى بقضية الحلم والواقع كما رفضت أن أشغلها بقضية الجبر والاختيار.

لقد اتفق لى وأنا فى الجب وحيداً أن وقع عقرب كبير قمت فقتلته وإن وجهنى للتساؤل من أين وقع هذا العقرب وقد كان الجب مليئًا بالعسل. وما أحلى هذا التناقض الذى هو فى روحى أحلى من العسل لأنه هو الذى قادنى إلى تتبع مكان سقوط العقرب وتبين النور الذى لاح من مكان سقوطه. حتى إذا نهضت لأوسع المكان تبينت طاقة تفضى إلى دهليز عظيم وفى نهاية الدهليز باب عظيم أيضًا من الحديد الأسود وعليه قفل من الفضة وعلى ذلك القفل مفتاح من الذهب.

كان الباب مثل صندوق أبى له قفل ومفتاح بمعنى أنه لم يكن مغلقًا فى وجهى. فهل هناك غرابة فى أن أفتح الباب وأن أعبر إلى داخله.

لقد أصبحت فى الداخل، وداخل هذا الداخل بدأت حياتى وانتهت. وأظن أنه لكل حياة باب عظيم عليه قفل ومفتاح، والصعب النادر والذى هو أشبه بالحلم أن يصل المرء إلى هذا الباب. حتى إذا وصل ودخل وعبر، صار إلى شبه ما صرت إليه ورأى جانبًا آخر من الكينونة غير الذى رأيت.

تمشيت ساعة فى الداخل الذى عبرت إليه حتى وصلت إلى بحيرة عظيمة أيضًا ورأيت وراء تلك البحيرة شيئًا يلمع مثل الماء. فلم أزل أمشى حتى وصلت إليه فرأيته تلاً عاليًا من الزبرجد الأخضر. نعم، مثل الزبرجد الأخضر وبدأت أحس لما أرى طعمًا فى فمى وكأننى أكلت كل عسل الجب. وتقدمت منتشيًا إلى التل فوجدت عليه تختًا منصوبًا من الذهب مرصعًا بأنواع الجواهر، وحول التخت كراس منصوبة بعضها من الذهب وبعضها من الفيروز وبعضها من الزمرد الأخضر.

وقد عرفت فى روحى أنواع هذه الجواهر بأسمائها مع أننى لم أكن قد عرفتها فى حياتى إلا قطعًا صغيرة من الفصوص، تتحلى ببعضها النساء العابرات فى الطريق، فلم يكن لأمى أو لزوجتى شىء منها. لكن الجواهر لم تستوقفنى طويلاً، لأننى عرفتها وعرفت أنها بكل أحجامها لا تتغير، وأن كل ما يلفت النظر إليها أنها قد أصبحت كمًا هائلاً عظيمًا لكنها مثل كم العسل فى الجب لم تثر طمعى ولم تحرك فىَّ رغبة للصنعة، بل نظرت فى عددها. وأحسست بقدر من الثقل والخوف وأنا أعدها وأجدها اثنى عشر كرسيًا، فتذكرت مرة أخرى كواكب يوسف وظللت متعجبًا حتى غلبنى النوم.

فهل حلمت مرة أخرى حلمًا داخل الحلم أم أننى صحوت من نوم واقعى على نفخ وصفير وهرج عظيم. فلما فتحت عينى رأيت على الكراسى حيات عظيمة، فكل شىء هنا عظيم. ولهذا حصل لى من ذلك فزع عظيم ونشف ريقى من شدة الخوف حتى نسيت طعم العسل الذى كان يملأ فمى قبل أن أنام.

وليس هناك ما يدعونى أن أفصِّل فى وصف خوفى وأنا أرى بعينى كل حية تتوقد مثل الجمر وهى فوق الكراسى ومرَّ ما يقرب من ساعة وأنا فى ضوء هذه العيون الذى جعل المكان حولى وكأنه فى ظلام دامس إلا من بؤرها المتعددة.

وبينما أنا واقف أنتظر أقبلت حية أكبر من الحيات الجالسة وعلى ظهرها يتوازن «طبق من الذهب فى وسطه حية تضىء مثل البللور ووجهها وجه إنسان وتتكلم بلسان فصيح..» لقد رأيت أول ما رأيت جمال وجهها ولا أظننى قادرًا أبدًا على أن أصف هذا الجمال. لم يكن وجهًا نسائيًا جميلاً لكنه كان فى الحقيقة جمال كل النساء. وعلى الرغم من أننى لم أعرف من جمال النساء إلا ما كان فى أمى وزوجتى وهو ليس بالفريد فقد كانت مثل كل النساء فى حارتنا وشوارعنا لكن الوجه الذى رأيته كان يجمع جمالاً ليس له مثيل لأنه قد ملأنى

معرفة وشعوراً بكل الجمال وأجمل ما فى كل جمال. وعندما يصبح الكل أمامك لا تستطيع أن تلجأ إلى التشبيه أو إلى تحديد الأجزاء، لكنك تنظر وتنظر ويرتد بصرك بما رأى ليفرض عليك أن تنظر وأن تظل صامتًا تنتظر.

وهكذا سمعتها تقول بفصاحة فى صمت مثل انصباب العسل:

السلام عليكم..

وتقول الحكاية إننى رددت السلام، لكننى لا أذكر صوتى وإن كنت أذكر السلام الذى ملأ نفسى وجعلنى أفقد كل خوف وأرد السلام فى داخلى دون أن أسمع صوتى أو أذكره.

ونزلت من الكرسى حية أخرى فاقتربت من الطبق على الحية التى تحمله وحملت الحية التى فوقه وحطتها على كرسى فى الوسط فهبطن جميعًا من كراسيهن لتحيتها وللدعاء لها بلغة لم أفهم منها إلا أنها دعاء وتحية. حتى إذا جلست وأشارت إليهن بالجلوس تكلمت مرة أخرى بلغتها العسلية وقالت:

- لا تخف منا أيها الشاب فإنى أنا ملكة الحيات وسلطانتهن..

وانتشرت فى قلبى من سلطان صوتها هدوء وسكينة وأحسست بأمان لا تمنحه إلا ملكة وسلطانة وجلست عند أقدام كرسيها أتطلع إلى جمالها وهى تأمر لى بسماط عليه «تفاح وعنب ورمان وبندق وجوز ولوز وموز» إذا أكلت من أى منها أحسست بطعمها جميعها فى فمك وامتلأت عينك بأضواء وظلال جلودها وأنفك برائحتها الزكية.

وظللت وكأننى قد دخلت حلمًا ثالثًا أكلت حتى شبعت وهى تنظر إلىّ بجمالها وتنتظر أن أشبع وقبل أن أنطق أو أن أخبرها سألت وكأنما تواصل صب العسل ولا تنتظر الإجابة:

- يا حاسب، من أين أنت ومن أين أتيت إلى هذا المكان وما جرى لك؟».

وكانت هذه أول مرة أعرف فى اسمى معنى الحساب وضرورة أن أقدمه. وكانت هذه المرة أيضًا أول مرة أبدأ فيها إعادة حياتى بالقول أو الكتابة لكننى لا أملك، مع حلاوة اللقاء

والحساب، أن أعيد بالتدقيق ما قلت وما حكيت لكننى فيما أعتقد، قد بدأت أضع يدى على ما فى حياتى من معنى.

وفى نهاية كلامى الذى أظنها قد عرفته دون أن تسمعه أصدرت حكمها أو أمرها فى تؤدة وفى كلمات كالجواهر النادرة:

- «ما يحصل لك إلا كل خير، لكن أريد منك أن تقعد عندى مدة من الزمن حتى أحكى لك حكايتى وأخبرك بما جرى لى من عجائب..»

ووجدت نفسى دون خوف أو تردد أحس أن حياتى وحكايتى هى التى بدأت وأنا أقول لها بلا تلعثم:

- «سمعًا وطاعة فيما تأمرين به».

وهنا، وكما تقضى أصول الإعادة يجب أن أتوقف لأبدأ من جديد.

(٣)
سلطان «اعلم»

إذا لم تبدأ بالصدق غلبك الكذب والزور واشتد وتراكم من حولك حتى يصير ظلامًا دامسًا فلا ترى ولا تعرف أن تقرأ أو تكتب. وعلى الرغم من أن هذه حقيقة معروفة مجربة أو نصيحة حكيمة صادقة فإن البشر لا يتبعونها إلا نادراً ولمامًا. وعلى الرغم من أن كل من يبدأ فى كتابة مذكراته أو إعادة حكاية حياته يعد بهذا الصدق فإنه فى الحقيقة لا يفعل ذلك، أو ينوى ولا يكمل الطريق. وقد سألت نفسى وأنا أعيد الحكاية بعد أن كادت حياتى تنتهى، لماذا يحدث ذلك. وما هى الصعوبة فى جوهرها وحقيقتها؟

وقد لا أصل إلى إجابة كاملة على سؤالى ولا أظن أن هناك إجابة كاملة. فالإجابات الممكنة تتجمع متكسرة لكل منها أسباب ومصادر. ومع تكسرها وتعددها قد يملُّ العقل منها أو يكلُّ فإما يتوقف عن حصرها أو يكتفى بهذا الوعى الغامض بوجودها دون أن ينتقل من ذلك إلى جمعها فى معنى واحد أو سبب أصيل أول.

فنحن عندما نكتب ونريد أن نعيد ما حدث أو أن نحكيه نكتب أو نتكلم فى زمان غير الزمان الذى حدثت فيه الحكاية، وحكايتها بدون زمانها هو أول الكذب المفروض الذى لا مفر منه. وأنا بما أقدم من أفكار حول إعادة الكتابة والحكاية وما أقرره من أحكام حولها أريد بهذا الوعى، الذى قد يزعج من يريد متابعة الحكاية، أن أؤمن خطواتى وأن أفرض على نفسى محاولة الصدق حتى وإن فشلت.

وكثيراً ما يكذب الناس - وقد عرفت ذلك بوضوح فى أواخر حياتى التى أكتب فيها - لأن لهم مصلحة فى ذلك، أو لأنهم يريدون أن يحققوا مصلحة بما يحكون عن الماضى فيما هو مقبل من أيامهم. فللناس هموم كثيرة ولكل هم شروط وأشكال يصطنعها الناس فيكذبون ووراء كل هم رغبة فى مصلحة يضطرون لاختلاق الطرق لتحقيقها، فإذا كان البشر، كل البشر، عاجزين مضطرين للكذب فهل نسلم النفس لهذا العجز والاضطرار وكأنه مكتوب

وكأننا مجبرون ونحن فى الحقيـقة غير ذلك؟ هل نرتكب إذن ما نرتكب فى حياتنا ونكرره فى الكتابة وإعادة الكتابة أم نتخذ من منحة الإعادة التى يهبنا إياها الله المنَّان وسيلة لنتخلص من العـجز والاضطرار ونتطلع، على الأقـل نتطلع، إلى أفق آخر يتـحقق فـيه الصـدق كل الصـدق أو على الأقل بدايتـه المحـصنة من التكسـر والتـفتت، أليـس كل بنى آدم خطائين وأليس خيرُهم التـوابين... وما التوبة إن لم تكن المعرفـة بالخطيئة، وما المعرفـة للخطيئة إلا الإدراك المرافق أو اللاحق للمعنى من الحياة.

وإذا كانت الكتابة أو إعادة الكتابة، هى كما تبينت، سعيا وراء المعنى الذى أكاد أمسك به حيـاتى، وهو أنها سـعى وهم وراء الكينونة، يكاد يكون هو نـفسه حـمايتى وقـوتى ومناط أملى فى تحقيق الصدق أو على الأقل مقاربته.

أنا إذن عاجز عن قول الصدق أو مجـبور أو مضطر لأن أرتكب الكذب، لقد تخايلت لى وأنا أحاول هذه الإعادة صور كثيرة للكتابة وأشكال عديدة للتعبير. كان بعضـها يستهدف تقوية التـأثير والوقع، وبعضـها يسعى للترويح وعـدم الإملال، ومنها مـا كان يطمح فى أن يكون سلاحًـا للتهكم والكشف عن العيـوب فى الآخرين ومنها مـا كان يريد أن يربط بين واقع الحكاية وواقع الحيـاة بأمل مضاعفة المعنى أو الحكمـة. وكلها كما ترى فـيها شىء من النفع أوالخيـر، لكنها كلها كـاذبة مخالفـة للصدق ولما وقع. فإذا كنت - يا من تقـرأ - تجد فيما أكتب أو أعيد قدراً من الصعـوبة أو الإملال أو شيئًا من التعسف والتكلف فأنا أتكلف الصدق والصدق تكْلفته ثقيلة..

لم تكن ملكة الحيات صـادقة عندما قالت لى إنهـا ستحكى لى حكايتها ومـا جرى لها.. فهى فى الحقيقة لـم تحك لى حكايتـها وما حكته لى كان حقًا أمرًا غريبًا عـجيبًا لكنه يتعلق بما جرى لآخرين من مصنوعات الـله ومن أصحاب حيوات غير حياتى أو حـياتها، غير أن

ما حكته لى هو فى الحقيقة كل ما جرى لى حتى أصبحت أنا هو ما جرى لها فى حياتها، ولم تعد حياتها إلا ما جرى لها معى حتى قتلتها، أو كنت السبب فى قتلها، وشربت رغوة لحمها المغلى. نعم. قتلتها وشربت رغوة لحمها المغلى فتدفقت فى قلبى ينابيع الحكمة وتبينت فى آخر عمرى ضرورة إعادة الكتابة وكدت أمتلك أو أرث ميراث أبى.

لكن انظروا مخاطر الصدق ونتائجه. لقد كشفت الغطاء عن نهاية الحكاية ولم أحكها كما وقعت بزمانها الخاص. لقد فرضتُ زمان الكتابة والإعادة عليها وأنا أعتقد أن فى هذا صدقًا حقيقيًا مهما كان فيه من تعسف، بل إننى الآن أعجب من كل من يحكى بزمان غير زمان الكتابة متصوراً أنه يستطيع أن يستعيد الزمان الذى لم يعد من الممكن أن يعود إلا كذبًا واختلاقًا وتحايلاً فى الشكل والتعبير.

غير أننى، تحريًا للصدق، يجب أن أقرر أنه من المستحيل بل من المتناقض أن تحكى الحكاية بزمان الكتابة كلية. فلا بد لك من أن تختار وأن تحدد ترتيبًا للأحداث والوقائع كما حدثت أو كما أدركتها بعد أن حدثت. وعلى هذا يصبح زمان الكتابة والإقرار به إطار الصدق الذى تلتزمه ويصبح زمان الحكاية غير منفصل عنه بل يصير فى تفاعل وجدل مستمر معه. وهذا هو الشكل الذى التزمته إذا كنت لم تدركه إلى الآن.. إننى لا أعرف من أحدث لكننى ألتزم الصدق وأحب أن أسمع نفسى وأنا أقرره.

لم تحك لى ملكة الحيات حكايتها. وأنا ما زلت لا أعرف هذه الحكاية ولم يحدث أن سألتها كما سألتنى من أنت ومن أين أتيت وإلى أين أنت ذاهبة.؟ وستظل الملكة سراً غير مفضوض فى هذه الحكاية إلا فيما يتكشف من حياتها ومعناها فى حكايتى أنا.. وسوف لن أخفى فى نفسى أى شىء عرفته بنفسى وفيها، عنها وعن كينونتها التى ستظل - كما قلت - سراً غير مفضوض.

عندما انفردت بى وقررت أن أبقى عندها ورضيت طائعًا لأمـرها قالت لى فجأة ومباشرة ودون أية مقدمات أو شروح:

«اعلم أنه كان بمدينة مصر..» وبـودى لو أمسك بأى وسيلة من وسائل التعبيـر عما أحاط قـولها «اعلم» من قـوى لا أعلمهـا ولا أستطيـع تحديدها. ولقـد قالت «اعلم» فـانداح فى روحى مكان فسـيح تصبح فيـه الكلمات أحداثًا وتصبـح فيه الأحداث المحكيـة وقائع فى روحى تصنع حياتى فلا أكاد أميز بين الحكاية وحياتى إلا وأنا أحكيها أو أعيدها.

قالت لى فجأة ومباشرة: «اعلم أنه كان...» فإذا بالذى كان يصبح وكأننى كنته. لقد قالت لى فجأة ومباشرة «اعلم» فـإذا بى أتشكل بما تقوله وما يطلب منى أن أعلمه وإذا بى أمتلك الزمان والمكان الذى يحدث فيه ما تحكيه وكـأنه - أو هو فى الحقيقة - هو ما جرى لى. لقد قالت لى «اعلم» فى صوت وسلطان ومقدرة أحالت الحكاية حياة وجعلت السماع تجربة.. وصيرت التـجربة معتقـداً ومعنى.. وكم كنت أود أن أشبه اعلم هذه بكلـمة أخرى، لكننى أستغفر الله على النية وأحجب التشبيه صادقًا وعاجزاً عن البوح به.

قـالت لى فـجأة ومـبـاشـرة: اعلم أنه كـان بمدينة مـصر.. وحكـت لى عن رجل من بنى إسرائيل اسـمه بلوقيا. وإذا كـانت الحقائق الأولى الأخـرى التى حكتها عنه تبـدو مضطربة متعـارضة فهى تقول إن أباه كـان ملكًا من بنى إسرائيل. ولم تعرف مـصر ذلك إلا أنه كان ولا شك يهوديًا عاش فى مصر وبدأ منها حكايته.. وتحكى ملكة الحيات أن أباه عندما مات قـال أشهـد أن لا إله إلا الله ولم يكمل الشهـادتين، وأنه مـثل أبى قد ترك لابنه إرثًا فـريداً صنع حياته وجعلها أيضًا تجرى لى.

فقد فتح بلوقـيا خزانة من خزائن أبيه التى تركهـا «فوجد فيها صورة باب فـفتحه ودخل، فإذا هى خلوة صغيرة وفيها عمود من الرخام الأبيض وفوقه صندوق من الأبنوس فأخذه..

وفتحه فوجد فيه صندوقًا آخر من الذهب ففتحه فرأى فيه كتابًا ففتح الكتاب وقرأه فرأى فيه صفة محمد ﷺ ...»

هكذا إذن كان الرجل يخفى سرًا عظيمًا عن ابنه وأهله ويضن به عليهم جميعًا، لكنه قد ترك لابنه ميراثًا صنع حياته. فعندما «قرأ بلوقيا» هذا الكتاب وعرف صفات سيدنا محمد ﷺ تعلق قلبه بحبه.

وإذا كان قلبه قد تفجرت فيه الكراهية للأب الذى أخفى هذه الحقيقة العظمى على ولده فإن الحب الذى فاض فى قلبه قد جرف كل شىء أمامه فأصبح همه الوحيد الذى صار كل حياته.

وتأملت وأنا أسمع أو أعلم ما جرى لبلوقيا كيف يتوحد الهمّ فى القلب من العلم بالصفة وكيف يستحيل الحب إلى سياحة لا تنتهى.

فقد نزع بلوقيا ثيابه ولبس عباءة وزربونًا وقال لأمه: يا أمى إنى رأيت فى خزائن أبى كتابًا فيه صفة محمد ﷺ وهو نبى يبعث فى آخر الزمان وأنا أريد أن أسيح فى البلاد حتى أجتمع به فإننى إن لم أجتمع به متُّ غرامًا فى حبه...

وقبل أن تكمل الملكة الحكاية كنت قد بدأت فى داخلى تلك السياحة الجبرية فى مصنوعات الله متعقبًا ما قد يبدو فيها أو عليها من صفات الحبيب.

(٤)

السياحة فى الكينونة

لم أكن ـ كما قلت ـ أسمع عن شخص آخر غـير نفسى. لكنى كنت أحس الكيان الجديد منفصلاً مـفارقًا وكأننى أرقـبه. فى أحيان كنت أراه وكـأنه قطعة فريدة من الحجـر بشكلها الخاص وحجمها العظيم تندفع مدفوعة على طرف جبل عال وكأنما يهبط بها سيل متدافع. وأحيانًا أخرى كانت الحـجرة الكبيرة تستحيل موجة فريدة تـعلو وتنخفض وتدفعها الرياح وشىء خاص بها فى داخلها لتصير مسـاحات واسعة وأخرى من المياه لكنها تظل مع ذلك متـميـزة فريدة. وفى مرات أخرى كنت أحس هذا الكيـان المستـقل المفارق لنفـسى يرتطم بجموع من المخلوقات ومن مصنوعات الله التى لا أعرفها فيضيع وسطها تارة وتارة أخرى يحتد تميزه واستقلاله ليجعل صفات هذه المخلوقات والصنائع أكثر وضوحًا وتميزاً.

وكنت فى ساعات كـثيرة، عندما تتـركنى الملكة لأنام بعد أن تأمر بإطعامى طعـامها الذى أسرع بابتلاعه أو جرشه وقضمـه دون وعى، أظل أسمعها وأنا نائم وكأنما أحلم بما سمعت وأكرره فى حلمى حتى يكاد يصبح تذكراً.

ومـا أكـثر مـا رأيت فى الحـكاية من وديان وجـبـال ووحوش وطيـور من البـر والبـحـر ومخلوقات كالبـشر ليسوا بشراً، معـلقين من رءوسـهـم كـالأثمار فى أشـجـار عظيـمة أو واقفين يلتـفتون فينشقون إلـى نصفين ينظرون يمينًا ويساراً ويحـركون أذرعًا هنا وهناك وأحيانًا كنت أخـوض فى الحلم بعينى أو بخوفى الكامن فى داخلى معارك بين كـتل غريبة من الحيـوان والبشر أو من الجـان الذين هم كالحيـوان أو البشـر.. وأراهم يقتتلون ويقـعون صـرعى دون أن أعرف بوضـوح سر القـتال وإن كنـت أدرك أن الجانب المنتـصر هو دائمًـا قـريب منى أو خاص بـى وأن نهاية المعـركـة تجعلنـى أمضى من جـديد نحـو آفاق أخـرى ومصنوعات جديدة من مصنوعات الله..

كانت الليالى تكـر وأحداث حياتى التى أسمـعـها لا تتوزعـهـا الليالى ولا تنقـسم إليها فلا أسـتـطـيـع أن أحـددها أو أن أدرك تعاقبها بوضوح. فلم تعد الليالى بأرقـامها مراحل

أو علامات فى طريق، لأن الطريق الذى تحدد كان سياحة مفتوحة تتعدد فيها الطرق وكأن هذه الطرق تتحرك إلى مفارق متعددة لا يقطعها المرء ولا يصل إليها بل هى التى تقوم أمامه وهى التى تصل إليه.

ولست أدرى بوضوح إذا كان ما أخطه الآن من كلمات هو إعادة للحكاية ولكتابتها كما كنت أقصد أم أنه صناعة للحياة على نحو آخر غير ما تصنع به الحياة وفى زمان ومكان غير اللذين نعرفهما فيما يُقص ويُحكى من تجارب أو حكايات وفى أوقات لاحقة للقص مثل الصباح، لكنها أشبه باللبن السائل كنت كأنما أوقظ بدفعات حميمة فى جسمى ليست من أصابع أو أيد، لكنها لمسات مع ذلك هنا وهناك فى بدنى ومواضعه الخفية وكأنها ليست من الخارج بل نابعة من البدن نفسه. وعند ذاك ، وعندما أدرك أننى أستيقظ كنت أدرك الملكة صامتة ووجهها البلورى تعلوه ابتسامة كأنما تحسب الزمن أو تخبرنى بالمكان دون كلمة أو إشارة. وأصمت أريد أن أظل متأملاً فى وجهها الجميل فتتركنى أنظر وقد أغمضت عيونها فأرى حولهما أشبه بالكحل يحدد جمالها ويسبغ عليها سحراً ونشوة يسريان فى بدنى وكأنما التفت على أحضان جسدانية تمنح البدن اكتمالاً وراحة وبلوغًا إلى ذروة لا أعرف كيف بلغتها. فإذا أحسست هذه الراحة تحركت كلمات اللغة فى صدرى كأنها نمال عظيمة وتقدمت فى حلقى وعلى لسانى تريد أن تصنع أسئلة. فإذا بلغت هذا الحد من القلق وكدت أستجمع اسمى وأحسب ما مر من حياتى انسال صوتها العسلى من جديد وعدت إلى السياحة دون أن أجرؤ على الكلام أو السؤال.

ولم يكن هناك سؤال واحد بل أسئلة كثيرة مثل طرق الحكاية، لكننى كنت أدرك من سكينة وجهها وجماله أن للسؤال وقتًا لم يحن بعد وأنها لا تحمل لى غضبًا أو حكمًا علىّ يبعدنى عنها لأننى فكرت فى ذلك أو جاء إلى خاطرى. فأحس بسعادة غامرة تأخذنى

بعيدًا عن الشمال فى جوفى وهى تنظر لى بعيونها الواسعة وقد فتحتهما تمامًا فرأيت فيها ما كنت أرى وأسمع من معان وحكايات وأتحقق أننى فى هذه العيون داخل ما أسمع وأرى، أسمع وأرى نفسى..

لقد سمعت بلوقيا ورأيته فى صفته الجديدة يخرج سائحًا نحو الشام دون أن يدرى به أحد من قومه و«سار حتى وصل إلى ساحل البحر فرأى مركبًا فنزل فيها مع الركاب وسارت بهم إلى أن أقبلوا على جزيرة فطلع الركاب من المركب إلى تلك الجزيرة وطلع معهم ثم انفرد عنهم فى الجزيرة وقعد تحت شجرة فغلب عليه النوم فنام..».

كنت أرى أفعاله من سير ونزول وطلوع وانفراد وقعود ونوم تتلاحق على بدنى كأنها ظلال تمتد فتخفينى وتظهره، وتخفيه وتظهرنى وكأننا لحظات تتعاقب فى زمان واحد. ومع اللحظات التى تتلاحق متقطعة فى عيون الملكة، تحجبها وتكشفها حركة الأهداب السوداء الطويلة، كنت أتعلم شيئًا فشيئًا معنى السياحة التى أسلم لها بلوقيا روحه واطلع هنيهة وراء هنيهة على جوانب الكينونة التى يتحرك فيها دون عائق من زمان أو لغة.

وكأنما كانت الملكة تريد أن تمهد للقائها به الذى كان سؤالاً فى نفسى يظهر ويختفى مثل الذى أرى فى عيونها فإذا هو بى فى جزيرة تتحرك فيها حيات كبيرة بطيئة عالية الجسم وكأنها جمال فى صحراء. وإذا بها جميعًا تصيح بالتهليل والتسبيح تذكر الله عز وجل وتصلى على محمد. ويسألهم بلوقيا: «من أين تعرفون محمدًا صلى الله عليه وسلم». فلم تجبه واحدة منهن، لكن جموعهن كانت تنطلق فى نشيد واحد يقلن فيه كلامًا متقطعًا يتردد فيه اسم محمد و«أن اسمه مكتوب على باب الجنة ولولاه ما خلق الله المخلوقات ولا جنة ولا نارًا ولا سماء ولا أرضًا..» وكنت أراها جميعها أمامى كما تأتى فى النشيد متلاحقة تحركنى أنا وبلوقيا فى تلك السياحة التى لا تنتهى داخل ما خلق الله..

ويشتد العشق الذى يشب كالنار فى نفس بلوقيا وأكاد أحترق به فأنصرف عن عيون الملكة وكأنما أستدعى بذلك نمال الكلام واللغة فى داخلى وأسألها غير قادر على أن أمنع جيوش النمل التى تعترك على شفتى.. متى.. وأين.. التقيت ببلوقيا..

ولا تلتفت الملكة لسؤالى لتجيب عليه لكن أهدابها تتحرك منسدلة مرتفعة فأرى بلوقيا وأتحرك فى «جزيرة أخرى» فيها عدد لا حصر له من الحيات كباراً وصغاراً وكأنها كلمات اللغة أو نمالها التى أعرفها فى نفسى.وبين الحيات كانت «بيضاء أبيض من البلور – وهى جالسة فى طبق من الذهب وذلك الطبق على ظهر حية مثل الفيل وتلك الحية ملكة الحيات وهى أنا..»

ولم أكن سمعتها من قبل تقول أنا قط فتدافعت كلماتى مسرعة وكأنما أمسك بلحظة قد لا تعود وسألتها دون معنى: وأى شىء كان جوابك مع بلوقيا..

«قالت.. اعلم أنى لما نظرت إلى بلوقيا سلمت عليه فرد السلام وقلت له: من أنت وما شأنك ومن أين أقبلت وإلى أين تذهب وما اسمك»

وسمعت بلوقيا يردد ما أعرف عن سياحته وكأنها الإجابة عن كل الأسئلة. ورأيتنى أسألها وكأنما هو الذى يسأل:

«.. أى شىء أنت وما شأنك وما هذه الحيات التى حولك.. فقلت له أنا ملكة الحيات وإذا اجتمعت بمحمد فأقرئه منى السلام ثم إنه ودعنى ونزل فى المركب..» وبينما أرى بلوقيا ينفتح له الكون وينزلق فيه مختفيًا عن عيونى فإذا بى أقف منتصبًا أمامها وكأنما أمنع الحكاية والزمن ويتدفق منى الكلام فى جمل متقطعة وكأنها قطع متقطعة من الكون تردها على بسرعة وكأنها تعاقبنى وتحرمنى من الرؤية:

– هل أخبرك بلوقيا بصفة محمد؟

- قال لى إنه قرأها فى ورقات أبيه.

- فماذا كان فى هذه الورقات؟

- صفة محمد عليه السلام.

- فهل وصفه لك؟

- وصفه لنفسه فخرج سائحًا فى حبه.

- فهل يمكن أن يصفه لى؟

- ابحث عنه واسأله.

- وأين هو الآن؟

- سائح فى حب محمد عليه السلام..

- فأين هو الآن؟

- اتبعه واسأله.

- فإذا سألته هل يجيب؟

- سيقول لك من هو ومن أين أتى وإلى أين هو ذاهب.

- فإلى أين هو ذاهب؟

- سائح فى حب محمد عليه السلام.

- وإلى متى يظل سائحًا؟

- إلى أن يلقاه. . .

- فإذا لقيه..

- يظل سائحًا فى حبه.

- هل بلوقيا سلطان عظيم؟

- لا..

- هل هو خالد؟

- لا..

- فأين محمد الآن..

- قبره في المدينة.. وأنت تعلم..

- نعم أعلم.

وسكت ورحت في سبات عميق وكأنني في قبر لا قرار له.

(٥)
فتنة سليمان

هل معظم ما يحكى من قـصص يحكى عن الآخرين وليس عن القاص أم أن العكس هو الصحيح وأن كل مـا يحكى هو حكاية النفس؟ لقد مر وقت طويل، أيام، سنين، مسافات أو أكوان، عـبرت جـميعـها على هذا الملـقى فى القبر بـلا حاضر أو وعى، لكننى أذكر أن أحداثًا جسامًا كانت تحدث فى جسمى وروحى بلا تعاقب واضح ولا معنى محدد.

كنت موجـودًا عارفًا بـكينونتى أنا منفصلاً عـن كل كينونة أخرى إلا تلك التـى أطلعتنى عليها الملكة أو شهدتها مع بلوقيا. كـانت حكايتى قد أصابها التوقف الذى هو أشبه بالموت وأصبحت لا أملك منها إلا ما تحكيه الملكة وما أراه وأسمعه فى عيونها وأنا صامت حالم.

لقد أضعت حـياتى فلم أعد أعرف أين أنا وما هو هذا المكـان الذى أنا فيه، بل هل أنا فى مكان على الإطلاق؟ كان ما ينصب فى روحى من الحكاية هو حكايتى وحـياتى فيساورنى التـعجب والتـوقع أن أتبدد فى عـيونهـا لأدخل فى تلك السيـاحة التى لاتنتـهى نحو لـقاء مستحيل.

وخطر لى وأنا راقد لا أقوم من نومى الطويل الذى أصابنى بعد تعاقب أسئلتى للملكة أن أقوم لأجدد الأسئلة من جـديد ولأواجهها بأسئلة الحياة وليس أسئلـة الكينونة التى تتبادلها مع بلوقـيا أو لا تكاد تسـمح لى إلا بها. كيـف أستطيع أن أسـألها أين أنا وقد أصـبح هذا السؤال غير مرتبط على الإطلاق بمن أين أتيت؟ وكنت أريد أن أسألها متى أستطيع الخروج والعودة إلى أهلى وهو غـيـر ما كان مسـمـوحًا لى أن أسـأله: «إلى أين أنـت ذاهب؟» فأنا لا أعرف مطـلقًا إجابـة على مثل هذا السـؤال. وما أكـثر أسئـلة الحياة وأعـقدها ولو أنـها انطلقت من عـقالها المـفروض علىّ لما استـطعت أبدًا أن أحكى حكايتى أو أن أتوصل إلى معناها. ولقـد كنت أظن أن أسئلة الحيـاة هى الأمر الأسهل الأقـرب إلا أنها فى الحقيـقة - وكما أدركت فيما بعـد - كلها أسئلة تزيف الحقيقة وتحجبها وتصنع للإنسـان همومًا كثيرة

متعددة فتجعله يحاول فلا يصل إلى المعنى ويرغب أو يريد دون أن يحقق شيئًا. ماذا تفعل أمى الآن، وماذا جرى لزوجتى.. وماذا يحدث فى بيتى هل سأستطيع أن أجلب لهما رزقًا وأن أنخرط فى صنعة، هل سأموت بلا عقب وماذا يقول عنى كل الناس فى حارتنا التى يقع فيها بيتنا.. هل أنا صالح أم أنا مخطئ فى حق أولئك الذين يعرفوننى جميعًا.. هل هذه أسئلة مشروعة فى الحال الذى أنا فيه؟

لكن ما هو الحال الذى أنا فيه بالضبط وبالصدق. أنا آكل وأنام وأنتشى من عيون الملكة وعلى بدنى وروحى سلطان يبدد المكان والزمان ويجعل الحياة مطلقة متمثلة فى كينونة مفارقة بلا زمان يتعاقب ولا مكان محدود، لكنها ترغمنى على سياحة كلها حب تشدنى وتستوعبنى فلا أكون إلاها.. فكيف يقص المرء إذن الحكاية وكيف يتابعها إلا بأن يخضع صامتًا سامعًا لهذه الحال.

وعندما توصلت فى نفسى إلى هذه المعانى أحسست أن غضب الملكة أو عقابها لى قد انتهى أو توقف وأن صمتها الذى أحدثته أسئلتى قد استنفد أغراضه. وعند ذاك صحوت من قبرى الذى كادت فيه أسئلتى تأكلنى، وكأنها دود كبير نهم، ورفعت الملكة أهدابها فرأيت بلوقيا من جديد فى مركب كبير يحمله إلى بيت المقدس مع جموع كثيرة من الناس يتركهم وينفرد كعادته وصوت الملكة يصنع المستقبل الذى سأتحرك إليه مع قولها: «وكان».. وكأنما الذى كان هو طريقى الوحيد المفتوح للإدراك بل وللحياة: «وكان فى بيت المقدس رجل تمكن من جميع العلوم، وكان متقنًا لعلم الفلك والكيمياء والروحانى وكان يقرأ التوراة والإنجيل والزبور، وكان يقال له عفان وقد وجد فى كتاب عنده أن كل من لبس خاتم سليمان انقادت له الإنس والجن والوحوش وجميع المخلوقات، ورأى فى بعض الكتب أنه لما توفى سيدنا سليمان وضعوه فى تابوت وعدوا به سبعة أبحر وكان الخاتم فى

إصبعه ولا يقدر أحد من الإنس أو الجـان أن يأخذه ولا يقدر أحد من أصحاب المراكب أن يسافر بمركبه في السبعة أبحـر التي عدوها بتابوته. ووجد في الكتب أيضًا أن بين الأعشاب عشبًا كل من أخذ منه شيئًا وعصره وأخـذ ماءه ودهن قدميه فإنه يمشي على أى بحر خلقه الله تعالى ولا تبتل قدماه ولا يقدر أحد تحصيل ذلك إلا إذا كانت معه ملكة الحيات..»

وارتعـدت في داخلى وأنا أسـمع كل مـا تتلو الشيـاطين فى الكتب عن ملك سليـمـان وسمـعت في داخلى صوتًـا يثبتنـى على الحق ويقول فى نفـسى: وما كـفر سليمـان ولكن الشيـاطين كفروا. وسـألت نفسى مـاذا سيجـرى لى لو أننى اتبعت الشيـاطين وانزلقت مع بلوقيا فى هذه الفتنة التى عرضه لها لقاؤه مع ملكة الحيات ومعرفته بموضعها.

لقد ارتعدت وظللت أرتعد وأنا أجد الحب الذى وضعه بلوقيا فى قلبى يصطرع مع ذلك الحلم الأخرق بالقدرة والملك والسلطان بعد أن يتـملك الإنسان هذا القدر من المعرفة الذى يجعله فريدًا مـخصوصًا بين مصنوعـات الله. لماذا تدفعنا المعرفة دائمًا إلى الخطيـئة والكفر ولماذا ينزع الإنسان إلى الملك والسلطان وكأنهما حق له قد انتزع منه؟

لقد اسـتسلم بلوقيا لعـفـان أو صـدقـه وأصبحـت أنا مـثل عفان ينكر قلبى هم بلوقـيا ولا يصبـر عليه. فقـد قال عفـان لبلوقيـا: «اجمعنى على ملكـة الحيات وأنا أجـمعك على محمد صلى الله عليه وسلم لأن زمان مبعثه بعيد وإذا ظفرنا بملكة الحيات نحطها فى قفص ونجوز بها الأعشاب فى الجبال وكل عشب جزنا عليه وهى معنا ينطق ويخبر بمنفعته.. فقال له بلوقيا: يا عفان أنا أجمعك بملكة الحيات وأريك مكانها..»

وتجرأت دفاعًا عن نفسى وعـن صدقها وتصديقها لما علمته إياه المـلكة أن أسألها جارحًا: وكيف دخلت القـفص الذى صنعه عـفان وشربت من القـدحين اللذين أغراك بهـما، هل ينقـصك اللبن والخـمـر وأنـت تملكين كل هذا السلطان.. كـيـف دخلت القـفص وكـيف تملكتك الخمر التى أعدها عفان وماذا كان فى نفس بلوقيا وهو يسلمك.

ولأول مرة منذ لقيت الملكة أحسست أنني حر وأنني ند لها وتخايلت فى نفسى أوهام بشرية بأنني قد غلبتها في معركة من المعرفة سوف تحرر حياتي وتطلقها من الحال الذى أنا فيه.

لكن الملكة تبسمت بنور صاف كزرقة السماء وأمرت لى بسماط طعامها وقد زادته قدحين من لبن وخمر لآكل وأشرب وكأنما أنا جوعان عطشان وقالت لى بصوتها العسلى: ليس هناك إيمان إلا وله فتنة وليس هناك حب إلا ويمتحن بما هو غيره.. إن الهم الواحد لا يكتمل حتى يمر فى عواصف الخلق وجحيم النفس التى لا يعرف قرارها أحد... قد تكون يا حاسب كريم الدين مثل أبيك، لكنك لاتعرف بعد كيف تحسب خطواتك ومتى تتوقف أو تسير.. لولا عفان وشياطينه لما واصل بلوقيا سياحته ولولاى أنا لما فتنت أنت بما فتن به عفان ولما عرفت أنت هذا الجحيم الذى هو طبقات فوق طبقات فى داخل نفسك..

ودون أن أمس شيئًا آخر من الطعام مددت يدى مأخوذًا بلون الخمر فى القدح وشربتها كاملة دفعة واحدة فانطلقت في نفسي دون استعداد أو توقع كل شياطين الكفر وانفتحت فيها أبواب كأبواب جهنم السبعة لكل باب منها جزء مقسوم. وتدافعت من الأبواب رغبات محرمة سيماها معروفة مقررة وقالت لى الملكة فيما هو قادم من أقوالها وحكايتى: هناك للنار سبع طبقات هى جهنم ولظى والجحيم والسعير وسقر والحطمة والهاوية. مسيرة كل منها ألف عام فأيها تختار وفى أى طريق تسير؟...

ورحت أتقلب أمام نفسى وأمامها صامتًا أرتكب كل جرائم البشر فى داخلى دون تردد أو حرج. ووجدتنى أكذب على نفسى وعلى البشر وأسرق من نفسى ومن كل الناس وأزنى بكل امرأة وبكل جسد وأتكبر وأمتلئ غرورًا على كل مخلوق وأقتل النفس التى حرم الله وأعذب من يحبوننى وأحبهم وأستريب فيهم جميعًا وأراهم أقل منى قدرًا وقيمة وكأنما أنا إبليس نفسه. لقد بدأت كل جريمة بالسلطان ووراء كل إثم تلك الرغبة فى

المقدرة التى لا حد لها ولا نهاية. واستطالت جرائمى وكأنها امتدت لتملأ المسيرة الطويلة إلى النار بطبقاتها السبع. ألف عام فى كل جريمة لا تكفى لاكتشاف مصدرها ومنبعها الأول. وألف عام لكل جريمة لا تكفى للتوبة... وألف عام أخرى تقود إلى ألف عام وألف بعدها وسابعة تطبع على البدن والنفس سمات لا تزول..

فى هذه الأعوام الممتدة بلا نهاية عرفت الطمع والرغبة فى خاتم سليمان وتصورت كل هذه القدرة التى تقبض الريح وتبسطها وتجلب الوحوش والطيور وحيوان البحر وتحرك الجبال وتجفف الأبحر والأنهار وتستبيح الأجساد للنساء والولدان وتقضى على الرضع والأيتام وتقضى على المدن والبيوت والقوافل والدواب على الطرقات والمراكب فى لجج البحور والأنهار... وضممت إلى صدرى ذهب الأرض وجواهرها البراقة الهشة والصلدة بكل الألوان والأحجام وجمعت الثمار وكل طعوم الفواكه والمشروبات وأنواع اللحم من كل صنف ولون.. كل هذه جرائم، كل هذه أفعال.. من أين يأتى الإنسان بكل هذا الشر الذى يصدر مزدحمًا متدافعًا لا ينتهى من السلطان.. كل هذا من السلطان... إن النار لا تشبع وجريمة السلطان فى النفس لا تتوقف أو ترعوى...

ألقتنى عواصف الإجرام على الأرض بعد أن كنت واقفًا متحديًا أمام الملكة. وأغمضت عينى حتى لا أرى فى عينيها ما ارتكبته من جرائم وما ظللت أرتكبه فى داخلى حتى بعد أن صمتت وأغلقت أهدابها.. وأدركت وأنا صامت أن عذاب كل جريمة مصاحب لها إلا جريمة السلطان فهى تخفى عذابها لتتعدد الجرائم والآثام.. لكن ألم أدرك أن كل جريمة تبدأ بجريمة السلطان!!

حمدت الله أننى لا صفة لى ولا مال وأنى قدمت من حيث لا أحتسب أمام الملكة، ذات المعرفة، مجردًا منبوذًا لا أملك حتى الحكاية التى أعيدها وأكتبها.. وتشهدت وأنا أحمد الله

وصليت على رسوله الكريم وإذا بالحيات الكريمات من حولى يقمننى جالسًا ويمددن سماط الملكة من جديد حتى إذا طعمت وشبعت دون أن أمس قدح اللبن الملآن رفعت رأسى إلى وجهها الجميل وانثالت من عينها فى بدنى تلك النشوة التى لم أعرفها من قبل واستراحت الدنيا في داخلي وكأنما أكمل خلقها أو أعيد من جديد..

وانبعث صوت الملكة من جديد يقول لى «اعلم.. أن عفان تقدم إلى القفص وقفله على الحية ثم إن عفان وبلوقيا سارا بملكة الحيات نحو الجبال التى فيها الأعشاب ودارا بها على جميع الأعشاب فصار كل عشب ينطق ويخبر بمنفعته بإذن الله تعالى فبينما هما فى هذا الأمر والأعشاب تنطق يمينًا وشمالاً وتخبر بمنافعها وإذا بعشب نطق.

وقال العشب: أنا الذى كل من أخذنى ودقنى وأخذ مائى ودهن به قدميه وجاز أى بحر خلقه الله تعالى لا تبتل قدماه..».

وأحسست بأقدامي ثقيلة جافة وعفان وبلوقيا يعودان بالملكة إلى موضعها ورأيتها تخرج من القفص وتقول لهما:

- هيهات أن تقدروا على أخذ الخاتم.

فقال عفان: لأى شيء..

- لأن الله تعالى مَنَّ على سليمان بإعطائه الخاتم وخصه بذلك لأنه قال: رب هب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب. فما لكما وذلك الخاتم. لو أخذتما من العشب الذى كل من أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى، وهو بين تلك الأعشاب، لكان أنفع لكما من هذا الذى أخذتماه، فإنه لا يحصل لكما منه مقصود..

وتحيرت روحى من جديد عن المقصود الذى تريده الروح وعرفت أن الوسائل مهما كانت لا تنفع لأن المقصود المخبوء فى الروح لا تعرفه الروح. فهل أنا أعرف ما أقصد إليه وما أريده أم أكتفى بأن أعلم ما تعلمنى به ملكة الحيات..؟

تطاول عفان على كرسى سليمان ومد يده للخاتم الذى كان يطغى نوره على كل أنوار الجواهر فإذا بحية تخرج عليه وتنفخ فيه فيحترق ويصبح كوما من رماد أمام الكرسى لا أثر فيه ولا سمات من عفان ولا ذكرى من كتبه وما قرأ..

أما ما كان من أمر بلوقيا فقد صانه الحب الذى فى قلبه من الحريق ووقع مغشيا عليه من هول ما رأى حتى إذا أفاق «صار يبكى بكاءً شديداً وندم على ما فعل..»

أما ما كان من أمرى فقد غسلتنى دموع بلوقيا وأزهرت روحى بجمال كجمال الملكة وكأننى سوسنة وحيدة فى الوادى أو طير من طيور الصباح وحيداً فى السماء.

(٦)
لبن التوبة والتيه

ذهب بلوقيا إلى حال سبيله وأردت أن أستوقف بلوقيا لأننى لم أعرف ما هو سبيله ولا ما هو هذا الحال الذى عليه هذا السبيل. لقد ندم ندمًا شديداً على ما فعل وتفكر فى قول ملكة الحيات هيهات أن يقدر أحد على أخذ الخاتم.

وقبل أن أمسك به مرة أخرى وقد أدركت أن حكايتى تسير فى أعقابه قالت لى الملكة: تفكر أنت فيما قلت لك.. لِمَ لَمْ تشرب قدح اللبن؟

ورأيته أمامى مليئًا أبيض صافيًا وكأنما خشيت منه بعد قدح الخمر وبعد أن كان قدح اللبن سببًا فى دخولها قفص عفان. وظللت متردداً وهى تدعونى بعينيها أن أشربه.

وقالت لى فى هدوء لقد اشتبكت حياتك بحياتى وبما أقصه عليك ولا أظنك فى حاجة الآن إلا أن تعلم معنى التوبة عما دار فى داخلك من جرائم. لقد أردت أن أعيد إليك حريتك وتركتك تنطلق وحيداً بعيداً عما اتفق من ترابط بينى وبينك، وبينك وبين بلوقيا.. وتركتك وحيداً مع نفسك، فهل أنت معها الآن؟

كان هذا سؤالاً جديداً علىَّ تمامًا. فأنا أعرف أننى دائمًا مع نفسى وحيداً ولم يربطنى شىء من قبل مع أحد. ولم أعرف بماذا أجيبها. كنت وحيداً فعلاً مع نفسى أريد أن أظل كالطير الوحيد فى السماء أو السوسنة المتفردة بلا مثيل لها فى الوادى كنت أود لو أننى أستطيع أن أقطع ما بينى وبين بلوقيا وما بينى وبين الملكة وأن أذهب.. إلى أين؟

لماذا لا أسألها متى أعود إلى بيتى وأهلى ومدينتى. لكن قبل أن أستطيع أن أجمع نفسى للسؤال كررت على أمرها: اشرب اللبن الآن.

وجرعته مسرعًا مستسلمًا فإذا بى أنفجر فى بكاء شديد عنيف يهز جسمى كله ويعصف بروحى وكأنه بكاء بلوقيا أمام كومة الرماد.. ولم أدر بوضوح لِمَ أبكى وما معنى هذا الندم الذى أحسه بداخلى. ولقد أعدت التصور والتذكر لكل الجرائم التى عرفها البشر وارتكبها

الأفراد أو الجماعات، لكن دموعى كانت تهزنى باستمرار وبعنف لتذكرنى بأمى وزوجتى وبيتى وحارة بيتنا وكأن كل جرائمى هى هذا الفراق المفروض علىَّ وهذه الغربة التى لا أعرف لها ثمنًا ولا سببًا. كنت أتصورهما واقفتين على باب بيتنا تنتظراننى وقد لبستا أشبه ما يكون بالحداد الأسود وكأننى مت ولا أمل فى عودتى، لكننى كنت أرى دموعهما فى عينيهما وأرى زوجتى وأمى تدخلان وتخرجان من باب البيت وتتحركان باكيتين فى أمور المنزل التى لاتنتهى.. فهل عدت إلى أسئلة الحياة وهل انقضت بذلك حكايتى.. وماذا ارتكبت حتى أشعر بكل هذا الندم وتهزنى كل هذه الدموع. وماذا كان فى هذا اللبن؟

لم أتطاول على خاتم سليمان ولم أطمع فيه ولا أظننى سأطمع فيه أبدًا، فلم انفتحت على كل هذه الأبواب من النار وماذا علىَّ أن أفعل الآن؟ وأدركت لأول مرة أننى منذ التقيت الملكة لم أفعل شيئًا إلا أن أعلم ما تعلمنى وتعجبت كيف تنحصر حياتى فى هذا المجرى الذى لا أعرف كيف يسيل ومتى يجف هذا الماء الذى يسيل فيه.

ورفعت عينى إليها متضرعًا أبحث عن الطريق وقد أحسست أننى تائه تمامًا لا أعرف أين أنا ولا من أين أتيت ولا أين أنا ذاهب. ومع شعورى بالتيه رأيت بلوقيا يدهن قدميه من الماء الذى كان أخذه من العشب «ونزل البحر وصار ماشيًا فيه أيامًا وليالى وهو يتعجب من أهوال البحر وعجائبه وما زال سائرًا على وجه الماء حتى وصل إلى جزيرة كأنها الجنة وصار يتعجب من حسنها.. وعلم أنه قد تاه عن الطريق الذى قد أتى منه أول مرة حين كان معه عفان..».

وكدت أصيح فى بلوقيا أسأله أين الحب الذى كان يقودك فى الطريق ويحركك سائحًا فى حب محمد ﷺ. هل أضعت الحب كما أضعت الطريق وإلى أين أنت ذاهب الآن. إلى أين؟ هل تذكر أنت أيضًا أهلك وبلدك وهل تستطيع أن تعود؟.

ولم تحدثني الملكة ولم ترفع عيونها فيَّ وكأنما تتركني أعلم منطق الحكاية من صمتها. فقد كان على بلوقيا أن يعاود من جديد عبور البحور السبعة وأن يدهن قدميه من بحر إلى بحر بلا دليل يهديه ولا أمل يجمعه على الحب الذى قام فى نفسه.

لقد امتدت أمامه وأمامي البحور السبعة بلا هدف إلا أن نعلم اتساع الكون على من يضل الطريق. فهل فى حكايتى البحور السبعة. كان كل بحر فريداً بذاته وحكاية بمفرده. ويظل يمشي ليالى وأياماً فى كل بحر حتى إذا وصل جزيرة وانفرد فيها بنفسه خرج عليه من البحر والجزيرة ما يخيفه ويفزعه ويدفعه دفعاً إلى أن يدهن قدميه وينزل البحر وكأنما الذى أصبح يحركه هو الفزع والخوف وكل ما يجمعه هو طعام يلتقطه من على الشجر أو من البحر بلا أمل فى لقاء أو حب.

أين أنت يا بلوقيا الآن وماذا تفعل بنا كل هذه المعرفة التى نلتقطها ونحن تائهان.. إن كل ما تعلم لا يردك إلى الطريق وكل ما علمت لا يدفع عنك غائلة الجوع والخوف.

وعندما «نزل البحر السابع وسار ولم يزل سائراً مدة قاسى فيها جوعاً عظيماً حتى صار يخطف السمك من البحر ويأكله نيئاً ولم يزل سائراً على هذه الحالة حتى انتهى إلى جزيرة أشجارها كثيرة وأنهارها غزيرة.. حتى أقبل على شجرة تفاح فمد يده ليأكل من تلك الشجرة وإذا بشخص صاح عليه من تلك الشجرة وقال له إن تقربت إلى هذه الشجرة وأكلت منها شيئاً قسمتك نصفين..

– لأى شىء تمنعنى من الأكل من هذه الشجرة؟

– لأنك ابن آدم وأبوك آدم نسى عهد الله فعصاه وأكل من الشجرة..»

وتحددت صفة بلوقيا الجديدة التى يجيب بها على أسئلة الكينونة التى تحاصره:

«أنا من بنى آدم وجئت هائماً فى حب محمد ﷺ لكنى تهت عن الطريق..» فغمغمت لنفسى خجلان من كينونتى: وهل هناك من بنى آدم من ليس تائهاً فى الطريق. لقد تحققت

من هذا الآن وأصبحت حكايتى شيئًا لا أعرف كيف أعيده أو أحكيه فكيف يحكى المرء التيه والشعور الأصيل به عندما يصبح كل حياته وكل ما لها من معنى. قد يجمع المرء وهو تائه المعرفة، لكن ما قيمة المعرفة إذا اختفى المقصود وغاب الطريق. سمك جاف ميت أو سمك نيئ تنتزعه من البحر وشعور متعمق غائر بالمعصية وبلهفة التوبة التى هى مجرد ندم لأنها لم تعرف نعمة الغفران..

لقد جاعت روحى لأن أعرف كيف خلق الله الأرض والنار والملائكة والجان وكيف يعيشون جميعًا ويحيون وماذا يجيبون لو سألناهم من أنتم ومن أين أتيتم وإلى أين ذاهبون؟

لقد وُضِعت لهم جميعهم حكاية وهم يعيشونها فى ديمومة متصلة هى كل حياتهم لأنهم قد انقسموا بوضوح وتحديد إلى كفار ومؤمنين وأصبحت حياتهم وكينونتهم دفاعا عن هذا الإيمان أو عذابا وتعذيبا لغيابه. لكن هذه الثنائية الفارقة لا ينعم بها بنو آدم. فابن آدم قادر على الإيمان وعلى الكفر، قادر على الحب وعلى الانشغال عنه بجرائم السلطان وقادر على أن يتذلل للمعرفة دون أن يعرف كيف ينتفع بما عرف..

فهل هذا هو كل حكايتى وكل ما حصلت من معرفة؟

يا مليكتى العارفة: أين بلوقيا الآن؟

- تائه فى الطريق..

- ومن الذى يلقى فى الطريق؟

- ملوك الجان وملوك الطير والوحوش وأصحاب الأراضى الشاسعة والجبال الشماء التى تحيط بالأرض.

- وماذا يقول لهم؟

- «أريد منك أن تأمر واحداً من أعوانك يوصلنى إلى بلادى..»

- فماذا يقول له الملك الذى يسأله هذا.

- «ما نقدر أن نفعل شيئًا من ذلك إلا إذا أمرنا الله تعالى، لكن إن شئت الذهاب من عندنا فإنى أحضر لك فرسًا من خيلى وأركبك على ظهرها وآمرها أن تسير بك إلى آخر حكمى..».

- فماذا يفعل بلوقيا..

- ينتقل من حكم إلى حكم ومن معرفة إلى معرفة دون أن يهتدى إلى الطريق..

- فماذا ينتظر..

- حكم الله المكتوب...

- فما هو المكتوب.

- ألا تعلم المكتوب؟!

- «أريد من فضلك وإحسانك أن تأمرى أحداً من أعوانك أن يخرجنى إلى وجه الأرض حتى أروح إلى أهلى..

- «يا حاسب كريم الدين، اعلم أنك متى خرجت إلى وجه الأرض تروح إلى أهلك ثم تدخل الحمام وتغتسل ولما تفرغ من غسلك أموت أنا لأن ذلك يكون سببًا لموتى..

- أحلف لك ما أدخل الحمام طول عمرى وإذا وجب علىّ الغسل أغتسل فى بيتى».

- لو حلفت لى مائة يمين ما أصدقك أبداً واعلم أنك ابن آدم ما لك عهد، فإن أباك آدم قد عاهد الله ونقض عهده وكان الله تعالى خمّر طينته أربعين صباحا وأسجد له الملائكة ونسى العهد ونسيه وخالفه..».

وهزتنى الدموع من جديد لما علمت ولم أعلم واختلط علىّ المكتوب فلم أعرف كيف أقرؤه أو أكتبه. كيف أكون سببًا فى موتها وأنا حى. وهل أنا الآن حى أم الحى هم كل

بنى آدم الآخرين وفيهم بلوقيا التائه فى الطريق. وكيف أتوب عن معصية لم أرتكبها بعد! وكيف أرتكبها ولم يصدر لى أمر محدد. ما أسهل ألا أدخل الحمام ولا أغتسل إذا كان هذا هو كل المطلوب منى. ولِمَ يكون المكتوب أن يكون هذا أمراً صعبًا وأن علىّ أن أعصيه؟! هل هناك أمر صعب أم أن العصيان هو المكتوب والتوبة مكتوبة والغفران وحده هو الممنوح بلا كتاب. وتحيرت من أسئلتى أكثر مما يتحير بلوقيا مما يرى فى البحار والجزر وعلى الجبال وأرض الجان والملائكة. لقد أصبحت الأسئلة وكأنها مخلوقات عصية لا أستطيع تحويلها أو صرفها عن وجهتها التى تسير فيها وليس لها وجهة إلا هذا العصف المستمر بالبدن الذى يجعلنى أنتفض بدموع لا تنتهى..

هل يستعد الكون للنهاية. إن نذر النهاية كانت دائمًا قائمة فى سياحة بلوقيا وفى كل ما علمت من الملكة، لكن الكون لا ينتهي وكل نذر هى بداية جديدة للتيه الذى لا ينتهى..

وظلت الملكة مغمضة عيونها تحكى لى بلا رؤية كيف التقى بلوقيا بالملائكة الأربعة جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل سائرين على وجه البحر وسيرهم مثل البرق الخاطف. فلما تعرض لهم بلوقيا باسم الله أخبروه عن نذر النهاية التى ظهرت فى الشرق فى صورة ثعبان عظيم خرب ألف مدينة وأكل أهلها وأن الله أمرهم أن يمسكوه وأن يرموه فى جهنم..

وتعجب بلوقيا مثلى من كل النهايات وسأل نفسه متى يرى النهايات الصادقة فى الحقيقة. «وسار على عادته ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى جزيرة فطلع عليها وتمشى فيها ساعة...» ورفعت الملكة أهدابها الثقيلة ونظرت لى بحنان غامر زاد من بكائى ودموعى ورحت أزيح الدموع من على عينى لأرى «شابًا مليحًا والنور يلوح من وجهه فلما قرب منه بلوقيا رآه جالسًا بين قبرين مبنيين وهو ينوح ويبكى.

- ما شأنك وما اسمك وما هذان القبران المبنيان اللذان أنت جالس بينهما وما هذا الذى أنت فيه؟..».

وبكى الشاب بكاءً شديداً حتى صرت أبكى أشد منه وسمعته يجيب بلوقيا من خلال دموعه:

- «اعلم يا أخى أن حكايتى عجيبة وقصتى غريبة وأحب أن تجلس عندى حتى تحكى لى ما رأيت فى عمرك وما سبب مجيئك إلى هذا المكان وما اسمك وإلى أين أنت رائح وأحكى لك أنا الآخر بحكايتى..»

ولم يكن هناك ما يدعونى لأن أسمع حكاية بلوقيا من جديد فقد عرفته وصحبته زمانًا طويلاً وعرفت ما هو فيه من تيه. لكننى مع ذلك سمعته وهو يخبره بجميع ما جرى له فى سياحته من الأول إلى الآخر وسمعته وهو يقول: والله هذه حكايتى والله أعلم وما أدرى ما الذى يجرى علىّ بعد ذلك..

وبدأ بلوقيا يبكى هو الآخر ورحنا نحن الثلاثة فى بكاء عظيم وكل منا لا يعرف ماذا يجرى له بعد ذلك. وأحسست أنا أن حكايتى قد خرجت من يدى وأننى لا أكاد أملك لها نهاية أو بداية وأن علىّ أن أنتظر باكيًا منوحًا مثل الشاب بين القبرين حتى تعود للملكة رغبتها فى أن أبقى عندها طوعًا لما أمرتنى به فى أول الحكاية وكأنها كل ما لدى من نهاية.

وأمرت الملكة لى بالسماط من جديد وعليه القدحان اللذان أعرفهما من لبن وخمر.ووجدتنى أتقدم مسرعًا لأجرع قدح اللبن من جديد مجانبًا الخمر متوسلاً لنفسى ألا تشتهيه. ووجدت نفسى أسلك مرة أخرى طريق التوبة والتيه الذى لا ينتهى وأغالب نومًا ثقيلاً يسقط علىّ وأنا أسمع «أنا الآخر» يقول لبلوقيا وكأن كلماته تأتينى فى حلم عميق..

- أنا رأيت السيد سليمـان ورأيت بلاد كابل.. وأكلت من العشب الذى كل من أكل منه لا يموت إلى النفخة الأولى..

ورحـت فى سبـات عـمـيق وآخر ما سمعت صـوت الملكة العسلى يقول لى: اعلم يا حاسب... اعلم... اعلم.. لكننى كنت قد نمت وكأننى أشهد نذر النهاية.

(٧)
أنا الآخر..
فى نور الحب والموت

هل نمت وصحوت، أم هل نمت وحلمت وظللت أحلم أم أنا - كما هو الأمر الآن فى الحقيقة - فى منعطف من منعطفات حياتى أحاول إعادة الكتابة والحكاية. لقد نظرت كما يجب عليّ فيما كتبت حتى الآن من إعادة كى أستطيع أن أواصل الحكاية، لكننى لم أستطع أن أكمل ما قرأت وخفت أننى سأنشغل به عن البدء الجديد الذى يتجمع الآن فى روحى وفى بدنى. لكننى وجدت فى مطالع ما كتبت - واكتفيت بهذا - أننى قلت لنفسى فى بداية هذه التجربة إن إعادة الحكاية «تجعلنا نمسك بهذا المعنى من الجدة والتدفق غير المنظور فى المعانى بل والأحداث».

وقد توقفت كثيراً عند هذا التعبير الذى دفعنى فى أول الأمر على إعادة الحكاية وها أنا أتساءل الآن هل القادم من حكايتى الآن فيه جدة وتدفق غير منظور فى المعانى والأحداث؟ أم أنه كان مخفيًا كما يختفى الحلم فى نفوسنا ليخرج عندما يحين الوقت أو يصح الاتفاق. وهل تصنع الأحلام من الماضى أم أنها فى الحقيقة هى مادة المستقبل وفواتح طرقه؟

عندما يحدث للمرء أى حادث فى حياته يجد أن الحادث كان فيها لأنه حدث، وأن اتفاقه أو عدم توقعه بل والإحساس بغموض معناه هى كلها أمور خارجة عما حدث وأنها لا تدخل الحياة حقًا حتى نعيد كتابتها وحكايتها.. وعند ذاك يصبح اللغز القائم هو البحث عن المعنى وإدراج الحدث الحديث فيما تراكم من معنى.. إذا كان من الممكن للمعنى، مثل المعارف والحقائق، أن يتراكم!

فهل ملأت بهذه الكلمات ما بين الأحداث فى الحياة من فجوة. إن لإعادة الكتابة سحراً كسحر الأقسام والعزائم التى يستخدمها الساحر والعالم لتحريك الأحداث أو قوى الطبيعة. وكل ما يفعله فى الحقيقة أنه ينظر ويتوقع ما سيحدث وأنه يعطيه بإرادته أو جريمته معنى ويتصور لذلك أنه محدثه.

فماذا أنتفع بالأقسام والعزائم، ولِم لا أخضع للسمع والرؤية وأحاول أن أمسك بهما فقط ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وهل سبيلى إلى ذلك إلا إعادة الكتابة؟.. أى دور أعيش

فيه وأنا أبحث عن المعنى وقد أصبح المعنى كينونة مفارقة، علىّ فقط أن أسمعها وأراها وأن أخضع لسلطان «اعلم» التى تفرضها الملكة علىّ كما يفرض الوجود على الوجود..

كان الوقت غروبًا وكأن هناك شمسًا غاربة لا ينتهى غروبها على هذا المكان الذى أتحرك إليه. وكلما يحدث حادث فى الحياة فكأنما أنت تسير إليه فى طريق، والحادث فى نهاية الطريق منعطف أو طريق جديد.

لقد وصل إليهما، بلوقيا وجانشاه الشاب ذو الوجه المنير الجالس بين القبرين وأنا أحس أن حياتى ستأخذ صفة جديدة وأننى سألقى عن نفسى صفات سابقة دون أن أستطيع أن أفصل بين ما كنت وما سأكون ودون أن أعرف بوضوح هل انتهى ما كنته أو كيف سأصبح هذا الآخر الذى أنا مقدم عليه؟..

وجدتهما يبكيان ودموعهما السائلة تستحيل فى داخلى إلى معانٍ وأحداث تكسونى شيئًا فشيئًا صفتى الجديدة، فتجعلنى أحس أن سياحة بلوقيا فى حب محمد ﷺ قد أصبحت صفة مستحيلة أبعادها البكاء والندم وانتظار الموت، وأن روحى التى تثقفها الكينونة ترتدى شيئًا فشيئًا صفة الحب الذى عاشه جانشاه ليصبح هو الآخر صفة أبعادها البكاء والندم وانتظار الموت الذى لا يجىء..

لقد عاش جانشاه زمان السيد سليمان وما زال هو شابًا منير الوجه، وسليمان قد مات من زمان سحيق.. ولم يولد جانشاه فى مصر ولا هو من بيت المقدس، وليس من بنى إسرائيل مثل بلوقيا، لكن من المشرق البعيد، من كابل على غير مبعدة كبيرة من الهند. وكان أبوه «يحكم على سبعة سلاطين وله المال من الشرق إلى الغرب وكان عادلاً فى حكمه وقد أعطاه الله تعالى ومنّ عليه بذلك الملك العظيم ولم يكن له ولد. وكان مراده فى عمره أن يرزقه الله ولدًا ذكرًا ليخلفه فى ملكه بعد موته..»

وهكذا فنحن الثلاثة من أبناء الحكايات نأتى للأب فى نهاية العمر لنحمل مصائر جديدة لا يعرفها الأب ولا يمكن له أن يعرفها ولو جمع كل «العلماء والمنجمين وأرباب المعرفة

والتقويم..» لكن أليس هذا هو حال كل أب مع كـل ابن يأتى فى الحكايات أو خارجها فى أول العمـر أو أواخره.. لكتنا نحن أبناء الحكـايات يتلبس حيواتنـا المعنى فيعطيـها الصـفة وندرك فى نهاية المطاف أن كل صـفة مشابهة مـستمدة من الأخرى وأنهـا تنسكب الواحدة فى الأخرى وكأنها صفة واحدة تسعى لمعنى واحد.. إننا نحن أبناء الحكايات يرزقنا الله هم الكينونة فـلا نفعل بحيـاتنا إلا أن نعيدها ونحـكيها للناس ولكل من يسـمع أو يرى. فلسنا أبطالاً كأبطال التاريخ بل نحن أولاد الكينونة وكل ما لنا من مـعنى هو تقريرها بكل ما لها من صور وأحوال وأحداث ومعان..

كانت أم جانشاه امرأة غريبة من خراسان فـرضها المنجمون على أبيه فأرسل فى طلبها من أبيها لتكون عروسًا له فلن يأتيـه ولد إلا منها «ثم إن الملك طيغموس دخل على بنت الملك بهـروان وأزال بكارتها فـمـا مضت علـيهـا أيام قلائـل حتى علقت منه ولما تمت أشهـرها وضعت ولداً ذكراً مثل البدر فى ليلة تمامه..».

فهل هكذا بدأت حياتك يا جانشاه وهل فى هذا ما ينبئ عما سيجرى عليك وعلىّ عندما ألقاك، ولِمَ كان مـن المكتوب علىّ أن ألقاك فى هذا المساء وقـد اجتمعت ببلوقـيا ورفضت الملكة طلبى أن أعود إلى أهلى..

لو أننى عدت إلى بيـتى لكانت حكايتى قد انتـهت قبل أن تكتمل ولـما علمت هذا الوجه الآخر للحب الذى هو الآن كل حياتى منذ لقيتك والذى ما زلت لا أعلم كيف سيرفع عنى فيما سيجرى علىّ..

مـا أغمض هذه المناجـاة التى أناجـيك بها يا جـانشاه لكـنها طريقى الوحـيد الصـادق أن أكونك وأن تكون أنت أنا الآخـر الذى علىّ أن أعرفه وأن أعيش فيـه الحب الذى لا ينتهى والموت الذى لا يجىء.. إن هذه المناجـاة أقـسام وعـزائم لا تتم الكتـابة إلا بها وتسـتحـيل بدونها إعادة الكتابة.

لهـذا أنا أبكى يا جـانشاه قـبل أن أكـمل حكايتى أو حكايتك ودمـوعنا نحن الثـلاثة هى المنـعطف الذى نـنتظر عنـده الدعوة الجـديدة للكينونة لنذهب فيها إلى غـاية مصائرنا وراء ما يتشكل لحياتنا من معنى..

نظرت إلىّ الملكة بعيـونها الواسعة وأهدابهـا الطويلة وقالت لى بصوتها العـسلى: أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو؟!

- أنا لا أعلم يا مليكتى إذا كنت صاحيًا أم نائمًا؟..

- ماذا تعلم إذن..؟

- أعلم أن على بلوقيا أن يعود إلى أهله.

- «لا نقدر أن نفعل شيئًا من ذلك إلا إذا أمرنا الله تعالى..»

- فمتى يأمرنا؟

- الله أعلم.

- لكن حكايته قد انتهت!

- لكن حكايتك لم تكتمل.

- فهل تعلمين متى أعود أنا إلى أهلى؟

- أتمنى من الله ألا أعلم.

- لماذا؟

- لأننى لو علمت لنفدت الإرادة، فإذا نفدت تكون سببًا فى موتى أنا..

- أنا لن أدخل الحمام.

- أنا أعلم أنك لا تريد لكن إرادتك ظن لا علم فيه.

- فهل أنا أعلم أى شىء؟

- اسأل نفسك؟

- أنا لا أعلم ماذا أعلم.

- لأن حكايتك لم تكتمل.

- فهل ستكتمل؟

- إذا أدركت المعنى.

- ومتى أدركه؟

- عندما تكتمل.

- ومتى تكتمل؟

- عندما تدركه.

وتبسمت الملكة كأنما تهنئنى لأننى صَمتُّ فلم أعـاود السؤال عندما أدركت ما فى حوارنا من دور. وبعد أن طال صمتى وصمتها قالت لى الملكة من جديد:

- أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو؟

فارتفع فى نفسـى غضب ساذج وكأنها تريد أن تسـخر منها وقلت لها صـائحًا وأنا أتقدم مقبلاً إلى حيث بلوقيا وجانشاه:

- أنا صاح تمامًا وأريد أن أعلم ما هذا النور الذى يشع من وجه جانشاه.

- إنه يشع أيضًا من وجهك وقد انعكس عليه.

- فأى شىء هو هذا النور؟

- نور الحب والموت.

- وهل للحب نور؟

- ليس هناك نور إلا نوره.

- وهل للموت نور؟

- إذا كان فى انتظار الحب.

- فماذا ينتظر جانشاه؟

- لقاء الموت.

- أليس هذا حكم البشر أجمعين؟

- نعم لكنهم لا يجعلونه صفة لهم.

- فبماذا يتصفون؟

- فجاءة ما يحدث لهم.

- ولماذا يُفاجأون؟

- لأنهم لا ينتظرون.

وأحسست أنني أفاجأ من جديد بالدور في الحوار فصمتُّ وصمتت هي الأخرى مدة طويلة حتى سألتني من جديد:

- أما آن لك يا حاسب كريم الدين أن تصحو؟

فقلت لها راضخًا مستسلمًا:

- وكيف أصحو يا مليكتي؟

- تنتظر ما يجرى عليك فلا تفاجأ به.

- وكيف أنتظر؟

قالت لى الملكة وهى تنظر إلىّ بحنان شديد:

- هذا أصعب ما يجرى على البشر..

وقمت صارخًا أبكى وأنوح صائحًا فى جانشاه:

ماذا تنتظر يا جانشاه.. ماذا تنتظر؟

ورفع جانشاه عيونه الباكية فىّ ورأيتهما مثل عيون الملكة وسمعته يبدأ ليحكى لى حكايته فصحوت تمامًا لأعيدها.

(٨)
غزالة الصدق
وحساب المكتوب

وضعت لنفسي معيارا من الصدق يكاد يعجزني عن إعادة الكتابة لما جرى عليّ. فأنا أقول مثلاً «ما جرى عليّ» وليس ما جرى لي أو جرى أمامي أو بلغني أو شيئًا آخر من هذا القبيل. ولقد وجدت أن معظم من يكتبون يتجنبون ما يجرى عليهم ثم يزعمون أنهم يتقصّون كل جهات الحدث الأخرى.

فحكايتي - كما تعلمون وكما قررت سابقًا - مكتوبة قبل أن أعيدها، ولا شك أنها ستعاد من جديد أكثر من مرة حتى يأتي أمر الله الأخير. لكنني عندما حكمت معياري للصدق وجدت أن ما جرى عليّ في تلك البقعة المنيرة بهذا النور الغريب الذي يشع من وجه جانشاه له أكثر من مرتبة من مراتب الوجود. فقد كنت أراه يحدث متحققًا في عيون الملكة وكنت أسمعه مغلفًا بالدموع والحنين في صوت جانشاه وأحسه ظلالاً سوداء ثقيلة على بلوقيا الجالس المتلفع بزربونه في صمت، وأخيراً - إن لم يكن أولاً - كنت أحسه يسري في بدني وروحي كأنه أيام حياتي التي تمر دون أن أعدها أو أعي بها لكنها تصنع رغمًا عني هذه الحياة والحكاية. فكيف أعيد كل هذا دفعة واحدة دون أن أغمط أي جزء منه حقه الكامل في الوجود ودون أن تنحرف الحكاية في الإعادة أو يعتورها النقص أو الزيف والاصطناع؟.

كان جانشاه يتكلم العربية لكنها عربية غريبة آسرة فيها لكنة حلوة من آثار لغة أخرى وكأنه تعلم العربية على كبر، أو كأنه، من تملكه للعربية، يوجهها كما أراد نحو أصوات وتراكيب لا تعرفها. لكنها مع ذلك مبينة نافذة كأنها عطر أو أضواء كواكب:

- عندما كبرت إلى الخامسة كنت قادراً على أن أقرأ وكان أبي قد جعلني أقرأ وأعلم كل ما في الكتب المقدسة في شرق المملكة وغربها. قرأت التوراة والإنجيل وكتب الهند وصرت عارفًا بحقائق ومبادئ عن الروح والوجود لا يعرفها الشيوخ والحكماء. وفي

الخامسة عشرة تعلمت الركوب والطعن والضرب وجميع آلات الحرب وبدأت أعشق العربية وشعرها وأذوق اليونانية وما فيها من حكمة وحوار.

وتلفتت روحي وعيوني إلى مليكتي العارفة وكأنني طفل حسود أقول لها في سري أريد أن أعلم ما يعلم جانشاه فقالت لي «اعلم» ولم تكمل...

- وخرجت مع أبي في رحلة للصيد والقنص تحيطني كوكبتي الخاصة من المماليك السبعة وسرنا في البراري القفار واشتغلنا بالصيد والقنص إلى عصر اليوم الثالث..

وتوقف جانشاه عاجزاً عن أن يمسك بالوقت وما يحدث فيه وغامت عيناه بنور كنور الغروب المقترب وتحير لا ينطق وكأنه نسي اللغة والكلمات. فرفعت عيني إليه وملت بهما إلى عيني الملكة فإذا بي أرى جانشاه الفارس وقد «سنحت له غزالة عجيبة اللون وشردت قدامه. فلما نظر جانشاه إلى تلك الغزالة وهي قدامه، تبعها وأسرع في الجري وراءها وهي هاربة. وما زالوا سائرين حتى وصلوا إلى بحر فتهاجم الجميع على الغزالة ليمسكوها قنصاً ففرت منهم الغزالة وألقت نفسها في البحر. وكان في ذلك البحر مركب صياد فنطت فيها الغزالة فنزل جانشاه ومماليكه عن خيلهم إلى المركب وقنصوا الغزالة وأرادوا أن يرجعوا إلى البر فهبت عليهم ريح وأجرت المركب في وسط البحر وناموا إلى وقت الصباح ثم انتبهوا وهم لا يعرفون الطريق ولم يزالوا سائرين في البحر...»

ولا يمكن لي مهما أوتيت من لغة ومهما حاولت من صدق أن أصف أو أمسك بلون الغزالة وحركتها وهي تشد جانشاه وراءها أو كأنما تشده وتدعوه في دلال كدلال المرأة الجميلة أو كحركة الفكرة السانحة وهي تريد أن تقودنا إلى المعنى. وعندما تهاجموا عليها، جانشاه ومماليكه الستة، فقد ترك واحداً منهم عند الخيل، كانت كأنما تريدهم أن يمسكوا بها في المركب أو أن تجمعهم جميعًا في هذا المَركَب الخطر المحصور في البحر والريح. كانت الغزالة كأنها دعوة حلوة حاسمة وكأنها تقودني من جديد إلى كوات على الوجود

والكينونة عـرفتهـا وخبـرت وطأتها على الروح منذ لقـائى مع الملكة. لقد قُـضى الآن على جانشـاه كما قـضى علىّ وعلى بلوقيا مـن قبل وانطلقت الروح مخيرة مسـيرة يندلع فيـها الشوق الذى لا يـنطفئ ويحملهـا على أن تقدم نفسـها ضـحيـة بلا شرط أو أجـر معلوم.. كانت الغزالة تدعـونى من جديد إلى ما هو أكثر من المعـرفة، فى هذا الطريق وراء الكينونة الذى هو سر كل الحـياة وأول كل الحكايات.. لقد عرفت هذا الـطريق من حكايتى وعندما نظرت إلى بلوقيا، وقد أزاح اللثام عن عينيه ليرى، عرفت أنه أيضا كان يعرف هذا الطريق..

فقـد دفعت عاصـفة البـحر بهم إلى جزيرة وكـأنها من جـزر بلوقيا التى تصـنع سياحـته وتمنعهـا من التوقف وإن كـانت فى نفس الوقت إعداداً لما هو قادم عـليه مما سيـجرى على روحه من تبصر وإدراك وحكاية. كان فى الجزيرة عين وجدوا عندها مخلوقًا من مخلوقات الله أشبه بالبـشر يرد السلام لكنه يلتفت بعـد السلام يمينًا وشمالاً وينشق إلى قـسمين وكأنه يدعو هذه الجـموع المحتشـدة من أشباهه التي التفت حـولهم تنشق قسمين وتهـجم عليهم فتأكل ثلاثة من مماليك جـانشاه وتدفعه لأن يتبع الغـزالة وهى تهرب قائدة لهم إلى المركـب من جديد.

كانت مماليك جانشاه، وقد أصبحوا ثلاثة، يتناقصون وكأنهم يتناقصون بحساب أو كأنهم يحـسبون الخـطوات أو الأزمنة على هذا الطريق. ولعلهم ليسوا إلا مماليك ككل المـماليك يؤكلون ويتناقصون وأنا الذى أحسبهم لأضمن أننى أعيد الحكاية فى صدق صدوق.

ففى المركـب وقـد اجتمـعوا ومعـهم الغزالة حركـهم الجوع الشديد الذى عـانوه بعد أيام وليال فى البحر أن يتقدموا نحو الغزالة يريدون أن يذبحوها ويقتاتوا منها. فلما هموا بذلك وجدتنى أصرخ قائلاً:

جانشاه.. انتظر.

وعندما التفت إلىّ كان المماليك الثلاثة يذبحون الغـزالة ويسلخونها ويشوون لحمها على نار أشعـلوها فى المركب ويقدمـون لجانشـاه قطعة ناضـجة من لحـمها. ولم أتـبين إذا كان

جانشاه قد أكل ما قدموه له منها أم لا، لكن الريح الشديدة أحاطت بالمركب من جديد وألقتهم إلى «جزيرة أخرى» ولم يستطع جانشاه أن ينهض للصعود إليها فأمر مماليكه الثلاثة أن يكشفوا خبر هذه الجزيرة وظل هو جالسًا يفكر فى غزالته التى قتلها.

وعاد المماليك الثلاثة إلى جانشاه بعد أن طعموا وشربوا من فواكه الجزيرة يابسة ومرطبة ومن عيونها الجارية وأخبروه عن قلعة من الرخام الأبيض فيها بستان فتشوق جانشاه لرؤية ما رأوه وكأنما ليس هو المَعنّى بكل ذلك..

وجلس جانشاه على التخت المنصوب وسط الكراسى المنصوبة فى البستان وصار يتفكر ويبكى على فراق تخت والده وعلى فراق بلده وأهله وبكت حوله الثلاثة المماليك فبينما هم فى ذلك الأمر وإذا بضجة عظيمة من جانب البحر فالتفتوا.. فإذا هم قرود كالجراد المنتشر.

وبينما أحاول أن أشق طريقًا لى بين هذه القرود كى أسمع ما يقول جانشاه إذا بمليكتى تقول لى بصوتها العسلى:

- اعلم يا حاسب أن كل هذا مما يحكيه الشاب الجالس بين القبرين لبلوقيا.. فثبت نظرى فى عينيها وقد اختلط علىّ الزمان والمكان وكاد يضيع منى المعنى الذى ظننت أننى قد أمسكت به منذ أن رأيت الغزالة تقود جانشاه وتبعده عن بيته وأهله وملك أبيه وأمه.

لقد علمت من طبعى وأنا أعيد الحكاية أننى حقًا حاسب أريد أن أحصل دائمًا على مجموع المعنى ويزعجنى ويحيرنى ويذكرنى بأهلى كل ما ينتثر فى الحكاية من معانٍ لا تجمع ولا تتراكم. ويردنى ذلك إلى طبائع البشر الذين يفاجأون ولا ينتظرون فأقول للملكة:

- وماذا فعل جانشاه مع القرود بعد ذلك؟..

وعلى الرغم من أننى سمعت الحكاية وقرأتها وكان أمامى جانشاه نفسه أسأله إذا أردت فإننى بعد هذا كله لا أستطيع أن أجزم أننى فهمت ما حدث تمامًا مع القرود أو لماذا حدث.

كـانت القـرود تعـيش فى هذا المكان من أيام سليـمـان ويبـدو أنه كـان يأتى ليـتنزه فى هذا البستـان ويقضى أوقاتا فى هذا القصـر أيام سلطانه وملكه الممتد على الحيـوان والطير. فإذا كان هذا صـحيـحًا وليس هناك مـا يمنع من ذلك، فإذا القـرود فى جزيرتهم الغنيـة يريدون سلطانًا عليـهم يحكمهم ويحارب مـعهم مـا يحيط بهم من أعداء هـم غيلان أحـيانًا ونمال ضخمة أحيانًا أخرى. ويخسف القرود المركب التى جاء بها جانشاه ومماليكه ويقولون له:

- «اعلم أيهـا الملك أنكم لما أتيتم إلى جـزيرتنا علمنا بأنك تكون سلطانًا علينا وخـفنا أن تهربوا منا إذا أتينا عندكم وتنزلوا المركب فمن أجل ذلك خسفناها..»

وخـيل لى أننى أرى بلوقيـا وكأنه يتـحرك فـى مكانه ويزيح عن وجهـه اللثام الذى كـان يضعه وبدا لى فى عينيه أنه يعلم ما لا أعلم فتوجهت أسأله والملكة تقول لى:

- لقد صحوت يا حاسب.

واندفع سؤالى مع كلامها فلم أجبها وقلت له:

- لماذا جـاء جانشـاه يا بلوقـيا إلى جـزيرة القـرود ولماذا لم يرض بما يفـرضونه عليـه من سلطان؟

- ولـم يجبنى بلوقيـا بل راح يبكى من جديد وكأنه يتذكر كل حكايتـه أو ما لا أعـلم منها وظل يردد كلمة واحدة فقط: المكتوب.. مكتوب.. مكـتوب.. لكن صوتها العسلى شملنى وأسمعها تقول لى وحدى:

- اعلم يا حاسب أن الطريق إلى الحب تملؤه المخاطر والمزالق وأصعبـها على البشر مزلق السلطان. وكل سلطان حُـكم على القرود.. ومن يمـتلك السلطان تسـتحـيل عليـه المعرفـة وينغلق فى وجهه إلى الأبد كل طريق إلى الحب. فالسلطان يا حاسب ظلمات بعضها فوق بعض فاحسب لنفسك خطوها وطريقها وتعلم كيف تنتظر..

واختـفى من أمامى جانشاه الجـالس بين القبرين وبلوقـيا الذى يستمع له ورأيت جـانشاه وهو يجاهد فى الهرب من القرود وهم يحاصرونه بطلبهم ويدخلون فى حرب مع الغيلان

جيرانهم فيشاركهم جانشاه الطعن والضرب حتى انهزم الغيلان وتأكد سلطانه على القرود وكأنه أصبح حقيقة واقعة أمامهم وإن لم يكن فى نفسه إلا الانتظار وتحين فرصة الهرب.

«ولم يزل والقرود سائرين حتى وصلوا إلى جبلٍ عال.. فوجدوا فيه لوحًا من المرمر مكتوبًا فيه اعلم يا من دخل هذه الأرض أنك تصير سلطانًا على القرود وما يتأتى لك رواح من عندهم إلا إن رحت من الدرب الشرقى وطوله ثلاثة أشهر وأنت سائر بين الوحوش والغيلان والمردة والعفاريت وبعد ذلك تنتهى إلى البحر المحيط بالدنيا.

أو رحت من الدرب الغربى وطوله أربعة أشهر وفى رأسه وادى النمل فاحترس على نفسك من هذا النمل حتى تنتهى إلى جبلٍ عال يتوقد مثل النار، ومسيره عشرة أيام ثم تنتهى إلى نهر عظيم وهو يجرى وجريانه يخطف البصر من شدة عزمه وذلك النهر فى كل يوم سبت ييبس ويجف وبجانبه مدينة كلها يهود ولدين محمد جحود وما فيهم مسلم..»

ولست أدرى ولم يخبرنى أحد كيف حسب جانشاه خطواته وطريقه لكنه قاد القرود سلطانًا لهم فى رحلة للقنص والصيد حتى إذا ناموا قال للمماليك أريد أن نهرب ونروح إلى وادى النمل ونسير إلى مدينة اليهود.

والتفتُّ إلى بلوقيا وهو من بنى إسرائيل أتوقع عنده تفسيرًا فلم أسمع إلا كلمته التى يكررها: المكتوب.. مكتوب.. مكتوب.

ولم تزدنى الملكة وضوحًا إلا أننى رأيت فى عينها جانشاه والقرود تتابعه وهو يدخل وادى النمل ورأيت معركة مفزعة مضحكة بين القرود والنمل، والنملة قدر الكلب تأتى إلى القرد تضربه فتقسمه نصفين وصار العشرة قرود يركبون النملة الواحدة ويمكسونها ويقسمونها نصفين.. فلما انهزم القرود وأصبح الصباح أقبلوا على جانشاه من جديد فقتلوا اثنين من مماليكه. وهكذا هرب جانشاه إلى النهر ملقيًا نفسه فيه مع مملوكه الأخير حتى غلب التيار على هذا الأخير وأصبح جانشاه وحده تمامًا على الشط الذى سار منه حتى وصل إلى النهر الذى كان ينشف كل يوم سبت وبجانبه مدينة اليهود التى دخلها وحده

فلم ير فيها أحدا.. وحسبت على أصابعي مماليك جانشـاه السبعة وهـم يتناقصون ويختفون ليصبح جـانشاه وحده تمامًا على هذا الطريق الذى لا يسلكه المرء إلا وحيـداً مجرداً من كل سلطان. فهل أحكم جانشاه الحساب أم المكتوب الذى يحكم الإنسان؟!

(٩)
مقصورة الرؤية

فكرت وأنا أنظر إلى جانشاه جالسًا بين القبرين وبلوقيا أمامه يسمع، كيف تمسك مليكتى العارفة بخيوط الحكاية وكيف تصنع لنا الحياة. وهل هى المسئولة فعلاً عن حياتنا وحكاياتنا أم أنها مثلى تعيد الحكاية؟. لقد بدأت قدرتى على الإعادة والحكاية تضعف لأننى تجرأت أو تجاوزت حدودى وأصبحت الحكاية - بلا توقع - تجرى علىّ وبدأت أخاف وأرتعد مما هو قادم وكأننى سأعانى وسأعرف ما هو أكثر من قدرتى واحتمالى. لقد حصنت نفسى منذ بدأت هذه التجربة لإعادة الحكاية بأننى أعلم وأعرف أن المعرفة التى تتجمع فى داخلى تحمينى من الخوف ومن قضاء المكتوب الذى جرى على بلوقيا، وكنت أظنها ستحمينى أيضًا مما جرى على جانشاه.. هل بكاء جانشاه المتصل هو الذى أضعفنى، أم هما القبران اللذان يجلس بينهما، أم هو هذا الانتظار الذى لا ينتهى الذى يعيشه جانشاه ويقدمه لى حادثًا ممتدًا لا نهاية له فيستحيل علىّ أن أحكيه أو أن أعيده. فبدايات جانشاه لا توصل إلى النهاية لكنها قصص أقرب إلى الواقع المعروف والتاريخ المقروء تحيلها الملكة بحرصها الخفى على أن أعلم إلى حِكم ودروس تعلمنى بها ما تظننى لا أعلم من طبائع البشر والخلق. لقد كنت لا أعلم فعلاً ما علمتنى الملكة ولا يصح لى أن أدعى ذلك لكننى على نحوٍ ما كنت أعلمه بقدرتى على فهمه وعلى حكايته. أما جانشاه فأنا أكاد أفقد روحى معه وأخشى على نفسى من أننى إذا سمعت حكايته أو أعدتها فسوف أظل إلى جانبه أبكى وأنوح حتى النفخة الأولى كما قال..

لقد بدأ جانشاه حكايته بطلاً وصاحب صنعة. فهو ابن ملك له سلطان واسع على ممالك تمتد من الشرق والغرب وكان منذ طفولته قادرًا على أن يتعلم وقد تعلم ولم تصعب عليه فنون الحرب أو فنون الكتاب كما حدث لى. لكنه مع ذلك كان مثلى ومثل بلوقيا يسير إلى قضاء مكتوب يظل طول حياته، حتى قبل نهاية حكايته وبدء دموعه، لا يعرفه ولا يُبكيه.

لم يكن جانشاه مثل بلوقيا أيضًا. فقد ضرب المكتوب بلوقيا من البداية ومنذ خروجه من منزله وهو يعشق النبى الكريم الذى لا يستطيع - بكل ما له من عشق - أن يلقاه.

وتوقفت من حولى الحكاية تمامًا وكأن مليكتى العارفة قد راحت فى سبات عميق وتركتنى بمفردى أواصل حساباتى التى لم أكن أظن نفسى قادراً عليها.

لقد سنحت لجانشاه غزالة أخذته من الصنعة والأهل، لكنه قتلها وأكل منها. وإذا كان قد تاه بعدها فإنه تاه فيما لا يعلم ولم ينكشف له المكتوب الذى كان سائراً إليه. فهو غيرى عندما سقطت إلى لقاء الملكة وهو غير بلوقيا عندما ابتلعته الكينونة والخلق ليدرك معنى الزمن ومعنى الغاية من الوجود.

ولم يفتن جانشاه بالسلطان فقد كان فى يده وكان مملوءاً به عند أبيه. لكنه مع ذلك أخذ الطريق الغربى مخيراً تمامًا وكأنه يعلم إلى أين هو ماض دون أن يكون له دافع يحركه أو حتى غزالة تستهويه..

إن جانشاه الجالس أمامى الآن بين القبرين صاحب صفة وليس صاحب صنعة. فلا بد لى فى حسابى لحكايته أن أعلم ذلك. لكنى أرتعد مما أعرف وأخاف. فصفة جانشاه صفة إذا عرفها المرء وقع فيها ولم يخرج وأصبحت كل حياته كشفًا وبيانًا لهذه الصفة. وصفة جانشاه ليست معرفة كمعرفتى تحيل الأشياء إلى معانٍ وتجمعها متراكمة متوسعة فى شمولها. لكنها صفة تتجه لموضوعها فتوجده كاملاً كل الكمال، جميلاً مستحيل الجمال معطيا لا نهاية لعطائه وعند ذاك يصبح كل الكون وكل الزمن وكل ما يجرى على المرء. فإذا جاء المكتوب واختفى المحبوب ظل جانشاه بين القبرين صفة بلا موصوف لا نهاية لما تبعثه من رعدة فى الروح حتى النفخة الأولى..

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة من الحساب امتلأت روحى رعبًا ورعدة وتوقفت عاجزاً عن أن أكمل الحكاية وصحت فى مليكتى النائمة - لما لا تصحين يا مليكتى.. إننى جائع

كما لم أجع من قبل.. مرتعب مرتعد من هذا الحب القادم عليّ.. لم لا تصحين يا مليكتى وتردين لى الحكاية حتى أحتمل الصفة..

وحركت الملكة رأسها الجميل وظلت تنظر إلىّ طويلاً وليس فى عيونها إلاى وكأنها راحت تفكر مثلى أو تحسب كما فعلتُ ما فى يدها من حكايات. بعد طول تأمل قالت لى فى هدوء وكأنها تكبرنى وتجلنى:

- هذا سرك يا ابن آدم وما خصك الله به.. قدرتك على هذه الصفة وقدرتك على احتمالها.. ولهذا جعلك الله سيد المخلوقات وصنعك على صورته.. قم وكل حتى أستطيع أن أكمل لك الحكاية..

وأمرت لى الملكة بسماطها الشهى بلا خمر ولا لبن، وظللت آكل ويثقلنى الطعام حتى نمت. أحسست وأنا نائم حنانًا كحنان الأم يحيطنى ويحلق فوقى ويكاد يلفنى بشىء أكثر ثقلاً وحسًا من النظرات. كنت قلقًا أتقلب فى نومى وأدير وجهى مرة لليمين ومرة لليسار وكأننى سأنشق، ومع تقلبى كنت أحس عيونها تتبعنى وكأنما تنتظر أن أستقر وأن أهدأ. لكننى كنت أفكر كثيراً وأنا نائم وكانت الأفكار تستحيل فى رأسى إلى صورة وأشواق تغلفها جميعًا رغبة واحدة مستمرة فى أن أفنى فى هذا الحنان الذى يلفنى وأن أمرغ نفسى فيه. وسمعتها وسط أفكارى وأشواقى تهمس همسًا خفيفًا وكأنها تكلم نفسها:

- ما أجملك يا حاسب وما أغرب النور الذى فى وجهك..

ولم أسمع أحداً فى حياتى يقول لى إننى جميل ولم أكن أعرف ماذا يعنى هذا تمامًا. لكننى وجدت نفسى أرفع وجهى إليها وكأنما أريد ألا أفقد نظرتها إلىّ أو أريد أن أقدم لها هذا الوجه الذى رأته. وكانت اللحظة قصيرة خاطفة كأنها غمضة عين. فما أسرع أن انتهى صوتها الهامس وجاءنى صوتها العسلى الذى أصبح جزءاً من وعيى وإدراكى وهى تقول لى:

- اعلم يا حاسب أن جانشاه دخل - كما تعلم - إلى مدينة اليهود وحيداً فوجدها خالية تماماً من الناس حتى إذا وجد باب بيت مفتوحاً ودخله فرأى أهله ساكنين لا يتكلمون أبداً فقال لهم إني رجل غريب جائع.

فقالوا له بالإشارة كل واشرب ولا تتكلم..

واعلم ياحاسب أن اليوم كان يوم سبت فقعد عندهم وأكل وشرب ونام تلك الليلة فلما أصبح الصباح حكى لهم حكايته وهو يبكى ويتذكر بلده وأهله فأخبره الرجل اليهودى أنه لا يعرف مدينته وأن عليه أن ينتظر للسنة القابلة كى تأتى قوافل التجار الذاهبة إلى اليمن إذا كانت تلك البلاد قريبة من بلاده. ورغم أن جانشاه يعرف أن اليمن ليست بلاده ولا قريبة منها إلا أنه اختار أن ينتظر.

ولم أعرف مرة أخرى كيف يحسب جانشاه خطواته إذا كان يحسبها. وكأنما عرفت الملكة ما أفكر فيه فقالت لى:

- اعلم يا حاسب أن اليهود قوم مهرة فى الحساب فهم يحسبون دنياهم أدق الحساب لكنهم يخطئون دائماً فى مجموعها ونهايتها كما أنهم لا يعرفون كيف يحسبون أخراهم. إنى لا أعرف يهودياً مات سعيداً منذ أيام سليمان وأظنك تعرف كيف أخطأوا الحساب مع عيسى مرة ومع نبينا وأمته مرة أخرى..

وتساءلت بينى وبين نفسى إذا كانت فى عروقى بعض دماء يهودية وأبى اسمه دانيال، لكننى لم أشأ أن أسألها لأننى بدأت أرى فى عينيها جانشاه يخرج كل يوم إلى أزقة المدينة ويتفرج فيها فسألتها:

- عماذا يبحث جانشاه؟!

- ظل جانشاه يبحث عن صنعة «فاتفق أنه خرج على عادته يوماً من الأيام ودار فى شوارع المدينة يميناً وشمالاً فسمع رجلاً ينادى ويقول من يأخذ ألف دينار وجارية حسناء بديعة الحسن والجمال ويعمل لى شغلاً من وقت الصبح إلى الظهر فلم يجبه أحد..»

أما جانشاه فقد مشى إلى المنادى وقال له:

- أنا أعمل هذا الشغل..

وهكذا تقدم جانشاه مرة أخرى مختاراً ومضى بإرادته إلى المكتوب.

يقول الناس حكماء وجهالاً إن الوقائع كثيرًا ما تكون أغرب من الخيال. ولست أقصد بالخيال هذا الجانب من حكايتى الذى أعيده كما حدث تمامًا لأن الناس لا تعرفه فى كل يوم ولم يجر إلا علينا نحن أولاد الحكايات. فالرحلة والسياحة والتيه فى أرجاء كون الله واقع لا خيال فيه، لكنه لا يحدث إذا حدث إلا بأمر وقضاء. أما ما أتعجب منه وأعتبره أغرب من الخيال فهو اتفاق الأحداث وتوجه الإرادة واختيار الواحد، كل واحد منا، الطريق والوقت الذى يجمعه أو يبعده عن الآخرين، الذين يغيرون حكايته، أو الذى يلقيه فى أو يجنبه، الأحداث التى تصنع حكايته. فما الذى كان يمكن أن يحدث لجانشاه مثلاً لو أنه اتخذ الطريق الشرقى منذ هرب من القرود أو لو أنه لم ينزل الأسواق فى هذا اليوم الذى سمع فيه المنادى أو لو أنه خشى ما يعلنه الرجل وتجوس منه فلم يجبه ولم يتقدم لأخذ الصنعة والشغل الذى يعرضه عليه التاجر اليهودى، الذى بعث المنادى هذا اليوم وفى هذا المنعطف من الحكاية، وكأنما ليصطاد جانشاه وليطوح به دون أن يريد أو يقصد فى الطريق الذى مضى فيه..

اتفاق الوقائع للقاء والرؤية هو دائمًا أغرب من الخيال، ولو تفكر أى منا فى أى حادث من حوادث حياته مهما كان بسيطًا ومألوفًا لرأى غرائب الاتفاق وعرف فى ذلك ما هو أغرب من أى خيال.. فما باله لو فكر فى الرؤية التى غيرت حياته وفى الطريق الذى قاد جانشاه إلى مقصورة الرؤية..

فهل كان جانشاه يعبث أو يجد وهو يأخذ الكيس الذى فيه ألف دينار وقد رأيته يضعه فى جيبه بقدر من السرور والاغتباط بنفسه وكأنما قد أنجز شيئًا هامًا. وهل كان يلهو،

وما أكثر ما يلهو البشر بحياتهم وأبدانهم ورغباتهم، وهو يأخذ الجارية البديعة الحسن والجمال ويتبطنها منعمًا ببدنها حتى الصباح ثم يقوم مسروراً بنفسه ويتركها على الحشية التى ناما عليها وهو لا يعرف حتى اسمها ليذهب إلى الحمام ويغتسل. وقد أردت أن أسألها عن اسمها استكمالاً لما أحكى من حكاية لكنها لملمت ثيابها بسرعة واختفت عن عينى فى غرفات بيت اليهودى وكأنما تنتظر ليلة أخرى أو رجلاً آخر. ويبدو أننى اشتهيت الجارية حتى كدت أغفل عن جانشاه لولا أن سمعت صوت اليهودى يقول له أريد أن تعمل لنا الشغل..

ورأيت الرجل يأتى ببغلتين فيركب جانشاه واحدة منهما ويركب الرجل الأخرى ويسيران خارج المدينة نحو الجبال العالية حولها حتى إذا اقتربا منها طلب منه الرجل أن يذبح البغلة التى يركبها ويسلخها ويقطع أربعتها ثم أمره أن يفتح بطنها ويدخل فيها ليخيط عليه وأن يبقى ساعة بالداخل وأن يخبره بكل ما يراه فى بطنها..

ولقد أدركت بحسى البسيط أن هناك حيلة يدبرها اليهودى لجانشاه، وأن جانشاه الذى لم يتردد ولم يتساءل يسلم نفسه بلا حساب لرجل أتقن الحيلة والحساب وأخفى الطمع والشح فى ذقنه الخشنة الطويلة.

ووقفت متوجسًا فوق البغلة التى أصبحت كوم لحم يختفى فى داخلها جانشاه أرقب ماذا يحدث واليهودى واقف يبتسم وكأنه يسخر ممن لا يجيدون الحساب..

كان الجو حاراً شديد الحرارة والشمس الساطعة فى منتصف النهار تلقى على الجبال الشماء الجرداء شواظا يكاد يجعل صخورها الحادة تتوقد بالسخونة التي تملأ الدنيا. وأشفقت فى نفسى على جانشاه المكوم داخل البغلة لا أعرف كيف أستنقذه وهو مقدم على ما هو قادم ليجرى عليه..

وما لبثت غير قليل إلا وأقبلت من السماء - وكأنها صخور ضخمة منقضة متهاوية من الجبال - طيور سمراء كبيرة تحلق حول البقعة التى كنا فيها وألقت ظلالها علينا وعلى البغلة، فتأخر اليهودى مبتعداً خائفًا على نفسه وتقدمت أكاد أبكى وأنا أرى الطيور تتهاجم على البغلة، فيغلبها طائر كبير وينشب أظافره الكبيرة الحادة فى كوم اللحم ويحمله مصعداً فى السماء بما حمل، والحمل يصغر ويطول فى عينى كلما ابتعد الطير فى الجو إلى قمة الجبل العالى، أعلى الجبال الجرداء..

اختفى جانشاه بين السحاب بكيس الدنانير الذى غنمه وبليلة الشهوة التى اغتسل منها ومضى طائراً مع الطير كما سيفعل بقية حياته. وتذكرت الماء والبحور التى خاضها بلوقيا وطبقات الأرض والجب الذى سقطت فيه، وقلت فى نفسى إن لكل منا عنصرا يشكل حياته ويصنعها وسبحان خالق العناصر والطباع. ولما فزعت خشية أن يضيع منى جانشاه التفتت إلى مليكتى الحاكمة فى معرفتى وقالت لى:

- اعلم يا حاسب أن الطير الذى خطف البغلة المذبوحة «حط بها على أعلى الجبل وأراد أن يأكلها، فأحس جانشاه بالطائر، فشق بطن البغلة وخرج منها، فجفل الطائر لما رأى جانشاه وطار إلى حال سبيله، فقام جانشاه على قدميه وصار ينظر يمينًا وشمالاً فلم ير أحداً إلا رجالاً ميتة يابسة من الشمس..»

فكل الرجال الذين قبلوا الشغل، الذى قبله جانشاه، وخدعهم كلام اليهودى، ماتوا على أرض الجبل من الشمس والحر وتيبست جسومهم حتى عافتها الطير الجارحة، وظلوا هكذا ملقين على الأرض المغطاة بالياقوت والجواهر الثمينة.. وانتهت حيلة اليهودى وتبدت قاسية مريرة عندما صاح على جانشاه من تحت الجبل: «ارم لى من الحجارة مائتى حجر» وكأنما لا يريد أكثر من ذلك. فلما رمى له جانشاه من الحجارة ما لم يحسبه عدداً قال للتاجر وقد ملأه الخوف وفزع الوحدة:

- «دلني على الطريق وأنا أرمى لك مرة أخرى» .

لكن التاجر «لم الحجارة وحملها ظهر البغلة التى كان راكبها وسار ولم يرد له جوابًا..» يا حبيبى يا جانشاه لقد صرت وحدك تمامًا الآن مرة أخرى بلا مال ولا شهوة ولا أهل. فهل أخطأت الحساب فيما اخترت أم أن هذه الوحدة بين الجواهر والجثث اليابسة هى الواقع والاتفاق الذى يهيئ لك طريق الرؤية ويدفع بخطاك صوب مقصورة الحبيبة.. ما أسعدك يا جانشاه بكل وحدتك وما أحراك أن تشكر الله على كل ما لاقيت من عناء..

نظرت فى عينى الملكة فرأيت جانشاه يستغيث ويبكى ثم يقوم ليمشى فى عرض الجبل أيامًا متواصلة يأكل من أعشاب الأرض حتى وصل إلى طرف الجبل فرأى واديًا عن بعد فيه أشجار وأثمار وأطيار فاتخذ وجهته نحوه حتى وصل إلى شرم فى الجبل ينزل فيه السيل فنزل منه إلى الوادى الذى رآه وظل ماشيًا فى الوادى حتى وصل إلى قصر عالٍ شاهق يقف على بابه شيخ مليح الهيئة يلمع النور فى وجهه وبيده عكاز من الياقوت.

- «اعلم يا ولدى أن هذا الوادى وما فيه وذلك القصر وما حواه للسيد سليمان بن داوود عليهما السلام وأنا اسمى الشيخ نصر ملك الطيور وأنا حاكم على جميع الطير الذى فى الدنيا وكل سنة يأتى الطير إلى القصر وينظره ويروح وهذا سبب قعودى فى هذا المكان..»

- يا والدى كيف تكون حيلتى حتى أروح إلى بلادى.

- يا ولدى إنك بالقرب من جبل قاف وليس رواح من هذا المكان إلا إذا أتت الطيور وأُوصى عليك واحداً فيوصلك إلى بلادك فاقعد عندى..

كلنا يا جانشاه نقعد وننتظر لنعرف الحيلة التى تردنا إلى أهلنا لكننا لا نعرف ماذا يحدث لنا ونحن ننتظر..

فلما قرب موعد مجيء الطيور وقام الشيخ نصر على قدميه ليلقاها. وخشى أن ينشغل بها التفت إلى جانشاه الذى أرهقت الوحدة والغربة حسه وجعلته قلقًا لا يهدأ ومشتاقًا إلى ما لا يعرف، وقال له:

- «يا جانشاه خذ هذه المفاتيح، وافتح المقاصير التى فى القصر وتفرج على ما فيها إلا المقصورة الفلانية فاحذر أن تفتحها ومتى خالفتنى ودخلتها لا يحصل لك خير أبداً.»

مفاتيحك فى يدك يا جانشاه، والمقصورة الفلانية هى مقصورة الرؤية لا اسم لها ولا تمييز إلا أنها هى. وأنت كما أنت دائمًا، وككل البشر تختار وتحسب. وقد لا تقصد الشر والعصيان، لكنك إذا جئت إلى المقصورة وأنت تسير إليها طائعًا مجذوبًا، كان لابد لك أن تفتحها وأن تدخلها، وأن تصبح وأنت داخلها ملكًا لما سيحدث لك وقد خرج الأمر من يدك عندما دخلت..

مقصورة الرؤية يا جانشاه تتطلع إليها كل روح دون أن تعرف الطريق وتتحرق لدخولها كل عين، وإن ارتكبت العصيان، لكن الحق المكنون لا ينكشف إلا لمن هو مثلك قادر وهو يعصى، أن يسلم الروح للصفة التى تنكشف له. فمن الذى يستطيع يا جانشاه أن يمنع عنك مقصورة الرؤية. ومن الذى يستطيع يا جانشاه أن يقول لك قف ولا تدخل وكلنا نتشوق لدخولها حتى وإن لم يحصل لنا خير والخير كل الخير بداخلها..

يا حبيبى يا جانشاه ما أجملك وأنت مقبل على الحب قادر عليه.

كان على باب المقصورة قفل من ذهب وفى داخل المقصورة بحيرة عظيمة حصاها من الفصوص النفيسة وبجانب البحيرة قصر صغير من الذهب والفضة وشبابيكه من الياقوت وداخل القصر فسقية من الذهب ملآنة بالماء وحولها وحوش وطيور مصنوعة من الذهب يخرج من بطونها الماء ويدخل النسيم آذانها فتصفر كل صورة بلغتها..

كل هذا يا جانشاه ترى وما زلت لا ترى، ولا يهدأ لك قلق واشتياق. فالرؤية لم تكتمل ولا تكتمل حتى تجلس وحدك قدام القصر على كرسى بمفردك تتفكر فى حسن المكان، ولِمَ كان الأمر وعلام العصيان؟حتى إذا حان الوقت وتغيرت الحال وانفتحت الروح للرؤية أقبل عليه ثلاثة طيور فى صفة كصفة الحمام وفى حجم لم يعرفه من قبل. «ثم إن الطيور

حطوا بجانب البحيرة وبعد ذلك نزعوا ما عليهم من الريش فصاروا ثلاث بنات كأنهمن الأقمار ليس لهن فى الدنيا شبه..»

كاد عقل جانشاه يذهب وهو يتابع البنات يسبحن ويطلعن إلى البر ويتفرجن فى البستان وعينه تعرف الصغيرة وكأنه يخالط روحها عن بعد، ويعرف أنها الرؤية التى اشتاقها طول عمره وخرج من بيته وأهله من أجلها. قام جانشاه «وتمشى حتى وصل إليهن فلما قرب منهن سلم عليهن فردت عليه الصغيرة:

- «نحن أتينا من ملكوت الله تعالى إلى هذا المكان.»

وبدأ جانشاه حديث الحب كما يبدأ دائمًا فى نفوس الرجال:

- «ارحمينى وتعطفى علىّ وارثى لحالى وما جرى لى فى عمرى..»

وفى وسط الرؤية المكتملة ينغلق الجمال المكتمل على نفسه ويفرض الغربة والوحدة على المحب المقتحم المستسلم فتكلمه وكأنها تجمع الوقت وتختتم الرؤية وكأنه لا يستحقها:

- «دع عنك هذا الكلام واذهب إلى حال سبيلك»..

لكن جانشاه يحس الدموع تنفجر من عيونه ويمتلئ جرأة وإصراراً على ما أدرك من رؤية ويتذكر الأشعار التى تعلمها وهو صغير فينطلق جنانه ولسانه يريد أن يقترب منها وأن ينظم لها ما يضطرم فى روحه من جيشان. إنه يبكى وروحه تحس وطأة الحب الذى تملكها فينشد جاداً ثقيل الجد:

«بدت لى فى البستان بالحلل الخضر
مفككة الأزرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التى
كويت قلوب العاشقين على الجمر
شكوت إليها ما ألاقى من الهوى

فقالت إلى صخرٍ شكوت ولم تدر

فقلت لها إن كان قلبك صخرة

فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما سمع البنات هذا الشعر من جانشاه ضحكن ولعبن وغنين وطربن ثم إن جانشاه أتى إليهن بشيء من الفواكه فأكلن وشربن مع جانشاه ونمن تلك الليلة إلى الصباح، فلما أصبح الصباح لبست البنات ثيابهن الريش وطرن ذاهبات إلى حال سبيلهن. فلما رآهن جانشاه طائرات وقد غبن عن عيونه كاد عقله يطير معهن وزعق زعقة ووقع مغشيًا عليه ومكث في غشيته طول ذلك اليوم..»

وفي عيونه تحت جفونه المغمضة ارتسمت الحبيبة رؤية لا تريم.

(١٠)

مقام الانتظار وتمكين الصفة

سألت جانشاه:

- متى أحببت السيدة شمسة؟

فنظر لي متحيراً وكأنه لم يفهم ماذا أعنى وقال لي:

- لِمَ تسأل.. وهل يردها لي السؤال.

وأحسست بقدر من الخجل من نفسى وكدت أتوقف عن السؤال وملاحقته وخفت أن أكون متجاوزاً أو أن أبعث فيه ألمًا يزيد من ألمه.

وقلت لنفسى لم لا أكتفى بأن أسمع الحكاية وإذا به يواصل كلامه وكأنه يتابع ما يجرى فى رأسى:

- لقد انتهت الحكاية منذ أن أحببتها..

- ألم يكن للحب أول.. أليس هناك بداية للحب؟

- كل ما حكيته كان قبل الحب.

- إذن فللحب أول!!

- عندما تحب، تكون الحياة قبل الحب، انتظاراً له..

- فهل كنت تنتظر؟

- أنا لا أفعل فى حياتى إلا أن أنتظر..

- فلماذا تنتظر يا جانشاه؟

- حبى الذى هو أنا..

- فمن أنت؟

- أما زلت لا تعلم..أنا أنتظر.

- إذا كنت تحب فماذا تنتظر؟

- كل لحظة حب هى انتظار.

- فهل للحب أول.. وهل له آخر؟

- أهذا ما تعنى بالسؤال؟

- نعم..

- اعلم يا حاسب أن الحب رؤية والرؤية لا تقاس.

- فماذا تكون؟

- هى حال تقع..

- فإذا وقعت؟

- أصبحت مقامًا تكون فيه.

- فماذا يجدى الانتظار؟

- تمكين للمقام فلا يحول.

- وتظل الرؤية قائمة؟

- ما دام الانتظار قائمًا

- فهل تستطيع أن تحكى لى الرؤية؟

- كل ما أحكيه هو غير ما وقع.

- كيف إذن أعلمه؟

- لقد بدأت أحكى ما جرى لى لكنك أوقفتنى.

- أردت أن أعلم.

- ماذا تريد أن تعلم؟

- أول الحب وآخره.

- قلت لك إننى أنتظر.

- كيف إذن أعيده؟

- إنه لا يعاد لأنه قائم.

- فماذا إذن كان بعد الرؤية..؟

- رؤية.

- وبعد الرؤية.

- انتظار للرؤية.

- وبعد الانتظار؟

- انتظار..

وتأدبت روحى فصمتُ ورحت أبحث عن عيون الملكة لأرى ما لا يستطيع أن يحكيه جانشاه.

قالت لى الملكة اعلم يا حاسب أن الشيخ نصراً قال للطيور:

«إن عندى ولداً صغيراً جاءت به المقادير من بلاد بعيدة إلى هذه الأرض وأريد منكم أن تحملوه وتوصلوه إلى بلاده. فقالوا له سمعًا وطاعة ولم يزل الشيخ يفتش عن جانشاه حتى وجد المقصورة التى نهاه عن فتحها مفتوحة، فدخل فوجده مغشيًا عليه فأتاه بشىء من المياه العطرية ورشه على وجهه فأفاق من غشيته..»

- يا ولدى أما قلت لك لا تفتح هذه المقصورة ولا تدخلها لكن عرفنى ما جرى لك.

فلما حكى جانشاه للشيخ نصر ما لم يستطع، أو رفض أن يحكيه لى قال له:

- يا ولدى إن هذه البنات من بنات الجان وفى كل سنة يأتين إلى هذا المكان فيلعبن وينشرحن إلى وقت العصر ثم يذهبن إلى بلادهن.

- وأين بلادهن؟

- لا أدرى أين بلادهن، لكن حيث تولعت بإحداهن فاقعد عندى إلى مثل هذا اليوم لأنهن يأتين فى السنة القادمة فى مثل هذا اليوم..

وهكذا بدأ جانشاه الانتظار الذى أصبح هو كل ما فيه ونسى هم بلاده لتفكيره فى بلادهن. إنه يذكر كل لحظة من تلك الليلة البيضاء التى أمضاها معهن وسمعها تتحدث، لكن حديثها كان دائمًا مع أخواتها وليس معه وكانت تجلس أمامه حرة بكل مفاتنها كأنما لا يثقلها وجوده ولا عينه ولم يعرف اسمها منها، لكن من نداء أخواتها عليها.وعلى الرغم من أنه ليلتها لم يتوقف عن الرغبة فى السؤال إلا أنه لم يجرؤ ولم يتناثر فى حديثهن ما يمكن أن يجعله يعرف. كان يتصور ويتخيل أين تعيش. ويسأل نفسه ولا يستطيع أن يعرف من عرفت من الرجال وماذا تحب وهل تحب أو تعرف أن تحب. ومع أنه لم تكن هناك إجابات على كل هذه الأسئلة فقد كان مكتفيًا قانعًا بأن يسمعها تتحدث وتغنى وتأكل وتشرب وتقوم أمامه هكذا حرة.. ساقاها الجميلتان مجدولتان مفتوحتان وهى جالسة أو واقفة وذراعاها الطويلتان على جانبيها تحركهما فكأنها ستطير، وشعرها المنسدل على عنقها يهتز حول وجهها وكأنه يقدم له وجهها وعيونها التى تتجمع فيها أسئلته فلا تزداد إلا جمالاً وغموضًا لا يجرؤ على سؤاله كما يفعل الناس بالعيون.

وتقول لى يا جانشاه بعد هذا كله أن ليس للحب أول. إنك طبعًا لا تعرف إذا كنت قد أحببت فى هذه الليلة ومتى حدث هذا فى أول الليلة أم فى آخرها أم فى الساعات بينهما لكنك ولا شك قد رأيت وما رأيت هو الذى أحببت دون أن يكون له «متى». فأنت لا تعرف متى رأيت أو كيف.. لكنك تعرف تمامًا ما رأيت.. فلم تغب شمسة عن عيونك طول السنة التى اخترت أن تنتظرها دون أن تفكر أن تعود إلى أهلك أو تنهى حكايتك.

وبدا الحب من أوله يتطلب الحيلة وبعض مهارات القنص التى تعرفها وكأنك تتابع الغزالة من جديد. بل لقد ذكرت الغزالة أكثر من مرة خلال هذه السنة وامتلأ داخلك بفراغ موحش وشوق موجع للقلب وأنت تتذكر أنك أكلت من لحمها وأن هذا اللحم قد أصبح جزءاً منك لا ينفصل عنك.

- اعلم يا حاسب أن الشيخ نصراً قال لجانشاه:

«إذا قربت الأيام التى يأتين فيها فكن فى البستان تحت شجرة حين ينزلن البحيرة ويسبحن فيها ويلعبن ويبعدن عن ثيابهن، فخذ ثياب التى تريدها منهن فإذا نظرنك يطلعن على البر ليلبسن ثيابهن وتقول لك التى أخذت ثيابها بعذوبة كلام وحسن ابتسام أعطنى ثيابى يا أخى حتى ألبسها وأستتر بها، ومتى قبلت كلامها وأعطيتها ثيابها فإنك لا تبلغ مرادك منها أبداً بل تلبس ثيابها وتروح إلى أهلها ولا تنظرها بعد ذلك أبداً. فإذا ظفرت بثيابها فاحفظها وحطها تحت إبطك ولا تعطيها إياها..»

فلماذا تخفى يا جانشاه أنك أردتها كما تريدها الآن وأن الرؤية قد قادتك للإرادة حتى قنصتها كما قنصت الغزالة.

- هل هذا يا جانشاه يفسد الحب أو ينقص الرؤية وهل يجعل هذا للحب أول؟

وأحسست فى صوت جانشاه قدراً من الغضب وهو يقول لى:

إنك لا تفهم ولا تعلم.. فأنت تقيس وتحسب ما حدث ولا تراه وأنت تعيد الحكاية ولا تستطيع أن تنتظر..

ولملمت نفسى متأدبًا محرجًا من الدرس الذى تلقيته وإن لم أفهمه تمامًا وشعرت بالجوع والشوق لطعام الملكة وأدركت حاجتى إلى قدرتها المطلقة على حكاية الحكاية..

فلما أكلت قالت لى الملكة: اعلم يا حاسب أن جانشاه لما أخذ ثياب البنت التى تعلق قلبه بها رآه البنات «فارتجفت قلوبهن واستترن منه بالماء وأتين إلى قرب البر ثم نظرن إلى وجهه فرأينه كأنه البدر فى ليلة تمامه فقلن له من أنت وكيف أتيت إلى هذا المكان..»

ورأيت على شفتى جانشاه ابتسامة وضيئة رغم وجهه الباكى وكأنما يتذكر المنظر وأنا أراه، وأدركت أن هذا نصيبى من الرؤية فمددت بصرى أمسك بتفاصيل أجسامهن وهن يتسترن بالماء ويتحرك قوامهن العارى داخل سمك الماء، وكأنهن سبائك الفضة. كانت الأختان بيضاوين فى بدنهما نقاوة وصلابة المعدن. أما السيدة شمسة فكانت عجيبة اللون وكأنها فى لون الغزالة التى قنصها جانشاه. كان لونها فيه حمرة وسمرة وبريق من النعومة والتوتر المشدود وكأن النور يشع منها منكسراً فى الماء ويتجمع حولها ويفردها وإن لم تنفرد أو تبتعد.. وإذا كان هذا نصيبى من الرؤية فأنا لم أر فى الدنيا جمالاً مثل جمالها.

وقال جانشاه لهن: تعالوا عندى أحكى لكم حكايتى وأخبركم بما جرى..

وكدت أقول لجانشاه انظر كيف تقدر على الحكاية. لكنى بدأت أتعلم قدراً من الانتظار أمسك به لسانى حرصًا على ما سنح لى من رؤية وأغمضت عينى تأدبا وحرصًا وأنا أسمع حوارًا عجيبًا استمر واتصل وكأنه حركات قنص وتهرب وإمساك وتملص تتأجج معها فى الفؤاد نيران متوهجة من الحب والانتظار. سمعت صوت السيدة شمسة، وكأنما أسمعه لأول مرة، عسليًا أشبه بصوت مليكتى يصلك فلا تحس أنه يصلك بل يشدك لتغيب فيه ويَسْلبك القدرة على الانتظار فتود أن تستزيده وهو محسوب بمقدار...

– يا سيدى، وقرة عينى، وثمرة فؤادى، أعطنى ثيابى حتى ألبسها وأستتر بها وأطلع عندك.. وشهق جانشاه شهقة وكأنه سيموت وقال وكأنه يتشهد ليسبق الموت:

– يا أجمل ما فى الدنيا، ياسيدة الملاح، لا يمكن أن أعطيك ثيابك وأقتل نفسى من الغرام.

وجاءنى صوت السيدة شمسة من جديد عسليًا تتلاحق فيه الكلمات وكأنها قطرات العسل:

- إن كنت لا تعطينى ثيابى فتأخر عنا قليلاً حتى تطلع أختاى إلى البر ويلبسن ثيابهن وتعطيانى شيئًا أستتر به..

وعلى حين اتجه جانشاه إلى القصر وقلبه يرتجف من شدة العشق وقلبى يكاد يفضحنى صوته المتلاحق والسيدة شمسة تخرج بنورها من الماء لتضع عليها ثوبًا سابغًا أبيض لا يمكنها من الطيران له أكمام طويلة وفيه خيوط رفيعة من الفضة تلتمع مع نورها. وتمشت وهى «كالبدر الطالع والغزال الرابع حتى وصلت إلى جانشاه فرأته جالسا فوق التخت فسلمت عليه وجلست قريبًا منه وقالت:

- يا مليح الوجه أنت الذى قتلتنى وقتلت نفسك، أخبرنى بما جرى لك حتى تنظر ما خبرك..»

واقتربت مرة أخرى من جانشاه أريد أن أسمعه يحكى خبره وكدت من جديد أسأله ماذا قلت لها، لكننى خفت أن يسبنى من جديد أو أن يتهم عقلى وفهمى وتطلعت إلى مليكتى محتميا مستنجداً فسبقتنى قائلة:

- «اعلم يا حاسب أن السيدة شمسة لما علمت أنه مغرم بحبها قامت على قدميها وأخذته من يده وأجلسته بجانبها ومسحت دموعه بكمها وقالت له:

- يا مليح الوجه دع عنك هذا البكاء.. وإذا كنت مغرمًا بى فأعطنى ثيابى ألبسها وأروح أنا وأخواتى إلى أهلى وأعلمهم بما جرى لك فى محبتى ثم أرجع إليك فى بلادك..»

وخشيت على جانشاه وقد عرفته يسمع الحيلة ولا يعرفها بل يمضى فيها طائعًا مختاراً. لكن الحب - فيما يبدو - قد جعله أكثر حرصًا وجعله البكاء أكثر قدرة على الانتظار والتروى. إن سطوع الرؤية وجمال شمسة قد غيب عن فكره - كما غيب عنى - هم الأهل والبلد فلم يعد الرواح إلى بلده هو ما يتطلع إليه ولم تعد هناك حيلة تصرفه

عـما يريد. فـما أسـعدك يا جـانشـاه رغم بكائك الذى يبل ثيـابك بإرادتك لأجمل مـا فى الدنيا..

- أيحل لك من الله أن تقتلينى ظلمًا..؟

- بأى سبب أقتلك ظلمًا؟

- إنك متى لبست ثيابك ورحت من عندى فإنى أموت من وقتى..

وقتك يا جانشاه هو شمسة وانتظارك إياه هو وقتك الذى تعيش فيه..

ولم أكن أتوقع من قلة خـبرتى بالنسـاء كيف تفكـر شمسـة أو أخواتهـا لكنها ضـحكت وضحكت أخـواتها ثم قـالت سنرى واستمـروا يضحكون ويلعـبون أمام جـانشاه فى حظ وسـرور وكأنما لا نهـاية للرؤية حتـى أقبل عليـهم الشيخ نـصر من مـلاقاة الطيـور فنهض الجميع قائمين على أقدامهم وسلموا عليه وقبلوا يديه..

وانشغلت عما قـاله الشيخ نصر أو قالوه له بالتفكيـر فى كيف تفكر النساء. وهل يُفَكرن جميعا مثل شمسة أم أنها وحدهـا حرة تضع لنفسها قيودها وأنها تعطى وتمنع وفق حساب خاص بها لا أستطيع أنا العاجز المحروم من الحب أن أعرفه أو أحسبه.

لكن مليكتى تقول لى يا حاسب إن الشـيخ نصر أخبر السيدة شمسـة بصنعة جانشاه وأنه «من أبناء الملوك وأبوه يحكم على بلاد كابل وقد حوى ملكًا عظيمًا فقالت له سمعًا وطاعة ثم أنها قبلت يده ووقفت قدامه فقال لها:

إن كنت صادقة فـى قولك فاحلفى أنك لا تخونيـه أبدًا ما دمت على قيد الحيـاة فحلفت يمينًا عظيمًا أنها لا تخونه أبدًا ولا بد أن تتـزوج به وبعد أن حلفت قالت اعلم يا شيخ نصر أنى لا أفارقه أبدا..»

فمـاذا تريد يا جانشاه بعـد ذلك وماذا تنتظر. لقد ظـننت أن حكايتك، حكيتهـا أم صمت

عنها، قد انتهت عند هذا الوعد من السيدة شمسة. لكننى سمعتها وحدى دون أن يخبرنى أحد، ولا حتى مليكتى، تتفق سراً مع أختيها على أن تبقى ثلاثة أشهر فى ضيافة الشيخ نصر. ولم أعرف ولم أجرؤ على أن أسأل عن الشهور الثلاثة وماذا جرى فيها أو لِمَ كانت ثلاثة أشهر بالتحديد فقد خشيت أن يتهمنى أحد بسوء الأدب أو سوء الحساب.

فلما وفقنى الله أن أكتم رغبتى فى المعرفة قالت لى مليكتى:

اعلم يا حاسب أن «جانشاه هو والسيدة شمسة قعدا عند الشيخ نصر ثلاثة أشهر فى أكل وشرب وحظ عظيم وبعد الثلاثة أشهر قالت السيدة شمسة لجانشاه:

- إنى أريد أن أروح إلى بلادك وتتزوج بى وتقيم فيها - فقال لهما الشيخ نصر:

- اذهب إلى بلادك وتوصَّ بها.»

وسمعت جانشاه يقول سمعًا وطاعة وقد تهللت أساريره بالفرح فخطر لى أنه قد يقع فى حيلة جديدة. لكنى رأيتهما فى عينى مليكتى والسيدة شمسة تطلب من الشيخ نصر جادة حازمة أن يأمره أن يعطيها ثوبها لتلبسه فأخذته ولبسته وقالت لجانشاه:

- اركب فوق ظهرى وأغمض عينيك..

وفتحت عيونى محدقًا وأنا أراه يفعل ما أمرته به «ولما أرادت الطيران قال لها الشيخ نصر قفى حتى أصف لكم بلاد كابل خوفًا عليكما أن تغلطا فى الطريق فوقفت حتى وصف لها البلاد وأوصاهما ثم ودعهما وودعت السيدة شمسة أختيها وقالت لهما روحا إلى بلادنا مثل هبوب الريح والبرق اللامع...»

ووجدتنى أنا أيضًا مثل الجان أسترق السمع على هذا المركب العجيب فلم أسمع لهما كلامًا إلا حفيف الجناحين الكبيرين وقد امتلآ بالهواء وبضوء الضحى. ورأيتها ترتفع فى السماء وكلما ارتفعت امتد جسمها واستطال وجسد جانشاه يتحول من القعود على ظهرها ليمتد عليه فتطول يداه نهديها ويحويهما كأنما يرفعهما لها، وراح جسده يهتز

ويختلج مثل رفة الجناحين وكأن جسديهما قد صارا جسداً واحداً.

وظلت روحى تتبعهما من الضحى إلى العصر دون أن أسمع منهما إلا آهات متقطعة لا أعرف إن كانت من بكاء جانشاه أم من عزم السيدة شمسة فى الطيران والإصعاد فى الفضاء.. حتى إذا مالت الشمس فى الغرب سمعت السيدة شمسة تقول فى همس يزيده حفيف الأجنحة خفوتًا...

– بللتنى دموع بدنك. وفى هذا الوادى نهر وأثمار «وقصدى أن ننزل لنتفرج ونبات فيه هذه الليلة».

وأغمضت عينى وأنا أراه يقبلها بين عينيها وهما يسبحان فى النهر ويأكلان وينامان تحت شجرة حتى توقظهما أشعة الشمس ليطيرا من جديد وأنا صاح لا أنام.

ووصل جانشاه والسيدة شمسة إلى بلاد كابل ورأيت مليكتى تستعد أن تحكى لى كيف استقبلهما أبوه وكيف كانت فرحته وهو يقول للسيدة شمسة الحمد لله الذى وفقك حتى جمعت بينى وبين ولدى إن هذا لهو الفوز العظيم، لكنى أريد منك أن تتمنى علىّ ما تشتهينه فقالت له شمسة تمنيت عليك عمارة قصر وسط بستان والماء يجرى تحته...

ولم أترك مليكتى تكمل لى فقد كانت روحى مضطربة لا أستطيع أن أجمعها ولا أستطيع أن أدرك معانى ما تقول وقلت لها:

– يا مليكتى أنا أعلم ماذا يفعل الآباء عندما يلتقون بأبنائهم بعد هذا الغياب الطويل، لكنى لا أعلم كيف تفكر شمسة وماذا تنوى أن تفعل بعد هذا الطيران الطويل..

قالت لى مليكتى اعلم يا حاسب أن جانشاه «حين علم بصدور الأمر ببناء القصر أمر الصناع أن يأتوا بعمود من الرخام الأبيض وأن ينقروه ويجوفوه ويجعلوه على صورة صندوق ففعلوا ما أمرهم، ثم أن جانشاه أخذ ثوب السيدة شمسة التى تطير به وحطه فى

ذلك العمود وجعله فى أساس القصر وأمر البنائين أن يبنوا فوقه القناطر التى عليها القصر ولما تم فرشوه وصار قصراً عظيمًا. وفى تلك المدة عمل الملك طيغموس عرس جانشاه وصار فرحًا عظيمًا وزفوا السيدة شمسة إلى ذلك القصر وذهب كل منهم إلى حال سبيله..

وأدركت أنا يا جانشاه قبل أن تكمل مليكتى الحكاية، أن الحيلة قد اكتملت حولك وأن ضرورات الانتظار قد أطبقت عليك مرة أخرى بعد أن تمكنت منك الصفقة ولم يعد لك منها فكاك.

تسللت إلى القصر وحيداً بالليل ورأيت السيدة شمسة وقد انتصب جسدها ومشت داخل القصر مليكة مسيطرة حتى شمت رائحة ثوبها الريش ورأيتها تصبر حتى انتصف الليل واستغرق جانشاه فى النوم «ثم قامت وتوجهت إلى العمود الذى عليه القناطر وحفرت بجانبه حتى وصلت إلى العمود الذى فيه الثوب وأخرجته ولبسته وطارت وجلست على أعلى القصر».

وسمعتها من موضعها وثوبها تتحرك أجنحته وهى واقفة، تصيح على الخدم والأعوان أن يوقظوا لها جانشاه لتودعه فلما قدم عليها مسرعًا والنوم ما زال يخالطه ويصيح بها كيف فعلت هذه الفعال.

ومن أعلى القصر نزل صوتها العسلى يقول له:

- يا حبيبى والله إنى أحبك وفرحت فرحًا شديدًا حيث أوصلتك إلى بلادك ورأيت أهلك فإن كنت تحبنى كما أحبك فتعال عندى إلى قلعة جوهر تكنى...

يا حبيبى يا جانشاه لقد رأيتها تطير من ساعتها وتمضى إلى أهلها فلِمَ نمت يا جانشاه وكيف أضعت لحظة من لحظات الانتظار؟

(١١)
لا تحسبن أحداً سعيداً حتى يموت

لقد تكسرت قواعد الحكاية أم أنها الرؤية التى تنكسر. أصبحت الإعادة أصعب ما يكون لأن الصفة التى أصبح فيها جانشاه صارت كما يقول عصية على الحكى والإعادة. هل هذا معنى الأزمة؟ فعندما تتأزم الأمور بمعنى أنها تصبح متوترة متشابكة لا تستطيع أن تتخلص خيوطها بعضها من البعض الآخر ولا تستطيع أن تمسك بطرف من أطرافها فتشدها لتنحلّ، عندما تتأزم الأمور على هذا النحو تحتاج إلى لون جديد من الصبر والانتظار يستطيع أن يواجه الشك وفقدان الأمل. ولقد ساورنى الشك فى كل شىء.. والشك شىء لم أعرفه من قبل طول حكايتى أو طول جهدى فى الإعادة.. وليس من السهل أن أحدد ما هو هذا الشك، فليس الشك الذى انتشر مع «فعال» السيدة شمسة هو عكس الإيمان أو التصديق. إنه شىء أصعب من ذلك. فأنا ما زلت ولله الحمد مؤمنًا بالمكتوب وبقضاء الله وأضرع إلى الله ألا يحرمنى هذا. ولست شاكًا بمعنى أننى لا أصدق شيئا مما أعدت حكايته. فأنا فى الحقيقة أصدق كل جزئياته وأعتقد أنه واقع قد جرى علىّ وأننى حكيته بكل ما أستطيع من صدق ولكننى مع ذلك أشك فى كل شىء. ففيم أشك إذن وما معنى هذا الشك الذى يملأ نفسى ويكاد يعطلها عن أن تسمع أو أن ترى وأن تحكى أو تعيد..

لقد انفتحت عيونى غير مصدق وأنا أرى السيدة شمسة تحرك أجنحتها من موقعها فوق أعلى القصر وتنطلق دون سبب أو تفسير فى أجواز الفضاء مبتعدة عن هذا المسكين الواقف على الأرض الصاحى من نوم عميق، لا يدرى أحد ماذا كان يحلم أو يفكر خلاله. لقد أصبح هو الآخر، مثلها، بعيداً عنى بعد أن كنته أوقاتًا طويلة وبعد أن أصبح حبيب روحى وقرينها. فلِمَ فعلت السيدة شمسة هذه الفعال؟ لِمَ طارت وتركته وهى تقول له يا حبيبى، وما معنى أن تضعه فى اختبار جديد، وأن تطلب منه المجىء إلى قلعة جوهر

تكنى إذا كان يحبها، وكأنه من الممكن أو من المشكوك فيه أن يحبها. لقد أرغمه حبها على أن يكون ما هو منذ رآها فكيف تقول له إذا كنت أنت أنت تعال.. ويأتى إلى أين، وأين هذه القلعة التى لم يسمع أحد باسمها من قبل وهل هى قلعة موجودة فعلاً.. جوهر تكنى..

ومن الذى يفسر هذا الاسم، أصحاب التقاويم والجغرافيا وعروض الأرض والسماء أم أصحاب اللغة وعلماء الأسماء والحروف.. وهل هى كناية أم واقع؟.. كيف تطير السيدة شمسة بعد الزواج وبعد أن زفوها إلى القصر.. هل حدث ما لا يحكى ليلة الزفاف. هل تكلم جانشاه بما لا ينبغى عليه أن يقوله أو هل حكت له هى ما كان من الأوجب ألا تحكيه.. وهل كانت هناك ليلة زفاف.. وكيف نام جانشاه وحده وتركها تقوم لتتمشى فى القصر فى منتصف الليل وحدها.. هل قامت من فراشه وتركته نائمًا أم هى لم تدخل الفراش وسقط هو نائمًا.. هل هى تحبه حقًا أم أنها قد رضخت واستسلمت للقنص والصيد والمكتوب.. وهل كان جانشاه يحبها حقًا وهو ينام، هل حبه الذى قام من ساعة الرؤية ظل كما هو، أم حدث فيه التصدع أو الانهيار أو التهديد بهما ما جعله ينام ويغفل فيجهل ما يجرى فى نفسها وفى روحها وما تعتزمه أو اعتزمته من وراء ظهره أو من وراء نومه. وهل يجوز للمحب أن ينام؟ إن فعال السيدة شمسة لا تبعث على التساؤل بل على الشك وفعال جانشاه لا تثير الرغبة فى المعرفة قدر ما تثير من الحكم عليه والاتهام له.. يا ربى.. ما كل هذا الشك الذى انطلق علىّ من كل جانب وكأنه طيور جارحة تأكل كبدى وأنا معلق هكذا لا أستطيع أن أتقدم أو أن ألتفت يمينًا أو شمالاً وسط الحكاية والواقع والمنظر. إننى لا أستطيع أن ألتفت إلى أحد بل لا أحس أن أحدًا، على الإطلاق، يستطيع أن يرد هذه الطيور الجارحة عن كبدى ولا حتى مليكتى العارفة. إننى أخشى لو التفتُّ إليها

الآن، لو سألتهـا، فلن تفعل إلا أن تزيد سحابات الـطيور كثافة وتجـعل مناقيرها ومخـالبها أكثر حدة.. فهل تسـتطيع مليكتى أن تقدم لى سببًا وتفسيراً لكل ما حـدث من فعال، فعال السيدة شمسة أو فعال أخى وحبيـبى جانشاه.. لو أنها تستطيع لفَعلتْ دون أن أسألها، فهى تـعرف ـمـا يـجرى فى روحى قـبل أن يـقع عندما يقع وهى تقـصد كل ما يـقع وما تحكى ولا تقول لى أبدًا إلا ما هو صادق وحقيقى.. فإذا كانت لم تقل لى، فأنا لا أشعر منها رغبة فى الشرح والتفسير ولا حتى فى التوجيه والتقريع لى ولا أرى فى عينيها ولو ظل ميل نحو الحنان علىّ أو الإشفاق بى..

يا سـيدتى شـمسـة هل معنى أنك سيدة أنك حرة فى فعالك وأن فـعالك تعلو عن الفهم أم هل عدتِ إلى ماض لا نعرفه ونحن جميعًا لا نعرف عنك شيئًا قبل الحب ومن المستحيل أن نعرف. هل مـا فعلت هو من خـصائص الجان أم من خـصال النساء.. وهل الخـصائص والخصال هى من المكتوب أم من مسئوليـة الإنسان؟ أم أن هذا كله هو السر المعقد المتراكب والمتشابك للحب الذى لا يقدر على احتماله إلا الإنسان ولو كان حبًا للجان..

فأين كمال واكتمال الرؤية وأين صفاء وانتظار الحب.. وأين الحق أو المعنى الذى يرد كل ما سقط علىّ من شك وحيرة وتردد.. وإلى أين أمـضى الآن بنفسى وسط عالم الطيور التى أطلقتها السيدة شمسة بفعالها وجانشاه بصفته وعدم قدرته على الحكاية... وهل هذا العالم من التحليق والانطلاق بلا قيود هو ما تريدنى مليكتى العارفة أن أدخله حتى أعجز عن كل حساب، وتقصر روحى المندفعة إلى المعرفـة، عن كل معرفة.. هل هذا ما تقصدين وتريدين يا مليكتى..

ولم يجـئنى أى جواب ولم أسـمع أى رد إلا هذا الحفيـف المستمـر المتزايد من الأجـنحة وارتطام الطيور الغـامضة الشـكل والهدف ببدنى وروحى تنتـزع منها ما تريـد وتقطع منها قطعًا صـغيرة وكبـيرة تأكلها أو تتسـاقط من مناقيرها، وكأننى قـد أصبحت غزالة جـانشاه

المذبوحة، أو كـأننى ارتكبت جرمًـا أعاقب عليـه دون أن أعلم أو أن يصدر به أحـد حكمًا ليجرى علىّ..

مـاذا فعلت يا حـاسب كريم الدين ليـجرى علـيك كل هذا وما هى هذه المسـئوليـة التى حملتـها لنفسك فـعجزت، نعم عـجزت، عن حملهـا... وماذا يجدى الصـدق وماذا تنفع المعرفـة أمام سر الحب الذى يوقف الحكاية والحـياة أو يحركـهما دون سـبب أو إجابة على سؤال؟..

كـومت نفسى عـلى الأرض جالسًـا وقـد رفعت ركـبـتىّ حتى كـادتا تلمـسان صـدرى ووضعت ذراعى على رأسى وعينى أحمى نفسى وأخفيها من الطيور ورحت أغمض عينىّ وأفتـحهـما وأشد بـذراعى على رأسى وعيـونى وأدفع بركبتـى ما استطعت عـلى صدرى وكـأننى جنين مبـتسـر أحاول أن أعـرف أين أنا على وجـه التحـديد ومن أين وإلى أين أنا ذاهب..

وعندما خطرت لى أسئلة الكينونة الأولى بدأت أجنحة الطيـور تتباعد وتخف من حولى وأحسستها وهى تمضى فرادى وجماعات تاركـة لى حفيف أجنحتها يخفت كلما تباعدت أو قلت أعـدادها، حتى صـرت وحيدًا تمامًـا فى ضوء شـمس غاربة لا تأفل، وفـى صمت أرض غريبة عـرفتها أول ما عـرفت جانشاه ورأيته واقفًـا غير جالس بين القـبرين وقد أدار ظهره لى ومـالت رقبته بين كـتفيه وكأنـه ينظر بعينيه اللتين لا أراهمـا إلى البعد البعـيد فى السـماء والجـو الحـر المفتـوح حـيث تطيـر الطيور.. وعـرفت عند أقـدامـه، وهو ينظر إلىّ ويرقبنى، بلـوقيا وهو جـالس بزربونه وقد خلع لثـامه وكأنه ينتظرنى أو ينـتظر منى أن أتجه إليه...

- بلوقيا، أين نحن الآن؟

- عند أقدام جانشاه ننتظر.

- وماذا ننتظر؟

- المكتوب..

- فهل عرفت المكتوب؟

- لا يعلم المكتوب إلا الله..

- فماذا نفعل نحن؟

- نرضى بالمكتوب..

- فهل إذا رضينا نعرفه؟

- إذا رضينا صرنا سعداء

وكأنما كان جانشاه يسمع ما يقوله بلوقيا فقد أدار وجهه إلينا وهو ما زال واقفًا وقال كأنما ينذرنا:

- لا تحسبن أحداً سعيداً حتى يموت.

فقمت واقفًا وكأنما أريد أن أنتهز الفرصة وسألت جانشاه:

- هل تكمل لنا الحكاية؟

فأجابني بشيء قليل من الزراية وكثير من الإشفاق..

- اذهب عني فأنا أنتظر..

وأدار ظهره من جديد ثم جلس مقعيًا على الأرض بين القبرين وتركني وجهًا لوجه مع بلوقيا فسألته:

- هل حكى لك جانشاه الحكاية؟

- إن الحكاية مكتوبة..

- فهل تستطيع أن تعيدها عليّ؟

- كانت الإعادة حقك ورغبتك.

- كنت أراها مسئوليتي.

- فماذا ترى الآن؟

- كنت مغروراً وأنا أعترف بالذنب وأندم عليه..

- أتعرف الذنب ولا تعرف القراءة للمكتوب؟

- وكيف أقرأ المكتوب؟

- إذا رضيت قرأته..

وخشيت أن أسأله كيف أرضى بالمكتوب فيصمت أو يسبني أو تهاجمني طيور الشك من جديد فقلت له متحايلاً متلطفًا..

- أنت أخي يا بلوقيا فإذا كانت الحكاية قد بلغتك فأخبرني بها لأعلم ذنبي وأتوب عنه..

وكأنما أشفق عليّ قلب بلوقيا وتحنن وأنا أعترف بالذنب وأعلن التوبة.

فقال لي:

- بلغني يا حاسب أن المكتوب على جانشاه كان مازال لم ينقضِ وأن الطريق إلى ما بين القبرين كان ما زال طويلاً وأن سياحته لم تنتهِ.

- فهل تنتهي سياحته.. وهل انتهت سياحتك أنت؟

- إنك يا حاسب تكثر الأسئلة، وأسئلتك تسد عليك الطريق.

- معذرة يا أخي.. أنا حائر بائر لا أعرف أين أتجه..

- أنت يا حاسب لا تحب.

- أنا أحببتك يا بلوقيا وأحب جانشاه، وأحب مليكتي العارفة.. ولا أنكر أنني أحب نفسي..

- وزعت همك يا حاسب ولم تحب.. فلم تقدر على الصنعة ولم تحتمل الصفة.

- أهذا حكمك عليّ يا بلوقيا؟

- الحكم لله.. وعلينا أن نرضى بالمكتوب..

ووجدتني أنفجر في بكاء شديد وأريد أن أنوح كما تنوح النساء وكأن نفسي التي أحبها قد ضربت عليها الذلة والمسكنة والوحدة التي لا يكسرها أي اتصال أو نور..

وسألت نفسي ماذا أحب وهل أحببت فعلاً. هل أحبتني أمي وأحببتها وهل أحببت تلك الزوجة التي تركتها في بلدي وهل تحبني.. وهل أحببت نفسي حقًا.. أم أنا في الحقيقة وحيد خائف مرتعد من كل شيء ومن كل طريق! ما هذا الإرث الذي تركه لي أبي ولماذا تركني هكذا بأوراقه التي لم أفهمها بعد.. وأي شيء أملك أنا الآن..

تصاعد بكائي وارتفع صوت نشيجي فلم أعد أسمع صوت بكاء جانشاه ولا نهنهته التي لا تنتهي ورأيت بلوقيا يقوم واقفًا وينفض التراب عن ملابسه وكأنه ينفضني أنا ويخرج من مخلاته قنينة العشب المغلي ويدهن قدميه العاريتين من جديد وراح ينظر إليّ وإلى جانشاه طويلاً ثم قال بصوت كأنه لا يصدر عنه بل هو قادم من الجو المحيط بنا في الغروب الذي لا ينتهي:

- بلوقيا.. إلى القبر العتيد سائر.. كن سعيداً يا جانشاه بما تنتظر.. وأنت يا حاسب كن سعيداً بالمكتوب..

وقمت لأودعه وقد عرفت فيه عزمًا وتصميمًا لا تردد فيه، لكنه كان قد خطا خطواته السريعة المتلاحقة متجهًا إلى البحر وجانشاه يقول وهو يبكي:

لا تحسبن أحداً سعيداً حتى يموت.

وانطلقت روحى وراء بلوقيا تريد أن تمسك به فإذا به يسير على الماء فى البحر ليصل بعد خطوات إلى جزيرة لم تكن هناك وإذا به فى الجزيرة وكأنها الجنة يخاطب طيراً من اللؤلؤ والزمرد الأخضر وهو يسبح الله تعالى ويصلى على محمدﷺ . وسأله بلوقيا: من أنت وما شأنك. قال له أنا من طيور الجنة وخرجت وراء آدم عندما أخرجه الله منها، ورأيت ورقاته الأربع التى كان يستتر بها تقع على الأرض فيأكل واحدة منها الدود الذى يصنع الحرير وتأكل الغزلان الثانية فتصنع المسك والثالثة أكلها النحل ليصنع منها العسل أما الرابعة فوقعت فى الهند ليخرج منها البهار. وقد مَنَّ الله علىّ بعد أن أوصلت الورقات الأربع إلى أماكنها المكتوبة بهذه البقعة التى مكثت فيها أُسبح الله وأصلى على نبيه وفى كل جمعة تجتمع هنا فى هذا المكان الأولياء والأقطاب الذين فى الدنيا ويزورونه ويأكلون من سماط من ضيافة الله يرتفع إلى السماء إذا شبعوا ولا ينقص منه شىء..

والتفت بلوقيا إلى يمينه فإذا بجانبه الخضر عليه السلام فسلم عليه وقبل يده وقال له بصوت لم أعرفه لبلوقيا من قبل:

- أنقذنى من هذه الكربة وأجرك على الله فقد أشرفت على الهلاك وما بقيت لى حيلة..

وتتساقط كلمات من فم الخضر لا أسمع منها إلا قوله: ادعُ الله تعالى أن يأذن لى أن أوصلك إلى مصر..

وتوقفت دموعى ونسيتُ كل شىء وأنا أسمع اسم مصر وبلوقيا يبكى ويتضرع إلى الله. وإذا بالخضر عليه السلام يقول لبلوقيا ارفع رأسك فقد تقبل الله دعاءك وألهمنى أن أوصلك. تعلق بى واقبض علىّ بيديك واغمض عينيك..

وأغمـضت عينىّ ومددت يدى أريد أن أمسك بذيـل أو تلابيب الخضر، لكنه فى غمـضة عين كـان يقف أمام بيت بلوقـيا فى مصـر وبلوقيا يلتـفتُ ليودعه فـلم يجده ولم أر أنا إلا بلوقيا على صدر أمه يبكى تارة ويضحك أخرى حتى انغلق باب الدار ولم أعد أرى شيئًا.

وسمعتُ، وكأنما يـنحدر إلىّ من أعماق الماضى صوت مليكتى العارفـة العسلى تقول لى فى هدوء:

- كفى بكاء يا حاسب فماذا يجديك البكاء لقد عاد بلوقيا عندما أذن له الله ليعود فعليك مع جانشاه أن تنتظر.

فقلت لها وأنا أواصل البكاء:

- إن بلوقيا سعيد الآن مع أهله.

فردت علىّ وكأنها تستعيد صمتها الطويل.

- لا تحسبن أحداً سعيداً حتى يموت.

وصمتت مليكتى من جديد وتركتنى وحيداً لأنام.

(١٢)
الطريق الضائع والوكر القديم

صحوت من النوم مقرح العيون من البكاء مفزعًا من رحيل بلوقيا ومشقلاً بحلم غريب واضح المعالم والمشاعر وكأنه جرى لى فى اليقظة. وعلى الرغم من أننى كنت ممسكًا فى ذاكرتى بالحلم حتى لا أنساه ولا أضيعه فقد كان أول ما جاء إلى ذهنى وسمعى وأنا أفتح عيونى صوت بلوقيا الذى سمعته آخر مرة وهو يقول ضارعًا للخضر عليه السلام أنقذنى من هذه الكربة فقد أشرفت على الهلاك وما بقيت لى حيلة. وسألت نفسى هل بقيت لك أنت يا حاسب حيلة؟

وهفت روحى إلى مليكتى أريد أن أضرع لها كما تضرع بلوقيا للخضر وأن أتوسل إليها أن تنقذنى من هذه الكربة وأن أسألها سر غيبتها وصمتها وسبب العقاب الذى نزل بى فصرت هكذا منبوذا مطرودا أحلم بما لا أعرف له تفسيرا أو معنى..

ونظرت إلى مكانها المعهود الذى تعودت أن أراها فيه منذ نزولى عندها لكننى فزعت فزعا عظيمًا وأنا لا أراها فى موضعها ولا أبصر وجهها المنير المضىء ولا عيونها المسدلة الأهداب.. وكدت أصيح من الفزع لا أعرف كيف أصرخ عليها وكيف أناديها ورحت أتطلع حولى أظننى أنا أيضًا قد انتقلت من عندها أو عدت إلى بلادى، لكنى لم ألبث أن رأيتها قادمة علىَّ تنير وحدتى وتخفف فزعتى بابتسامتها العارفة المحيطة بكل شىء محمولة على طبقها الذهبى وحولها أعوانها وحشمها من الحيات الكريمات حتى إذا نزلن إلى حيث كانت لى دائمًا قالت مشيرة لى أن أجلس:

- ألن تتعلم الانتظار أبدًا يا حاسب..

وأمرت جميع من حولها بالانصراف إلا واحدة قالت لها أحضرى ما أحضرتُ لحاسب من هدايا.. وغابت الوصيفة لحظة ثم عادت وعلى رأسها الدقيق أشبه ما يكون بوسادة

بيضاء ناصعة البياض وقد رتبت عليها وكأنها منضدة صغيرة أو سماط مخصوص مجموعة من الأشياء لم أعرفها أو أميزها حتى سمتها لى الملكة وهى تأمر أن توضع أمامى وأنا جالس:

- هذا ثوب من الحرير بدلاً من ثوبك الذى اتسخ وبللته دموع عينيك وبدنك، وهذه قطعة من المسك لا مثيل لحجمها تعلقها حول رقبتك، وتحت هذا الغطاء كوب صغير من العسل الصافى عليك أن تشربه الآن ففيه شفاء لك، وفى هذه الصرة الصغيرة أنواع من بهار الهند ينعش روحك ويبعث فيك النشاط والراحة.. أما الوسادة فهى لك أيضًا محشوة بسلخ كرائم الحيات لتجلس عليها وتستريح وأنت معى فتستطيع أن تنتظر.. ولم أنتظر بل أقبلت مندفعا إلى أشيائى التى كأنها جاءت من الجنة وكرعت كوب العسل ولبست ثوبى الجديد بعد أن خلعت أمامها ما كان علىّ من ثياب، ولم أشعر بالخجل وأنا أتعرّى فقد أدارت وجهها الجميل حتى كسوت نفسى وعلقت المسك فى رقبتى ورحت أشم وأذوق أنواع البهار وأنا أنعم جالسًا على وسادتى الناعمة..

وعلى الرغم من أننى قد أصبحت فى حال مغايرة تمامًا للحال التى نمت فيها إلا أننى لم أنسَ حلمى فانفجرت دون تأدب أو تمهيد أقول لها:

- حلمت أننى مطرود معاقب..

فقاطعتنى رفيقة بى:

- ألا تترك حلمك لنفسك..

فقلت لها مصرًا مندفعًا:

- أنا لا أعرف ولا أستطيع أن أحجب عنك شيئًا مما يجرى لى فأنت تعلمين كل ما يقع علىّ وإن أخفيته. لقد حلمت أننى أهب من فراشى الذى كنت أنام فيه فى بيتى فى مصر

مطروداً معاقبًا مكشوف العورة وأن كل ما فى يدى أوراق أبى الخمس أحاول أن أستر بها عورتى لكنها تتساقط من يدى. وها هى أوراق أبى فى جلد الرق الذى وضعتها فيه أريد أن أخيطها من جديد فى ثوبى الجديد الذى أحضرته لى.. إننى لم أطلعك عليها من قبل فهل تقرئينها لى وتفسرين المكتوب؟

– أنا لا أقرأ المكتوب لكنى أرضى به فأعلمه.. رد أوراقك إلى ثوبك واقرأ الورقة الأخيرة فقد كدت تمتلك إرث أبيك..

ولم أفهم ماذا تعنى مليكتى بقولها هذا لكنى خفت وأنا أتأمل وجهها الجميل أن تتساقط الأوراق من يدى وأن يعاودنى حلمى المفزع المخجل فتطلعت محترزاً فى الورقة الأخيرة وأعدت قراءة ما فيها من كلمات أحفظها...:

«... لأن الذى وراء الكينونة هو الحب. وليس الحب طريقًا لكنه سياحة متواصلة وانتظار مستمر للموت لا ينتهى ولا حتى به..»

وامتلأت روحى معرفة بمعانٍ جديدة، كثوبى الحريرى، لكلمات أبى القديمة فأخفيتها بين لحمى وثوبى منتظراً أن أخيطها فيما بعد عندما أعود إلى أهلى. وعرفت فى قرارة نفسى، من مسها ومن عيون الملكة، أن علىَّ أن أنتظر.

– ماذا تنتظر يا حاسب؟

– أن أعلم ما جرى لجانشاه بعد طيران السيدة شمسة من أعلى القصر وسبب قعوده بين القبرين..

– ألم تلقه وتسأله؟

– لقد أبى علىّ الحكاية وضن بلوقيا بما بلغه منها..

– لم يتأبَّ عليك أحد ولم يضن. لقد ملأت روحك طيور الشك فطارت منك الحكاية

واستعصت عليك الإعادة.

- فماذا أفعل وقد عرفت الذنب وأردت التوبة؟

ولم تجبنى مليكتى لكنها سألتنى سؤالاً لم أكن أتوقعه أبداً ولم أكن أعرف أن له إجابةً أو رداً فى روحى:

- هل تحبنى يا حاسب؟..

فاختلطت علىَّ المعانى وتزاحمت فى فمى الكلمات لا أعرف كيف أرتبها أو أسويها وقلت وكأننى مرغم:

- هل أحبك؟!..

فكررت سؤالها مبتسمة:

- هل تحبنى يا حاسب؟

وازدادت حيرتى وفتحت فمى مشدوهًا دون أن أستطيع أن أتكلم وتكاثرت الأسئة فى داخلى لا أستطيع أن أطلقها إلا متقطعة غير مبينة.

- أحبك؟!.. ماذا تعنين؟.. أنت مليكتى العارفة.. ذات القدرة والسلطان.. وذات الجمال وكل الكمال الذى أعرفه.. أنت الماضى والآتى وكل الزمان.. أنت المكان والأين الذى أنا فيه.. أنت المستحيل الذى أنشده دون أن أعرفه.. أنت القيمة التى أسعى لها بكل ما أعرف من صدق وإخلاص.. أنت.. أنت.. أنت المعنى والقصد.. أنت.. أنت.

- كفى يا حاسب. لا تكمل.. إنك لا تحب إلا نفسك..

- أنا لا أعلم ماذا أقول ولا كيف أقوله..

- ادنُ إذن واقترب.. وانظر فى عينى وانتظر..

فلما رفعت عينى إلى عينها شمل روحى الهدوء والصفاء وعاودتنى قدرتى على التلقى

والفهم وأنا أسمعها بصوتها العسلى تقول لى وكأنْ لم يكن بيننا حوار:

- اعلم يا حاسب أن جانشاه «لما سمع من السيدة شمسة ذلك الكلام كاد يموت من الجزع ووقع مغشيًا عليه فمضوا إلى أبيه وأعلموه بذلك فركب أبوه وتوجه إلى القصر ودخل على ولده فرآه مطروحًا على الأرض فبكى بكاءً شديدًا.. ولما أفاق جانشاه وجد أباه عند رأسه فبكى من فراق زوجته..»

وأحسست بحنان دافق على جانشاه الذى أراه دائمًا باكيًا تجرى دموعه وكأنما قد توقف به الزمن، وقلت لنفسى لقد أسأت الظن به وحسبته قد أوقع الرؤية فتكسرت فى روحه. وعرفت فى نفسى أن الذى لا يقدر على حمل الرؤية أو المضى فى طريق الحب هو أنا الذى يسأل ولا ينتظر. وظللت أنظر إلى دموع جانشاه وأبوه يرسل إلى وزرائه الأربعة ليجمعوا كل من فى المدينة من التجار ليسألهم عن قلعة جوهر تكنى فلم يخبرهم عنها أحد وبدأ أبوه يفكر فى أن يحضر له غيرها من النساء.. وفعل.. وجئن.. من كل صنف ومن كل لون. ورأيت أسرابًا من الجوارى يتبدلن على فراش جانشاه وهو باك راقد لا يكاد ينظر إليهن وقد تعطلت كل حواسه فلا يكاد يرى أو يشم أو يستطيع أن يلمس.. ومرض جانشاه لا يكاد يكلم أباه أو أحدًا غيره والرجل مشغول بابنه عن الحكم حتى جاءت الحرب على حدوده وغزاه كفيد ملك الهند بجيوش كبيرة لم يكن مستعدا لها ودخل العدو بلاده يفسق فى الرعية ويذبح الكبار ويأسر الصغار وجانشاه لا يقوم من فراشه حتى كاد أبوه يهزم تمامًا وبدأ يباشر الحرب بنفسه ويرسل الجواسيس إلى أرض أعدائه ويطلب من عدوه أن يبارزه ويجمع من الجيوش والفرسان ما مكنه من كسب معركة من العدو وصارت الحرب بينهما سجالا لا يبدو فيها نصر أو هزيمة.. وانشغل أبو جانشاه تمامًا عنه فلم يره لأكثر من شهر وظل جانشاه وحيدا لا يأذن بالدخول عليه لأحد من الجوارى اللاتى كن فى خدمته فانتابه القلق الشديد على أبيه فى وحدته دون أن تفارقه رجفة البدن التى

عرفها على ظهر السيدة شمسة وهما طائران من عند الشيخ نصر إلى بلاده.

وقال جانشاه «لبعض أتباعه ما خبر أبى حتى أنه لم يأت فأخبروه بما جرى لأبيه..» ولست أدرى كيف يختار جانشاه دائمًا عندما يكون هناك طريقان أمامه وعليه أن يعزم على السلوك في واحد منهما، وكيف يستطيع دائمًا أن يخفى إرادته عمن حوله حتى يصبح وحيدا من جديد فى الطريق الذى اختاره وهل الحيلة هنا هى صيانة للرؤية حتى لا يقوم سواها أم أنها توجه فطرى فى البدن الذى يُحب ليصل إلى من يحب.

قام جانشاه من فراشه يحمل رجفته وقال لأتباعه «آتونى بجوادى حتى أذهب إلى أبى.. وأخذ معه ألف فارس وسار حتى صار الناس يقولون إن جانشاه ذهب إلى أبيه ليقاتل معه..»

وتسلّلت روحى إلى قلب جانشاه وباله وقد عرفت أن مليكتى بصوتها وقدرتها على الحكاية، قد ردّت لى قدرتى على ذلك وبدأت أحس بالفرح والسعادة وأنا أعيد ما أسمع وأرى..

وسمعت جانشاه يقول «فى نفسه أنا مشغول بنفسى فالرأى أن آخذ فرسى وأسير إلى مدينة اليهود». وسار على رأس الألف فارس حتى وقت المساء ثم نزلوا فى مرج عظيم وباتوا بذلك المرج فلما ناموا وعلم جانشاه أن عسكره ناموا كلهم قام فى خفية وشد وسطه وركب جواده وسار إلى بغداد لأنه كان سمع من اليهود أن تأتيهم فى كل سنتين قافلة من بغداد وقال فى نفسه إذا وصلت إلى بغداد أسير مع القافلة حتى أصل إلى مدينة اليهود وصممت نفسه على ذلك..»

وهكذا اختار جانشاه وشد وسطه يحتمل مشقة الطريق والسفر البعيد دون أن يوقف الحزام الذى شد به ظهره رجفة البدن القائمة من مس الحبيبة النائية..

«.. وصار جانشاه من أجل أبيه وفراق محبوبته حزينًا مهمومًا جريح القلب قريح العين

سهران الليل والنهار ، أما أبوه فإنه لما علم بفقده جمع عساكره وجيوشه ورجع عن حرب عدوه وتوجه إلى مدينته ودخلها وغلق أبوابها وحصن أسوارها وصار هاربًا من الملك كفيد وفى كل شهر يجىء ويرجع بهم إلى الخيام ليداوى المجروحين من الرجال فأما أهل مدينة الملك طيغموس فإنهم عند انصراف العدو عنهم يشتغلون بإصلاح السلاح وتحسين الأسوار وتهيئة المنجنيقات ومكث الملك طيغموس والملك كفيد على هذه الحالة سبع سنين والحرب مستمرة بينهما...» .

واستعصى علىَّ أن أعرف كيف كان يفكر جانشاه فى أبيه وأهل بلده وهو يقطع البرارى والقفار أيامًا وليالى حتى وصل إلى النهر بجانب مدينة اليهود وجلس على شاطئه وصبر إلى يوم السبت.. وقلت أنا فى نفسى ما جدوى الرجوع إلى الأهل والبلد إذا كان المرء قادرًا أن يختار الطريق الذى يبعده عنهم مهما كانت الشدة التى هم فيها. ما أقسى قلب الرجل عندما يحب وأضعفه، وما أوفاه وما أجحده. وهل يستطيع المرء إذا تملكت هذه الرجفة فى البدن أن يبرر ما يفعل أو أن يفسره.. وكيف يظل المرء مع كل هذا الصراع بداخله عارفًا بالطريق مصممًا على المضى فيه..

كان الطريق طويلا مريرا لكنه كان معروفا قد قطعه جانشاه من قبل فجعله التوقع وسبق المعرفة أكثر صبرًا وحيلة وإن لم يجعله أقل تلهفا للوصول إلى غاية الطريق أو أكثر يقينا ومعرفة بما سيلقاه عند نهايته. إن النهر سيجف وقد جف وها هو يعبره ماشيا على قدميه ليدخل المدينة الصامتة التى خبر ما فى أهلها من كرم وخبث وعَرِف إيمانهم وصمتهم لذكر الله وجحودهم ونسيانهم للوعد والمواعيد.

ودخل بيت الذين استضافوه صامتين أول مرة حتى إذا أصبح الصباح دار فى شوارع المدينة حتى سمع المنادى الذى يعرف ما يعرضه من شغل. فأخذ الكيس والجارية وتلثم

حتى لا يعرفه التاجر وقبل منه الشغل وخرج معه على فرسين بعد أن ذهب إلى بيت من استضافوه وترك لهم دون أن يمسها أجرة الشغل التى أعطاها له التاجر. لم يمسس جانشاه هذه المرة لا المال ولا الجارية ولم ينم طول الليل وهى إلى جانبه لا تعرف ماذا به ولم أعرف أنا أيضًا لماذا يرفض المحب أية سعادة وإن كانت عارضة رغم حرمانه وشقائه مادامت الحبيبة بعيدة لا تقدمها له.

وعلى قمة الجبل العالى، بعد أن حمل الطير الكبير الفرس المذبوحة وبداخلها جانشاه وقف يطل على التاجر الجشع وهو يقول له: «ارم لى شيئا من الحجارة التى حواليك حتى أدلك على الطريق التى تنزل منها فقال جانشاه:

– أنت الذى فعلت بى كيت وكيت من مدة خمس سنين وقد قاسيت جوعًا وعطشا وحصل لى تعب عظيم وشر كثير وها أنت عدت بى إلى هذا المكان وأردت هلاكى والله لا أرمى لك شيئا..

ثم إنه سار وقصد الطريق التى توصل إلى الشيخ نصر ملك الطيور...»

الحق معك يا جانشاه عندما لا ترمى للرجل شيئا من جواهر الجبل الذى طوح بك الطريق إليه. لكن قل لى هل حصل لك شر كثير وهل ما حصل لك كان شرا أم نعمة تشكر عليها الرجل. فلولا لؤمه لما رأيت ولما دخلت إلى المقصورة التى أنارتها السيدة شمسة.

وازدادت الرجفة فى بدن جانشاه وهو يدخل المقصورة «وصار فى بكاء وأنين ناشىء عن قلب حزين ولم يزل يبكى حتى أغمى عليه ثم بعد ساعة أفاق وجعل ينظر تارة إلى السماء وتارة إلى البحيرة وتارة إلى البر وقلبه يرتجف من شدة العشق» وكأنما قد عاد تمامًا إلى انتظار السنة الأولى بعد أن رآها أول مرة وكأنما لم يمض الزمن ولم يحدث كل ما حدث بينهما وكان زواجه بها حلما لم يتم.

قال له الشيخ نصر انتظر حتى يأتى موعد الطيور فتسألها عن تلك القلعة التى أصبحت

يا جانشاه تردد اسمها دون أن تعرف له معنى أو مكانا إلا أنها المكان الذى دعتك إليه وهى تتركك وكأنها تلقى لك بلغز عليك أن تحله ولا قدرة لك على ذلك: إذا كنت تحبنى كما أحبك فتعال عندى إلى قلعة جوهر تكنى..

سمع صوتها يتردد حوله فى المقصورة وقد حان لقاء الطيور فخرج إلى الشيخ نصر وشهد مقابلته لهم وهو يسألهم واحدا بعد الآخر عن قلعة جوهرة تكنى وكل منهم يقول: ما سمعت بهذه القلعة طول عمرى..

وأراد الشيخ نصر أن يثنيه عن عزمه وأن ينصحه بالسلامة فقال له دعنى أوصى واحداً من الطيور ليحملك إلى بلادك كابل. وتذكر جانشاه رحلته على ظهرها إلى بلاده فلم يقبل الطريق الذى عرضه عليه الشيخ نصر واخترع لنفسه طريقا آخر لا أدرى كيف اختاره إلا بمحض الإصرار على تكرار السؤال. إنك يا شيخ نصر ملك الطيور فلم لا ترسلنى إلى ملك الوحوش حتى أواصل السؤال والتقصى من طير الجو ووحش البر عن قلعتى المخفية وراء الكينونة التى لا تنتهى. إننى ياشيخ نصر أحب وأعشق وليس هناك نهاية لطريق المحب إلا الموت ولا حتى به..

وتذكرت أوراق أبى وأنا أرى جانشاه عند ملك الوحوش ينتظر حتى «أقبلت الوحوش فسألهم عن قلعة جوهر تكنى فقالوا جميعا ما نعرف هذه القلعة» وسمعت مليكتى العارفة تقول لى:

- «اعلم يا حاسب أن جانشاه بكى وتأسف على عدم ذهابه مع الطير الذى أتى به من عند الشيخ نصر..»

فهل تأسفت فعلاً يا جانشاه وحننت إلى أهلك وبلدك كما أحن أنا الآن، أم أنها مجرد لحظة من لحظات الضعف فى الروح يميل بها المرء إلى الموت والخلاص من الانتظار أمام

ما يلقاه من مشقة؟ ما أكثر الطرق التى تربط بين الحب والموت وما أغرب السبل التى تؤدى من الواحد منهما إلى الآخر.

لم يتجه جانشاه أبدا إلى الطريق الذى يوصله إلى كابل بل ظل يتضرع إلى ملك الوحوش حتى أوصله بخطاب إلى أخ له «لا يوجد أكبر منه هو والشيخ نصر فى الجان».

ويمضى جانشاه يحاول أن يفتح مغاليق الكينونة ليصل إلى قلعته الحصينة وراء الغيب وأخذ ينتقل من ملك إلى عالم ومن سلطة قادرة إلى سلطة أقدر ومن معرفة متقاصرة إلى معرفة أكثر قصوراً ونقصًا والطريق الطويل لا ينتهى.

قال له الأخ الأكبر ما أظن السيد سليمان فى عمره سمع بها ولا رآها. وقال له الراهب القابع فى الدير يتعبد:

- «والله يا ولدى عمرى ما سمعت بهذه القلعة ولا رأيت من سمع بها أو رآها مع أننى كنت موجوداً على عهد نوح وحكمت من عهد نوح إلى زمن السيد سليمان على الوحوش والطيور والجن...».

كلهم يملكون ويحكمون لكن معرفتهم وقدرتهم لا تحيط بجزء محدود مهما اتسع من الكينونة الفسيحة التى تختفى وراءها السيدة شمسة.

ويكاد الطريق ينسد أمام جانشاه حتى تأتى ذكرى غامضة من طفولة بعيدة قديمة يلقيها طير أسود لا اسم له ولا أصل فيسأله الراهب عن القلعة فيقول له الطير:

- أيها الراهب إننا كنا ساكنين خلف قبل قاف بجبل البلور فى بر عظيم وكنت صغيرا وأبى وأمى يسرحان فى كل يوم يجيئان برزقنا فاتفق أنهما سرحا يوما من الأيام وغابا سبعة أيام فاشتد علينا الجوع ثم أتيا فى اليوم الثامن وهما يبكيان فقلنا لهما ما سبب غيابكما قالا إنه خرج علينا مارد فخطفنا وذهب بنا إلى قلعة جوهر تكنى وأوصلنا إلى الملك شهلان

الذى أراد قتلنا فقلنا له إن وراءنا فراخا صغاراً فأعتقنا من القتل ولو كان أبى وأمى على قيد الحياة لكانا أخبراكما عن القلعة..»

لقد أراد الملك شهلان أن يقتل الطائرين بعد أن عرفا بمكان قلعته لكن شفقته على الفراخ الصغار حفظت الذكرى الغامضة لجانشاه الذى ضاع منه الطريق ولم يستطع أحد أن يدله عليه. وهل هناك من يدلك على الطريق يا جانشاه أو هل هناك طريق حقًا إلى قلعة جوهر تكنى.

تضرع جانشاه للطير الأسود أن يحمله إلى «نحو وكرهم القديم»، أو أقرب ما يكون للذكرى الغائرة البعيدة. وعندما أوصله إلى هناك، إلى هذا القرب الغامض غير المحدود قال له «ما بقيت أعرف وراء هذا المكان أرضا». وهناك حيث لا أرض وراء الأرض وحيث لا صفة للمكان إلا أنه نحو الوكر القديم «غلب على جانشاه النوم».

أنت الآن يا جانشاه على مقربة وفى نومك تقطع بقية الطريق إذا كان للطريق بقية أو عليك وقد نفذت بحبك إلى وراء الكينونة التى لا يعرفها البشر أن تنتظر فى نومك ما لا يعرفه إلا البشر.. قدرة الحب على صناعة المستحيل وقدرة الحبيبة على أن تعرف أين أنت وأين تنام فى انتظارها وقد أكملت سياحتك فى الحب أو تكاد.

وقالت لى مليكتى:

- اعلم يا حاسب أن «السيدة شمسة لما راحت عند أهلها أخبرتهم بما جرى لها مع جانشاه وحكت لهم حكاياته وأعلمتهم أنه ساح فى الأرض ورأى العجائب وعرفتهم بمحبته لها ومحبتها له وبما وقع بينهما فلما سمع أبوها وأمها ذلك الكلام قالا لها ما يحل لك من الله أن تفعلى معه هذا الأمر..

وأرسل الملك أعوانه ومردته يبحثون عن أى إنسى محب يقارب القلعة.

وهل يقترب من القلعة إلا محب وهل يقطع هذا الطريق الضائع إلا إنسى.. قم ياجانشاه من نومك فأعوان الملك يحملونك بقية الطريق إلى السيدة شمسة وهناك تقام الأفراح والزينات ويعملون عرسًا عظيمًا للسيدة شمسة ثم «أدخلوا جانشاه عليها واستمر معها مدة سنتين فى ألذ عيش وأهناه».

وعندما رأيت الزينات تملأ القلعة وجانشاه يدخل على السيدة شمسة قلت فى نفسى:

- ما أسعدك يا جانشاه.

وإذا بمليكتى العارفة ترفع أهدابها من جديد وتقول لى وكأن صوتها صدى لصوت جانشاه الذى سمعته وأنا أحاوره:

- لا تحسبن أحداً سعيداً حتى يموت.

(١٣)
نبع الحب والكوكب الغارق فى الماء

أرسلتني الملكة لأنام في ثوبي الجديد وتحت رأسي وسادتي الناعمة. ويبدو أن كوب العسل الصغير وشمّات المسك والبهار قد أراحت جسدي وروحي وهيأتها لنوم عميق. ووضعتُ رأسي على الوسادة وأنا أطارد خيالات جميلة كأنها غزلان رابعة من عيش السيدة شمسة وجانشاه التي قالت الملكة إنه كان ألذ عيش وأهناه. وما أسهل أن يتخيل المرء صور السعادة وأشكالها مع مثل جمال السيدة شمسة وغرام أخي جانشاه. لقد اكتفيت بوصف الملكة لعيشهما ووجدت أن عدم اطلاعي على تفاصيله، التي شاءت الملكة أن تحجبها، لم يعطل خيالي وتصوراتي، بل أظنه قد أطلقها وجعلها أكثر حرية واندفاعًا في رسم لحظاتهما معًا.. ويبدو لي أن الإنسان هو دائمًا أكثر قدرة على تصور السعادة من صناعتها.

وعلى الرغم من كل ما تخيلت وقلبت من صور لهما ولحياتهما معًا فإنني أحس بقدر كبير من الحرج يجعلني - أنا أيضًا - لا أسجلها ولا أعيدها احترامًا لحرمة أخي وخصوصياته. فهناك منطقة في روحه - مهما كنته - تظل دائمًا خصوصيته التي لا تفض وكأنها كينونته الأصيلة القائمة. وإذا كان الألم والعذاب والشك تطلق جميعها في النفس ما لا تعرفه النفس عن نفسها، فإن السعادة ترد الإنسان إلى جوهر الوجود الواحد، وتحيل كينونته إلى هذا السر الذي لا يفضه أي سؤال، ولا تمسه إلا الإشارة وتقرير أنه هو هو..

وساءلت نفسي، هل عرفت أنا السعادة وهل مرت عليّ في أي وقت من أوقات حياتي لحظات منها. أنا لا أذكر من ذلك شيئا اللهم إلا هنيهات سريعة عاجلة كنت أحسها في بدني وروحي عندما تديم الملكة النظر إليّ في عيوني حتى أعرف بدني وقد صار روحًا مكتملة متحققة. إنها لحظات قد سجلتها فيما أعدت من حكايتي، لكنني لم أتوقف عندها ولم أعرفها تمامًا فقد كانت، بفجأتها وسرعتها، مستعصية على الإدراك الكامل. وها أنا الآن لا أستطيع حتى أن أستعيدها بل وأرى أن محاولتي لذلك تطارد صور السعادة

وأشكالها التى حسبتها لجانشاه.

وتردد فى فكرى وأنا أستعيد يقظتى صوت الملكة وكلماتها وهى تقول: لا تحسبن.. وتلفتت روحى تحاول أن تجد فى الستتين اللتين أمضاهما جانشاه مع السيدة شمسة فى القلعة ما يومىء أو يفصح عن نذر النهاية لألذ عيش وأهناه والتى كانت تتردد واضحة عالية فى كلمات الملكة الأخيرة. وهل يمكن للسعادة أن تتصل وأن تستديم وكأنها رؤية أم أنها بحكم وقوعها فى الزمن معرضة لما يتعرضله الوجود ومظاهر الكينونة من تغير وتحول وتبدل فى الصور والأشكال. لقد علمت الآن أن النبع الذى يروى السعادة ويجعلها تزهر وتتير هو الحب فهل يظل نبع الحب سيالا جاريا دون توقف بلا جفاف أو أى انحسار.. وهل فى النفس نبع واحد للحب أم ينابيع متعددة مختلفة السيولة والتدفق والمزاج؟!

ولاشك أن هذا أمر عويص يصعب علىّ أن أصل فيه إلى حل أو رأى. فعندما أسترجع ما أعلم عن الحب وما علمته عنه فى حياتى أجده أنواعًا وأشتاتا يتعذر معها الوصول إلى ما يجمعها ويوحدها. فقد سألتنى الملكة هل أحبها وأجبت بما أعلم. وقبلها سألنى بلوقيا وقلت له إننى أحبه وأحب جانشاه وقد عاينت ما استطعت فهمه والانفعال به من حبيهما.وقلت لبلوقيا إننى أيضًا أحب نفسى، وقالت لى الملكة إنك لا تحب إلا نفسك. فأين أنا من كل هذا وأين هذا النبع الواحد السيال من الحب الذى تزهر معه السعادة؟!

إن كلمة جانشاه التى كررتها الملكة: «لا تحسبن أحدا سعيدا حتى يموت» تثقل الآن فكرى وتجعلنى أتساءل عن معناها وكيف جاءت لجانشاه أو خطرت له وإلى ماذا يشير بها. فقالت لى الملكة وكانت تتابع روحى منذ يقظتها:

- هى من حوارات اليونان القدامى تعلمها جانشاه وهو صغير ولم يدرك معناها الواضح البسيط إلا بعد أن شاخ واستعصى عليه الموت الذى هو كل ما يتمناه..

- فما الذى يربط بين الحب والموت؟

- يقعان فى الزمن ولا يمتزجان إلا فى الكينونة.

- فأين ومتى يمتزجان؟

- فى الكينونة عندما يحين المكتوب.

- فماذا يصيران إذا امتزجا؟

- سياحة وراء الكينونة متصلة لا تنتهى.

وصمت أسأل نفسى عن قدرتى على الحب وعلى الموت وعن حقى ونصيبى من السياحة وراء الكينونة فلم أهتِد إلا إلى بيتى فى مصر الذى فيه أمى وزوجتى ولم أجد فى روحى إلا شعورا غامضا بالحنين يتدفق سيالا ليدفعنى إليهما ويجعلنى أتصور وجهيهما وقد جعلتهما الدموع أكثر جمالا وانتظارا..

وقلت للملكة وكأنما أنتشل نفسى من تيار لا أستطيع أن أقاومه وأجمع فى نفسى عزما على الخروج:

- أريد أن أروح إلى بلادى..

فنظرت إلىّ الملكة طويلا حتى كدت أفقد محاولتى وعزمى ورفعت أهدابها الطويلة كأنها تدعونى لأنظر ماذا أرى وقالت لى بصوتها العسلى:

- أعلم يا حاسب أن قولك هذا هو ما قاله جانشاه للسيدة شمسة بعد سنتين من زواجهما فى قلعة جوهر تكنى وقال لها «إن أباك قد وعدنا بالذهاب إلى بلادى وأن نقعد هناك سنة وهنا سنة.

فقالت: سمعًا وطاعة.

ولما أمسى المساء دخلت على أبيها وذكرت له ما قاله جانشاه.

فقال: سمعًا وطاعة لكن اصبرى إلى أول الشهر حتى نجهز الأعوان.

فأخبرت جانشاه بما قال وصبرا المدة التى عينها. وبعد ذلك أذن شهلان للأعوان أن يخرجوا فى خدمتهما حتى يوصلاهما إلى بلاد جانشاه. وقد جهز لهما تختا عظيما من الذهب مرصعا بالدر فوقه خيمة من الحرير منقوشة بسائر الألوان يحار فى حسنها الناظر.

فطلع جانشاه هو والسيدة شمسة فوق ذلك التخت ثم انتخب من الأعوان أربعة ليحملوا ذلك التخت ثم إنهم ساروا من ذلك الوقت، بعد أن طلعوا جميعا، والأعوان حملته وطارت بين السماء والأرض ويسيرون كل يوم مسيرة ثلاثين شهرا ولم يزالوا سائرين مدة عشرة أيام وكان فى الأعوان عون يعرف بلاد كابل فلما رآها أمرهم أن ينزلوا على المدينة فنزلوا ومعهم جانشاه والسيدة شمسة وكان الملك طيغموس قد انهزم من الأعداء وهرب فى مدينته وصار فى حصر وضيق عليه الملك كفيد...»

كان جانشاه صامتًا طيلة الرحلة الطويلة، على وجهه الجميل شبه حزن لا أعرف هل مصدره تعب الطريق أم فكر عميق لم يفصح عنه. أما السيدة شمسة فكانت إلى جانبه منيرة كالكوكب الطالع تبتسم له بين الحين والآخر لتؤاكله أو تؤكله مما يحمله لهما الأعوان على طول الطريق. وعندما يجن الليل وهما فى السماء تأخذ رأسه على كتفها وتطلب منه أن ينام. فإذا أيقظه النهار قبّلها بين عينيها وجلس صامتًا من جديد ترهقه الأفكار وتوقع ما سيراه أو سيجده عند أبيه.

وسمعت السيدة شمسة تقول له يوم الوصول وهم يستعدون للنزول من التخت والطلوع إلى أبيه فى القصر:

- لا تشغل بالك يا حبيبى بهذه الحرب فأعوانى سيتكفلون بها ويحملون عن أبيك مشقتها.. انظر إلىّ وقل لى إنك تحبنى وفكر فى سعادتنا..

ورأيت جانشاه يبتسم لها وهو م زال مشغول البال ويهبط عاديا إلى أبيه الذى «لما رأى

ابنه كاد يموت من شدة الفرح»..

وهبطت السيدة شمسة متثاقلة حتى سبقها جانشاه واختفى فى القصر بين أحضان أبيه وراحت هى تصدر أوامر سريعة قصيرة للأعوان وقد أدركتْ سريعا حال المدينة وحال الملك. ثم تمشت إلى القصر ودخلته وصعدت إلى سطحه العالى حيث طارت من قبل، وأمرت أعوانها أن يستدعوا لها والد جانشاه لينظر معها إلى أعوانها وهم يقاتلون العدو ويقيدون الملك كفيد ويحملونه فى السلاسل والأغلال إلى حيث عرش الملك طيغموس ليلقوه عند أقدامه متضرعًا. وتشفعت فيه السيدة شمسة وقالت لوالد جانشاه:

- «أطلقه ليرجع إلى بلاده وإن حصل منه شر أمرت أحد الأعوان أن يخطفه ويأتيك به.

فقال له الملك:

- إن الملكة قد تشفعت فيك فاذهب إلى بلادك وإن عدت لما كنت عليه فإنها ترسل عونا من الأعوان فيأتى بك. فسار الملك كفيد إلى بلاده وهو فى أسوأ حال...»

هكذا عدت إذن يا جانشاه إلى الوكر القديم وأطلقك الملك شهلان وقد منحك فى السيدة شمسة نبع الحب الذى لا يغيض وقدرة السلطان الذى لا يحد. وها أنت سعيد لا مزيد لسعادتك تتقلب فى أحضانها فى «ألذ عيش وأهناه..» فكيف وصلت إلى القبرين المبنيين وإلى بكائك وصمتك اللذين لا ينتهيان..

وتجمع فى نفسى السؤال الذى لم أعرف له جوابًا منذ التقيت بجانشاه وسمعت حكايته وأصبحت جزءًا من حياتى لا أستطيع أن أخلص منه، والتفت إلى الملكة وقلت لها فى حدة من نفاد الصبر:

- كيف التقيت بأخى وحبيبى جانشاه وماذا فعلت به؟

- المكتوب.. نفذته معه كما نفذته مع بلوقيا ومعك.

- وما هو المكتوب؟

- الواقع وما سيقع فى قادم الأيام علينا أجمعين.

وفزعت من هذا الجمع الذى تستخدمه الملكة وتساءلت عما يجمعنا جميعا نحن الأربعة فأسألها:

- وما الذى وقع لجانشاه؟

فقالت لى فى هدوء لم أعرفه منها من قبل وتقطعت كلماتها التى عرفتها سيالة متواصلة وقالت لى:

- اعلم يا حاسب أنك صرت مثلى عالما بالحكاية والمكتوب، فانظر فى عيونى إذا أردت لترى ما وقع وستظل ترى حتى يحين المكتوب فيغمضان عليك، وعلى يديك..

وتزايد فزعى وأحسست أنها وكأنها تهددنى بما فى نفسى من عجز بدونها. وتلهفت مسرعا أحملق فى عيونها لأرى وأسمع من جديد ما لم أكن أعلم ومازلت إلى الآن لا أفهم جماله وكماله وما يحدثه فى نفسى من فزع مستديم لا أظنه يغادرنى أبدا.

رأيت جانشاه والسيدة شمسة يطيران بتختهما المهيب إلى قلعة جوهر تكنى وتظل تلاعبه هناك وتعاطيه ما لم يعط لبنى آدم من قبل ورأيتهما يعودان بعد سنة إلى أرض كابل ليزورا أهله ثم رأيتهما يستعدان للطيران من جديد إلى القلعة النائية حتى أكملا لزواجهما سبع سنوات وكان جانشاه قد بلغ من السعادة منتهاها وأشرق وجهه بنور الحب حتى كأنه قمر منير، أما هى فقد ازدادت حسنا وجمالا وتوهج جسمها بالحب والغرام الذى يسكبه جانشاه عليها فلا تكاد تعرف أيهما الشمس وأيهما القمر..

وفى السنة السابعة لزواجهما والتى عزم فيها جانشاه على أن يمضياها مع أهلها ركبا التخت وطارا حتى وصلا إلى الجزيرة التى فيها جانشاه الآن. ورأت السيدة شمسة وهما فى الجو أن فى الجزيرة نهرا صافيا هادئا فقالت لحبيبها:

- فلننزل هنا لنتفرج ولنأكل ولنشرب وأغتسل.

ونزلا من التخت حبيبين متضامين يلفها بذراعه وتلفه بذراعها وسارا يتبادلان القبل والأحضان كل سبع خطوات وهما يذكران أعوام زواجهما. وتبعتهما منتشيا بما يشعانه فى الدنيا من سعادة حتى وصلا إلى مرج فيه دغل من الأعشاب الكثيرة كأنما ليختفيا فيه عن الأنظار ولم يكن هناك إلا عيونى وأنا أرى على الأرض بين أعشاب المرج ملكة الحيات وكأنها جاءت مثلى لترقبهما أو كأنما جاءت مثلهما لتتفرج على المرج، وكنها انسربت تحرك الأعشاب ووصيفتها تحملها على طبقها الذهبى حتى اختفت عن عينى وسمعت صوت القبلات بين جانشاه والسيدة شمسة، وضحكاتهما، وكلمات الغرام والحب تنثال من فم جانشاه ومن ابتسامة وعيون السيدة شمسة. ورأيتها ترقد بين الأعشاب وتضمه إلى صدرها ليصبحا جسدا واحدا دون أن تنتهى قبلاتهما.

ووقف جانشاه وهى م زالت راقدة مغمضة العينين مفتوحة الفم وراح يرقبها وهو يقول:

- ما أجملك يا حبيبتى.. إنك دائمًا وكأنك دائمًا بكر لم يمسسك بشر ولا حتى أنا..

فقالت له شمسة وهى تستر ما تعرى من جسمها وكأنها تعرضه عليه ولا تحجبه:

- أتمنى من الله ولا يصعب على الله أن أظل بكرا لك وأن أبقى دائمًا جميلتك التى تحب.

فقال جانشاه وهو يحتضنها من جديد:

- أتمنى من الله أن أعيش للأبد لأظل دائمًا أحبك كما أحب الآن.

واحتضنها من جديد وسارا بين الأعشاب يتبادلان القبل كل سبع خطوات والأعشاب حولهما تنطق بفوائدها وكأنها مسها شىء من سعادتهما أو من مسار ملكة الحيات.

وسمعت السيدة شمسة العشب الذى يقول أنا عشب المرأة البكر دائمًا، كل من أكلتنى لا تحبل ولا تلد ويتجدد فرجها بعد كل اجتماع بمن تحب، وقال العشب الآخر أنا كل من أكلنى لا يموت حتى النفخة الأولى..

وعندمـا سمع جانشـاه والسيـدة شمـسة الأعـشاب تنطق بفـوائدها وكأنهـا قد سـمعت دعاءهما لله ظلا يضحكان ويتبادلان القبل وهمـا يقطعان العشب، كل منهما العشب الذى أراد، ويمضغانه مبتعدين عن بعضهمـا وكأنهما يتندران الواحد منهما مع الآخر أو يتبادلان القبل عن بعد..

وظل جانشاه والسيدة شـمسة فى ذراعه يسيران وهما يضحكان حـتى عادا إلى النهر وقد سرى العشب الكونى فى أبدانهما الأرضية. فلما بلغا النهر قالت السيدة شمسة لجانشاه:

- تعالى إلىّ حبيبى قبل أن أنزل النهر لأغتسل..

واحتـضنها جانشـاه وركب فوقـها وأزال بكارتها من جـديد، ثم قامت من تحـته ونزعت ثيابها وجمعت جواريهـا ففعلن مثلها ونزلن فى النهر وسبحن فيه.. وبيـنما جانشاه يتمشى على شاطئ الـنهر وقد ترك الجـوارى يلعبن فيـه مع السيدة شـمسـة «وإذا بفرس من دواب النهر ضربها فى رجلها دون الجوارى فصرخت ووقعت ميتة من وقتها وساعتها...»

وعندمـا صرخت أنا، وأنا أرى السـيدة شـمسـة مثـل الكوكب الغارق فى الماء قـالت لى الملكة:

- اعلم يا حـاسب أن الجـوارى طلعن من النهـر هاربات إلى الخـيـمـة من ذلك الفـرس فوجدن جـانشاه قد شاهدها وهى تغرق ميـتة فى النهر وراح ينوح ويبكى حتى وقع مغـشيا عليه. فعندما أفاق بعد أن رشت الجوارى عليـه من ماء النهر أمر الأعوان أن يأخذوا التخت ويروحوا إلى أهلهـا ويعلموهم بما جرى لهـا، فراحوا إلى أهلها وأعلمـوهم بما جرى. فلم يغب أهلهـا حـتى أتوا هذا المكان فـغسـلوها وكفنـوها وفى هذا المكان دفنوها وطلبـوا من جانشاه أن يأخذوه معهم إلى بلادهم فقال لأبيها:

- أريد أن تحفر لى حـفرة بجانب قبرها واجـعل تلك الحفرة قبرا لعلّى إذا مت أدفن فـيها بجانبها..

وصمتت الملكة صمتا طويلا وأنا أرى جانشاه جالسا بين القبرين وقد اكتمل الغروب الذى رأيته فيه طول حكايته ولفه الظلام حتى لم أعد أرى إلا شبحى القبرين المبنيين يعكسان ظلالا سوداء طويلة على الأفق الذى ازدادت ظلمته أمام عينى وكاد ينسد وقمت مفزوعا باكيا أصرخ على الملكة.

- إنى أريد الآن الذهاب إلى بلادى.

(١٤)
وداع الملكة ووجه الأرض

عندما قلت للـملكة إنى أريد الآن الذهاب إلى بلادى ورحت أكررها لهـا ولنفسى كنت أسمع فى داخلى يتردد أيضًا، وكأنما يصاحب عبارتى، عـبارة جانشاه الغامضة: لا تحسبن.. وكـأنما انعكست الظلمة الـتى رأيت فيـها جـانشاه يغـمض على عـينى ولا أتبين فـيهـا إلا جوانب القبرين المبنيين، وتسللت هذه الظلمة حـتى لفت عبارتى أنا فأصبحت هى الأخرى غامضة تستعصى معانيها علىّ كلمـا كررتها. فما معنى أننى أريد وأنا غير قادر على الفعل غير مسـتطيعه إلا بغيرى وبإذن لا أعرف متى يأتى. ومـا معنى الآن الذى أتحدث عنه، وهل ما أعنيه بالآن هو كل حكايتى التى أردت إعادتها لأفهم معناها أو لأعرفه على الأقل.

هل مـا أريده هو أن أنفض عن نـفسـى هذه الحكاية التى هى كل مـا أعـرفـه الآن من آن. وماذا يعنى الذهاب إلى بلادى وأين كنت إذن؟ وما هذا الذى أنا أريد الذهاب إليه الآن فى بلادى؟

ومع كل هذا الغمـوض الذى دفعتنى إليه الملكة بصـمتها وبعـيونها المغمـضة رحت أكرر عبارتى وكأننى أذكر الله أو أستعيـذ به مما ركبنى من شياطين الإنس والجان أو كأننى عدت أحمى نفسى من الطيور التى تريد أن تأكل كـبدى وأنا حائر لا أستطيع أن أردها ولا أعرف كيف أفعل هذا.

وفتحت الملكة عيونها فلم أر فيها إلا نظرة صافية من التعجب والاندهاش وكأنها تريد أن تنفذ فىّ أنا إلى شىء تريد أن تعلمه أو تراه وقالت لى...

- ما أعجب بنى آدم..

وقلت متعجبا أنا الآخر:

- وما العجب فى أنى أريد الذهاب إلى بلادى؟!

- اعتناق المكتوب..

- ماذا تعنين؟

وزاد الغموض الذى يلف كلماتى وكلماتها وأدركت أننا نتحاور فى آن فريد ليس من الزمان ولا المكان وهى تقول لى:

- إنهم يندفعون للمكتوب يريدون اعتناقه وكأنه حبيبة وكأنما هذا فطرة فيهم كفطرة الحب والتناسل!!

فقلت غير فاهم ماذا تعنى:

- ليس لى أولاد ولم يرزقنى الله نسلا.

- إلى من تريد الذهاب إذن؟

- إلى أمى وزوجتى.

- فهل قصرت أنا هنا فى حقك؟

وتحسست ثوبى الجديد وجسمى من تحته وشممت المسك المعلق فى عنقى وشعرت بشىء من الجوع، ولكننى لم أطلب الطعام بل قلت مرة أخرى وكأنما رغما عنى:

- أنا أريد الذهاب الآن إلى بلادى.

- ألا تريد قبل أن تذهب ولا حتى أن تودعنى؟

- كيف أودعك؟

- تحكى لى حكايتك أو تسألنى عن حكايتى.

- فنعيد الحكاية؟!

- أليس هذا ما كنت تريد؟

- لكنه ليس ما أريد الآن!

- ماذا تريد؟

- أريد الآن الذهاب إلى بلادى.

- ما أعجب بنى آدم..

- وما العجب فيما أريد؟

- تتغير إرادتهم بأسرع ما يتغير النهر الجارى..

- ألا تتغير مخلوقات الله جميعا؟

- ليس كما يتغير البشر.. فجميع المخلوقات يجرى عليها الزمن.. أما ابن آدم فإنه يغيره بإرادته التى تتغير ويحسب نفسه قادرا على حسابه.

- وهل تغيرت أنا؟

- سل نفسك.

- لكنى أسألك أنت.

- لقد تغيرت حتى لا يكاد يعرفك أحد.

- حتى أمى وزوجتى؟

- ولا هما..

- ولا حتى أنت؟

- أنا أحببتك وأنا أشهدك تتغير.

- وكيف تغيرت؟

- صرت حاسب كريم الدين.

- وماذا كنت إذن؟

- ابن أبيك الذى مات.

- وماذا أفعل بنفسى الآن؟

- ما تريد.

- أريد الذهاب إلى بلادى.

- دون أن تودعنى؟

وصعـدت إلى عيونى دموع من مكان سـحيق فى بدنى وأحسـست أن قلبى يصعد معـها إلى فمى وأنا أنتفض قائما أريد أن أندفع إليها لأعتنقها. ومددت ذراعى - وأصابع يدى - مفتوحتين أريد أن أضمها فلم أمسك إلا بوجـهها واستراحت يدى على وجنتيها الهابطتين من عظمة الوجنة حتى الفم يـأسران يدى بين عيونها وشفـتيها. أحسست كـأن نوراً خارقًا ينفذ إلى بدنى كلـه وكأنه برق متردد لا ينـتهى فأنحنى بجـسمى لأقبل العـينين اليمنى أولاً فاليسرى ثم أهبط إلى الشفـتين وأضع شفتّى عليهما وأظل عليهـما فى قبلة لا نهاية لحلاوة طعمها وطولها. وظللت هكذا أمدا لا أعرف أوله أو آخره وأنا أحس الدنيا من حولى تظلم فلا أكاد أرى إلا عينيها المضـيئتين وشفتيها تحت شفتّى يسـرى منهما فى بدنى نهر جار من السـعادة والعـشق لا أظنه موجـودا على الأرض أو فى السمـاء. وما زلت على هـذه الحال حتـى أصبحت أنـا الآخر وجهـا لا حجم له ولم أعـد أشعـر أو أعرف فى بدنى إلا عـينّى وشفتّى اللتين لا تستطيعان أو تعرفان كيف تنفصلان عنها..

وهمست لى سراً:

- يا حبيبى.. نم الآن.. واذهب إلىّ..

ووجدتنى نائمًـا ممدوداً على فراش كـأنه من حرير معطر، عـاريًا، كمـا ولدتنى أمى، وقد أظلمت الدنيا تمامًا فلا أرى شيئًا حتى العينين، لكننى أحس وأشم على بدنى العارى امتلاء البدن الكامل يلفنى بساقين عبلتين ويغطينى بشعـر كالليل المنسدل، ويدى تجوس متحسسة كل أطراف البدن، وشفتاى تتنقلان بين الشفتـين وما تحتها حتى حلمتى النهدين،وأصابعى تتحسس أرض البطن لتهتدى وكأنها فى سياحة لا تنتهى إلى زر الميلاد وبيت الرجل..

وهمست وأنا أشعر بدفء البدن يؤجج فى بدنى جذوة لا تنطفئ:

- من أنت؟

- اذهب يا حاسب فى طريقك.. تكتمل حكايتك..

وظل بدني يرتجف وأنا أسلك هذا الطريق المفتوح وكأنني أعرفه ليوصلني إلى كل ما هو كائن ولأعلم فيه كل ما هو موجود..

وعندما توقفت رجفتي ووجدت نفسي وحيدا على الأرض تحت رأسي وسادتي بدأت أتحسس نفسي لأجدني عاريًا كما ولدتني أمي فقلت لنفسي هامسًا:

- هل ولدت الآن يا حاسب أم أنك تموت؟

ونظرت إلى أعلى فوجدت عينيّ تريان السماء والنجوم وتكتشفان مسارات الكواكب والشهب الساقطة وأتبين بأذني أنغامًا لا تنتهي وأحس روحي تسيح في كون فسيح كلما جسته ازداد اتساعًا وانفتاحا للنظر. وهبطت بعيني فوجدتني أعرف ما في البحار من نبات وحيوان وأخرج من الماء إلى الأرض لأرى الجبال والوديان وكل وحوش البر وكل ما على الأرض وما تحتها من معادن ومخلوقات. وخفت أن أتحرك أو أنطق فأفقد شيئًا مما أرى فظللت صامتًا وأنا أرى حكايتي مع الملكة تتعاقب أحداثها ومناظرها واضحة صريحة مرئية قد أصبحت كلها معاني لا تغيب، تضيء وكأنها جواهر حول أخويّ بلوقيا وجانشاه وكل ما جرى لهما من فرح وعذاب. وأحسست أحداث الحكاية جزءًا من ذاكرتي وتجربتي وكأنها أصبحت كل عمري الذي لم أعرفه من قبل. وأعدت الحكاية مكتملة لنفسي كما لم أستطع أبدا وأنا أحكيها على الورق حتى وددت لو أنني أبدأ من جديد..

وظللت في موضعي عاريًا دهرًا لا أعرف مداه حتى سمعت صوت الملكة العسلي من مكانها المعهود تقول لي مبتسمة وكأنها تعابثني:

- من أنت؟ ولماذا أنت عارٍ هكذا؟

فقمت أتعثر لأرتدي ثيابي وأنا لا أعرف كيف أرد إلا بأن أقول:

- أنا حاسب كريم الدين

فاستمرت في عبثها وابتسامتها تسألني:

- من أين أتيت وما شأنك وإلى أين أنت ذاهب؟

فقلت وأنا لا أحتمل ما تذكرنى به من أسئلة الكينونة وأحسب كلماتى حسابًا دقيقًا عرفت من نفسى أننى أتقنه:

- أتيت من لدن المليكة العارفة، سلطانة الحيات ومليكتها، وشأنى هو شأن كل البشر وأريد الذهاب إلى بلادى.

فقالت لى جادة عابثة وكأنها تريد أن تعيد الحكاية من أولها:

«ما يحصل لك إلا كل خير لكن أريد منك أن تقعد عندى مدة من الزمن أحكى لك حكايتى وأخبرك بما جرى لى من عجائب..»

وتردد صوتها فى رأسى كأنه جرس فضى أو مفتاح ذهبى يفتح مغاليق الكون ومقاصير الرؤية.. ووجدت نفسى مليئة بما علمت من عجائب فقلت لها مواصلا حسابى الدقيق لكلماتى وما تعلمت من أصول الإعادة:

- لم يعد لى قعود عندك وقد تلقيت وداعك، أما حكايتك فقد علمتها لأنها حكايتى وليس علىّ الآن إلا أن أظل أعيدها على الناس وأن أذهب إلى بلادى.

فقالت لى وقد اختفى التعابث من صوتها وانغلقت شفتاها فضاعت ابتسامتها وأغمضت عيونها وانسدلت عليها أهدابها فلم أعد أرى أو أسمع شيئا إلا المكتوب:

- «إنى أخاف يا حاسب إذا وصلت إلى بلادك أن تنقض العهد وتحنث فى اليمين الذى حلفته وتدخل الحمام..»

فتقدمت بكل ما لدّى من صدق وحلفت لها يمينًا آخر وثيقًا أننى لن أدخل الحمام طول عمرى.

وانتظرت صمتها الذى طال حتى أمرت حية من كريمات الحيات حولها وقالت لها:

- «أخرجى حاسب كريم الدين إلى وجه الأرض».

فأخذتنى الكريمة وسارت أمامى وأنا أتبعها من مكان إلى مكان حتى أخرجتنى على وجه الأرض من سطح جب مهجور.

(١٥)
حسابات الحياة وسماط الأمس الكئيب

عندما خرجت على وجه الأرض وتبينت على الأفق طريقى إلى مدينتى القاهرة تلفتُّ أمامى وورائى بحثًا عن الكريمة التى أوصلتنى لأشكرها وأودِّعها لكنها كانت قد اختفت تمامًا وكأنها الخضر عليه السلام.

وسرت بخطو بطيء نحو القاهرة أفكر فى نفسى، فيما جرى لى وفيما أنا مقبل عليه. وقلت لنفسى كأنما قد أديت مسئولية أو أنجزت شيئًا هامًا لقد أكملت الإعادة. ولم أعرف بالضبط ماذا أعنى بهذا لأن إحساسى العميق كان بأننى قد تغيرت وقد أصبح لى عمر وحياة وأن أحدًا لا يستطيع أن ينكر علىّ الآن لا الصنعة ولا الصفة وإن كنت لا أدرى ما هما أو كيف أحددهما. يبدو أن الطريق ما زال طويلا على وجه الأرض وأنه مختلف تمامًا عما كنت وراءه. وما أغرب الحياة على وجه الأرض.

ووددت لو أننى سمعت صوت الملكة تتابع أفكارى وتنيرها أو توجهها فلم أجد فى أذنى إلا صوت الصمت الذى هو صمت الروح عندما تكتمل وحدتها وتحمل وحدها مسئولية نفسها.

وهززت بدنى كأنما لأفيق وأعلم أننى على وجه الأرض حقًا وشعرت أننى قد امتلأت فى البدن وازددت قدراً من الطول وأن السنوات التى أمضيتها هناك معها قد أثقلت كتفى. لكننى عرفت على نفسى ثوبى الحريرى الجديد ورأيت قطعة المسك الكبيرة تتدلى من عنقى وتفج بين الحين والحين بعطرها النافذ القوى فيغلب على ما بدأت أشمه من ريح القاهرة وترابها. وسألت نفسى من جديد: ماذا يفعل الناس على وجه الأرض؟

وسمعت فى نفسى وكأنه صوتها، وهو ليس كذلك لأنه غمغمة كغمغمة التلاوة والترتيل:

- ارتكاب الإثم، واحتمال القسر ومهانة السلطان، والسعى الدءوب، يتقاعس ويرتد، نحو تحصيل المعرفة..

وامتلأت شعوراً بأهمية نفسى لما مر بها من أفكار وانطلقتْ فيها كحمامات طائرة صورٌ وخيالات مما علمت وأنا عندها. وكادت قدمى تتعثر أكثر من مرة فى أحجار الطريق فنهرت نفسى عن التفكير والحلم حتى لا أقع ورحت أحث الخطى فى الطريق إلى منزلى وكأننى لم أغب عنه إلا سحابة نهار. فقد وصلت إلى باب البيت دون أن أكون واعيًا تمامًا لبقية الطريق «وكان ذلك آخر النهار وقت اصفرار الشمس..».

ويبدو أننى قد طرقت الباب فقد كان مغلقًا ولم تكن أمى تغلقه من قبل وإذا «بأمى تخرج وتفتح الباب ترانى واقفًا فتصيح من شدة فرحتها وتلقى نفسها علىّ وهى تبكى حتى سمعت زوجتى بكاها فخرجت فرأتنى وسلمت علىّ وقبلتنى وفرح بعضنا ببعض فرحًا عظيمًا ودخلنا..»

«ولما استقر بنا الجلوس» قامت زوجتى متعجلة تريد أن تعد لى شيئا من الطعام وأسرعت إلى المطبخ وكأنها مرغمة أو كأنها كانت تفضل أن تظل لا ترفع عينها عنى محملقة فىّ كما تفعل أمى تمامًا. وبعد أن عادت وجلست بجانب أمى، كى أكون فى مواجهتها، قلت وأنا أنظر إلى سماطها بأطباقه الصغيرة العميقة قد غرفت فيه مطبوخات لا أستطيع أن أميزها:

- قد أكلت ولا أريد الآن طعاما.

وظلت أمى تنظر إلىّ وزوجتى تفعل مثلها وكأنما تتفحصاننى أو تتحسساننى بعيونهما ثم قالت لى:

- وأين كنت يا بنى، وما شأنك فى هذه الثياب التى أنت فيها، وماذا تنتوى أن تفعل الآن؟

وتذكرت وأنا أسمعها تصنع أسئلتها، أسئلة الكينونة القديمة التى ظللت أرددها وأسمعها وأنا بعيد عن الأرض.. أين؟ تحتها..!. وتحيرت كيف أرد على أسئلة الحياة التى تواجهنى بها أمى وهل من حقى وواجبى أن أقول الصدق أم أصمت ولا أجيب وأتجنب

أسئلة الحياة كما تجنبت الطعام. وترددت طويلاً ورحت أنظر إلى قطعة المسك المعلقة فى جيدى لأتجنب عيونها أيضًا وأمسكها بين أصابع يدى اليمين أفركها وأضغط عليها وكأنما أريدها أن تغنينى أو تعفينى من الإجابة. فلما طال صمتى قالت لى أمى بصوت غاضب وكأنها تنهر طفلها الصغير:

- قل لى من أين أتيت ومن الذى أعطاك الثوب الحرير وهذا المسك الكبير؟

وأحسست بشىء من خوف طفولتى من صوتها وتذكرت ما عودتنى من صدق حاسم فيما تقوله لى أو أقوله لها، لكنى أردت أن أقلب الأمر فى ذهنى وأن أحسبه على مهل. ووجدتنى لا أنقض عهداً ولا أنكث يمينًا فقلت لها فى صدق موجز وبعزم فى داخلى ألا أزيد شيئا على كلماتى المحسوبة:

- كنت عند ملكة الحيات وهى التى أهدتنى الثوب والمسك.. وسكتُّ فصاحت أمى علىّ:

- عند من؟.. وأين؟

فقلت بكل ما أملك من هدوء:

- ملكة الحيات.. تحت الأرض..

وعندما أدركت أمى أنها لم تخطئ السمع وأننى قلت فعلاً ما قلت صاحت بصوتها الصارخ الذى عرفته فى طفولتى:

- حاسب هل جننت..

ثم أضافت وهى تكاد تبكى: يا خسارتى فيك يا بنى. فتراجعت بجلستى على الأريكة التى أجلس عليها وتذكرت من خشونتها الخشبية أننى لم أحمل وسادتى معى.

وأسندت ظهرى على الأريكة ومددت ساقىّ أمامى فبرز بطنى الذى امتلأ عما كنت أعهده وتصورت أن أبى الذى لم أره كان يجلس هكذا مثلى فاصطنعت صوت الشيخ الوقور وأنا أقول لها:

- سامحك الله يا أم حاسب.. أنا لا أقول لك إلا الصدق.

وأمسكت زوجتى بيدها وكأنها تستمد منها العون أو كأنها تريد أن تمنعها أن تقوم على قدميها لتقف أمامى:

- أتريدنى أن أجن؟

وتحيرت ماذا أقول لها فصمتُّ فلم تلبث أن سألتنى من جديد وكأنها تمنع تلاحق الأسئلة من فمها:

- وماذا كنت تفعل هناك؟

وكررت سؤالها:

- ماذا كنت أفعل..! لا شىء.. لا، كل شىء.. كنت أعلم وأتعلم وقد علمت كل شىء...

فقالت أمى مستهزئة بكلامى:

- كل شىء.. تعلم كل شىء.. فهل تعلم كيف كنا نعيش أنا وزوجتك وكيف كنا نأكل..

وملت بظهرى على مسند الأريكة الخلفى ومددت قدمى أقصى ما أستطيع وكأننى أستعين ببطنى البارز على تحمل سخريتها وصَمتُّ أحسب كلماتى وأنا أتذكر اليهودى الذى طوح بجانشاه على أرض الجبل الملىء بالجواهر واليواقيت وسألت نفسى كيف لم أحمل فى جيبى شيئًا من كل هذه الجواهر والذهب الذى رأيت ولماذا لم تضع لى فى مخلاة ثوبى شيئًا مما كان حولها. وعرفت ماذا أقول لأمى فسألتها:

- ما قال لك الحطابون..

وكأنما رددتُها إلى أسئلة الحياة وأعفيتها مما أوشكت عليه من جنون فقالت لى ونبرة التهكم علىّ ما زالت فى صوتها:

- «قالوا لى إن ابنك أكله ذئب فى الوادى وقد صاروا تجارًا وأصحاب أملاك ودكاكين واتسعت عليهم النعمة، وهم كل يوم يجيئوننا بالأكل والشرب.. وهذا دأبهم..».

فسألتها أدارى حرجى منها وغيظى منهم:

- وفى أى ساعة يأتون كل يوم؟

وأسرعت زوجتى تجيبنى عنها متلهفة أن تبادلنى أى كلام:

- يرسلون واحداً منهم كل يوم فى آخر النهار بعد أن تقفل الأسواق ويطرق الباب ثلاث طرقات فأعرف أنهم هم فأقوم لأفتح الباب فيعطينى الذى جاء منهم المونة وهو عند الباب لا يدخل، ثم يمضى إلى حال سبيله دون كلام أو حديث.. وسوف أعد لك طعاماً طازجاً عندما يأتون الليلة بدلاً من هذا الطعام البايت..

وقامت تحمل سماطها الذى لم أمسه وتوقفتْ كأنما تذكرت شيئًا وقالت لى بأول نبرة حنان سمعتها منذ بدأنا حديثنا:

لابد أنك متعب من السفر، فلم لا تذهب الآن إلى الحمام فصاحبه يذكرك بالخير دائما وقد اقترب موعد وصول الحطابين حتى إذا عدت وجدت طعامك جاهزاً فتأكل شيئًا قبل أن تنام..

ونظرت إلىّ نظرة غنج ودلال لا أعرف كيف تتقنها المرأة وكيف تحسب حسابها ورفعت عينى فى عينيها ورأيتهما - رغم ما فيهما من حنان - ممسوحتين باهتتين لا أرى فيهما شيئًا ولا أسمع حتى ما تقول. لكنى أحسست بوجع فى قلبى وكادت عينى تغيم بالدموع والتفتُ إلى أمى التى راحت تنظر إلىّ وتنتظر ماذا سأقول:

- لقد أقسمتُ يمينًا مغلظة ألا أذهب إلى الحمام طول عمرى لأغتسل.. وأريد الآن أن أذهب لأنام. فهل لدىّ فراش معد..

فوقفتا متحيرتين وهما يرياننى أستعد للقيام وعادت زوجتى تنظر إلىّ نظرتها الحانية ورأيت كم هى غير جميلة بما خبرت من معايير. وخطرت فى رأسى مرة أخرى وكأنها طيور سارحة خيالات من غزالة جانشاه ومن قوام السيدة شمسة ومن نور الملكة وجمالها

وأنا أسمع زوجتى تقول لى:

- إننا لم نشبع منك بعد.. وفراشك كما هو لم يمسسه أحد، أنا كنت أنام مع عمتى وأنت غائب.. سأنفض عنه التراب وأعده..

وأحسست بكآبة شديدة تشملنى وكأنها تتحدث عن قبر، وتثاقلت عائداً إلى جلستى التى كنت عليها فى الأريكة وخيمت علينا جميعًا لحظة من الصمت وكأنما قد أمسك لسانيهما هما أيضًا شىء من الكآبة التى لفتنى مع تسرب الظلمة إلى مجلسنا، وإذا بنا نسمع جميعًا الطرقات الثلاث على باب البيت.

وهبت أمى وزوجتى معًا تسرعان إلى الباب وأمى تقول لى:

- هاهم قد جاءوا.. أتريد أن ترى واحدا منهم اليوم..

فأسرعت أقول لها وأنا أحسب ما أقول وماذا سيقولون لى، وأجدنى كئيبًا لا أريد أن أحدث أحداً أو أن أحسب لنفسى كلامًا أو فعلاً. وقلت لأمى حاسمًا ومسرعًا:

- لا .. لا.. ليس اليوم.. أنا أريد الآن أن أنام..

وتكررت الطرقات الثلاث على الباب فلم تعلق أمى بشىء على ما قلت بل أسرعت ووراءها زوجتى إلى الباب لتفتحه. وسمعت صوت أمى العالى يتحدث مع الرجل الذى جاء وعرفت صوت أحد الحطابين الذين كانوا معى عند جب العسل. ولم أتبين ماذا تقول أمى بوضوح ولا ماذا يقول لها الرجل، لكننى سمعتها تكرر اسمى كاملا: حاسب، حاسب كريم الدين.. وسمعتها تقول أكثر من مرة عبارة ملكة الحيات، ملكة الحيات، والرجل يردد نفس العبارة. وسمعت زوجتى تقول لقد عاد متعبًا ونام.. نام.. وصوت الباب يقفل ويعودان إلىّ صامتتين وزوجتى تحمل خرجًا صغيراً يترجرج فيه لحم طرى ملفوف وأنواع من الخضار المتهدل الباهت الخضرة وبعض أرغفة من العيش الذى لا أظنه ساخنًا.

ووضعت الخرج عند قدمى وهى تسألنى:

- لقد ذهب الرجل.. هل أعد لك الطعام؟

- لا.. سأقوم لأنام.

واختفت لتنفض التراب عن الفراش كما قالت وظلت أمى تنتظر منى أن أتكلم وأنا صامت لا أعرف ما أقول. حتى إذا عادت زوجتى قمت أتحسس طريقى إلى الفراش فى الظلمة وأمى تحاول أن تضىء مصباحًا ضعيفًا كاد زيته إأن يجف وأنا أقلب فى رأسى حديث أمى وزوجتى على الباب وأحسب ما سينتشر فى المدينة فى الصباح من كلام عنى وعن ملكة الحيات.

وفى الظلمة رحت فى سبات عميق دون أن أنطق بكلمة أخرى أو أشعر بزوجتى عندما رقدت بجوارى على الفراش الخشن.

(١٦)

« إنك أنت الوهاب » ..

لم أشعر بزوجتي عندما جاءت لتنام ولم أشعر بقيامها عندما قامت فقد صحوت والضوء يتسلل من خصاص الشباك الوحيد فى الغرفة، وبدأت حرارة النهار تشتد فتزيد الرطوبة الخانقة فى الجو وكأنما نحن فى وقت فيضان النيل. ووجدت نفسى وأنا أقوم نصف قومة غارقًا فى عرق كثيف لا يجف وقد ظهرت منه بقع فى ثوبى الحريرى الذى نمت كما أنا به. وتحسست جيوبى فلم أجد بها شيئًا وتذكرت أن أوراق أبى ما زالت فى جلدها من الرق وأنها خَشُنت حيث حشرتها بين ثوبى وجلدى، وأنها تسبب لى حكة مستمرة. وتذكرت أننى عندما كنت عند الملكة وعدت نفسى أن أخيطها فى ثوبى عندما أعود إلى أهلى.

وبدأت أعى أن نهار الحياة الذى يوقظنى الآن هو غير ما كنت أعرف من نهار، وأن علىّ أن أواجه الكثير من التفاصيل والأمور التى سوف تفرض علىّ قسراً دون رغبة أو اختيار أو حتى وقت كاف للتفكير والحساب، وترددت قليلاً ماذا أفعل وظننت أن خير ما أفعل وأوقظ به نفسى إلى حياة النهار أن أتذكر ما كنت أفعل فى كل يوم، عندما كنت أصحو فى هذه الغرفة فى الصباح كما أصحو الآن. ومع ذلك فما أكبر الفارق بين ما كنت أفعل وما أنتوى أن أفعله أو أقدر أن أعمله الآن.

صفقت بيدى ولم أناد باسمها وصفقت مرة ثانية بشدة أكبر فإذا بها تفتح الباب وتقف أمامى ويداها مبللة عليها آثار الصابون والماء وقد أمسكت بثوبها الطويل ترفعه قليلاً عن أقدامها وكأنها كانت تخوض فى ماء وتخشى عليه من البلل.

- أريد ماءً وطستًا لأغتسل وأتوضأ..

فنظرت إلىّ بعيونها المبتسمة الباهتة وقالت:

- صباح الخير.. لقد أخذت الماء الذى عندنا لأغسل لك الثوب الباقى من ثيابك وسأحضر ما تبقى من ماء فى إبريق للوضوء..

- أريد أن تحضرى أيضًا إبرة وخيطًا..

- ماذا تريد أن تخيط.. هل أخيطه لك أنا.. هل تقطع ثوبك.. ألا تنتظر حتى يجف الثوب الذى غسلته.. ماذا تريد أن تخيط؟

ولست أدرى لِمَ كنت عنيفًا فاقد الصبر وأنا أقول لها:

- ليس هذا من شأنك..

وكأنما أردت أن ألطف من عنفى فقلت:

- هاتى الثوب المبلول فسألبسه ويجف علىّ فالجو قائظ.. والماء عندك قليل.

- لم يعد السقا يحضر لنا ماء ولم أملك بعد أن أخرج لأحضر الماء من السبيل المجاور..

- إذا جف الثوب خرجت لأحضر لك الماء.. هاتى إبريق الوضوء.. والإبرة والخيط..

وخرجت زوجتى وتركتنى وحيداً مرة أخرى فى الغرفة فقمت واقفًا أنظر لنفسى فى مرآة قديمة باهتة مثل عيون زوجتى معلقة أمامى على الحائط بخيط بال. ووضعت أوراق أبى على الفراش وخلعت ثوبى الحريرى وما تحته من ملابس قديمة وقلت لنفسى أعطيها لها لتغسلها ورحت أتأمل بدنى العارى وأنا أتعجب من أن معدتى ليست مليئة ولا مثانتى أيضًا وكأننى لم أعد للحياة بعد فأنا لم أطعم أو أشرب من طعامها وشرابها..

لولا هذا العرق لما تيقنت من جسمى أننى على وجه الأرض. وفاجأتنى زوجتى داخلة.. ورأيتها متهللة ضاحكة تحمل إبريق الوضوء وطستًا صغيراً وثيابًا مطبقة وتضعها بسرعة على الأرض والفراش وتقترب منى تريد أن تلاعب جسمى العارى وأنا أعطيها ظهرى متطلعًا فى المرآة. وأحسست يدها الباردة المنداة تمس كتفى وظهرى وتربت على مؤخرتى وهى تقول:

- أوحشتنى..

فاستدرت وقد اقشعرَّ بدني من مس يدها وكأن جلدى قد لفحته نار حيث مرت أصابعها ورحت أحاسب نفسى وأمسكها ما استطعت حتى لا أ بدو غاضبًا وقلت لها وأنا أربت بيدى على وجنتيها:

- نويت الوضوء والصلاة يا امرأة.. هل أحضرت الإبرة والخيط.. وما هذه الثياب..

تقول عمتى إنها الثياب التى كان يرتديها أبوك قبل أن يموت.. اختزنتها عندها مع ثيابها.. والإبرة والخيط فوقها..

- جزاكما الله خيرا.. اتركينى الآن.. أصلى، وسأخرج لكما إذا فرغت من الصلاة.. وسحبتها من يدها إلى الباب فانصاعت ليدى وخرجت وأنا أقف عاريا وراء الباب نصف المفتوح حتى إذا مضت لحال سبيلها أغلقت الباب وأدرت فيه المفتاح القديم الذى دار بصعوبة وكأنه لم يدر منذ وقت بعيد.. واستدرت وأنا عارٍ أتطلع إلى نفسى فى المرآة وأفكر ماذا أعمل بنفسى الآن وماذا علىّ أن أفعل.

التفتُّ إلى الفراش ورأيت الخيط والإبرة فوق الملابس فأمسكتهما بيدى وفردت الثياب قطعة قطعة وأنا أتعجب من ملمسها الناعم السخى وأحاول أن أتصور أبى فيها شيخًا عالمًا جليلاً يرفل فى نعمة العلم وصنعة الطب والحكمة التى كان مكتوبًا أنه يعالجها.. وقلت لنفسى: أخيط أوراق أبى فى ثيابه مادمت سألبسها فلما فرغت من ذلك نظرت إلى ثوبى الحريرى المكوم على الفراش بجانبها فطويته أفضل ما أستطيع وأنا أتحسسه، وأحس ملمسه يهدئنى ويبعث السكينة فى نفسى فسألت نفسى أين أضعه وأخفيه فلم أعرف لنفسى جوابا. فقلت أنتظر حتى يهدينى الله وتركته على الفراش وتوجهت للوضوء، فلما فرغت بدأت أحاول ملابس أبى فوجدتها جميعها وكأنها ملابسى عرضًا وطولاً فتعجبت من كرم الله وفضله وقمت لأصلى وأحمده. ولما قضيت الفريضة ظللت فى موضعى متضرعًا وكل حياتى الماضية حاضرة فى ذهنى، وروحى مضطربة قلقة مما أنا مقبل عليه.

يا ربى أنا عبدك الحائر البائر فهلا هديتنى ومنحتنى بركة نعمتك.

ياربى قد مسنى الناس بالسوء فى مطلع حياتى فهل كفيتنى شرهم وحميتنى مما يدبرون لى مما أعرفه ولا أعرفه.

يا ربى إنك صاحب التفكير والتدبير، أعنّى وأنِرْ طريقى، واغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر.

امنحنى اللهم من لدنك علما أستغنى به عن الناس وامنحنى الصنعة التى كتبتها لى والصفة التى ترضى عنها إنك أنت الوهاب.

إنك أنت الوهاب، إنك أنت الوهاب.. يا وهاب.. يا كريم.. ياغفور.. يا رحيم.. وظللت أسبح الله وأستغفره وأسترجع ما كسبت من معان وما مرَّ علىّ من تجارب الكينونة والخلق ونفوس البشر حتى كدت أنسى أين أنا تماما إلى أن أحسست بالباب المغلق ويد عنيفة تحرك مقبضه. فلما ظل مغلقا سمعت طرقات ثلاثا عالية على الباب كأنها الطرقات المتفق عليها بين أمى والحطابين.

فلما فتحت لأمى الباب ورأتنى فى ثياب أبى فكأنها نسيت ما جاءت من أجله وصاحت:

- يا سبحان الله.. الخالق الناطق.. وكأنك أبوك.. لقد أفزعتنى..

حرسك الله يا حاسب كريم الدين.. لم أكن أتصور أنها تليق بك.. دعنى أنظر إليك.. وأحسست بالخجل من نفسى ومن لهفتها على التطلع إلىّ فقلت لها دون أن أسألها لماذا جاءت:

- وأين كتب أبى التى كان يرجع إليها فى صنعته؟

- يا حاسب كريم الدين.. ألا تذكر.. ألم أحك لك أنها غرقت فى البحر عندما سافر؟

- وماذا أستطيع أن أفعل بدونها؟

- لقد سافر وتركنى حاملاً وعندما عاد مات.. وتركتنا أنت، أنا وزوجتك، بلا رجل ولا مال، ويعلم الله ماذا تنوى أن تفعل بعد أن عدت.

- الأمر أمر الله.. ماذا تريديننى أن أفعل الآن؟

- جماعتك من الحطابين فى الغرفة يريدون الكلام معك..

وردنى الخبر الذى جاءتنى به إلى واقع الحياة وحساباتها العاجلة وفوجئت لا أعرف ماذا أقول أو أنتظر وهى تستعجلنى:

- هيا.. إنهم ينتظرونك من وقت وهم جماعة.

فظللت أقول لنفسى الأمر لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.. وقلت لها:

- توكلنا على الله.

وخرجت معها إليهم وكأننى أختار طريقا من طرق الكينونة لا أعرف إلى أين ينتهى وما الذى أريده من اختياره.

كانوا فعلاً جماعة وإن لم أَعُدهم. ألقيت عليهم السلام فردوه مهللين واقفين وبعضهم يقول قد عاد الشيخ الكبير.. ومرحبا بك يا وجه الخير.. مرحبًا بكريم الأصل كريم الدين.. يا مرحبًا بالوجه المنير والقلب الطيب.. ماشاء الله ماشاء الله.. حلت البركة والنعمة.. إنه والده يا أم حاسب رده المولى عليك..

وأظنهم كانوا سبعة. وتذكرت مماليك جانشاه وكل منهم يهز يدى ويقول كلمات الترحيب ورد السلام مبتسما متهللا وكأنهم يخفون حيلة أو يحسبون علىّ الوقت والأيام.

وصمتُّ أترقب بدء حديثهم لكنهم صمتوا هم أيضًا حتى تحرك شيخهم وتنحنح وقال:

- أين كنت يا حاسب؟

فقلت وأنا أريد ألا أختار بل أنتظر وأعزم فى نفسى على أن أسمعهم دون أن أتكلم..

- الله يعلم.. دعونا من هذا الآن وأخبرونى.. ماذا تريدون؟

- نحن لا نريد إلا الخير بإذن الله.. اعلم يا حاسب أن السلطان مريض فى غاية المرض ووزيره يحكم البلد بيد من حديد ويحاسب الناس على ما فعلوا وعلى ما لم يفعلوا..

يقلب ويفتش فى الأوراق القديمة وفى حسابات التجار ويريد أن يعرف الماضى وما جرى فيه لكل إنسان وكأنه قد أصبح المتحكم القهار فى حاضر الناس وما يجرى عليهم فى كل أوان.. وهو ساحر وصاحب علم وسلطان..

فلما وجدته يسترسل فى الحديث عن الوزير ولم أكن أعرف عنه شيئًا قلت مستوقفًا له:

– وما لى أنا الفقير الآن بالوزير والسلطان؟

فرد علىَّ واحد آخر منهم غير الشيخ قائلاً:

– نحلف بالله العظيم يا حاسب كريم الدين أننا لك من الصادقين.. لقد ذاع خبر رجوعك فى المدينة وبلغ الوزير وقد نصحنا التجار أن نُقدم لنستسمحك ونرضيك قبل أن يسألك الوزير وتشكونا إليه.

فقلت غاضبًا:

– أنا لن أشكو أحداً.. والشكوى لغير الله مذلة وكفانى ما لقيت منكم من شر وعناء..

ولم يفت روحى المتيقظة لما يجرى فيها وما يجرى منهم، أن تسألنى هامسة لى: وهل لقيت شراً وعناءً يا حاسب؟ فقلت لهم مكملا:

– لقد أخبرتنى أمى وزوجتى ببركم وعلىّ أن أحمد الله وأن أشكركم.

فقال لى ثالث هو أصغرهم سنًا وكان أقربهم لى يسابقنى ونلعب معًا ونحن نحتطب:

– أقول لك الحق يا حاسب.. لقد اجتمعنا منذ عرفنا بخبر عودتكم من عند ملكة الحيات وظللنا طول الليلة الماضية وسحابة هذا النهار نتداول الأمر حتى اتفقنا جميعًا على ما جئنا نقدمه لكم طالبين منك السماح والغفران..

فقلت لهم حذراً متلطفًا وأنا أذكر اتفاقهم على تركى وإغلاق الجب علىّ:

– وعلام اتفقتم بإذن الله.. كل ما أريد منكم أن تتركونى وشأنى..

فتدخلت أمى وكانت جالسة صامتة.

- لِمَ لا تسمع منهم يا حاسب؟

فعاد الشيخ الكبير يقول:

لقد أعددنا الأوراق ووقعناها مع القاضى.. وجئنا إليك وقد ترك كل منا نصف ماله ومماليكه حلالاً حراً لك على أن تعطينا، لكل منا، مخالصة تامة لكل ما كان علينا لك..

«وهذا من بعض إحسانك وقد صرنا بين يديك..»

فقامت أمى على قدميها واقفة تقول فرحة مهللة:

- مبارك يا حاسب.. مبارك..

وقامت تحضر لهم مع زوجتى أكوابًا من الشراب البارد الذى لا أدرى من أين جاءت به إلا إذا كانوا قد أحضروه معهم،ولم أدرك تماما ماذا أفعل أو ماذا يعنون وأنا أوقع على الأوراق صامتًا بعد أن يقدمها لى كل واحد منهم ويحييني بيده وبذراعيه معانقًا وينصرف الواحد منهم بعد الآخر وكأنهم قد ارتكبوا إثما يتخففون منه.

وسألتنى أمى:

- ما ستفعل الآن يا حاسب..

قلت لها فى هدوء وصبر واطمئنان لا أدرى مصدره.

- سأقوم لأصلى للوهاب.

وقمت على قدمى واقفا لأمنعها من الأسئلة الأخرى الكثيرة التى رأيتها تتجمع فى عينيها وعلى شفتيها والتفتُ إلى زوجتى الصامتة الحائرة وقلت لها بكل ما أستطيع من حساب ولطف:

- سوف لن أغلق الغرفة علىّ.. لكنى سأظل فيها حتى أختم القرآن ولا أريد أن ألقى أحدا فلا يدخل على أحد حتى أخرج لكما..

ومضيت مسرعا إلى الغرفة وسحبت نسخة القرآن الكريم التى تضعها أمى على المنضدة فى الغرفة التى اتسعت لكل هذا الجمع من الناس، وذهبت إلى غرفتى وأغلقت الباب

ووضعت المصحف على الفراش حتى أتخذ مجلسى للقراءة والتهجد ونظرت إلى الفراش فلم أجد الثوب الحريرى الذى تركته عليه وعندما أردت الخروج مرة ثانية لأسأل أمى أو زوجتى أين وضعاه تحسست قطعة المسك الكبيرة حول عنقى فلم أجدها أيضا.. فصمتت روحى صمتا كاملا تاما وكأنما قد استنارت بفهم ما لا يفهم أو كأننى أقرأ المكتوب. وجلست على الأرض مجلس القراءة واستعذت بالله من الشيطان الرجيم وسميت باسم الله الرحمن الرحيم وبدأت أتلو القرآن الكريم مستفتحًا بالمثانى السبع العظيمات.

(١٧)

الغسل بلا دنس ومهانة السلطان

ظللت فى غرفتى أيامًا طويلة لا أعرف عددها. أقرأ القرآن وأختمه وأعيد التلاوة والختمة وليس كالقرآن بلسم للروح وشفاء من القلق والاضطراب الذى وجدت فيه نفسى منذ تلك الزيارة الغريبة المفاجئة من أولئك التجار الكبار.

وبين الحين والحين كانت أمى أو زوجتى تدخل الغرفة فى صمت فلا تقطع علىّ القراءة وكأننى أصبحت رجلًا يخافانه ويهابانه فتضعان لى الطعام والشراب دون كلام لأتناوله وقت ما أريد، أو تغيران الماء وطست الوضوء.

وبدأت أرى فى الطعام أطايبه وفى الشراب رائحة الورد وعصائر الفاكهة. وبين الحين والحين تأتى أمى بأوراق لأوقع عليها ولتخبرنى بأن كذا وكذا من المال قد أتانا اليوم من الأملاك الفلانية أو التجارة السائرة.

وفى يوم من الأيام قالت لى أمى وقد نفد صبرها.

- ألم يئن الأوان يا حاسب أن تراجع الأوراق التى تركها التجار وأن تعرف ما لك وأن تخرج ولو بين الحين والحين لتفتش عليه ولتعرف الدخل والمنصرف.. إن المال السايب يعلم السرقة..

فأقول لها مقتضبًا مقطبًا:

- أمهلينى يا أمى.. وعندما يأذن الله سأخرج.

فتصمت أيامًا أخرى ثم تجرؤ علىّ مرة أخرى وتقول:

- ألا تختار لنا من أملاكك الجديدة بيتًا نسكن فيه غير هذا البيت الذى كاد يتهدم.. ألا تظننا فى حاجة إلى فرش وأثاث جديد..

فأقول لها فاقد الصبر:

- ألم أقل لك يا أمى أمهلينى.. عندما يأذن الله سأخرج.. لِمَ لا تخرجان معًا لتشتريا ما تريدان من الأسواق.. إنى أراكِ قد اشتريت ثيابًا جديدة لك ولها.

فتقول غاضبة مجمجمة:

- لقد بليت ثيابنا حتى أصبحت قديمة مهلهلة.. لكنك صاحب المال ورجل البيت، وحق الله عليك أن ترعى شئوننا.. وبعد كل هذه الغيبة..

فأفكر فيما تقول وأجد فيه الكثير من العقل والصواب لكنى لا أستطيع أن أجمع نفسى وأطوِّعها فأقول لها.

- وحياتك يا أمى أمهلينى قليلاً.. وعندما يأذن الله سأخرج..

فتخرج غاضبة وهى تضرب ما تحمل من طعام أو شراب على الأرض فى غلظة وخشونة وتتركنى لأنفرد بنفسى من جديد وتملؤنى الأفكار والأسئلة ولا أجد لها جوابًا يريحنى فأعود للقرآن من جديد حتى كدت أنسى ما حدث لى عند الملكة أو لم يعد يعاودنى إلا بين الحين والحين..

لقد تغير جسدى من طعام الأرض وشرابها وأصبحت أطلب الخلاء وأتمنى لو أننى أغتسل فى الحمام فأتذكر الوعد وأتذكر معه كل شىء وأعود إلى وحدتى وصمتى من جديد.. وتكررت مخاوف أمى على المال السايب وقالت لى:

- إننى لا أعرف كيف أحسب لك الدخل ولا من أين يأتى ومتى يأتى وماذا هو فإذا لم تمسك أمورك أنت يا حاسب فأنا منذ الآن لن أستلم شيئًا ولن أصرف شيئًا. وألقت لى على الأرض أكياسًا مليئة بالدنانير وأغلقت الباب بعنف وخرجت.

وقمت أزيح الأكياس من طريقى وأخرجت الصكوك التى تركها لى التجار ورحت أطالعها فهالنى قدر ما أملك وما يعنيه هذا من مكان وسلطان لى فى السوق.

وتساءلت بينى وبين نفسى هل سيفرض علىّ المال وأولئك التجار صنعة التجارة، وهل سأجد نفسى على الرغم منى تاجراً مثلهم، إن قدرة أصحاب الصنعة على أن يصنعوا أمثالهم قدرة لا تنتهى ولا أظنهم يسمحون لأحد أن يمنعهم من اصطناع تجار جدد فى

السوق ومن تشغيل أموالهم للربح والاتجار..

لكننى لا أريد لنفسى صنعة التجارة وأريد لها صنعة الطب والحكمة مثل أبى.. إنها صنعة أقرب لروحى ولما أجده فى نفسى من قدرة على التأمل الطويل والنظر والاعتبار. لكن كيف أُحصّل هذه الصنعة وأنا لا أملك حتى كتب أبى.

إننى أعلم فى داخلى الكثير مما لا أستطيع أن أرتبه أو أن أنظمه أو أن أستخدمه فى الصنعة.. فما علمت هو علم بالخليقة وسياحة فى الكينونة والروح لا أستطيع أن أداوى به الناس وإن كنت أعلم بأمراضهم فى الأبدان والأرواح.

يا سبحان الله، إننى فى الحقيقة لا أعلم على وجه الدقة ما أعلم وما لا أعلم.. ولابد لى أن أخرج إلى الدنيا لأحصل من الكتب والأطباء صنعة الطب التى أرضاها لنفسى ولا يمكن لى وأنا باق هكذا فى غرفتى أن أفعل ذلك. وقلت لنفسى إذا كان هذا أمر الله فى الدنيا فعلىّ أن أرضخ له. فالعلم والإرادة مقرونان بالعمل والعناء وقد خرجت من الجنة التى كنت فيها تريد فتعلم وتعلم فتريد.. لقد عانيت وبكيت كثيراً لكنه ليس كالعناء على الأرض والدموع التى تنتظرك فيها. فتحرك يا رجل واعبد الله بالصلاة وبالقراءة فى القرآن وبالعمل فى الدنيا لاكتساب الصنعة التى تريد.. وأحسست كأن هذا إلهام من الله أو من حلاوة القرآن فى فمى فعزمت على الخروج متوكلًا على الله وأخبرت أمى وزوجتى بعزمى فزغردتا فرحا وجاءتا إلىّ يشتركان معا فى إلباسى وتزيين شعرى وقص أظافرى ورش الطيب والعطور على بدنى وثيابى.. وخرجت.

وبمجرد أن خرجت من باب البيت أحسست أننى قد تغيرت تمامًا وأن الحال التى كنت فيها من الاطمئنان وحسن التدبير قد انقضت أو زالت عنى وحل محلها فزع وتخوف وشك وتردد كاد يبلغ حد التخبط أو على الأقل رحت أتهم نفسى بذلك.. كيف أقيس هذه الدنيا التى فيها بيت أمى وزوجتى بمطالبهما وأفكارهما التى لا تتعدى ما يسترهما من

جدار، والدنيا التى كنت فيها ومن كانوا فيها من رجال ونساء، حقًا إننى أتذكر أحيانًا لحظات أو مواقف من دنيا الملكة وأنا أعيش دنيا الناس، مثل ما فعلت وأنا أتذكر الشر الذى جرى علىّ من حيلة الحطابين أو تذكرى لمماليك جانشاه. لكن شتان بين حساب وحساب وما أبعد المعايير عن بعضها وما أكثر ضحالة المعنى فيما أرى فى الدنيا إذا قورن بنور المعانى فى عيون الملكة، وكدت أكتم صرخة فى داخلى وأنا أريد أن أنادى عليها أو أتطلع لأرى عيونها وأحسست لأول مرة هناك أو هنا أنى أريد أن أقول لها بصراحة وكامل الصدق.. يا حبيبتى أين أنت.. إننى أفتقدك وأحتاجك ولا أكاد أعرف كيف أعيش بدونك.. لماذا تركتنى أذهب إلى بلادى ولماذا لم تعرفى بحكمتك أننى لم أعد أصلح لذلك، وأن ذلك ليس هو ما أريد، ألست صاحبة المعرفة فوق كل المعرفة. ألست المدركة للحب الذى يمتزج بالموت فى الكينونة ليصبح انتظاراً وسياحة متصلة. لماذا حرمتنى من كل هذا وتركتنى أحرم نفسى.. ماذا ينتظرنى يا مليكتى وماذا علىّ أن أفعل؟!

كدت أتعثر فى خطوى وأقع وكأننى قد نسيت المشى على وجه الأرض وشوارع القاهرة مليئة بالحفر وبرك الماء الآسن وأنواع لا تنتهى من الوحل. كيف أرضى بهذه الدنيا وكيف أعيش فيها. وما الذى يجعلنى أتصور أننى أستطيع أن أتعلم من الدنيا أو أستطيع أن أتخذ صنعة لى. لقد كنت دائمًا بلا صنعة وكنت قادراً على اكتساب الصفة العظيمة عندما توصف لى. أما الآن فأنا لا أستطيع أن أكسب شيئا، حتى كل هذا المال الذى أتانى كان بفضل مليكتى وعن طريقها. فلو لم يخف هؤلاء البشر لما أعطوا وما قدموا لى ما عليهم من حقوق. إن البشر لا يعيشون إلا فى همومهم، ولا يعرفون سواها، وكل ما لهم من أخلاق وقيم صادر عنها وفى حدودها. ما كان أكبر همى بالكينونة وكم كنت كبيراً ملىء النفس وأنا أسعى وراءها.. فإلام أسعى الآن.. أن أحاسب من يسرقوننى؟ أن أراقب من يغشوننى؟ أن أتعلم ممن لا يعلم ويكذب على الناس بالعلم ويدعيه؟

ماذا فعلت بنفسك يا حاسب ولماذا قلت لها إنك تريد الذهاب إلى بلادك.. ها أنت هنا الآن فماذا أنت فاعل بنفسك. لماذا تكذب على نفسك وتقبل كذب الناس؟ لقد عرفت الصدق الذى ليس وراءه صدق لأنه وجود ورؤية وعرفت المعرفة التى هى عشق الوجود واعتناق المكتوب. لقد عرفت الإرادة الخالصة التى هى فعل خالص وعرفت الحب الذى هو تحقق المستحيل..

ماذا فعلت بنفسك يا حاسب وماذا تنوى أن تفعل.. هل كنت سعيداً؟ وهل أنت سعيد الآن. لا تحسبن أحداً سعيداً..

وطفرت الدموع فى عيونى فلم أعد أرى أين أضع قدمى، وأحسست كأن يدا تدفعنى أو تلكزنى بقصد أن أتعثر بحجارة الطريق حتى وقعت بملابسى المغسولة فى بركة ضحلة من الماء الآسن والوحل فى وسط الزقاق الذى كنت أتمشى فيه.

واجتمع علىّ الناس وعرفت أن الزقاق الذى كنت أمشى فيه هو زقاق الحمام الذى قالت لى أمى إن أبى كان يذهب إليه كل خميس وكانت ترسلنى إليه منذ كنت صغيراً، وسمعت صوت الحمامى يهتف قائلًا وسط زحمة الناس علىّ:

– سيدى.. وابن سيدى.. حاسب كريم الدين.. أين أنت.. ومن أين أتيت.. وما شأنك وإلى أين أنت ذاهب؟ لقد كنا ننتظرك منذ أيام عديدة.. لماذا تأخرت.. حمدا لله على سلامتك قم.. قم يا أخى فما أحسن المصادفة وإنها مكتوب.. «هيا تفضل علىّ بدخول الحمام وتكبس حتى أعمل لك ضيافة»

وقمت مفزوعا من ضيافته أنفض عن نفسى التراب والوحل وأحاول أن ألم شعث روحى التى كادت تتبدَّد وأنا أراه يعانقنى ويقبلنى مكرراً كلماته التى نادانى بها: سيدى وابن سيدى..

قلت له برغمى:

- «صدر مني يمين أني لا أدخل الحمام مدة عمرى...»

قال الرجل:

- أطال الله عمرك يا سيدى.. هل هذا كلام.. «نسائى الثلاث طالقات ثلاثا إن لم تدخل معى الحمام وتغتسل..»

- يا سيدى.. أعفنى.. أنا لا أستطيع.. أنا لا أريد.

- والله والله والله ثلاثًا، نسائى الثلاث طالقات ثلاثًا إن لم تدخل معى الحمام..

- «أترضى يا أخى أن تجعل الخطيئة فى رقبتى»

فارتمى الحمامى على رجلى وراح يقبلها وهو يقول:

- «أنا فى جيرتك تدخل معى الحمام وتكون الخطيئة فى رقبتى أنا..»

واجتمع علىّ عملة الحمام الذين نادى عليهم الرجل وخرج كل من كان فيه وتداخلوا علىّ ونزعوا عنى ثيابى وأدخلونى الحمام.

وبمجرد أن بدأ الماء ينسكب على رأسى وقد اشتركوا جميعًا فى ذلك أقبل علىّ عشرون رجلًا من عسس المدينة يحملون سلاحهم وقالوا لى آمرين:

- قم أيها الرجل معنا «إنك غريم السلطان».. وعندنا أمر من الوزير الأكبر أن نرسل له بمجرد القبض عليك.

ونشفوا جسمى بمناشف كان الحمامى يمسك بها ولبست ملابسى مسرعًا وهم يتعجلوننى وأجلسونى على مقعد خشبى وقالوا لى إن علىّ أن أنتظر حضور الوزير.. ورحت أبكى وأنا أنتظر وأقول لهم أنا برىء.. ولست غريمًا لأحد.. ولم أرتكب إثما.. وليس لى حقوق علىّ أحد، لكن الرجال التفوا علىّ بسلاحهم يحرسوننى ويمنعوننى من أية حركة وهم صامتون لا ينطقون وهم فى حيرة لا يعرفون ماذا يفعلون غير ما أمروا به.

وطال انتظارى والدموع تسيل من عينى وما لبث أن امتلأ الزقاق ضجة وطبولاً ودخل

علينا الحمام الوزير بشخصه وحوله ستون مملوكا من مماليكه. وإذا بحراسى يبتعدون عنى متأدبين ويتقدم لى الوزير وأنا جالس أبكى فيسلم علىّ ويرحب بى بلطف زائد وتلطف لا زيادة عليه ويُخرج للحمامى كيسًا من أكياس المائة دينار ويتناولها الحمامى دون أن يقول له شيئًا..

ولما وقفت أريد أن أسأل الوزير عن الخبر قال لى:

- سوف تعرف كل شىء.. تعال الآن معى.

وقدموا لى حصانًا فارهًا وحملونى على أن أركبه وقد أدركت أن لا معنى لأية مقاومة. وسرت فى ركب الوزير ومماليكه وحرسه حتى دخلنا إلى قصر السلطان. وعلى الرغم من أننى لم أر قصر السلطان من قبل فى حياتى كلها وما كنت أظننى سأدخله أبدًا إلا أننى كنت عاجزًا عن أن أتطلع أو أتحقق فيما أرى وكأننى فى حلم أو كابوس ثقيل. وحنّت روحى إلى مليكتى وقد تيقنت أننى قد نقضت العهد وأن علىّ مرغمًا مهانًا أن أنتظر. وقال لى الوزير ملاطفا:

- تقدم يا حاسب واجلس هنا بجانبى.

وأمر بسماط ممدود، عليه كل ما لذ وطاب وطلب منى أن آكل كى يأكل بقية الحضور وهو معهم فأكلت مرغمًا وأنا أمضغ الطعام وكأنه لحم ميت يسيل دمًا. فلما فرغوا من الأكل شربوا وغسلوا أيديهم وأنا أفعل ما يفعلون جالسًا لا أعرف ماذا أقول لهم أو ماذا يقولون حولى.

وقام الوزير من مجلسه فقام كل من حوله حتى أنا لكنه توجه إلىّ وقال لى بصوت يسمعه الجميع:

«نحن فى خدمتك فى كل ما تطلب.. ولو تطلب نصف الملك أعطيناه إياك لأن شفاء الملك على يديك»

وأخذنى من يدى وذهب بى إلى حيث يرقد السلطان فى فراشه الملكى وكشف عن وجهه فرأيته في غاية المرض حتى ظننته ميتا لكن الوزير يأخذ يدى ويقبلها قائلا:

- «نريد منك أن تداوى الملك والذى تطلبه نعطيك إياه وهذه حاجتنا عندك»

وتصورت أنهم يتصورون خطأ أننى طبيب مثل أبى الذى كانوا ولاشك يعرفونه، فقلت للوزير وأنا أحاول أن أحفظ لنفسى شيئًا من الوقار وأن أمسك دموعى:

- «نعم.. كان أبى طبيبًا بارعًا لكننى ما أعرف شيئًا من العلم فإنهم وضعونى فى صنعة الطب ثلاثين يوما فلم أتعلم شيئا من تلك الصنعة وكنت أود لو عرفت شيئًا من العلم وأداوى السلطان..»

فتغير صوت الوزير وكأنما كشر عن أنياب مفترسة وقال لى ناهراً:

- «لا تطل علينا الكلام، فلو جمعنا حكماء الشرق والغرب فلا يداوى السلطان إلا أنت..»

- وكيف أداويه وأنا لا أعرف داءه ولا دواءه..

- إن دواء الملك عندك.

- لو كنت أعرف دواءه لداويته.

- أنت تعرف دواءه معرفة جيدة، فإن دواءه هو ملكة الحيات، وأنت تعرف مكانها ورأيتها وكنت عندها..»

وعلى الرغم من أننى كنت أتوقع على نحو غير مفهوم أن اسم مليكتى سيأتى فى هذا الحوار، وعلى الرغم من أننى كنت أحسها وأراها فى عينى منذ أن سقطت أمام الحمام أو أسقطتنى الحيلة، إلا أننى لم أكن أنتظر كل هذا التقرير عن وجودى عندها وكأنه حقيقة عامة يعرفها كل إنسان. وتيقظت روحى تماما للدفاع عن نفسى، لكننى لم أكن أعرف ماذا أفعل إلا أن أنكر وأن أواصل الإنكار:

- «أنا لا أعرفها ولا سمعت طول عمرى بهذا الاسم»

أهكذا تنكرها يا حاسب وهى كل ما تعرف فى حياتك وكل ما سمعت طول عمرك؟ أهكذا تنكرها يا حاسب؟ ما الذى سيجرى عليك الآن وما الذى قالته لك وهى تطلب منك ألا تدخل الحمام؟ هل أنت سائر إلى بقية كلامها.. كيف أوقف كلام الرجل، كيف أخرج من هذا الموقف ومن هذا الوقت الذى أعيشه الآن فلا أحس إلا كأننى أعدو وأعدو دون أن أستطيع أن أقف وأننى سأقع من جديد فى بركة ضحلة لكنها من الدم هذه المرة.

- «عندنا دليل على أنك تعرف مكان ملكة الحيات، فلأى شىء تنكره. أرنا الموضع الذى خرجت منه وابعد عنا وعندنا الذى يمسكها ولا ضرر عليك..»

- «أنا لا أعرفها ولا سمعت طول عمرى بهذا الاسم»

- هاتوا عجوز الحطابين.. وعذبوه أمامه.. دعوا حاسب يرى كيف نعذب الناس لينطقوا وليعترفوا بآثامهم.

ولست أريد أن أذكر أو أرى مرة أخرى ماذا فعلوا بالرجل ومن أين جاءوا به لساعتهم والرجل يصرخ ويقول:

- لقد أعطيناه نصف أملاكنا.. وإذا أراد فليأخذها كلها.. أمه هى التى قالت.. ونحن قد تركناه عند مدخل جب نسيناه.

- أتريد أن تسمع أمك أيضًا وهى تعترف بما قلته لها.. إن كل نساء البلد يتحدثون عنك.. ويطمعون فيك وكأنك الرجل الوحيد فى المدينة.

ماذا يعنى هذا الشيطان الغريب الذى يعيش فى كل هذا السلطان على وجه الدنيا. لقد رأيت ما رأيت فى عالمى الذى كنت فيه فلم أر شيئًا من مثل هذا من قبل ولم أعرف موقفًا كالذى أنا فيه الآن. إن صراخ العجوز يصك آذانى وأتضرع للوزير:

- إنه شيخ عجوز.. اتركه.. سيموت الرجل.

ويتوالى الضرب على الرجل وهو ملقى على الأرض تركله الأقدام كلما قام والوزير يقول لى:

- أتريد أملاكهم كلها.. هل نأتى بهم جميعًا.. أم نأتى بأمك لتتكلم.. تكلم وقل لنا ولا ضرر عليك..

- «لا.. لا.. سأتكلم.. لكن دعونى وحدى أخلو لنفسى لأفكر وأتذكر.. لقد نسيت.

فخرج الوزير وكل من معه وجمعوا الشيخ من على الأرض جمعًا وألقوه بالخارج وتبقيت وحدى فى بهو الحكم أشعر بمهانة ما بعدها مهانة وبغيظ وازدراء لنفسى يكاد يشلنى عن كل تفكير.. كدت أصرخ وأصيح عليها أن تنقذنى.. قلت لها فى نفسى لماذا تتركينى وحدى هكذا.. وإلى متى سأظل فى هذه الوحدة.. ماذا فعلت أنا وماذا ارتكبت من آثام وأين السعادة التى كنت فيها تحت عينيك.. كيف أحسب حساب كل شىء وسلطان الرجل يفسد كل حساب ويضعه على هواه؟ ألم يكلف الحمامى أن يجعلنى أسقط أمامه حتى يدخلونى الحمام عنوة؟ ألم يخف الحطابين حتى نطقوا.. ألم يتلصص حتى على كلام النساء.. لماذا لا توقفين الزمن من أجلى.. لماذا لا ترفعين المكان؟ كيف أعيد الآن أو أحكى ما لا أريد أن أسمعه أو أراه.

ودخل علىّ الوزير بحاشيته من جديد مبتسمًا متهللاً وبدأ يلاطفنى ويقول لى هيا يا حاسب قم وأرنا الموقع.. وأشار إلى مماليكه فأتوا بخلعة مزركشة ألبسوها لى ووضعوا على رأسى عمامة عظيمة مزينة بالجواهر وفى قدمى نعلين جديدين وسلحونى بخناجر مزركشة فى وسطى ورأيت نفسى فى مرايا البهو فلم أعرف نفسى ولا أظن أن أمى نفسها ستعرفنى.

وفرح الوزير فرحًا شديدًا وهو يصدر أوامره لإعداد الركب الذى خرج فيه جميع أمراء السلطان وركبت إلى جانب الوزير أمامهم جميعًا، وما زلنا سائرين حتى وصلنا الجبل.. وترجلت فترجلوا جميعًا يتبعونى وقد تأخروا عنى خطوات حتى وصلت إلى المغارة

فاقتربوا منى عندما وقعت إلى الأرض باكيا وكأننى أناديها وتقدمت سائراً بمفردى حتى وصلت إلى البئر التى طلعت منها، وأنا أحس أننى سأموت الآن أو أنها حتى آخر لحظة قد تنقذنى وانحنيت ألثم الأرض عند سطح الجب وأنا أقول بصوت متهدج باك:

- هذا هو الجب الذى خرجت منه إلى وجه الأرض.

(١٨)
ارتكاب الإثم ورغوة المعرفة

أهـذا هو الـشعـور الذى يـحسـه كل مـن يسلمون من يـحبون. ما أفـظع هذا الشـعور وما أصعب عـذاباته. هل يمكن لأحد أن يصفـه أو يمسك به؟ إن المهانة التى يحـسها المرء فى نفسـه وقد فعل ما فـعل لا يعادلها أى عـذاب فى التعذيب. ومع ذلك يخـشى الإنسان على نفسه فيقع فى جحيم آخر لا قرار له. مـا أكثر أنواع الجحيم وصور العذاب والتعذيب على وجه الدنيا. لِمَ لم أحتمل العذاب من الوزير ولِمَ لم أقاوم أو أصمد. ويخترع الإنسان كلمات مثل المكتوب والمقدور كى يفتح لنفسـه بابًا للغفران، لكن من أين يأتى الغفران وقد اكـتملت المـهانة فى داخل النـفس وأصبحت هذه المهانة هى كل وجودها وما تعـيش فيه.. لو أنها تنقذنى.. لو أنها تقتلهم جميعًا.. لو أننى أموت.. لو أظل أضرب رأسى فى حجارة الجبل حتى يتفتت ويتوقف هذا الشعور والتذكر.

أمسكنى بعـض الحرس حتى لا أواصل ضـرب رأسى فى حجر الجـبل فتـوقفت أخلص نفسى منه وصممت على احتمال ما أنا فيه صـامتًا ساكتًا لا أتكلم، وأنا أرى عينيها وأسمع صـوتها العـسلى ولا أعـرف متى ينـتهى هذا كله ولا إلى مـاذا سـيصل. مـا أكـثر الصـور والأمانى التى تزدحم فى رأسى وما أكثر النهـايات التى كنت أريدها لهذه الحكاية غير هذه النهاية.

وقال لى الوزير ملاطفًا:

- هون عليك يا حـاسب.. فهذا كل مـا نريده منك.. سوف تصير عالمًا مـثل أبيك الذى عرفـته قبل أن تولد.. وقد علمنـى الكثير من علم الروحانى وأعـطانى نسخا من كتـبه التى غرقت فى البحر وفـيها قرأت عن ملكة الحيات.. وأنت ابن أبيك فـاصبر وانتظر.. وستنال كل ما تريد..

وأحسست بكراهيـة لأبى الذى كان يعرف مثل هذا الرجل أو علمه شيـئًا. وقلت لنفسى إن الوزير الشيطان يحـرمنى من كل شىء حتى ذكـرى أبى وورقاته التى ما زلت أحـملها.

فهل هناك جدوى لأى علم أو معرفة إذا كان لم يعلّم ابنه أو لم يترك له ما يُعَلّمهُ كيف يصمد ولا يخون وكيف لا يُسلم من يحب.. وهل هذا أمر يمكن أن يتعلمه الإنسان أم هو أمر مستحيل على وجه الأرض.

تذكرت عفان الذى كان مع بلوقيا وأطمعه فى خاتم سليمان وصحبه مثلى إلى مليكتى وعرفه مكانها، وقلت لنفسى: هل أصبحت عفان أم أنك بلوقيا الذى أحس بالندم؟

لكننى أشعر بما هو أفظع بكثير من الندم. إننى أقول لنفسى لو أننى لم أخرج من غرفتى.. وأننى لم أدخل الحمام.. لو أننى صمدت للتعذيب.. لو أننى احتملت المهانة..فهل هذا هو الندم؟. إننى ما زلت لم أرتكب إثمًا فهل أنا صائر إلى ارتكاب ما هو أفظع مما ارتكبت إلى الآن.. وماذا ارتكبت إن لم يكن إثمًا.. فما هو الاثم يا مليكتى فيما ارتكب وهل الخلف للوعد ونقض اليمين هو الإثم الذى ارتكبت.. أم أنه الكلام، والصدق فيما قلته لأمى.. وكيف كان يمكن أن أمنع نفسى من أن أقول الصدق.. ولهذه الأم التى انتظرتنى كل هذا الوقت.. أنا لم أرتكب أصلا إلا هذا البوح. هذا الصدق فى الروح من الاعتزاز والفرح والسعادة بما كنت فيه. وكيف يصبح التعبير عن السعادة إثما.. وهل الواجب على البشر إذا منحوا نعمة السياحة وراء الكينونة أن يصمتوا وأن يخفوا ما رأوا.. هل الإعادة للحكاية هى إذن الاثم... فما أكبر الاثم إذن فى كل ما أعدت وحكيت.. كيف يمكن أن أحجب المستحيل الذى عشته وهو بشارة وتعليم للبشر رغم ما هم فيه من جهل وقساوة وغلظة فى الوعى والشعور؟.

أنا على بابها واقف الآن لا أعرف أين هى ولا ماذا تفعل، ومن عندها، وماذا سيجرى عليها وعلىّ وأنا أقترب من جديد من حكايتها وحكايتى وكأنها لم تنته بعد ولم أخرج أنا على وجه الدنيا، ولم تنصع هى لرغبتى أن أذهب لبلادى. يا مليكتى كيف قبلت رغبتى وإرادتى وأنت تعلمين أن رغبتى ناقصة وإرادتى - كما علمتنى ظن.. أليس كل ما يحدث

الآن كـان فى علمك ومعـرفتك وكل جـريمـتي واثمى أننى الأداة والـوسيلة الـتى تبلغنى وتبلغك إلى مـا هو مكتـوب مـقرر.. وهل كـان فى إمكانى حـقًـا أن أمنع ما حـدث أو أن أعيقه.. وكنت كلمـا وصلت إلى هذا المعنى من الاستسلام والرضوخ أحـسست بما فيه من خيانة وكذب على النفس ورغـبة غير صالحة فى تبريرها فـأثور على نفسى من جديد وأود لو أعود من جديد لضـرب رأسى فى الحجارة والقضاء على هذا الخائن الواقف ببـابها بعد أن أسلمهـا، أو أريد لو أستطيع أن أقتل وأن أقضى علىَّ هذا الشـيطان الذى صحبتـه حتى بابها الذى كان علىَّ أن أحفظه مقدسا مصانا من الآثام وأن أحميه من الأقدام الدنسة..

يا ربى لِمَ لا ترحمنى وتنير طريقى لأعرف ماذا علىَّ أن أفعل، والوزير والحرس وكل من حوله يعرفون ماذا يعملون ومـا هم مقبلون عليه. أنا وحدى الذى أراد بكرم الروح وصدق النفس أن يملأ الناس بفرح المسـتحيل وأن يسعد بما نال من سعـادة.. لكن السعادة أصعب من المستـحيل لا تكتـمل ولن تكتمل إلا بالموت.. فلِمَ يكون للمـوت دائمًا توقـيت يجعل السعادة مستحيلة.. اقبضنى الآن يا رب فأنا ممن لن يعرفوا السعادة أبدًا..

وتلفت وقد شدتنى الحركة والجلبة التى بعثـها الوزير فى الجمع المجتمع حولنا من الأمراء والعسكر ورأيتهم ينصبون تحت توجيهه وإمرته محرقة يوقدون تحتها النار، والشيطان يلبس عباءة سوداء ويضع على الجمر الذى تأجج فيـه ومن تحته النار، أنواعًا من البخور وهو يتلو عزائم وأقساما لا أستطيع أن أتبينها، وينفث ويهمهم، ويمد يديه وذراعيه ويحركهما وكأنه ساحـر ماكر أو كـاهن عظيم. ما أغرب هذه القـدرة التى يملكها الرجل الشـيطان ويتمناها كل الناس وهم لا يعلمون خـطيئة الافتـتان بها.. وظل الرجل يجـدد البخور ويضع غـيره كلما فرغ وهو يتلو أقسامه وعزائمه ثم قال:

- «اخرجى يا ملكة الحيات..»

هكذا، نعم، اخرجى يا ملكة الحـيات وكأن الجـرم، كلما ازداد وفظع، كان بسيطًا مـوجزًا

ككل ارتكاب للإثم. «فإذا البئر قد غاض ماؤها وانفتح فيها باب عظيم وخرج منها صراخ عظيم مثل الرعد حتى ظنوا أن تلك البئر انهدت. ووقع جميع الحاضرين فى الأرض ومات بعضهم وخرج من البئر حية عظيمة مثل الفيل يطير من عينيها ومن فمها الشرر مثل الجمر وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمر مرصع بالدر والجوهر وفى وسط الطبق حية تضىء المكان، وجهها كوجه إنسان وتتكلم بأفصح كلام.. وهى ملكة الحيات..»

نعم، إنها هى، هى هى بوجهها المنير وطبقها الأحمر الذهبى، فمن أنا الآن ومن أكون ومن أين أتيت وإلى أين أنا ذاهب، وكيف أستطيع أن أحسب مكانى وموضعى وأنا لم أكن أتوقع أبدا مثل هذا اللقاء وسط هذا الجمع وفى تلك الغربة المضروبة على روحى لأننى تكلمت ونطقت باسمها.

تلفتت مليكتى «يمينًا وشمالاً فوقع بصرها علىّ» وكم كنت أود لو أننى مِتُّ ضمن من ماتوا أو سقطت فى البئر التى انهدت فلا ترانى أو تعرفنى. وكم ضرعت إلى الله أن تهملنى وأن تجعلنى نسيا منسيا، لكنها ظلت تتلفت حتى حصلت على عينى فلما ثبتتهما علىّ قالت بصوت مفزع كأنه عويل ليس فيه من شىء من صوتها العسلى:

- «.. أين العهد الذى عاهدتنى واليمين الذى حلفته لى من أنك لا تدخل الحمام.. لكن لا تنفع حيلة فى القدر..»

ولا أظن أحدًا من البشر يبلغ من جهل أو قساوة قلبه وغلظة وعيه وشعوره، فيعجز عن أن يعرف عواصف البكاء التى عصفت بوعيى وشعورى وأنا أسمع صوتها الذى صار حقًا مشاعا يسمعه الجميع ويرونها وهى تقوله. ولم أستطع أن أحول عينىَّ أو أخفضهما عن عينيها اللتين لم تكن فيهما الآن غير دموع تتساقط كالجواهر على وجنتيها اللتين ما زالت أصابعى ويدى ترتعش من ذكرى مسهما.

وكأن الشيطان السلطانى من طينة أخرى غير طينة البشر فقد تقدم ملهوفًا إلى الطبق

الذهبى ومد يده إليها ليمسكها.. فقالت له:

- امنع يدك، وإلا نفخت عليك وصيرتك كومًا أسود..

وخطر لى مـرة أخرى عفـان والرماد الذى صـار إليه، فقـلت صارخـًا وكأنمـا أنا حريص على الرجل أو أننى أريد فقط أن أسبه:

- ارفع يدك يا غبى.. تبت يدك..

ورفعت هى عينيهـا وما زالتا مليئتين بالدموع وقالت لى بصـوتها العسلى الذى سرى فى بدنى وكأنه أمر لا مرد له:

- «تعالَ عندى، وخذنى بيدك.. وحطنى فى هذه الصينية التى معكم.. على رأسك.. فإن موتى على يدك مقدور من الأزل ولا حيلة لك فى دفعه..»

أهذه براءة يا مليكتى وغفـران أم أنها تأكيـد للإثم ودفع لى، أنا المسكين المسلوب الإرادة والفكر، على الولوغ فيه وغمس يدى فيه حتى أعـمق أعماقه التى لا نهاية لها. كيف أفعل يا مليكتى ما تأمرين وأنا لا أستطيع أن أفعل إلا ما تأمرين. لقد نصبت قامتى وأحسست أن الأمـر الذى يميـزنى على كل البـشر قـد أعطانى مزيـداً من الطول والقوة وصـلابة الاتزان فوضـعت الصينيـة التى أحضـرها الوزير معـه على رأسى ورفعت طبـقك الذهبى دون أن أمسّك ووضعته كما كـان على رأس الحية فى الصينية التى على رأسى، وسرت راجلًا أتبع الوزير وقد ركب على فرسه وسـار متمهلاً، وكان يَعُد خطواتى ويحـرسها بمن جعلهم خلفى من جمع راجل وراكب.

ولما مضينا فى الطريق الطويل إلى المدينة بضع خطوات وأنا أفكر كيف تستطيع روحى أن تظللها من الشمس ومن حر صـحراء الجبال إذا بى أسمع صوتها يأتينى هامسًـا فلا يسمعه أحد غـيرى وللركب جلبة وقلوبهم وأسمـاعهم وأبصارهم جـميعهـا عليها غشـاوة الفتنة بالكسب والانتصار.

قالت لى وصوتها العسلى الهامس ينثال فى بدنى فكأنه يشربه قطرة قطرة ويحفظه فى وعيى وقلبى وكأنه محفور على لوح مكتوب:

– يا حاسب اسمع ما أقوله لك من النصيحة وإن كنت نقضت العهد وفعلت هذه الفعال لأن ذلك مقدر من الأزل.

– سمعا وطاعة، ما الذى تأمريننى به؟

– إذا وصلت إلى بيت الوزير فإنه يقول لك اذبح ملكة الحيات وقطعها ثلاثًا فامتنع عن ذلك ولا تفعل. وقل له أنا لا أعرف أن أذبح لأجل أن يذبحنى هو بيده ويعمل بى ما يريد، فإذا ذبحنى وقطعنى يأتيه رسول من عند الملك ويطلبه إلى الحضور عنده فيضع لحمى فى قدر من النحاس ويضع القدر فوق الكانون قبل الذهاب إلى الملك. ويقول لك أوقد النار على القدر حتى تطلع رغوة اللحم فخذها وحطها فى قنينة واشربها أنت فإذا شربتها لايبقى فيك وجع، فإذا طلعت الرغوة الثانية فحطها عندك فى قنينة ثانية حتى أجيء من عند الملك وأشربها من أجل مرض فى صلبى، ثم إنه يعطيك القنينتين ويروح إلى الملك. فإذا راح إليه فأوقد النار على القدر حتى تطلع الرغوة الأولى فخذها وحطها فى قنينة واحفظها عندك وإياك أن تشربها. وإذا طلعت الرغوة الثانية حطها فى القنينة الثانية واصبر حتى تبرد واحفظها عندك حتى تشربها. فإذا جاء من عند الملك وطلب منك القنينة الثانية فأعطه الأولى وانظر ماذا يجرى له. وبعد ذلك اشرب أنت الثانية فإذا شربتها يصير قلبك بيت الحكمة.. وبعد ذلك أطلع اللحم وحطه فى صينية من النحاس وأعط الملك إياه ليأكله فإذا أكله واستقر فى بدنه فاستر وجهه بمنديل واصبر إلى وقت الظهر حتى تبرد بطنه. وبعد ذلك اسقه شيئًا من الشراب فإنه يعود صحيحًا كما كان ويبرأ من مرضه بقوة الله تعالى. واسمع هذه الوصية التى أوصيك بها وحافظ عليها كل المحافظة..»

كانت الكلمات تنحدر من الصينية فوق رأسى فتنحفر كلمة كلمة فى قلبى وحافظتى

كأنها تنكتب فيهـا بقلم من الحديد المحمى، فأحفظها عن ظهر قلب وكـأنى قرأتها وأعدتها ألف مرة ومرة. وظللت صـامتًا أعيدها لنفسى فـأتخيل ما تقول إنه سيحـدث وكأنه حدث وأننى أعانيه وأشارك فيـه كما أمرتنى، وتلتهب رأسى ومشاعرى بثـقل الكلمات وما تحمله من قضاء وحكم، ومـا تطلبه منى من حيلة ومداراة لهذا الشيطان الراكـب أمامى حتى أكاد أنفجـر برغبتى - التى لم أعـرف مثلها من قـبل أبدًا - فى قتله والإجـهاز عليه فـأخنقه من عنقه البـارز أو أطعنه فى ظهره القابع على فـرسه بما سلحونى به من خنجـر حتى يقع على الأرض. وخشيت أن أتعثر فى الطريق وأن يسـقط من على رأسى حملى الغالى وخفت أن يكون هذا آخر ما أسمع من صوتها فكدت أصرخ عليها مناديا لكننى تنبـهت إلى حرصها على أن يكون صـوتها هامسًا وهى تكلمنى ومـا تعنيه كلـماتها مـن ضرورة الحفـاظ على الكتمـان وعدم البوح بشىء مما قـالت. فرحت أحادثهـا من بين أسنانى وأنا أكز عليـها من الغضب وانفجار الدموع وقلة الحيلة التى أحس أننى فيها:

- لِمَ يا مليكتى وأنت القـادرة العارفـة، لِمَ لا تقاومين وتحاربين بسلطانك هذا السلطان الجائر..

- اعلم يا حاسب أننى حاربت فـيك وفيمن كان قبلك بما فيـه الكفاية، وقد آن الأوان من أجلك للرضوخ والاستسلام..

وقد مسـتنى.. «اعلم» التى قالتها بمس من الرعـدة جعلنى غير قـادر على أن أفهم مرامى كلماتها. وكانت «اعلم» عندما تستخدمهـا تنير بصيرتى ووجودى وتجعلنى أكون ما تقول. فهل كـانت تحاربنى وهل أنا شـرير طاغ مثل هذا الوزير؟ وماذا تـعنى وهى تقول آن الأوان من أجلى للرضوخ والاسـتسلام.. من أجلى.. من أجلى أنا تموت وتتـرك نفسها؛ يذبحـها مثل هذا الهمجى المتوحش.

وصحت عليها من جديد وأنا أتكتم صوتى ودموعى:

- لم لا تحرقينهم جميعًا، كل هذا الركب، بنفخة واحدة؟

- لأنك يا حاسب فيهم وواحد منهم.

- وأنا أيضًا يا مليكتى.

- أنا أحبك، فلا أستطيع.

- وأنا أيضا أحبك.

- لكنك تستطيع.

- ماذا أستطيع يا مليكتى وأنا لا أستطيع شيئًا وبماذا أنا متهم الآن وكلى رغبة أن أحميك وإرادة أن أحطم كل شىء لخلاصك؟

- ألم أقل لك يا حاسب إن رغبتك ناقصة وإرادتك ظن.

- افعلى أنت إذن شيئًا.. أى شىء.. احرقى هذا الوزير وحده كما احترق عفان.

- إن له عقابًا آخر. لا تنسَ الوصية يا حاسب.

وصمتتْ لا ترد علىّ طول الطريق بعد ذلك وأنا أناديها ودموعى تسيل على ثيابى فتبللها والجو الحارق يحرق بدنى ورأسى وملابسى الثقيلة المزخرفة التى خلعها علىّ الوزير تكاد تكتم أنفاسى. وسرنا صامتين حتى وصلنا بيت الوزير وبدأ ما أوصتنى به، يجرى علىّ وعليها..

ليس فى مكنتى أو فى روحى قدرة على أن أعيد ما حدث فقد حدث كما قالت بالنص. إلا أن الوزير سبنى عندما تقاعست عن الذبح كما أمرتنى وأنا لا أنقطع عن البكاء:

- «يا ذاهل العقل كيف تبكى من أجل حية».

لكننى استطعت أن أمسك نفسى وأن أحاسبها على ضرورة الصمت والكتمان حتى شرب الرجل القنينة الأولى التى كان يقصد أن أشربها أنا.. فلم يُتم شرابها حتى سقطت من يده وتورم من ساعته ومات.

أما أنا فـقد تعلمت بعد هذا الذى جـرى لى وبعد أن شفى السلـطان وجعلنى وزيراً بدل الشيطان الساقط، أن أصمت ولا أتكلم، وعلى الخصوص ألا أحكى أو أعـيد مكتفيًا دائمًا بالمكتوب راضيًا به.

توكل حاسب كـريم الدين على الله وشرب مـا فى القنينة الثانيـة فلما شربه «فـجر الله فى قلبه ينابيع الحكمة وفتح له عين العلم وحـصل له الفرح والسرور.. ورفع رأسه إلى السماء فرأى السمـوات السبع وما فيهن إلى سدرة المنـتهى ورأى كيفية دوران الفلك وشـاهد هيئة البر والبحر وعرف علم النجوم وعلم الهيـئة وعلم الحساب وعلم ما يترتب على الكسوف والخسـوف وغير ذلك. ثم نظر إلى الأرض فعـرف ما فيـها من المعادن والنبات والأشـجار وعلم جـميع مـا لهـا من الخواص والمنافع واستنبط مـن ذلك علم الطب وعلم الكيـميـاء وعرف صنعة الذهب والفضة..»

وامـتلك حـاسب كريـم الدين صنعة الطب وصفـة السياحة وراء الكيـنونة التى لا تنتهى ولا حتى بالموت.

الرياض فى ٢٠ أبريل ١٩٨٩م

المراجعة اللغوية : **آمال الديب**

الإشراف الفني : **هشام نوار**

اجازة تفرغ

أوراق زمردة أيوب

إعادة حكاية حاسب كريم الدين







الغلاف: عدلي رزق الله